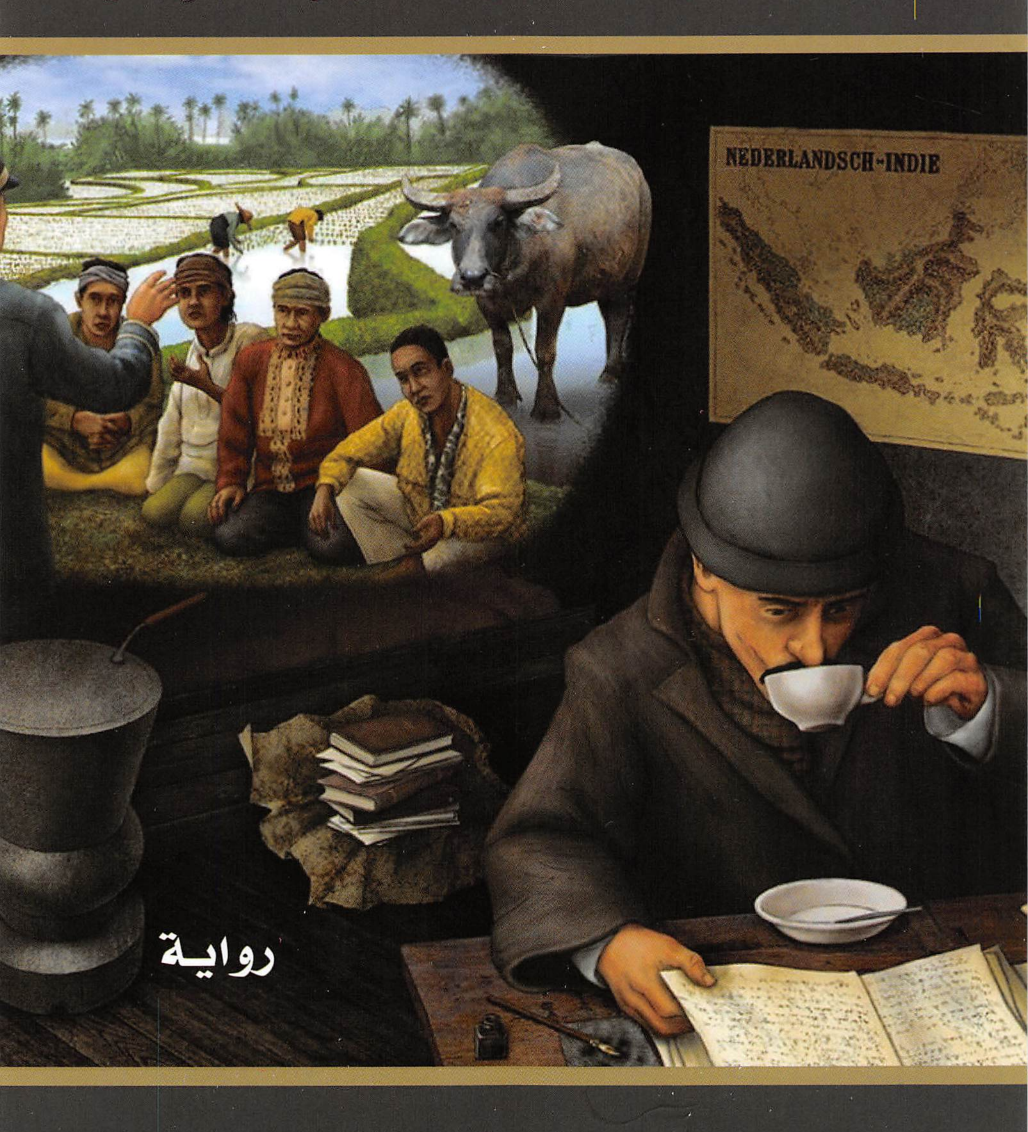
مُلْتاتولي

ماكْس هافِلار:
مزادات القهوة في شركة التجارة الهولندية



ترجمة

د. موسى الحالول

نبذة عن المؤلّف

وُلِد مُلْتاتولي، واسمه الحقيقي إدوَرد داوِس دِكّر، سنة 1820 في أمستردام، وكان أبوه قبطانًا بحريًّا. ذهب إلى جاوا سنة 1838 وعمل في شركة الهند الشرقية. دخل في خصوماتٍ كثيرةٍ مع رؤسائه لكن لم ينكر أحدٌ مؤهلاته المميزة، فارتقى في السلم الوظيفي سريعًا. في سنة 1846 تزوج البارونة إيفردينه فان واينبرخن التي تظهر باسم تينا في «ماكس هافلار». في بداية عام 1856، عُيِّن مساعدَ مقيمٍ في ليباك، لكنه استقال من كل وظائفه في شركة الهند الشرقية خلال ثلاثة أشهر، بعد أن فشل في إيقاف الانتهاكات التي يرتكبها متصرف ليباك الجاوي بحق الأهالي، كسلب ممتلكاتهم وقسرهم للعمل بالسُّخرة في حقوله. وحين لم تستجب له السلطات الهولندية، غادر ليباك في أعقاب الأحداث التي ترويها «ماكس هافلار» -التي نشرها سنة 1860 - لعله يرد الاعتبار لنفسه ويحقق العدالة للجاويين. أعقبت ذلك سنونٌ من الفاقة تنقَّل فيها مع أسرته في هولندا وبلجيكا وألمانيا. قضى مُلْتاتولي بقية حياته في سِجالٍ حول عددٍ من القضايا السياسية والاقتصادية، ومات ساخطًا ناقمًا في ألمانيا سنة 1887.

نبذة عن المترجم

د. موسى الحالول أكاديمي ومترجم سوري. دَرَسَ الأدب الإنجليزي في جامعة حلب، ثم حصل على الماجستير (1991) والدكتوراه (1995) في الأدب المقارن من جامعة پنسلڤانيا الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية. وهو حاليًا أستاذ الترجمة والأدب الإنجليزي في قسم اللغات الأجنبية بجامعة الطائف، المملكة العربية السعودية. له ترجمات عديدة من الإنجليزية منها: «أساطير الماوري وحكاياتهم الخرافية»، و«سنورا إدّا: ملحمة آيسلاندية»، و«أساطير النشوء الإفريقية»، وصدرت كلها عن مشروع «كلمة» في أبوظبي.

وله أيضاً ترجمة: «كتابٌ بين الركام: ملحمة جلجامش العظيمة، كيف ضاعت وكيف اكتُشفت» (القاهرة)، «المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي» 3 مجلدات (الكويت)، «النبوءة والرُّونيات: من الأدب الإسكندناڤي» (اللاذقية)، «خَفايا ما بعد الحداثة» (اللاذقية)، «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم» (الكويت)، «هكذا تَكَلَّم الڤايكنغ» (كوپنهاغن)، «حكايات إيسوب» (عمّان).

ماكس هافِلار: مزادات القهوة في شركة التجارة الهولندية

«ماكس هافلار» روايةٌ سِيَرية ساخرة يوثق فيها إدوَرد داوِس دِكَر معاناته الشخصية خلال عمله بصفة مساعد مقيم في ليباك في جاوا التي كانت في تلك الأثناء مستعمرةً هولندية. وقد اتخذ دِكَر لنفسه اسمًا أدبيًا هو مُلتاتولي ليعبر عن مكابدته ومرارته، حيث إن هذا الاسم يعني باللاتينية «لقد تحَمَّلْتُ كثيرًا». كان دِكَر يأمل أن يُعرَض عليه منصبٌ في إدارة المستعمرات يُعيد إليه اعتباره ويؤدي إلى تحسين وضع الجاويين. لكن حين رفض وزير المستعمرات الهولندي أن يعينه من جديد في إندونيسيا، كان لا بد من نشر الكتاب. وحين نُشرت الرواية سنة 1860 أحدثت جدالًا سياسيًا واجتماعيًا هائلًا، حيث انتابت جسدَ الأمة الهولندية «قشعريرةٌ» من جَرّائها، وأدت في نهاية الأمر إلى إصلاحاتٍ كثيرةٍ.
تُروى أحداث الرواية من منظورين متنافرين: في البداية نلتقي بسمسار القهوة الأمستردامي دروخستوپل الذي تستحوذ تجارة القهوة على كل تفكيره وأفعاله، ويدّعي أنه مخلص لعمله والحقيقة، لكنه في الواقع شخصية كاريكاتيرية. وتتضح سخرية المؤلف منه من خلال إعطائه اسم بَتافوس دروخستوپل الذي يعني «الهولندي المتحذلق» (باللاتينية والهولندية على التوالي). وحين يلتقي دروخستوپل بزميل دراسته القديم ماكس هافلار، وقد عاد للتو من جاوا فقيرًا مُعدمًا، نطالع منظورًا مختلفًا للأحداث. هذا المنظور نكتشفه في المخطوطة التي يطلب هافلار من دروخستوپل أن يساعده على نشرها. والمخطوطة، التي تُكذِّب رؤية دروخستوپل السطحية للأحداث، تروي قصة حياة شابٍّ مثالي يعمل في السلك المدني في الإدارة الاستعمارية الهولندية في جاوا وهو يحاول حماية الفقراء والمستضعفين الجاويين، من جور الزعماء المحليين والحكومة الاستعمارية الهولندية، فلا يُفلِح إلا في دفع الإدارة إلى إقالته.







السعر 70 درهماً





مُلْتاتولي

ماكْس هافِلار:

مزادات القهوة في شركة التجارة الهولندية

رواية

ترجمة

د. موسى الحالول

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PT5829.M3 E3125 2017

Multatuli, 1820- 1887

ماكس هافلار، مزادات القهوة في شركة التجارة الهولندية: رواية / تأليف مُلْتاتولي ؛ ترجمة موسى الحالول. - ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2017.

403 ص. ؛ 14 × 21 سم.

ترجمة كتاب: Max Havelaar, Or, The Coffee Auctions of a Dutch Trading Company

تدمك: 978-9948-23-287-2

1- القصص الهولندية- القرن 19.

أ- حالول، موسى. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النص الإنـكـليزي:

Max Havelaar: Or the Coffee Auctions of a Dutch Trading Company
By Multatuli

والمترجم عن الأصل الهولندي:

Max Havelaar: Of de Koffiveilingen der Nederlandsche Handelmaatschappy.



www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+



ماكْس هافِلار:

مزادات القهوة في شركة التجارة الهولندية

مقدمة الترجمة العربية

كل من ينقل عملًا أدبيًا من لغةٍ وسيطةٍ ثالثةٍ يدرك ما تنطوي عليه هذه العملية من مخاطر. منها أن فهمه للعمل مُرتَهَنٌ بفهم المترجم الأول للنص الأصلي. ثانيًا، هناك أمرٌ يتعلق بمصير بعض المفردات، ولاسيما أسماء العلم، حين تنتقل من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف. فعلى سبيل المثال، يُلفَظ اسم المؤنث الهولندي Gertie (گيرتي) بالإنـگـليزية، أما في الهولندية فيُلفَظ (خِيرتي). كذلك تُسمى العُملة الهولندية بالإنـگـليزية guilder (گِـلْدَر) بينما في الهولندية اسمها الحقيقي هو gulden (خُلْدِن). وذات الشيء ينطبق على فئة النقود المعدنية المعروفة بالهولندية باسم stuiver (ستاوفر) بينما تُكتَب بالإنـگـليزية stiver بتهجئةٍ ولفظٍ مختلفين. ولذلك كانت أبرز عقبةٍ اعترضتني في هذه الترجمة هي نقحرة[1] أسماء العلم في اللغة الأصلية. فكان لا بد من اتخاذ بعض الاحتياطات اللازمة لتفادي ما أمكن من المزالق. فمثلًا، لو اعتمدتُ على اللفظ الإنـگـليزي لبعض الأسماء الهولندية، لَشطَطْتُ كثيرًا عن الصواب. ونحن العرب نتفاجأ أحيانًا من المصير الذي تلاقيه بعض العبارات أو الكلمات العربية حين تنتقل إلى لغة أخرى. وسأكتفي بثلاثة أمثلة بسيطة للتدليل على مصير الأسماء حين تهاجر إلى لغة أخرى. فحين قرأتُ مقتطفاتٍ من سيرة عنترة بن شداد بالإنـگـليزية، ولم أكن قد قرأتها بالعربية بعد، وجدتُ فيها اسمَ مكانٍ غريبًا تهجيته هكذا Zatool Irsad. فكان من الطبيعي أن أقرأها «زَتُول

(1) مصطلح حديث يعني النقل الحرفي.

إرساد،» ولو قرأها قارئ غير عربي لا يعرف اسم المكان لَظن أن هذا هو اللفظ الصحيح. ولكن هيهات، فاللفظ الصحيح هو «ذاتُ الإرصاد.» وكلنا يعلم أيضًا كيف تَحوَّل اسم الزعيم الماليزي مَحَضير محمد إلى مَهاتير محمد نتيجةَ اللفظ الإنـگـليزي الخاطئ، أو كيف يكتب الصحفيون العرب اسم وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة «هيلاري كلينتون،» علمًا أن النقحرة الصحيحة هي «هِلَري كْلِنْتِن.»

وفي الرواية التي بين يدينا، لجأ المترجم الإنـگـليزي إلى ترجمة اسم شخصيتين في الرواية إلى الإنـگـليزية، بدلًا من أن يُبقيهما كما هما. الأول هو اسم Sjaalman (شالمان) الذي يعني «صاحب الوشاح،» ولذلك سمّاه تسميةً إنـگـليزيةً بحتةً Scarfman، أما أنا فقد أثبتُّ اسمه بالعربية هكذا «شالمان.» كما أصبح اسم Wawelaar (ڤـاوِلار) في الترجمة الإنـگـليزية Blatherer (أي، الثرثار أو المِهذار)، لكني آثرتُ أن أكتبه كما يُلفَظ بالهولندية «ڤـاوِلار.» وقد شرحت بين قوسين مربعين معنى اسم هاتين الشخصيتين عند أول ذِكرٍ لهما في الكتاب. ولهذا السبب، آثرتُ أن أستقي التسميات من اللغة الأصلية، وليتني استطعتُ أن أترجم الكتاب بأكمله من لغته الأصلية.

وقد كنتُ محظوظًا بمعرفة عَلّامةٍ أخذ بيدي في هذا العمل المضني. هذا الرجل هو الدپـلوماسي الهولندي د. نِكولاوس فان دام الذي يعرف، من بين اللغات التي يعرفها، أربعًا من اللغات التي تدور في فلكها هذه الترجمة: الهولندية (لغة الكتاب الأصلية)، والإنـگـليزية (التي نقلتُ منها)، والعربية (التي نقلتُ إليها)، والإندونيسية (التي يُرصِّعُ المؤلفُ كتابَه بكثيرٍ من مفرداتها). فإليه عُدت لمعرفة النقحرة الصحيحة لكافة المفردات الهولندية الواردة في هذا الكتاب، وهو الذي اقترح عليَّ أيضًا أن أقسّم بعض الكلمات الهولندية إلى مكوناتها الأصلية.

فاللغة الهولندية معروفة بأنها لغةٌ لَصْقِيَّة agglutinative، أي أنك تستطيع أن تأخذ كلمتين وتلصق إحداهما بالأخرى لتحصل على كلمة جديدة (طبعًا من غير تغيير للمعنى). على سبيل المثال، Mauritshuis مؤلفة أصلًا من اسمين هما Maurits huis+، ولذلك اقترح عليَّ أن أكتبها بالعربية هكذا: «ماوريتس هاوس،» وذلك تسهيلًا للفظها على القارئ العربي.

من ناحية أخرى، حين عَرضتُ جميع المفردات الإندونيسية على زميلي الماليزي د. محمد حسن زكريا، أستاذ اللغويات في جامعة الطائف، فاجأني أيضًا الفرقُ بين نقحرة الكلمات الإندونيسية في الترجمة الإنـگـليزية، ولفظها في اللغة الأصلية. على سبيل المثال، ورد اسم الثوب الإندونيسي المعروف في الإنـگـليزية بهذه التهجئة sarong، وبما أنني اعتمدتُ على اللفظ الإنـگـليزي، فقد كان من الطبيعي أن أكتبه هكذا «سارونـگ.» لكن د. زكريا شرح لي أن حرف g يُدغَم في الحقيقة مع n، ولا يكاد يسمعه غير الناطقين باللغات الإندونيسية كالملاوية والجاوية وغيرهما، ولهذا حذفتُ هذا الحرف المُدغَم من جميع الكلمات التي تنتهي بالحرفين المُدغَمين ng، واكتفيت بكتابتهما على السماع، أي، نونًا فقط. وفقدان بعض السمات الصوتية في النص الأصلي أمرٌ محتوم في الترجمة. وكذلك لفَتَ انتباهَه أن تهجئة بعض الكلمات الإندونيسية، كما وردت في هذا الرواية، تظهر التهجئة السائدة في القرن التاسع عشر حين كتب مُلتاتولي روايته، أي قبل توحيد الهجاء في القرن العشرين.

وتوخيًا للدقة، لجأتُ، في نَقْحَرَتي لأسماء العَلَم والكلمات الهولندية والإندونيسية الواردة في هذا الكتاب، إلى استعارة أربعة أحرفٍ من الفارسية، وذلك لافتقار اللغة العربية الفصيحة لهذه الأحرف، لتمثيل الأصوات غير المألوفة في العربية، ولاسيما في المكتوبة منها. وهذه الأحرف هي:

پ = p	ليس لها مقابل في العربية، لا الفصيحة ولا المحكية.
چ = ch	ويقابلها في العربية المحكية الكاف المُكَشْكَشة كما تُلفَظ في بعض نواحي الخليج العربي والعراق ووادي الفرات.
ڤ = v	ليس لها مقابل في العربية، لا الفصيحة ولا المحكية.
گ = g	ويقابلها في العربية المحكية الجيم القاهرية، أو القاف كما تُنطَق في منطقة الخليج العربي.

وهذا من حرصي على أن تُنطَق الكلمات المُنَقْحَرة نُطقًا صحيحًا. فبدلًا من أن أكتب اسم العلم Pieter هكذا «بيتر» (كما هو شائع في الكتابات العربية)، فقد ارتأيتُ أن أكتبه هكذا «پـيتر.» لكن هناك كلمات أجنبية راسخة في العربية، وإن كانت تُكتب بصورة مغايرة للفظها الأصلي، تركتُها كما هي، إذ ليس من الحكمة إعادة ابتكار العجلة. ومن هذه الرواسخ المتحجرة/ المُعَرَّبة: أوربا، باريس، إسبانيا، هنغاريا، إلخ.

كذلك اضطررتُ أحيانًا إلى إضافة شرح إلى حاشية المؤلف أو المترجم (في نهاية الكتاب)، وقد عمدتُ إلى تمييز إضافاتي هذه بوضعها بين قوسين مربعين بداخلهما نجمتان كما في إضافتي إلى الحاشية رقم 14 للتعريف بالرُّوندل، وهو نمط معروف نسبيًا في الشعر الفرنسي والإنـگـليزي، لكنه غير معروف لنا. فقلت: [*الروندل قصيدة مؤلفة من ثلاثة مقاطع، في كل مقطع ثلاثة أبيات، وتعتمد على القافية المتناوبة (أ،ب، أ، ب، وهكذا)، ويشكِّل مطلعُها خَرْجةً تتكرر في نهاية المقطعين الأول والثالث*]. وكذلك فعلتُ في إضافتي على الحاشية رقم 98 حين تحدث المؤلف عن السارون. هنا أردتُ أن أُقرِّب الصورة إلى ذهن القارئ العربي، بتشبيه السارون بما يقابله في ثقافتنا العربية، فقلت:

[*كالوَزْرة اليابانية تقريبًا*]. وقد اعتمدت هذا الرمز أيضًا في متن الكتاب، حين تدعو الضرورة لشرح مفردةٍ ما.

وفي هذا المقام، أود أن أسجل شكري وتقديري للقائمين على مشروع كلمة للترجمة في أبوظبي الذين كلّفوني ترجمة هذه الرواية، وخالص إكرامي للأصدقاء الذين ساعدوني في نقحرة الكلمات الهولندية والملاوية والإندونيسية نقحرةً صحيحةً.

موسى أحمد الحالول

الطائف 2016

مقدمة ر. پ. مايَر

نُشرت «ماكس هافلار» في أمستردام سنة 1860، فأثارت على الفور جدالًا حادًّا، وقد بقيت سجاليةً إلى يومنا هذا. ليس من السهل على المرء أن يجد روايةً من هذا الطراز لا تزال تقسِّم قراءها إلى معسكرين، إما معها أو ضدها، وتثير نقاشاتٍ عاصفةً بين أناسٍ معروفين بوداعتهم. وهذا الصدامات في الرأي ليست ناتجةً في المقام الأول من خلاف على القيمة الأدبية للكتاب، بل من مقاييس لا علاقة لها بالأدب. فمنذ سنة 1860 إلى اليوم تركَّزَ الجدال بالدرجة الأولى على مسألة الحقيقة (أو عدمها) في القضية التي طرحتها رواية «ماكس هافلار.» فالكتاب يطرح قضيةً، هي تقريرٌ عما حدث لإدْوَرد داوِس دِكَر، مساعد المقيم في ليباك، سنةَ 1856. وهي ليست طرحًا محايدًا لقضيةٍ، بل محاولةٌ من الكاتب لشرح أفعاله وتسويغها حين كان يشغل منصب مساعد المقيم في ليباك. ولهذا فإن الكتاب روايةٌ سِيَرَية، وهذا يعني أنه لا يمكن فهمها فهمًا سليمًا من دون معرفة الرجل الذي كتبها.

فمَنْ يكون مساعد المقيم السابق، هذا المؤلف المغمور الذي نشر كتابه بهذا الاسم الرومنسي المستعار الذي تنوح منه تباريح الشفقة على الذات «مُلتاتولي،» والذي يعني [*باللاتينية*] «لقد تحمَّلْتُ كثيرًا؟»

كان قد بلغ الأربعين من عمره حين نشر كتابه، علمًا أنه قد وُلِد سنة 1820 في أمستردام، وهو ابنُ قبطان بحري. ويبدو أنه ينحدر من أسرةٍ من الطبقة الوسطى ميسورةِ الحال إلى حدٍّ معقول. حين كان إدورد في الثانية عشرة من

عمره، التحق بالمدرسة اللاتينية في أمستردام لكي يصبح قَسًّا في الكنيسة، مثل أخيه الأكبر پـيتَر. لكنه لم يُكمل تعليمه في المدرسة، إذ غادرها بعد ثلاث سنوات لأسبابٍ مجهولةٍ. عَمِل في مكتب شركة للمنسوجات حتى بلغ الثامنة عشرة حين ذهب إلى إندونيسيا. لكن لماذا ذهب، أو أُخِذ، إلى إندونيسيا فغيرُ مؤكَّدٍ أيضًا. هناك قصةٌ تقول إنه أخذ مالًا من نثريات الشركة ليساعد صديقًا محتاجًا، وإن والديه انزعجا جدًّا حين افتُضِح هذا الأمر، وإن إدْوَرد قد طلب حينها أن يؤخذ إلى إندونيسيا لكي يبدأ حياته من جديد. إنها قصة جميلة، ومفيدة، إذ تُرضي الطرفين: أنصارَ مُلتاتولي وخصومَه. فخصوم مُلتاتولي يُهلِّلون لها فرحًا، لأنهم يرون فيها أول كارثةٍ ماليةٍ من بين كوارث كثيرة عصفت بِذِكَره، أما أنصاره فيقولون، «ولكنه فعل ذلك لمساعدة صديق.» إنها قصة جميلة، ولكن الدليل على صدقها واهٍ جدًّا للأسف. أيًا كان الأمر، ذهب إدورد إلى إندونيسيا، على متن سفينة أبيه، وكان أخوه يان هو مساعد القبطان. لا نعرف الكثير عن رحلتهم، باستثناء طُرفةٍ بسيطةٍ تعطينا فكرةً عن إدورد في شبابه. في أحد الأيام كان أخوه يان يتحدث عن مشاق تسلُّق الصاري، فقفز إدورد فجأةً وتسلق الصاري إلى أعلاه، مع أنه كان دائمًا يعاني الأمرَّين من رهاب المرتفعات والدُّوار. تتصل هذه الطرفة بأخرى تشير إلى أحد أيامه الأولى في إندونيسيا. كان إدورد ويان يُبحران في يخت قرب جاكرتا، وكان يان يحذِّره لئلا يسقط في الماء. وأخيرًا طفح بصاحبنا الكيل، وطلب من يان أن يكف عن مضايقته، وإلا سيقفز إلى الماء. قال له يان، «لن تجرؤ على ذلك، فالمكان مليء بأسماك القرش.» فقفز إدورد في الماء. استغرق الأمر مدةً قبل أن يستدير القارب وينتشله، وحين صعد إدورد على متن القارب من جديد، وبّخه يان توبيخًا شديدًا لطيشه. فقفز إدورد ثانية في الماء. يفترض المرء أن يان سكت بعد ذلك. لا بد من الحذر طبعًا

من تضخيم هذا النوع من الطُّرَف، ولكنها تدل على أن دِكَر في شبابه كانت له طبيعةٌ مستقلةٌ ومتمردةٌ، وكان يمتعض كلما تكلم إليه أحدهم بفظاظة.

وبعد وصوله أصبح موظفًا في مكتب المراقب العام للحسابات . كان مخلصًا في عمله، وقد نال تقدير رؤسائه عمومًا، فترقى سريعًا. في تلك السنين الأولى في إندونيسيا هامَ بفتاةٍ تدعى كارولين فيرستيخ. أراد أن يتزوجها، لكن حالت دون ذلك عقباتٌ كثيرة. أولًا، كانت هي من الروم الكاثوليك، وهو لم يكن كذلك، وقد صرَّحت له أنها لن تتزوجه ما لم يعتنق مذهبها. كان يهيم بها حبًّا، فاستسلم. راق هذا الأمر كارولين، لكنه لم يرُق أباها الذي لم يُرِد أن يكونَ دِكَر صهره حتى بعد اعتناقه المذهبَ الكاثوليكي. كان يصادر رسائله إليها لأنه، كما كتبت هي، «سمع عنك أخبارًا سيئة.» عندئذٍ أراد دِكَر أن يعرف ماذا يعرفون عنه، ويبدو أنها قد تلقت هذه الرسالة، حيث ردَّت قائلةً، «تريد أن تعرف ماذا سمعنا عنك: أولًا، يبدو أنك لا تكترث كثيرًا للمال، ولاسيما حين تلعب البلياردو. لا بد أن محفظتك مليئة جدًا إذا كانت عندك القدرة على خسارة 100 خولدن كل أسبوع. علاوةً على ذلك، لقد تشاجرتَ مع أحدهم. وأُفَضِّل ألا أقول أكثر من هذا، وعليك أن تفهم مدى انزعاج بابا من هذا الأمر ... مع أنني متأكدة أن كل شيءٍ مُبالَغٌ فيه ومضخَّم، ويؤلمني جدًّا أن أسمع عنك هذه الاتهامات.» إذن، كان دِكَر مقامرًا ومشاكسًا، ولم يُسمَح له بالزواج من حبيبته كارولين. ولعل الوُشاة كانوا على حق. فهناك أيضًا قصصٌ لاحقة عن شجاراته - في إحدى المرات أُخِذ إلى المحكمة وأُدين بسبب مشاجرة - وهناك أدلةٌ كثيرةٌ على أنه مقامرٌ مُدمن. لكن لا يبدو أن هذا كله أقلق الإدارة كثيرًا، حيث عُيِّن بعد سنةٍ، في 1842، مديرَ منطقةٍ في ناتال على الساحل الغربي لجزيرة سومطرة. وحتى لو أدركنا أن الترقيات كانت سريعةً عمومًا، وأن الساحل الغربي لسومطرة كان

مكروهًا بسبب السمعة السيئة للحاكم، الكولونيل ميخيلس، إلا أن مسيرة دِكَر المهنية كانت سريعةً بالنسبة إلى شابٍّ في الثانية والعشرين من عمره بلا تعليم يُذكَر أو تدريبٍ مُعَيَّن.

كانت إقامته في ناتال عاثرة الحظ، وقد بدأت بدايةً مشؤومةً حين تحطم مركبه الشراعي في مرسى السفن، فواصل طريقه سباحةً. كانت ناتال مكانًا صغيرًا، ومهامه فيها متعددة: فقد كان هو مديرُ الشرطة والقاضي، ومدير الأحوال المدنية، ومدير البريد، ومدير مخازن الملح والأرز، وجامع الضرائب، ودلّال المزادات العلنية، وبضعة أشياء أخرى. وعلى الرغم من صغر المكان، إلا أن تراكم هذه الوظائف جعل ضبط الحسابات مسألة معقدة، ولاسيما بالنسبة إلى رجلٍ فُطِر على كل شيء إلا ضبط الحسابات. لم تَجْرِ الأمور على ما يُرام، ما حدا بالحاكم ميخيلس سنة 1843 إلى توقيفه عن العمل، بسبب مخالفاتٍ في حساباته والاشتباه بعملية احتيال. كانت الشبهة أنه اختلس حوالي 2000 خولدن. أوقِف عن العمل، وأُوقف راتبه إلى حين الانتهاء من التحقيق. استمرت هذه الحال حوالي سنة، ولعل هذه كانت أسوأ سنة في حياته، وفي هذه الأثناء انقطع دخلُه، وعاش فقرًا مُدقعًا. وحين صدر الحكم النهائي، تبين أنه ارتكب خطأً لا يمسّ النزاهة بأي شكل من الأشكال. فَرُدَّ إليه اعتباره وعيِّن، بصفةٍ مؤقتةٍ، للقضاء على الفوضى في إدارة مساعدٍ مقيم في جاكرتا أدمن على الكحول. وعلى الرغم من مثالب دِكَر في ضبط الحساباتً، لكنه كان فيما يبدو إداريًا جيدًا فيما سوى ذلك، حيث تلقى إشادةً ممتازةً حين انتهت مهمته. وبعد ذلك احتل مناصب إدارية في أماكن مختلفة. في هذه الأثناء تزوج من البارونة إيفردينه فان واينبرخن، وذهبا معًا إلى پـوروُورجو، محطته التالية، ثم إلى مَنادو وأمبوُينا. لا يوجد شيءٌ كثيرٌ يُقال عن خدمته في تلك الأماكن، لأننا لا نعرف عنها الكثير. وأهم شيء

نعرفه هو أن التقارير الرسمية كانت تُشيد بكفاءته ومثابرته وذكائه، ولكنَّ له عقلًا مستقلًا وشخصيةً غريبةَ الأطوار. وعمومًا، كان رجلًا يُتوقَّع منه الشيء الكثير، ليس من قِبَلِه فحسب، بل من رؤسائه أيضًا.

بعد خدمته في أمبوُيْنا استحق إجازة سنتين في أوربا، فغادر إلى هولندا سنة 1852. إن صحَّت جميع القصص عن إجازته، فقد قضى وقتًا عصيبًا جدًا، حافلًا بالمغامرات واللهو وارتياد دور القمار، حيث فقد كل ماله وغرق في الديون، على الرغم من المنهج الذي لا يخطئ، حسب رأيه، في لعب الروليت. لم يرغب في العودة إلى إندونيسيا قبل أن يسترد خساراته المالية، إما من خلال تحقيق انقلابٍ كبيرٍ في الروليت، أو من خلال حل لغز فقدان ملايين زوجته. تمكن من تمديد إجازته لأكثر من سنة لكنه لم ينجح في أيٍّ من المحاولتين. وأخيرًا اضطر للعودة، فوصل جاكرتا في النصف الثاني من عام 1855. وبعد بضعة أشهر، في كانون الثاني 1856، عُيِّن مساعد مقيمٍ في ليباك، في غربي جاوا، التي وصلها في نهاية ذلك الشهر.

كان تعيينه في ليباك غير عادي، إذ تم من غير استشارة مجلس الهند الشرقية الذي كان دائمًا يضع تزكياتٍ في مثل هذه التعيينات. أما دِكَر فقد عيَّنه الحاكم العام، بصرف النظر عن توصية المجلس. كان الحاكم العام، السيد دايمار فان تْويست، يعرف دِكَر شخصيًا، وقد أثار إعجابَه بسبب اهتمامه بمصالح الأهالي الإندونيسيين. كان تعيينه غير عادي ومهمًا أيضًا، لأن ليباك كانت معروفةً بأنها منطقة صعبة. فهي منطقة فقيرة، وكان معروفًا أن أحد الأمراء المحليين يضطهد السكان، مع أن هذا لم يثبت بشكل رسمي. كان سلفُ دِكَر يعلم هذا، فانشغل بجمع الأدلة لتقديم شكوى رسمية ضد الأمير، وهو المتصرف، الذي يبدو أنه هو المتهم الأكبر. لم يتمكن سَلَف دِكَر في ليباك، السيد كارولِس – المعروف باسم

سلوتيرِنـگ في الرواية - من طرح القضية رسميًا أمام الإدارة، حيث مات قبل أن ينتهي من تحقيقاته. لكنه كان قد تحدث عنها إلى المقيم، السيد برِست فان كِمـپـن - الذي يظهر في الكتاب باسم سلايميرِن - ويبدو أنه لم يحظَ منه بدعم يُذكَر. هكذا كان الوضع الذي وجد دِكَر نفسه فيه، وهذا أيضًا هو الوضع الذي تقع فيه سلسلة الأحداث التي تشكل متن رواية «ماكس هافلار.»

حين وصل دِكَر إلى ليباك ظنَّ أن الحاكم العام بذاته قد أرسله لتنفيذ مهمة خاصة: هي إعادة الأمور إلى نصابها، وإزالة القمع الذي يعاني منه السكان. لقد وصل إلى ليباك ينتابه شعورٌ رومنسي كيخوتي أنه هو حامي الفقراء المُجتبى. شعر بأنه يُنتظَر منه الفعل، وأنه إن لم يفعل فسيخون ثقة الحاكم العام. فبدأ من حيث انتهى كارولِس، وبدأ يحقق في إساءة استخدام السلطات التي يَشْتبه بأن المتصرف متورطٌ فيها. كان قد جمع بعض الأدلة حين سمع من زوجة كارولِس أنها مقتنعة أن زوجها لم يمت ميتةً طبيعيةً، بل دُسَّ له السُمّ بأمرٍ من المتصرف. كل هذه الأشياء مجتمعةً - الأدلة التي وجدها في ملفات كارولِس، والأدلة التي جمعها هو شخصيًا، وشبهة أن كارولِس قد مات مسمومًا، والخوف من أن يكون المستهدَف التالي في عملية تسميم ينفذها المتصرف - دفعت دِكَر إلى تقديم دعوى ضد المتصرف بعد شهرٍ بالضبط من وصوله إلى ليباك. ونظرًا لِقصَر المدة رأى المقيم أن الدعوى تتسم بالعَجَلة وقلة التروّي، فطلب من دِكَر أن يسحبها. فرفض دِكَر ذلك، وحين تبين له أنه لن يحظى بأي دعم من المقيم، تجاوزه، وخاطب الحاكم العام. كان هذا الأمر غريبًا جدًا، لكن لا بد أن دِكَر ظن أنه تربطه بالحاكم العام علاقةٌ مميزة. كان الحاكم العام يعرفه وكان إلى حدٍّ ما حاميه، فهو الذي عيَّنه بطريقةٍ مخالفةٍ للعُرف. ولهذا ظن دِكَر أن بإمكانه أن يُفاتح الحاكم العام بذات الطريقة غير المألوفة. كما شعر أيضًا أن الحاكم العام

سيوافقه الرأي، ويسانده ضد ضعف المقيم. لكنه كان مخطئًا تمامًا. لم يحظَ بأي مساندة، بل على العكس، فقد وُبِّخ توبيخًا شديدًا على أفعاله. وقد أوصى مجلسُ الهند الشرقية بفصله من العمل، ولكن الحاكم العام خفّف الصفعة بأن أعفاه من وظائفه في ليباك، ونقله إلى منطقة أخرى. وبعد قليل من التردد قدَّم استقالته. ومن الرسائل المتبقية لدينا يبدو أنه كان في البداية ميالًا لقبول النقل حين تلقى إخطارًا بذلك. ولكن حين وصلت الدفعة الثانية من بريد ذلك اليوم نفسه، تلقى رسالةَ تعقيبٍ من الحاكم العام، يوبخه فيها توبيخًا شديدًا بسبب «العجلة غير المسوَّغة والافتقار إلى الحذر» كما يعبر فيها عن شكوكه في صلاحية دِكَر لشغل أي منصب في الإدارة. وحين تلقى دِكَر تلك الرسالة، كتب رسالة استقالته، وهو في غاية الصدمة، فيما يبدو، لأن الخط الذي كُتِبَت به مسودة الرسالة المحفوظة يتضح فيه التوتر والعجلة، وهذا بخلاف المعهود في أسلوبه. وبعد خمسة أيام تلقى ردًّا أن استقالته قُبِلت، وبعد أسبوعين من ذلك غادر ليباك إلى جاكرتا. وقد بلغ إجمالي المدة التي أمضاها هناك أقل من ثلاثة أشهر.

ولكن في الحقيقة لم ير دِكَر أن استقالته نهائية. فقد كتب رسالة إلى الحاكم العام يطلب مقابلته. في تلك الرسالة طلب أن يُمنح فرصةً لشرح أفعاله وتسويغها. ولكنه لم يتلقَ إلا ردًّا سلبيًا على رسالته هذه. كان الحاكم العام يستعد للعودة إلى هولندا، وبالتالي فهو مشغول لا يستطيع استقباله. حاول دِكَر ثانيةً، ولكن هذه المرة من خلال سكرتير الحاكم العام الذي كان يعرفه. أُفهِم حينها أن الحاكم العام كان يعاني من دُمَّل في قدمه، ولا يستطيع استقباله. فحاول دِكَر من جديد، فقيل له: إن الحاكم العام مشغول ولا يستطيع استقباله. وأخيرًا، وعشيةَ مغادرة الحاكم العام، كتب له دِكَر رسالةً انفعاليةً، مليئةً بمرارة النقمة واليأس، يخبره

فيها، من بين ما يخبره، أن المدخرات التي سيعود بها إلى وطنه ملطخة بالدماء. إن كان دِكَر يظن أن هذه الطريقة يمكن أن تغير رأي الحاكم العام، وأنه يمكن أن يصدمه بطريقةٍ تجعله يتعاطف مع قضيته، فقد كان مخطئًا كما أخطأ من قبل. إذ لم يتلق جوابًا. وفي صباح اليوم التالي غادر دايمار فان تْويست عائدًا إلى بلاده. كانت رسالة دِكَر الأخيرة هذه عملًا أدبيًا أكثر من كونها طلبًا لبقًا لمقابلة، ولكن دايمار فان تْويست، في نهاية الأمر، لم يكن ناقدًا أدبيًا، بل تعوّد على أن يخاطَب بلغة مختلفة. لكن بصرف النظر عن هذه الرسالة الأخيرة، لا مجال لإنكار أن دايمار فان تْويست فوَّت على دِكَر بشكل متكرر فرصةَ شرحِ ما جرى، ورفض بصورة متكررة أن يستمع إليه، وهو الذي كان قد عيَّنه واصطفاه بنفسه لهذا المنصب بالذات، وها هو الآن يخذله، ويتخلى عنه تمامًا. فحتى أولئك الذي ينتقدون دِكَر بسبب أفعاله في ليباك عليهم أن يُقِرّوا أن دايمار فان تْويست أظهر علاماتٍ لا مراءَ فيها من الجُبن الأخلاقي، حين تعمَّد أن يتجاهل دِكَر في أيار سنة 1856.

بعد أن غادر الحاكم العام، بقي دِكَر عامًا آخر في جاوا يبحث عن عمل، ويضع خطة بعد أخرى، يفكر في افتتاح شركة، أو الاستقرار في مزرعة، لكن من غير جدوى. عندئذٍ قرر أن يعود إلى أوربا. تجول هنا وهناك، في فرنسا وألمانيا. لا نعرف الكثير عن هذه الفترة من حياته، لكن يبدو أنه كان يمر بأوقاتٍ عصيبةٍ كالتي مرَّ بها في أثناء إجازته الأوربية. على سبيل المثل، هناك قصة أوجيني التي أعتقها دِكَر من الماخور الذي كانت مقيدة فيه، فتبعته مدةً. وحين افترقا، أعطاها مالًا لكي تبدأ حياتها من جديد. مضى دِكَر في سبيله، إلى نادي القمار في هومبورگ حيث خسر كل شيء، وتحمل ديونًا هائلة. لم يكن أمامه من خيارٍ سوى أن يتصل بأوجيني ثانيةً ويسألها إن كان بإمكانه أن يستعير المال الذي كان

قد أقرضها إياه. وفي سنين لاحقة سيتذكر بكثير من الرِّضا كيف سددت ديونه بسخاء وافتخار بالمال الذي أعطاها إياه قبل بضعة أيام فقط. هناك طرائف أخرى عن فترة أسفاره، لكنها تكاد تكون كل ما لدينا. وفي النهاية نسمع أنه استقر في بروكسل. كانت زوجته قد غادرت إندونيسيا وأقامت مع أقربائها في هولندا لأسبابٍ مالية. وهذا الفراق بين دِكَر وزوجته كان من حسن حظ المؤرخ الأدبي لأنه كتب إليها عددًا كبيرًا من الرسائل التي ما كان لها أن تُكتَب لولا ذلك ومنها نستطيع أن نعيد تركيب فترة حياته التي تسبق فترة كتابة «ماكس هافلار» مباشرةً.

بدأ الكتابة في بروكسل. وحين أقول «بدأ الكتابة» فأنا أعطي انطباعًا خاطئًا، لأنه كان قد كتب من قبل. فخلال كفٍّ يده عن العمل في سومطرة، كان قد كتب مسرحية. وقبل ذلك كان قد كتب يومياتٍ خياليةً. وكتب بضع قصائد. وعلاوةً على ذلك، فقد كان دائمًا كاتبَ رسائل عظيمًا. ولطالما راودته فكرة أن يصبح كاتبًا. وخلال إجازته الأوربية كان قد عرض مسرحيته على ناشر، وسأله إن كان يرى فيه مؤهلات الكاتب. لم يكن الجواب الذي تلقاه في حينه مشجعًا، ولكنه الآن بدأ في بروكسل يعيد كتابة مسرحيته، وهو عازمٌ عزيمةً لا تتزعزع على أن تُمَثَّل وتُنْشَر. ثم، وفي ذات الرسالة التي يُخبر فيها زوجته أن المسرحية اكتملت ونُسِخت وجُلِّدت، يخبرها أيضًا، وللمرة الأولى، أنه أيضًا يعكف على كتابة كتابٍ. يقول: «منذ أيام وأنا أكتب شيئًا قد يصل إلى ثلاثة مجلدات. وما أكثر ما غيّرت رأيي عن هذا العمل وأنا أكتبه. هناك لحظاتٌ أكون فيها راضيًا جدًا عما أكتب، ثم يعاودني الإحساس من جديد أن كتابتي لا تستحق إلا التمزيق. أعتقد أن لدي ما يعادل حوالي مئة صفحة مطبوعة جاهزة. لكن للأسف أنا شخصيًا لا أعرف إن كان لعملي أي قيمة. في غالب الأحيان يبدو

تافهًا، وفي بعضها لا يبدو كذلك.» هذا الارتياب بقيمة ما يكتب سيظل ينتابه إلى وقت طويل. كان يُطلِع زوجته باستمرار على نجاحاته وإخفاقاته، على آماله وإيمانه أن هذا الكتاب سيُخرجهم مما هم فيه من بؤس، وأن الملك سيُنصفه (إذ كان ينوي أن يجعل الإهداء في الكتاب إلى الملك)، وعلى خشيته أن يكون الكتاب تافهًا. أخبرها عن الظروف التي كان يكتب فيها، وعن كفاحه ضد الجوع والبرد والقمل. كتب لها أن هناك أيامًا يكتب فيها بسرعة، وفي أيام أخرى لا يكتب صفحةً واحدةً. هذه العبارة الأخيرة مفاجئة، لأنه إذا جمعنا ما لدينا من أدلة يتبين لنا أنه كتب الكتاب خلال أربعة أسابيع. وهذا يعني أنه كان يكتب ما يعادل خمس عشرة صفحة مطبوعة يوميًا. وسطيًا! وإن كانت هناك أيام لم يكتب فيها، فلا بد أنه كانت هناك أيام كتب فيها أكثر من خمس عشرة صفحة بكثير، وهذا كثيرٌ بالفعل. لقد قال بعض النقاد: إن الجزء الأعظم من الكتاب قد كُتب من قبل، وأنه حين كان يعمل عليه في بروكسل كان فقط يجمع أجزاءه، لكنهم لم يستطيعوا أن يأتوا ببرهانٍ على هذا الزعم يستحق الذِّكر.
وفي 13 تشرين الأول 1859، كتب دِكَر إلى زوجته مزهوًا، «عزيزتي، غاليتي، لقد اكتمل الكتاب، لقد اكتمل الكتاب!» فكان عليه أن يجد ناشرًا، وككل شيءٍ تقريبًا يضع فيه دِكَر يده فينقلب إلى مأساة، كذلك تحول نشر الكتاب إلى ما يشبه المأساة. فمن خلال صديق مشترك اتصل بياكوب فان لِنِـپ، الروائي المشهور وصاحب النفوذ الكبير في الأدب الهولندي. أرسل الكتاب إلى فان لِنِـپ على أمل أن ينال الكتاب إعجابه ولعلَّه يزكّيه لدى أحد الناشرين. أُعجِب به فان لِنِـپ أيما إعجاب، فكتب إلى دِكَر قائلًا إنه يعتقد أنه «جميل ... ولا توجد كلماتٌ أخرى سوى ذلك.» كما قال أيضًا إنه سيستخدم نفوذه لنشر كتابه، كما فعل مع كثير من الكُتاب الهولنديين الآخرين.

لكن الأمر الغريب هو أنه بينما كان دِكَر يستنجد بفان لِنِـپ لنشر الكتاب، كان في الوقت نفسه يأمل ألا يُنشر. كان يأمل أن يُعرَض عليه منصبٌ في إدارة المستعمرات يُعيد إليه اعتباره، «فَيُتوِّج قضيةَ المبدأ» كما سماها هو، ويُلغي ضرورة نشر الكتاب. لقد وضع دِكَر هدفين من وراء نشر الكتاب، كما قال من قبل: تحسين وضع الجاويين وردِّ الاعتبار لنفسه، وقد كان صريحًا في غرضه الثاني هذا. وهكذا طلب من فان لِنِـپ أن يُمرِّر الكتاب إلى وزير المستعمَرات ليرى ماذا سيقول عنه، وإن كان سيعرض عليه أي منصب. في هذه الأثناء صاغ لنفسه الشروط الأربعة الآتية: «1. منصب مقيم في جاوا، ولاسيما پـاسارويان، لكي أسدد ديوني. 2. الاعتراف بسنوات خدمتي من أجل تقاعدي. 3. سُلْفة سخية. 4. الحصول على لقب فارس.» وإن تحققت تلك الشروط الأربعة، فلن أنشر الكتاب.

تفاوتت آراء النقاد، فمن قائل «هذا ابتزاز» أو «هذا مخيب للآمال» إلى قائلٍ «حسنًا فعل. هكذا يجب التعامل مع هؤلاء.» أنا أرى أن كل هذه الأقوال خاطئة، إذ لم تكن تلك هي الطريقة المناسبة للتعامل مع هؤلاء، كما أثبتت النتيجة. كما لم يكن ابتزازًا أيضًا. إذ ليس من المألوف أن يقترن الابتزاز بنشر شيءٍ كتبه الـمُقْدِم على الابتزاز. لقد كتب الكتاب بغية نيل العدالة. فإن استطاع نيلها من خلال المخطوطة، فأي قانونٌ أخلاقيٌ يُلزِمه نَشْرَها؟ أما من خاب ظنهم، فهؤلاء ليسوا سوى من صنعوا من مُلتاتولي شبه إله، بدلًا من إنسانٍ فيه ما فيه من نقاط الضعف والتناقضات، إنسانٍ يحتقر المجتمع، وفي الوقت نفسه يتوق إلى اعترافه به، بكل ما يحمل هذا الوضع من دوافع معقدة. وما يوحي إليَّ أنه لم يكن جادًّا تمامًا في مطالبه هو مبالغته فيها. لا بد أنه أدرك بنصف عقله الآخر أن تلك المطالب لن تُلبّى أبدًا. وهو في الحقيقة لم يُرِدها أن تُلبّى لأن

رغبته في أن يصبح كاتبًا كانت عارمةً لا يمكن أن يتخلى عنها إلا بثمن تلك النقاط الأربع التي ستعيد إليه اعتباره وشرفه وتكون له ضمانةً إلى آخر حياته. كانت دوافعه لوضع تلك الشروط معقدة. وأنا أعتقد أن إدراك هذا التعقيد هو السبيل الوحيد لفهم شخصية دِكَر.

لكن لم تأتِ محاولته بنتيجة. إذ رفض وزير المستعمرات أن يعينه من جديد في إندونيسيا، ولكنه عرض عليه منصبًا «مُشرِّفًا ومستقلًا ومُربِحًا» في جزر الهند الغربية، وهو ما رفضه دِكَر ساخطًا. لذلك كان لا بد من نشر الكتاب. كان لدى فان لِنِـپ معارفه، فوجد للكتاب ناشرًا. ولكن فان لِنِـپ، الذي جمع بين أنشطته الأدبية والسياسية، وجد نفسه في ورطة. فمن ناحية، كان يُكِنُّ للكتاب ومؤلفه إعجابًا شديدًا، لكنه من ناحيةٍ أخرى كان يخشى من التداعيات السياسية. كان يرغب في نشره، لكنه في الوقت نفسه أراد أن يخفف من الصفعة التي سيوجهها الكتاب للحكومة. ولكي يحقق ذلك، سرق حقوق الكتاب من دِكَر بطريقة ماكرة. ثم بدَّل في عدّة مواضعٍ من الكتاب، فحذف أسماء الأماكن والتواريخ ليجعله يبدو أقل واقعية، وخفّف من لهجة بعض التعبيرات، وأعاد كتابة عددٍ من النصوص. علاوةً على ذلك، كان في البداية قد اتفق مع دِكَر على أن ينشر الكتاب في طبعةٍ رخيصةٍ كبيرةٍ وأن تُخصَّص نسخٌ كثيرةٌ جدًا من هذه الطبعة للتوزيع في إندونيسيا، إلا أن فان لِنِـپ نشره في طبعةٍ محدودةٍ بسعرٍ عالٍ بلغ أربعة خولدنات، وحَرِص على ألا تُرسل إلى إندونيسيا إلا بضعُ نُسَخٍ. وهكذا اضطر دِكَر لمقاضاة فان لِنِـپ، ولكنه خسر القضية، فاستأنف الحكم وخسر من جديد، ولم يتمكن من استعادة حقوق الكتاب إلا بعد عدد من السنين.

كانت ولادة الكتاب عسيرةً، لكن ما إن نُشِر حتى لاقى نجاحًا هائلًا. يمكن طبعًا أن يُعزى هذا النجاح في سنة 1860 إلى طبيعة موضوعه الآنيّة. ولكن هذا

لا يشرح لماذا استمر رواج الكتاب. إضافةً إلى ذلك، كان الكتاب روايةً ذات رسالة، وهذه عادةٌ يتقادم عهدها سريعًا. كما يمكن للمرء أن يقول إن خلافات القرن التاسع عشر حول السياسة الاستعمارية تبدو لنا اليوم بصورةٍ قد عفا عليها الزمن. فلو أن الكتاب لم يكن إلا روايةً هادفةً، أو لو أن المؤلف لم يفعل شيئًا سوى أن يتشكى علنًا، لكان الكتاب باعتقادي قد طواه النسيان منذ زمن بعيد. لكنه كان أكثر من قصة قضية موظف مدني خاب أمله في حكومته، وأكثر أيضًا من إدانةٍ لسياسة هولندا الاستعمارية في خمسينيات القرن التاسع عشر. لا يزال الكتاب يُقرأ، لأنه تحفة أدبية من الطراز الأول، مع أن عددًا من النقاد يتحفظون على ذلك. فهم لا يرون فيه ترابطًا، بل يسمونه خليطًا، خليطًا من كتابة مذهلة، لكنها خليط في كل الأحوال. وقد عبَّر دي إچ لورنس عن ذات الانتقاد في المقدمة التي كتبها للطبعة الأمريكية لسنة 1927، «فيما يتعلق بالتأليف، فهو أعظم لَخْبَطة ممكنة.» في ظاهر الأمر، لا يبدو هذا الانتقاد بلا مسوغ. لا شك أن الكتاب يبدو خليطًا من الأوضاع والشخصيات. فأحداثه تدور ما بين جاوا وهولندا، وما بين ليباك وأمستردام. ولمدة طويلة لا يبدو أن المؤلف قادر على حسم أمره فيما يتعلق بخصوص من سيكون الشخصية الرئيسة. فالعنوان يوحي بأنها ماكس هافِلار، وفي الفصول الأربعة الأولى يُوحَى إلينا أن هذه الشخصية ستكون دروخستوپل، سمسار القهوة في أمستردام، ثم إلى أجلٍ ينتابنا شعورٌ أن هذه الشخصية قد تكون شالمان [* = صاحب الوشاح*]، ساكن المستعمرات السابق المفلس، ثم حتى الفصل السادس لا ندرك أن هذه الشخصية ستكون في نهاية الأمر هي هافلار، مساعد المقيم الجديد في ليباك. وبمعزلٍ عن هذا كله، هناك تنوعٌ هائلٌ في الأساليب، تتراوح ما بين حضيض العامية الدارجة إلى ذُرى أسلوب الحكايات الرمزية الإنجيلية، من لغة الوثائق والرسائل الرسمية الجافة

إلى البوح العاطفي في نهاية الكتاب، من الأسلوب الواقعي لدراسات المسح التاريخية إلى الشعر الوجداني الذي يتخلل ثنايا الكتاب بين الحين والآخر. هناك أمورٌ أخرى، لكن هذا يكفي لإقامة الدليل على أن هناك مسوغًا لمن يرى أن الكتاب ينقصه الترابط وأن تأليفه «ملخبط.» وفي الحقيقة، كان دِكَر أول من أدلى بدلوه في هذا الموضوع حين أدخل في الصفحات الأخيرة ناقدًا متخيَّلًا وجعله يقول، بهدف سحب البساط من تحت أقدام النقاد في المستقبل: «الكتاب فوضوي ... مفكّك الأوصال ... يسعى لتحقيق أثر ... الأسلوب رديء ... والكاتب تنقصه المهارة ... بلا موهبة ... بلا منهج ...»

ومع ذلك، لو أمعنا النظر لوجدنا منهجيةً أكبر مما بدا لنا في الوهلة الأولى. فاستخدام الأساليب المتنوعة يُظهر أنها ذات وظيفة لا مراء فيها وأنها عاملٌ جوهري في رسم الشخصيات. يتضح أن دروخستوپل يرسم شخصيته من خلال الشيء الذي يقوله وكيف يقوله، والشي ذاته ينطبق على هافلار وشالمان وڤـاوِلار [*الثرثار، الـمِهذار*] وسلايميرنگ، إلخ. عمومًا، لا يصف دِكَر شخصياته بل يجعلها ترسم ذاتها، ويظل المؤلف في الظل حين يقدِّم شخصياته. وهذا يجعل تدخلاته أبلغَ أثرًا، ويمكنه من إحداث أثر هائل في نهاية الكتاب حين يظهر على المشهد فجأةً بصفة المؤلف، ويبدأ بإلقاء شخصياته الواحدة تلو الأخرى من المسرح لينهي هو الكتاب.

وبعد قراءة متمعنة يتضح أيضًا أن هناك عناصر معينة تُمسك بمفاصل الكتاب، وتربط المشاهد المختلفة، وتوضح الأمور بحيث لا تبدو المشاهد المفككة ظاهريًا متنافرةً من ناحية التأليف، بل يصبح بعضها شارحاً بعضًا. والمثال على ذلك نجده في تناول الكاتب لشخصيتي ماكس هافِلار والمبجَّل ڤـاوِلار، وهما شخصيتان ليس بينهما رابطٌ ظاهر. لكن تُلقي كل منهما خطابًا

في الكتاب: المبجل ڤـاوِلار يُلقي موعظةً، وهافلار يلقي خطابه الشهير أمام وجهاء ليباك. ونص موعظة الواعظ هو «محبة الله كما تظهر من خلال غضبه على الكُفّار.» يتبين أن هذه المحبة ليست إلا كراهية، حيث تتجلى مفرداتها في الحديث عن اللعنة ونار الجحيم، ثم تختفي هذه المحبة تمامًا في الذروة الكبرى حين يُعطي ڤـاوِلار وصفًا حيًّا لما ستكون عليه الجحيم للكفار الإندونيسيين. وفحوى خطاب هافلار هو المحبة أيضًا، أي محبة الجار، وهي التي يراها هافلار السبيل الوحيد للتفاهم. إذن، هناك تماثل بين الخطابين، ولكن هذا التوازي موجود أيضًا في اللغة التي يستخدمها كلا المتحدثَيْن. كلاهما يستخدم لغة الكتاب المقدس، وإن بشيء من الاختلاف عند هافلار. تكاد تكون موعظة ڤـاوِلار مؤلفةً برمتها من عبارات توراتية مألوفة؛ وكذلك خطاب هافلار له نكهة توراتية، ولكن كل عباراته وصوره تقريبًا أصلية - إذ تذكِّر بصور الكتاب المقدس من غير أن تكون مستمدةً منه. وحين يقرأ المرء الموعظة بعد خطاب هافلار يتذكر الخطاب بسبب التشابه في الموضوع واللغة، وحينها يدرك أن موعظة ڤـاوِلار هي شكل منحرف من خطاب هافلار. ومن أثر هذا أنه يلقي الضوء على خطاب هافلار، فيعطيه بعدًا آخر من المعنى. فكما أن الموعظة شكل منحرف من خطاب هافِلار، كذلك يكون اسم الواعظ شكلًا منحرفًا من اسم هافلار. ففي الأصل اسم ڤـاوِلار قريب جدًا من هافلار. فهما لا يختلفان إلا في الحرفين الأول والثالث. ولكن ڤـاوِلار مشتق من الفعل wawelen، أي «يثرثر» أو «يَهْذُر،» وهكذا يقدمه المؤلف باسم المبجل ڤـاوِلار (أي الثرثار أو المهذار). لهذا فإن الواعظ، كما يبدو من اسمه ومن الأشياء التي يقولها وكيف يقولها، يُقدَّم لنا على أنه شكل منحرف لشخصية هافلار. وحين يدرك القارئ هذا، لا يعود ڤـاوِلار مجرد شخصية كاريكاتيرية بل له وظيفة إضافية، وهي وضع

شخصية هافلار في منظور أوضح.

وقد عولجت شخصية دروخستوپل على نحو مشابه. طبعًا، دروخستوپل شخصية كاريكاتيرية لا جدال فيها، ولعلها أشهر شخصية كاريكاتيرية في الأدب الهولندي. في البداية يقدمه لنا المؤلف على أنه شخصية كاريكاتيرية ليس إلا. وكنيته دروخستوپل (المتحذلق الممل) تدل على ذلك، كما يدل على ذلك اسمه ذو النغمة الوطنية بَتافوس [*أي، هولندي باللاتينية*]، وهو، حسبما أعلم، ليس اسم شخص على الإطلاق، وهذا ما يجعله نمطًا. يُقدِّم دروخستوپل نفسه في بداية الكتاب على أنه أسوأ جاهل ممكن، فهو جلف، قاسي القلب، منافق، محدود التفكير، لا يحيد قيد أنملةٍ عن قناعاته الراسخة. فهو يقول: إن حياته تهتدي بمبدأين: الإخلاص في عمله والإخلاص للحقيقة. ولكننا نكتشف لاحقًا أن هذين هما أيضًا المبدآن اللذان يهتدي بهما هافلار. مبادئهما واحدة، ولكن دروخستوپل يشوه مثالية هافلار، تمامًا، كما يفعل الواعظ ڤاوِلار. يحط دروخستوپل من مبادئ هافلار إلى مستوى مبتذل جدًا؛ والواعظ يحط من قدرها في سياق ديني. ترتبط هذه الشخصيات الثلاث في الرواية بعضها ببعض، كما تترابط الأوضاع التي يظهرون فيها، وهذه تُقدَّم بطريقةٍ تجعل كلَّ وضعٍ يوضِّح البقية. لا يهم إن كان هذا أمرًا متعمَّدًا أو مسألةً حَدْسية. ما يهم هو النتيجة. والنتيجة هي أنها تجعل الكتاب مترابطًا، وهكذا تبدو الرواية متماسكة لا متفككة. وبسبب هذه البنية المتماسكة (الكامنة تحت سطحها الفوضوي) ليس لدي تحفظٌ في تسمية هذه الرواية تحفةً أدبيةً. وهناك أسباب أخرى تدفعني لإطلاق هذا الحكم. فبإمكاني أن أذكر الفُكاهة في الكتاب، والسخرية والهجاء اللذين يجدهما القارئ فيها، أو جمال النصوص الوصفية، أو السمة الغنائية في قصة «سَيْجاه وأدِندا،» أو الوصف المتقَن لشخصية هافِلار الذي يظل مُقنِعًا،

رغم أنه مبالَغ في تصويره مبالغةً طفيفةً.

علينا الآن أن ننظر في الأثر الفعلي للكتاب. لنستمع إلى ما قاله أحد المتحدثين في البرلمان بُعَيْدَ نشره، «لقد أصابت البلادَ قشعريرة بسببه.» وحين قال هذا لم يكن يشير إلى السمة الأدبية للكتاب، بل إلى الصدمة التي تلقاها جمهور القراء حين علموا بأوضاع المستعمرات. نوقش الكتاب في البرلمان، وطُرحت تساؤلات. لا شك أنه أحدث أثرًا في السياسة الاستعمارية. كان الهدف الأساسي لنقد دِكَر هو ما يُدعى نظام الزراعة (Kultuurstelsel)، الذي يقضي بزراعة محاصيل معينة تحددها الحكومة. يعود نظام الزراعة هذا إلى سنة 1830، وظل يتعرض لهجوم عنيف مدةً قبل أن ينشر دِكَر كتابه، لكن المناوئين لم يُحرزوا أي نتيجة. فجاء كتاب دِكَر ليمنحهم سلاحًا ثقيلًا، وقد استخدموه لمصالحهم، وهكذا بتنا نرى بعد سنة 1860 الإلغاء التدريجي لنظام الزراعة: ففي سنة 1862، أي بعد سنتين من نشر «ماكس هافِلار،» أُلغيت زراعة الفلفل، وفي سنة 1863 أُلغيت زراعة القرنفل وجوزة الطيب، وفي سنة 1865 أُلغيت زراعة الشاي، وفي سنة 1866 أُلغيت زراعة التبغ، وهلُم جرّا. لا أريد أن أقول إن «ماكس هافِلار» كانت مسؤولة عن إلغاء نظام الزراعة – فحين نُشر الكتابُ كان النظام قد عفا عليه الزمن وكان مُقدَّرًا له أن يزول آجلًا أم عاجلًا، حتى من دون «ماكس هافِلار» – لكن الكتاب بلا شك يستحق أن يُعزى إليه فضلُ التعجيل في إلغائه. ولعل الأهم هو أن الكتاب، من خلال الأثر الذي تركه في نفوس كثيرٍ من موظفي المستعمرات المستقبليين، خلق جوًّا يمكن أن تنشأ فيه سياسةٌ استعمارية جديدة.

لذلك حين ينظر المرء إلى ستينيات القرن التاسع عشر، يحق له أن يقول بشيء من التفاؤل إن كل شيء انقلب مُنْقَلبًا حسنًا، وإن دِكَر كان له كل الحق في أن

يشعر بالرضا. فمعظم النقاد دعوا كتابه الأول تحفةً أدبيةً، وبين عشيةٍ وضحاها تحول من شخص مغمور إلى أشهر كاتب هولندي، بل حتى السياسيون باتوا يُصغون لأفكاره. وظل مدةً يتلذَّذ بطعم النجاح بعد أن غمره كل هذا الاهتمام الذي لقيه. لكن هذا لم يدم طويلًا. فالهدف الثاني من روايته المزدوجة المأرب لم يتحقق: فلا هو رُدَّ إليه اعتباره، ولا أُعيد تعيينه. وبُعَيْدَ استقالته، أجرت الحكومة تحقيقًا رسميًا في الوضع في ليباك، ووجدت أن ادعاءات دِكَر صحيحة، لكنها لم تقبل بعودته إلى الحكومة. ولم يُعرَض عليه منصبٌ جديدٌ بعد نشر كتابه. ولم يتمكن دِكَر قط من أن يتصالح مع هذا الأمر، إذ عدَّه أكبرَ ظُلم ممكنٍ. وظل هذا يعتمل في صدره، ولوَّن كل صفحة من آلاف الصفحات الّتي كتبها بعد «ماكس هافِلار.»

ماکس هافلار

إلى صاحبة الذكرى الجليلة

البارونة إيفردينه هوبيرته فان واينبرخن

الزوجة الوفية، والأم الشجاعة الرؤوم،

والمرأة النبيلة

«لقد سمعتُ كثيرًا أن زوجات الشعراء يَستَحْقِقْنَ الشفقة؛ ومما لا شك فيه أنه لا يمكن لهن أن يتمتعن بكثيرٍ من جميل الشمائل، إن كان عليهن أن يتحملن تلك القِسْمة الصعبة في الحياة بكرامة. وأندر اجتماع للفضائل لا يتجاوز ما هو ضروري حصرًا للسعادة العادية، بل إنه لا يكفي. أن تكون ربة الإلهام مرافقةً لكما خلال أكثر أحاديثكما حميميةً، أن تحتضني زوجك الشاعر وتُدَلِّليه حين يعود إليك مفطورَ الفؤاد من خيبات العمل، أو أن تَرَيْهِ يطير مطاردًا سرابَه ... كل هذه أحداثٌ يومية في حياة زوجة الشاعر. ولكن موسم المتاعب هذا يمكن أن يعقبه موسمٌ لصيد الفوائد - موسم أكاليل الغار التي ينالها بِعَرَق عبقريته، والتي يضعها بإجلالٍ عند قدمي المرأة التي يعشقها شرعًا، في حضن أنتِگـوني التي تقود الهائمَ الضريرَ في دروب الدنيا.

«كونوا على يقين: جميع أحفاد هوميروس تقريبًا مكفوفون، كلٌّ بطريقته. فهم يرون ما لا نرى، ونظرتُهم تخترق مدىً أسمى وأعمق مما تخترقه نظراتنا. لكنهم لا يرون السبيل المألوف الذي أمام ناظرَيْهم، وقد يتعثرون ويخيب سعيهم، بسبب حصاةٍ صغيرةٍ إن لم يجدوا من يمدّ لهم يد العون، ويقودهم عبر وديان النثر التي تُرسَم فيها خطوطُ الحياة البشرية.»

(أونري دو پـين) [1]

حاجب المحكمة: سيدي القاضي، هذا هو الرجل الذي قتل باربَرتي.
القاضي: يجب أن يُشنق ذلك الرجل. كيف ارتكب فعلته؟
حاجب المحكمة: قطَّعها إربًا إربًا ثم خلَّلها.
القاضي: هذا خطأ كبير منه. يجب أن يُشنَق.
لوتاريو: سيدي القاضي، أنا لم أقتل باربَرتي! لقد أطعمتُها وكسوتُها واعتنيتُ بها ... بإمكاني أن آتي بشهودٍ يشهدون أنني رجلٌ صالح ولستُ قاتلًا.
القاضي: يجب أن تُشنق! وأنت تُضاعِف جريمتك بغرورك. لا يليق بمتهم ... أن يحسب نفسه رجلًا صالحًا.
لوتاريو: ولكن يا سيِّدي القاضي لديَّ شهودٌ يشهدون على ذلك. وبما أنني متهمٌ بجريمة قتل ...
القاضي: يجب أن تُشنق! لقد قطَّعت باربَرتي، وخلَّلتها، وأنت رجلٌ مغرور ... هذه ثلاث جرائم يُعاقَب مرتكبها بالإعدام! ... من أنتِ، يا سيدتي الفاضلة؟
المرأة: أنا باربَرتي ...
القاضي: همم ... آه ... ربما! لكن ماذا عن التخليل؟
باربَرتي: لا، يا سيدي، لم يُخلِّلني. بل على العكس. لقد كان لطيفًا بي حَفِيًا. إنه رجلٌ فاضل.
القاضي: همم ... إذن، تبقى التهمة الثالثة. أيها الحاجب، خذ هذا الرجل، إذ يجب أن يُشنَق. إنه مذنبٌ بتهمة الغرور. أيها الكاتب، اذكُر في الديباجة حُكم بطريرك لِسِنگ ...

(مسرحية غير منشورة)[2]

[1]

أنا سمسار قهوة، وعنواني هو 37 لاوريز خراخت، أمستردام. ليس من عادتي أن أكتب الروايات، أو أي شيء من هذا القبيل، لذلك فكرتُ في الأمر مليًّا قبل أن أقرر شراء بضعة مواعين إضافية من الورق، وأشرع في العمل الذي بين يديك، أيها القارئ العزيز، والذي عليك أن تقرأه إن كنت سمسار قهوة أو أي شيء آخر. لم أكتب من قبل أي شيء يشبه الرواية، بل أنا لا أحب هذه الأشياء لأنني سمسار. منذ سنين وأنا أتساءل عن فائدة الروايات، وما يصعقني هو وقاحة الشعراء وكُتّاب القصص وجرأتهم على دسِّهم لكم أشياءً لم تحدث قط، بل لا يمكن أن تحدث في العادة. لو أنني في مهنتي - أنا سمسار قهوة، وعنواني هو 37 لاوريز خراخت - قلتُ لمديرٍ - والمدير هو شخص يبيع القهوة - قولًا ليس فيه إلا نزرٌ يسيرٌ من الأكاذيب التي تشكل الجزء الأكبر من القصائد والروايات، لانصرف عني من فوره وتعامل مع شركة بوسَلِنك وَواترمَن. هم أيضًا سماسرة قهوة، لكن لستم بحاجة إلى معرفة عنوانهم. لذلك أحرص حرصًا شديدًا على ألّا أكتب أية رواية، وألّا أُدلي بأي قول زائف. ولعلّي أقول: إنني لاحظت أن كل من سلك هذا الدرب ساءت عاقبته عمومًا. عمري ثلاثة وأربعون عامًا، قضيت منها عشرين عامًا في البورصة، لذلك بإمكاني أن أتقدم الصفوفَ إذا ما القوم أرادوا صاحبَ تجربة. لقد رأيت شركاتٍ كثيرةً تُفلس. وحين بحثت عن الأسباب، وجدت أنها عادةً راجعةٌ إلى المسلك الخاطئ الذي سلكه معظم الناس في شبابهم.

الصدق والمنطق السليم - هذا هو منهاجي الذي أقول أنا به وألتزمُه. بطبيعة الحال، أنا أستثني الكتاب المقدس من هذا. تعود جذور المشكلة إلى فان ألفن وفي أول سطر له، ذلك السطر الذي يتحدث فيه عن تلك «المخلوقات الصغيرة العزيزة.» تُرى، ما الذي جعل ذلك الشيخ الكبير يتظاهر وكأنه مُتيَّمٌ بأختي الصغيرة خِيْرتي ذات العينين المتقرحتين، أو بأخي خيرارد الذي لا يكف عن إدخال أصبعه في أنفه؟ ومع ذلك تجده يقول، «غنى تلك الأبيات القليلة من الشعر بدافع الحب.» كان هذا الخاطر دائماً يراودني في طفولتي، «سيدي الطيب، أود أن ألتقيك، وإن رفضتَ أن تعطيني الكرات الزجاجية التي طلبتُها، أو إن لم تكتب لي اسمي كاملًا - اسمي بَتافوس - بأحرفٍ من معجَّنات الحلوى، فسأقول إنك كذّاب.» لكنني لم أرَ فان أَلْفَن قط. لقد مات، على ما أعتقد، حين قال لنا: إن والدي هو أحسن أصدقائي - أنا كنتُ أكثر تعلُّقًا بجارنا پـولي وِنْسَر الذي كان بيته يلاصق بيتنا في شارع باتَفير سترات - وأن كلبي الصغير كان مسرورًا جدًّا. لم نكن ... نربي الكلاب قط لأنها قذرة جدًا.

لا شيء سوى الأكاذيب! وهكذا تستمر التربية. «أختك الصغيرة الجديدة جاءت من بائعة الخُضار ملفوفةً برأس كرنب كبير.» «كل الهولنديين أهل شجاعة وشهامة.» «سُرَّ الرومان جدًّا حين عفا عنهم البَتافي.» «كان الباي حاكم تونس يُصاب بالمغص كلما سمع خَفْقَ العلم الهولندي.» «الدوق حاكم ألبا كان متوحشًا.» «المد المنخفض في ... 1672، على ما أعتقد، ... دام أطول من المعتاد بقليل فقط من أجل حماية هولندا.» أكاذيب! هولندا ظلت هولندا، لأن أجدادنا اهتموا بشؤونهم، ولأنهم كانوا أهل إيمان صادق. هذا كل ما في الأمر!

ثم يتحفوننا بمزيد من الأكاذيب فيما بعد. «الفتاة الصغيرة مَلاك.» لا شك أن أول من اكتشف هذا الأمر لم تكن عنده أخوات. «الحب نِعمة.» وأحدهم

يطير بوساطة هذا الشيء أو ذلك «إلى آخر المعمورة.» المعمورة ليس لها آخر، وذلك الحب الذي يتحدثون عنه هُراء بهُراء، أيضًا. لا يستطيع أحدٌ أن يدّعي أنني لا أعيش عيشةً محترمةً مع زوجتي - وهي ابنة لاست وشريكه، سماسرة قهوة - لا يستطيع أحدٌ أن يجد عيبًا في زواجنا. أنا عضوٌ في «آرتِس،» وعندها وشاحٌ كلّفنا اثنين وتسعين خولدناً، ومع ذلك لم يَدُر بيننا قطُّ أي حديث عن هذا الحب الأبله الذي لا يرتاح إلا إذا عاش في آخر المعمورة. حين تزوجنا قمنا برحلة بسيطة إلى لاهاي - فاشترت قطعةً من قماش الفانيلّا هناك، وعملت منه صُدرياتٍ لا زلت ألبسها - وأبعد من ذلك في المعمورة لم يقُد الحب خُطانا قط. لذلك، كله هراء وأكاذيب!

فهل زواجي أنا الآن أقل سعادةً من زواج أولئك الذين انبرت أجسامهم وذابت من العشق، أو نتفوا شعرَ رؤوسهم من جذوره؟ وهل تظنون أن أُسرتي ينقصها حسنُ تدبيرٍ، لأنني قبل سبعة عشر عامًا لم أقل لحبيبتي، شِعْرًا، إنني أريد أن أتزوجها؟ هُراء! مع أنه كان بإمكاني أن أفعل هذا مثل أي شخص آخر، لأن نظم القوافي مهنةٌ مثل أي مهنة أخرى، بل مهنة سهلة - من المؤكد أنها أقل صعوبةً من خِراطة العاج. وإلا كيف يمكن لرقائق المُعَجَّنات التي تُكتَب عليها شعارات مقفّاة أن تكون بهذا الثمن الرخيص؟ فِرتْس يسميها «بونْبون.» لا أعرف لماذا ... لكن ما عليك إلا أن تسأل عن ثمن مجموعة من كرات البلياردو.

ليكن بعلمكم أنني ليس لدي اعتراض على نظم القوافي بحد ذاته. ولو أردتَ كلماتٍ لتشكل منها بِتي فور، فلا بأس! لكن لا تقل إلا الصدق. «الجو باردٌ، ودقَّت الساعة الرابعة.» سأسمح بهذا القول لو كان الجو بالفعل باردًا، ولو كانت الساعة هي الرابعة بالفعل. لكن لو كانت الساعة الثالثة إلا ربعًا، ولأني لا أنظم كلماتي نظمًا، فسأقول «الجو باردٌ وكانت الساعة الثالثة إلا ربعًا.»

أما النَّظّام فهو مرغَم على الساعة الرابعة بسبب برودة البيت الأول. فهو يرى أنه لا بد أن تكون الساعة الرابعة، وإلا لن يكون الجو باردًا. وهكذا يبدأ يعبث بالحقيقة. إما أن يُغيَّر الطقس أو الوقت. وفي تلك الحال، يكون أحد القولين غير صحيح.

ليست الأشعار وحدها ما تُغري الشباب وتستدرجهم إلى الكذب. ما عليكم إلا أن تذهبوا إلى المسرح وتستمعوا إلى الأكاذيب التي تُروَّج فيه. ينتشل بطلَ المسرحية شخصٌ يوشك على الإفلاس. ولأجل هذا يعطيه الغريق نصف ثروته. هذا غير صحيح. منذ مدةٍ قريبةٍ، كنت أسير بمحاذاة پـرِنْسِن خراخت، فأطار الهواء قبعتي - فِرتْس يقول «طيِّر» - وألقى بها في القنال، فأعطيت الرجل الذي جاءني بها قطعتي ستاوْفَر، وكان راضيًا جدًا. وأنا أدرك جيدًا أنه يجب عليَّ أن أعطيه أكثر من ذلك لو أنه انتشلني أنا من الماء، لكني بالتأكيد لن أعطيه نصف ثروتي لأنه يتضح، بهذه الطريقة، أنه ما عليك إلا أن تسقط في الماء مرتين حتى تصبح شحّاذًا. وأسوأ ما في هذه العروض المسرحية أن الجمهور يتعود على هذه الأكاذيب إلى درجة أنهم يستحسنونها ويصفقون لها. أتمنى لو أقذف كل مَن في صحن المسرح في الماء لأرى مَنْ منهم كان صادقًا في تصفيقه. أنا رجل يعشق الصدق؛ لذلك أُحذِّر كل من يعنيه الأمر أنني لن أدفع أجرة إنقاذ عالية لأي شخص ينتشلني من الماء. ومَن لا يرضَ بالقليل، فليتركني حيث أنا. لكنني مستعدٌ للدفع أكثر قليلًا يوم الأحد، لأنني حينها ألبس سلسلة ساعتي الذهبية المجدولة ومعطفًا آخر.

أجل، ذلك المسرح عينُه يفسد كثيرًا من الناس - بل يُفسد أكثر مِمَّن تفسدهم الروايات. التجربة خير برهان! بقليلٍ من الخيوط الفضية اللامعة، وشرائط الزينة المقصوصة من الورق، يبدو المشهد مُغريًا جدًا. أقصد، للأطفال ولمن لا

يمتهنون التجارة. حتى حين يريد أولئك الممثلون أن يمثِّلوا الفقر، فإن الصورة التي يقدمونها تكون دائمًا زائفة. فتاةٌ أفلس أبوها تعمل لإعالة أسرتها. جزاها الله خيرًا. تراها جالسةً هناك وهي تخيط أو تنسج أو تُطرِّز. لكن ما عليكم إلا أن تَعُدُّوا الدرزات التي تَدْرُزُها من بداية الفصل إلى نهايته. تتحدث، تتأوَّه، تركض إلى النافذة، تقوم بكل شيءٍ إلا عملها. الأسرة التي يمكن أن تعتمد عليها لا تحتاج كثيرًا. تلك الفتاة هي البطلة، طبعًا. لقد طردت من بابها عددًا ممن راودوها عن نفسها، ولا تكف عن البكاء والصراخ، «أوه، يا أمي، يا أمي!» وهكذا فهي تمثل الفضيلة. أي فضيلةٍ هذه التي تستغرق سنةً كاملةً لصنع زوجين من الجوارب الصوفية؟ ألا يعطي كل هذا أفكارًا خاطئةً عن الفضيلة وعن مفهوم «العمل لكسب القوت؟» كله هُراءٌ وأكاذيب!

وفجأةً يعود حبُّها الأول - كان يعمل ناسخًا، لكنه الآن غارقٌ في الثراء - ويتزوجها. مزيدٌ من الأكاذيب. الغني لا يتزوج فتاةً من شركة أفلست. إن كنتم تظنون أن هذا يُعَدُّ مقبولًا في المسرح من باب الاستثناء، فأنا أتمسك بقولي إن هذه الطريقة ستخفف من شغف الناس بالحقيقة الذين يرون أن الاستثناء هو القاعدة، وستوهن أخلاق العامة من خلال تعويدهم على التصفيق لشيء على المسرح، بينما هو في الواقع سفاهةٌ وإسفافٌ بنظرِ أي سِمسار أو تاجر محترم. حين تزوجت أنا كنا ثلاثة عشر شخصًا في مكتب والد زوجتي - لاست وشريكه - وبإمكاني أن أخبركم أننا كنا في غاية الانشغال.

وتستمر أكاذيب المسرح. حين يغادر البطل للدفاع عن بلاده، بمشيته المتصنعة المخادعة، لماذا ينفتح له الباب المزدوج في الخلف من تلقاء ذاته دومًا؟

ثم ... كيف لمن يتحدث شعرًا أن يتنبَّأ بما سيقوله الآخر، بحيث يُمكنه أن ييسِّر له القافية؟ فحين يقول القائد للأميرة، «سيدتي، قد أغلق الأعداء البوابات، لا

ريبٌ ولا خَجَلُ» كيف له أن يعرف مسبقًا أنها ستقول، «إذن، فَلْتُجَرَّدِ السيوفُ، لا خوفٌ ولا وجلُ!» لنفترض أنها حين سمعت بإغلاق البوابات قالت: إنها في هذه الحال ستتريث قليلًا إلى أن تُفتَح من جديدٍ، أو أنها ستعود في وقت آخر، فما هو مصير الوزن والقافية؟ إذن، حين ينظر القائد إلى الأميرة نظرةَ تساؤل، ليعلم منها ما تنوي فعله بعد أن أُغلقت البوابات، ألا يمثل هذا كذبًا مفضوحًا؟ ثم لنفترض أن السيدة الطيبة أرادت أن تأوي إلى فراشها تلك الليلة بدلًا من تجريد هذا الشيء أو ذاك؟ أقول لكم: كله أكاذيب بأكاذيب!

ثم نأتي إلى مسألة مكافأة الفضيلة! أوه، أوه، أوه! أنا سمسار قهوة منذ سبعة عشر عامًا - 37 لاورير خراخت - لذلك مررتُ بكثير من التجارب؛ لكنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي من التكدُّر إلى درجةٍ مرعبةٍ حين أرى حقائق الله النفيسة تُشوَّه بصورةٍ مخجلةٍ. الفضيلة تُكافأ؟ لو كانت الفضيلة كذلك، ألا يجعلها هذا من مبادئ التجارة؟ الأمور ليست هكذا في الواقع، ولا ينبغي لها أن تكون. وإلا فما قيمة الفضيلة إن كُوفِئت؟ لذلك ما الذي يدفع الناس لتلفيق الأكاذيب المشينة؟

خذوا، على سبيل المثال، لوقا، أمين مستودعنا الذي كان يعمل منذ عهد والد لاست وشركاه (كان اسم الشركة لاست وماير حينها، لكن آل ماير خرجوا منها). لقد كان برأيي رجلًا فاضلًا. لم يُفرِّط في حبة بُنٍّ واحدة؛ وكان يواظب على الكنيسة؛ وما كان يشرب المُسكرات. وحين ذهب والد زوجتي إلى الريف، في دريبيرخِن، تولّى لوقا العناية بالبيت والمال وكل شيء. وذات يوم أعطاه البنك سبعة عشر خُلْدنًا زيادةً، فأعادها لهم. وها هو الآن شيخٌ كبيرٌ مصابٌ بالروماتيزم، وعاجزٌ عن العمل، ولهذا فهو يموت جوعًا، لأننا نعمل وفق منطق التجارة، ونحن بحاجة إلى جيل الشباب. حسنٌ، أنا ... أعتقد أن

لوقا رجلٌ فاضلٌ جدًّا؛ لكن هل كوفئ؟ هل يأتيه أميرٌ ليعطيه الألماس، أو جِنّيَّةٌ لتدهن له خبزه بالزبدة؟ لا وحياتِكم! إنه فقير، وسيبقى فقيرًا، وهكذا يجب أن يبقى. أنا لا أستطيع مساعدته - نحن بحاجة إلى جيل الشباب، بما أننا عندنا شغلٌ كثير - لكن لو افترضنا أن بإمكاني مساعدته، فما جدوى فضيلته لو لم يكن في شيخوخته مُنَغِّصات؟ عندها سيصبح كل أمين مستودع رجلًا فاضلًا، بل كل واحدٍ أيضًا، وهذا لا يمكن أن يكون ما يريده الله، لأنه في تلك الحال لن يبقى للأخيار جزاءٌ متميزٌ في الآخرة. لكنهم في المسرح يقلبون كل هذا ... كله أكاذيب، أكاذيب مقيتة!

أنا شخصيًا رجلٌ فاضلٌ، لكن هل تروني أطلب مكافأةً على ذلك؟ فلو ازدهرت تجارتي - وهي بالفعل مزدهرة ... ولو كانت زوجتي وأطفالي بصحةٍ جيدةٍ بحيث لا يُنكِّدُ عليَّ الأطباء والصيادلة ... ولو استطعتُ أن أدَّخر شيئًا، سنةً بعد سنةٍ، لشيخوختي ... ولو صار فْرِتْس ولدًا نجيبًا يستطيع أن يحل مكاني فيما بعد حين أتقاعد وأسكن في ذْريبيرخِن ... إنيّ إذن لَسعيدٌ. لكن كل هذا نابعٌ من الظروف ولأنني أهتم بشؤوني. أما عن فضيلتي فلا أدّعي شيئًا، لا جزاءَ للفضيلة سوى نفسها!

أما عن حقيقة فضيلتي، فيمكنكم أن تروها من عشقي للصدق. وهذه هي أقوى خصالي، بعد إخلاصي لديني. وأود أن تكون مقتنعًا، أيها القارئ، بما أقول، لأن هذه هي ذريعتي لكتابة هذا الكتاب.

وخصلتي الأخرى، التي لا تقل قوةً عن عشقي للصدق، هي شغفي بعملي. فاسمحوا لي أن أقول إنني سمسار قهوة، 37 لاورير خراخت. حسنًا، أيها القارئ، عليك أن تشكر عشقي للحقيقة الذي لا غبار عليه وشغفي بمهنتي، فبفضلهما أنت تقرأ هذه الصفحات. سأخبركم كيف حدث الأمر. لكن، بما

أنني أستأذنكم مؤقتًا للذهاب إلى بورصة القهوة، فإني أدعوكم أن تتفضلوا إلى فصل جديد في الحال. لذلك، (أورِڤـوار)!

أوه، مهلًا، ضع هذه في جيبك لو تكرَّمت ... أوه، أؤكد لك، سيدي العزيز، لا داعي للقلق ... وما أدراك، لعلَّ فيها نفعًا ... آه، هذه هي: بطاقتي! أنا هو «شريكه» بعد أن خرج آل ماير ... الشيخ لاست هو والد زوجتي.

لاست وشريكه
سماسرة قهوة
37 لاورير خراخت

[2]

شهدت البورصة فترة ركود، ولكن مزاد الربيع سيعيد الأمور إلى نصابها بلا شك. يجب ألا تظنوا أننا نتسكع بلا عمل. لكن الركود أصاب شركة بوسَلِنك وَواترمَن أكثر. إنه عالمٌ غريب. حين تعمل في البورصة مدةَ عشرين عامًا تفهم أمرًا أو أمرين. تخيلوا أنهم حاولوا - أقصد بوسَلِنك وَواترمَن - أن يأخذوا لودڤِگ شتيرن مني. وبما أنني لا أعلم إن كنتم تعرفون شيئًا عن بورصة القهوة، فيجدر بي أن أخبركم أن شتيرن شركة قهوة من الطراز الأول في هامبورگ وقد تعاملوا دائمًا مع شركة لاست وشريكه. وبالصدفة البحتة اكتشفتُ الأمر ... أقصد عرض بوسَلِنك وَواترمَن للبيع بسعر أقل. لقد عرضوا تخفيضًا بقيمة ربع من واحد في المئة من قيمة السمسرة - أوباش، أي نعم أوباش، ولا شيء سوى ذلك! - والآن انظروا كيف أبطلتُ هذه الصفقة. لو كان شخصٌ آخر في مكاني لربما كتب وأخبر لودڤِگ شتيرن أنه سيعرض عليهم تخفيضًا ما وأن يعيدوا النظر في ضوء الخدمات التي قدمتها شركة لاست وشريكه لمدة طويلة، إلخ، إلخ. لقد حسبتُ أن شركتنا قد جَنَت من تعاملها مع شتيرن خلال الخمسين سنة الماضية أرباحًا تُقدَّر بأربعين ألف جنيه. وتعود علاقتنا إلى زمن الحظر الأوربي النابـليوني حين كنا نهرِّب البضائع من المستعمرات من طريق هِليـگـولاند. نعم ... ما أدراك ماذا سيكتب غيري؟ قُل ما شئت، لكنْ أنا لا أخفِّض. ذهبتُ إلى المقهى الـبـولندي،[9] وطلبتُ قلمًا وورقةً وكتبتُ:

[حيث إن شركتنا اتسعت اتساعًا كبيرًا في الفترة الأخيرة، ولاسيما من خلال الطلبيات الكثيرة المحترمة من شمال ألمانيا ...]

وهذه هي الحقيقة المطلقة!

[وحيث إن هذا التوسع تطلّب زيادةً في عدد موظفينا.]

إنها الحقيقة! في الليلة الماضية كان محاسبنا في المكتب بعد الحادية عشرة يبحث عن نظّارته.

[وعلاوةً على ذلك، حيث نشأت حاجةٌ لتوظيف شبانٍ ألمان محترمين من ذوي الأخلاق الحسنة، للإشراف على المراسلات الألمانية. وحيث إن كثيرًا من الشبان الألمان الموجودين في أمستردام بصراحة يمتلكون المؤهلات المطلوبة، لكن بما أن شركةً تحترم ذاتها ...]

إنها الحقيقة، فأعِنّي يا ألله؟

[ونظرا لزيادة الفِسق والفُجور بين الشباب، وتزايد أعداد الطائشين يوميًا، ونظرًا لضرورة الجمع بين نزاهة المسلك والنزاهة في تنفيذ الطلبات ...]

أُقسِم إنها الحقيقة ولا شيء سواها!

[وحيث إن شركةً كهذه - أقصد شركة لاست وشريكه، سماسرة قهوة، 37 لاورير خراخت - لا يمكنها أن تحتاط بما يكفي في مسألة التوظيف.]

وكل ما أقوله هو الحقيقة الصِرْفة، أيها القارئ! هل تعلم أن الشاب الألماني

الذي يقف عند العمود 17 في البورصة قد هرب مع ابنة بوسَلِنك وَواترمَن؟ وابنتُنا ماري ستبلغ الثالثة عشرة من عمرها في أيلول!

[وحيث إنني قد تشرَّفت بأن أعلم من السيد سافِلَر - السيد سافِلَر هو مندوب متجول لشركة شتيرن - أن مدير الشركة المبجل السيد لودڤِگ شتيرن لديه ابنٌ، السيد إرنست شتيرن، يرغب منذ فترةٍ في وظيفةٍ في شركة هولندية بُغيةَ إتقان معرفته التجارية. وحيث إنني أعي هذا الأمر ...]

وهنا كررتُ كل ما قلته من قبل عن الفسق والفجور، وأخبرته بحكاية ابنة بوسَلِنك وَواترمَن. لا أرى ضيرًا إن علموا.

[... وحيث إنني أعي هذا الأمر، فإنه لا شيء يحلو لي أكثر من أن أرى السيد إرنست شتيرن مسؤولًا عن المراسلات الألمانية في شركتنا.]

ومن باب اللباقة، امتنعت عن التلميح إلى أي مكافأة أو راتب. لكنني أضفت قائلًا:

[وإن رضي السيد إرنست شتيرن أن يجعل شركتنا - 37 لاورير خراخت - منزله، فإن زوجتي قد أعربت عن استعدادها للاعتناء به كأنها أمه، وأن شراشفه ستُرتَق في مقر الشركة.]

هذه هي الحقيقة التي لا تشوبها شائبة، لأن ماري ترفو وترتق بشكل جيد. وأخيرًا:

[وإننا في شركتنا نتقي الله.]

بإمكانه أن يفكر في الأمر مليًا - آل شتيرن يتبعون المذهب اللوثري. وأرسلت الرسالة. وسترى أن الشيخ شتيرن لا يستطيع أن ينقل تعاملاته إلى بوسَلِنك وَواترمَن ما دام ابنه في مكتبنا. عندي فضولٌ شديدٌ لأعرف جوابه.

والآن نعود إلى كتابي. قبل مدة قصيرة مررت بالصدفة في كالفِر سترات ذات مساءٍ، وتوقفتُ عند دكان بَقّال كان منهمكًا في فرز كمية من القهوة الجاوية، وكانت من النوع السيريبوني الأصفر المتوسط الجودة، المكسَّر قليلًا، مع القمامة. وهذا أمرٌ أثار اهتمامي، فأنا دائمًا أُبقي عينَيَّ مفتوحتين. وفجأةً لمحتُ سيدًا يقف أمام المكتبة المجاورة، وكنت أظن أنني أعرفه. ويبدو أنه هو أيضًا عرفني، لأن أعيننا ظلت تلتقي. ويجب أن أعترف أنني من شدة انشغالي بقمامة القهوة لم ألحظ في البداية ما لاحظته فيما بعد، وهو أنه كان رثَّ الملابس. وإلا لكنت قد تركتُ الأمور عند ذلك. لكن خطر ببالي فجأةً أنه قد يكون مندوبًا متجولًا لشركة ألمانية ويبحث عن سمسار أمين. كانت له بالفعل ملامح الألمان والمندوبين المتجولين أيضًا. كان شديدَ الشُّقرة، وعيناه زرقاوين، وفي وِقْفَته وملبسه ما يدل على أنه أجنبي. وبدلًا من أن يرتدي معطفًا شتويًا محترمًا، كان نوعٌ من الوشاح يتدلى على كتفه - نسميه بالهولندية «شال» ولهذا السبب يسميه فْرِتس «شول» بالإنـگـليزية، وهذا غير صحيح، فقط ليتباهى بلغتة الإنـگـليزية، وكأنه - أقصد شالمان - قد وصل لتوه من السفر. ظننت أنني شممت رائحة زبون، فأعطيته إحدى بطاقاتنا - لاست وشريكه، سماسرة قهوة، 37 لاورير خراخت. أمسك بها تحت مصباح الغاز في الشارع، وقال، «شكرًا جزيلًا لك. لكن يبدو أنني أخطأت الظن. لقد ظننتُ أنني سعدتُ بلقاء زميل دراسةٍ سابق، لكن ... لاست؟ لا. ليس هذا هو الاسم.»

قلت له، «المعذرة،» - فأنا دائمًا لَبِق - «أنا السيد دروخستوپل، بَتافوس

دروخستوپل.[10] «لاست وشريكه» هو اسم الشركة، سماسرة قهوة، 37 لوريرخرا ...»

«حسنٌ، يا دروخستوپل، هل نسيتني؟ انظر إليَّ جيدًا!»

وكلما نظرتُ إليه تذكَّرتُ أنني رأيتُه من قبل. لكن الغريب أن وجهه جعلني أشمُّ رائحة عطورٍ أجنبيةٍ. لا تضحك، أيها القارئ، فستعلم قريبًا لِمَ هذا الأمر. أنا متأكد أنه ليس عليه قطرةُ عِطرٍ واحدة، ولكنني شممتُ شيئًا زكيًا، شيئًا قويًا، شيئًا يذكِّرني ... لقد وجدتُها!

هتفتُ قائلًا، «أنت الذي أنقذني من اليوناني؟»

قال، «أنا هو بالتأكيد. كيف حالك؟»

أخبرته أننا ثلاثة عشر في المكتب وأن لدينا الكثير من العمل. ثم سألته عن حاله، فندمتُ بعد ذلك، لأن ظروفه ليست على ما يُرام فيما يبدو، وأنا لا يهمني الفقراء لأن فقرهم عادةً ما يكون راجعًا لعلَّةٍ فيهم - فالربُّ لا يتخلى عن عباده المخلصين. فلو أنني اكتفيتُ بالقول له، «نحن ثلاثة عشر في المكتب ... وأتمنى لك أمسيةً سعيدةً» لتخلَّصتُ منه. لكن تلك الأسئلة والأجوبة جعلت الأمور أصعب فأصعب - فرتس يقول «الأصعب» أما أنا فلا أقول ذلك - أصعب فأصعب، إذن، للتخلص منه. ومن ناحية أخرى، لو أنني تخلصتُ منه لما كنت تقرأ هذا الكتاب، لأنه ثمرةُ ذلك اللقاء. أنا أحب أن أنظر إلى الجانب المشرق من الأمور، ومن لا يفعل ذلك من الناس فهم مخلوقاتٌ غير قانعة، وهؤلاء لا أطيقهم.

أجل، كان هو بالفعل من أنقذني من يدَيْ ذلك اليوناني! لا تظنوا أبدًا أن قراصنةً قد أسروني أو تشاجرت في مكان ما شرقَ المتوسط. لقد قلت لكم من قبل إنني حين تزوجتُ ذهبت مع زوجتي إلى لاهاي. وهناك رأينا الصور في

صالة متحف ماورِچ هاوس، واشترينا قماش الفانيلّا في فيني سترات. وهذه هي الرحلة الوحيدة التي سمحت لي بها الشركة، لأننا عندنا شغل كثير. لا، لقد هَزَم اليوناني هنا في أمستردام بسببي لأنه كان دائمًا يتدخل فيما لا يعنيه.

كان ذلك سنة 1833 أو 34، على ما أظن، وفي شهر أيلول، لأن المعرض كان قائمًا حينها. وبما أن أهلي كانوا يريدونني أن أكون قسيسًا، فقد تعلَّمتُ اللاتينية. وبعد ذلك سألت نفسي كثيرًا لماذا يتوجب على المرء أن يعرف اللاتينية لكي يقول «إن الله خير!» في لغته. كفى، لقد ذهبتُ إلى المدرسة اللاتينية - التي يسمونها الآن مدرسة النحو - وكان هناك معرضٌ ... أقصد في أمستردام. كانت هناك أكشاك في ڤِسْتَر ماركت، وإن كنتَ أمستردامَيًّا، أيها القارئ، وفي مثل سِني، ستتذكر أن من بينها كشكًا يمتاز بسواد عيني فتاته التي تلبس الطراز اليوناني وبطول ضفائرها. كان أبوها يونانيًا أيضًا - كان له ملامح يونانية، على أية حال. كانا يبيعان كل أنواع العطور في ذلك الكشك.

كنت بالغًا إلى درجة تكفي لأعرف أن الفتاة جميلة، لكن كانت تنقصني الشجاعة للحديث إليها. وحتى لو لم تكن تنقصني الشجاعة، لما تماديتُ أكثر لأن الفتيات في الثامنة عشرة كن ينظرن إلى فتى في السادسة عشرة كأنه طفل، وكن على حق. ومع ذلك، كنا نحن فتيان الرابع دائمًا نذهب إلى ڤِسْتَر ماركت في الأماسي فقط لرؤية تلك الفتاة.

وفي إحدى هذه المناسبات، كان الرجل شالمان الذي يقف أمامي في تلك اللحظة معنا، مع أنه كان أصغر من الآخرين بسنتين، وكذلك لا تسمح له سنوات الطفولة أن ينظر حتى إلى الفتاة اليونانية. لكنه كان الأول في صفنا - لأنه كان ذكيًا، لا أُنكِر ذلك - وكان مولَعًا بالألعاب واللهو الصاخب والقتال. لهذا السبب كان معنا. وهكذا وبينما كنا نقف - كنا حوالي عشرة - على مسافة

معقولة من الكشك، وننظر إلى الفتاة اليونانية، ونتناقش في كيفية التعرف إليها، قررنا أن نجمع نقودنا لنشتري شيئًا من الكشك. لكن المشكلة حينها كانت إيجاد من يجرؤ على الحديث إلى الفتاة. كان الكل راغبين ولكنهم لا يجرؤون. رمينا القُرعة، فوقعت عليَّ. دعوني أعترف بصريح العبارة أنني لا أحب المخاطرة. أنا زوجٌ وأبٌ، وأرى أن كل من يسعى إلى الخطر عامدًا متعمدًا فهو أحمق - في الحقيقة، هكذا ينص الكتاب المقدس، أيضًا. ومما يسرني بالفعل هو أن ألاحظ أنني كنت طول عمري ثابتًا على مبدئي فيما يتعلق بالمخاطر وما شابهها، وحتى الآن ما زلت متمسكًا بذات الآراء بالضبط عن هذه الأمور كما كنت في ذلك المساء حين وقفتُ أمام كشك اليوناني، وأنا أُمسك بالاثني عشر ستاوفَر التي جمعناها. لكن، كما ترون، بسبب إحساسي الزائف بالخجل، لم أجرؤ على القول إني لا أجرؤ، كما أنني لم أستطع منع نفسي من التقدم، حيث كان رفاقي يدفعونني، حتى وجدت نفسي أقف أمام الكشك، شئتُ أم أبَيْتُ.

لم أر الفتاة. لم أر شيئًا، كل شيء صار أخضر وأصفر أمام عيني، رحت أتلعثم وأقول فعلًا ما بصيغة الماضي.

قالت [بالفرنسية]، «هل يسرك ذلك؟»

استعدتُ وعيي قليلًا، فقلت [*باليونانية*] *Mῆνιν áeise, Q eá]*[11]، وأن ... مِصْر هبة النيل.[12]

أنا على قناعة أنه كان بإمكاني أن أتعرف إليها لو أن أحد زملائي في تلك اللحظة، وبدافع من العبث الطفولي، لم يدفعني من الوراء دفعةً جعلتني أرتطم بقوةٍ بمنضدة العرض الأمامية التي كانت تسد مقدمة الكشك بمقدار نصف قامة رجل. شعرتُ بقبضةٍ تُمسكني من مؤخرة رقبتي ... وبقبضةٍ أخرى، أسفل من ذلك بكثيرٍ ... وسبحتُ في الهواء لحظةً ... وقبل أن أفهم بجلاء ما

جرى وجدت نفسي داخل كشك اليوناني، وكان يقول لي بلغة فرنسية مفهومة إنني gamin [*وَلَد*]، وإنه سيستدعي الشرطة. صحيحٌ أنني اقتربت الآن من الفتاة، ولكني لم أجد في ذلك متعةً. فبكيتُ وطلبتُ الرحمة، لأنني كنت في غاية الخوف. لكن ذلك لم ينفعني، فأمسكني اليوناني من ذراعي ورفسني، فتلفَّتُّ حولي بحثًا عن رفاقي – في ذلك الصباح بالذات وجدنا الكثير مما يربطنا بسكايْـڤـولا الذي وضع يده في النار، وفي موضوعاتهم الإنشائية اللاتينية كانوا معجبين جدًّا بفعلته – أي، نعم! لكن لم يبق منهم واحدٌ ليضع يده في النار من أجلي...

أو هكذا ظننت. ولكن فجأةً اندفع شالمان إلى داخل الكشك من الباب الخلفي. لم يكن طويلًا ولا قويًا، ولم يكن إلا في الثالثة عشرة من عمره، ولكنه كان فتىً رشيقًا جريئًا صغيرًا. لا زلت أرى بريق عينيه – مع أنهما عادةً باهتتان – فَلَكَم اليوناني فأنقذني. سمعتُ فيما بعد أن اليوناني ضربه، ولكن لأنه من مبادئي الثابتة ألا أتدخل فيما لا يعنيني، فقد هربتُ من فوري. ولذلك لم أرَ ما حصل.

إذن لهذا السبب ذكَّرتني ملامحه كثيرًا بالعطور، وكيف يمكن أن تتشاجر مع يوناني في أمستردام.

في المعارض اللاحقة، كلما كان ذلك الرجل في كشكه في ڤِسْتَر ماركت بحثتُ عن متعتي في مكان آخر.

وبما أنني مولع بالملاحظات الفلسفية، فإني لا أستطيع حقًّا أن أمتنع عن الإشارة، أيها القارئ، إلى التنظيم العجيب للكون. لو كانت عينا تلك الفتاة أقل سوادًا أو ضفائرها أقصر، أو لو أن أحدهم لم يقذفني لأرتطم بتلك المنضدة، لما كنتَ تقرأ هذا الكتاب الآن. لذلك كن شاكرًا أن الأمور سارت على هذا النحو. وصدِّقني، كل ما يحدث فهو خير؛ أما غير القانعين الذي لا يكفُّون عن التذمُّر

فهم ليسوا أصدقائي. خذ بوسَلِنك وَواترمَن، على سبيل المثال ... لكن ما علينا، يجب أن أنتهي من الكتاب قبل مزاد القهوة في الربيع.

بصراحة - وأنا رجلٌ يعشق الصراحة - لم تسرُّني رؤية ذلك الشخص من جديد. لقد أدركتُ فورًا أن صُحبته لا تسرني. كان شديد الشحوب، وحين سألته عن الساعة، لم يعرف. هذه هي الأشياء التي يلاحظها الإنسان حين يقضي حوالي عشرين عامًا من العمل في البورصة، ويرى الكثير في حياته. لقد رأيت الكثير من الشركات تُفلس.

ظننتُ أنه سينعطف نحو اليمين، فأخذني شغلي إلى اليسار. لكن، كما ترى، انعطف نحو اليسار أيضًا، لذلك لم أستطع تجنب الحديث معه. ولكنني كنت دائمًا أتذكر أنه لم يعرف كم الساعة، ولاحظت أن سُترتَه الرثّة كانت مزرورة حتى ذقنه - وهذه علامةٌ سيئةٌ جدًّا - ولذلك أبقيت لهجة حديثنا مُراوِغةً إلى حدٍّ ما. قال لي: إنه كان في الهند الشرقية، وإنه متزوج ولديه أطفال. لم يكن لدي اعتراضٌ على ذلك، ولكنني في الوقت نفسه لم أر أهميته. اقتربنا من كاپل ستيخ - ومن حيث المبدأ، أنا لا أمر من ذلك الزقاق، لأنه لا يليق برجل محترم، برأيي؛ ولكنني في هذه المرة، قصدت أن أنعطف نحو اليمين إلى كاپل ستيخ. انتظرتُ حتى كدنا نتجاوز الشارع التعيس الصغير، لأبيِّن للرجل أن طريقه أمامه مباشرةً، ثم قلت له بلباقةٍ شديدةٍ ... فأنا دائمًا لَبِقٌ، لأنك لا تعرف متى تحتاج الناس فيما بعد:

«سُرِرتُ برؤيتك ثانيةً، سيد ... سيد ...! و ... و ... و ... خادمك المتواضع، سيدي! عليَّ أن أدخل هنا.»

ثم نظر إليَّ نظرةً غريبةً جدًا، ثم تنهَّد، وفجأةً أمسك بأحد أزرار معطفي ... وقال: «عزيزي، دروخستوپل، أود أن أسألك شيئًا.»

سَرَت في جسدي قشعريرة باردة. لم يعرف الوقت وها هو يريد أن يسألني شيئًا. وبطبيعة الحال أجبته: إنني مشغول وإن عليَّ أن أذهب إلى البورصة، رغم أن الوقت كان مساءً. لكن حين تعمل في البورصة عشرين عامًا ... ويريد رجلٌ أن يسألك شيئًا، رجلٌ لا يعرف كم الساعة ...

حرَّرتُ زرّي من يده، وحيَّيتُه بلباقة، لأنني دائمًا لبق، و ... دخلت كاپل ستيخ، وهو شيءٌ لا أفعله عادةً، لأنه شارع غير محترم، وأنا أضع الاحترام فوق كل اعتبار. أرجو ألا يكون قد رآني أحدٌ.

[3]

وحين عدتُ في اليوم التالي من البورصة، قال فرتس: إن شخصًا جاء لرؤيتي. وعرفت من الوصف أنه شالمان. كيف وجدني؟ ... من البطاقة، بالطبع! جعلني هذا الأمر أفكر جديًا في سحب أطفالي من المدرسة، لأنني بعد عشرين أو ثلاثين سنة لا أطيق أن يتعقّبني زميل دراسة سابق يرتدي وشاحًا بدلًا من معطف ولا يعرف كم الساعة. على أية حال، قلت لفرتس ألا يذهب إلى ڤِستَر ماركت حين تكون فيه أية أكشاك.

بعد ذلك بيومٍ، تلقيت رسالةً مع رُزمةٍ كبيرة. سأُطْلِعُكم على الرسالة:

[عزيزي دروخستوپل!]

كان الأجدر به أن يقول: [عزيزي السيد دروخستوپل!] - فأنا، في نهاية الأمر، سمسار.

[عرَّجتُ على بيتك أمس لعلَّك تُسدي إليَّ معروفًا. أعتقد أنك تعيش في ظروفٍ مريحة ...]

هذا صحيح: نحن ثلاثة عشر في المكتب.

[... وأود أن أستخدم سُمعتك لكي أقوم بمشروعٍ ذي أهمية كبيرة بالنسبة إليَّ.]

من قراءة كلامه، ألا تظنون أن المسألة تتعلق بطلب في مزاد الربيع؟

[نظرًا لظروف شتى، أنا حاليًا بحاجةٍ إلى مالِ نوعًا ما.]

نوعًا ما؟ الرجل بلا قميص. هذا ما يدعوه «نوعًا ما!»

[لا أستطيع أن أوفر لزوجتي العزيزة ما هو ضروري لإسعاد حياتها، وتعليم أطفالي، كذلك، ليس على ما يُرام، لأسباب مالية.]

إسعاد حياتها؟ تعليم الأطفال؟ ألا تعتقدون، بناءً على أقواله، أنه يريد أن يستأجر مقصورةً في دار الأوپـرا لزوجته، ويرسل أطفاله إلى مدرسة داخلية في جنيـف؟ كان الوقت في أواخر السنة، والطقس باردٌ جدًا ... حسنٌ، باختصار، إنه يعيش في عِلِّية، وليس عنده حتى تدفئة. لم أعرف ذلك حين تلقيت الرسالة، ولكني علمتُه حين ذهبت لرؤيته، وإلى يومنا هذا ما زلت منزعجًا من اللهجة السخيفة لفيض عواطفه. العمى، حين يفتقر الرجل، عليه أن يقول إنه فقير! الفقراء يعيشون بين ظهرانينا دومًا، وهذا ضروري للمجتمع. ليس لدي اعتراضٌ على الإطلاق إذا افتقر الإنسان، على شرط ألا يستجدي الصدقات، وألا يضايق أحدًا؛ لكن لا يحق له أن يزيِّن ذلك بكلامٍ مُنَمَّق. اسمعوا ما يقول أيضًا:

[وبما أنه واجبٌ عليَّ أن ألبي احتياجات مَنْ أعولُهم، فقد قررتُ أن أستغل موهبةً أعتقد أنني وُهِبتُها. أنا شاعر ...]

أنعِم وأكرِم! أنت تعلم، أيها القارئ، رأيي ورأي كل العقلاء بهؤلاء.

[... وكاتب. ومنذ طفولتي كنت أعبر عن عواطفي شِعرًا. وفيما بعد أيضًا دوَّنتُ كل ما يجول في نفسي. أنا واثقٌ أن من بين جميع هذه الكتابات هناك بعض المقالات القيِّمة، وأنا أبحث عن ناشرٍ لها. وهنا مَكْمَن الصعوبة. الجمهور لا يعرفني، والناشرون يحكمون على العمل بناءً على

سمعة مؤلفه لا على مضمونه.]

تمامًا كما نحكم على القهوة بناءً على سمعة العلامة التجارية. وما العيب في ذلك؟

[لذلك، إن كان يحق لي أن أفترض أن عملي لا يخلو تمامًا من القيمة، وهذا بطبيعة الحال لا برهانَ عندي عليه إلا بعد النشر، والناشرون يطلبون التسديد مقدمًا من أجل تكلفة الطباعة، إلخ، ...]

وهم محقون في ذلك تمامًا.

[... وهذا لا يناسبني حاليًا. لكن، وبما أنني مقتنعٌ أن رَيْعَ الكتاب سيكفي النفقات، وهذا ما أضمنه بكل ثقة، وبما أنني تشجَّعتُ بعد لقائنا قبل يوم أمس ...]

يقول «تشجعت!»

[فقد قررت أن أطلب منك أن تكفلني لدى ناشرٍ مقابل تكلفة طبعةٍ أولى، حتى لو كانت مجلَّدًا صغيرًا. وأترك مسألة اختيار هذه العَيْنة لك أنت. ستجد في الرُّزمة المرفقة مخطوطاتٍ عديدةً، وسيتبيَّن لك منها أنني فكرتُ وعملتُ وشهدتُ كثيرًا، ...]

لم أسمع قط أنه عمل في مجال التجارة.

[... وإن كانت لا تنقصني تمامًا موهبةُ التعبير عن نفسي تعبيرًا حسنًا، فإن فشلي لا يُعزى قطعًا إلى نقصٍ في الانطباعات.]
[على أمل أن ألقى منك ردًّا إيجابيًا، المخلص لك، زميلُك السابق في المدرسة ...]

ثم كتب اسمه تحت ذلك. لن أذكره لأني لا أحب أن يُحكى عن أي إنسان.

عزيزي القارئ، بإمكانك أن تتخيل مدى دهشتي من هذا الإيحاء المفاجئ حين وجدت نفسي وقد ترقَّيتُ إلى منصب سمسارٍ للشِّعر. أنا على ثقة أن «شالمان» - أظن أنه يجدر بي أن أواظب على تسميته هكذا - لو رآني في النهار لَما فاتحني بطلبٍ كهذا. فحينها لا يمكن إخفاء الكياسة والاحترام. لكن هذا حدث في المساء، ولذلك لا أجده مدعاةً للقلق غير الـمُسوَّغ.

من البدهي أنني لم أرغب في التورط في هذا الهراء. كنت سأطلب من فرتس أن يعيد الرُّزمة، لكنني لا أعرف عنوان شالمان، وكان هذا آخر عهدي به. ظننتُ أنه مَرِضَ أو ماتَ أو شيء من هذا القبيل.

الأسبوع الماضي كان دور آل روزماير أن يقيموا حفلة الأسبوع. آل روزماير يعملون في مجال السُّكَّر. كانت تلك أول مرة يذهب فيها فرتس معنا. يبلغ السادسة عشرة من عمره، وأعتقد أنه يجدر بشابٍّ في سنه أن يخرج إلى الدنيا. وإلا فإنه قد يذهب إلى فِـسْتَر ماركت، أو شيء من هذا القبيل. قبل العَشاء كانت الفتيات يعزفن على البيانو ويغنين، وخلال تناول الحلوى كن يتمازحن عن شيء يبدو أنه حدث في قاعة الاستقبال، بينما نحن في الغرفة الخلفية نلعب الشدَّة. وقد بدا أنه أمر يتعلق بفرتس.

هتفتْ بِتْسي، «نعم، نعم، يا لِويز. لقد بكيتِ. بابا، فرتس أبكى لِويز!»

قالت زوجتي فورًا إن كان الأمر كذلك، فلن يُسمح لفرتس أن يأتي ثانيةً. ظنَّت أنه قَرَص لِويز، أو فعل شيئًا آخر غير لائق، وكنت شخصيًا على وشك أن أوبِّخه حين هتفت لويز:

«لا، لا! فرتس كان لطيفًا جدًّا! ليته يفعلها ثانيةً!»

يفعل ماذا ثانيةً؟ لم يقرصها، بل قرأ شيئًا، هذا كل ما في الأمر!

حقًا، تحب صاحبة المنزل أن ترى ضيوفها منشرحين خلال تناول الحلوى. وهذا يسد فراغًا. أدركت السيدة روزماير - آل روزماير يصرون على استخدام لقب السيدة،[13] لأنهم يعملون في تجارة السكر وشركاء في ملكية سفينة - أن ما أبكى لويز سيُرَوِّح عنا أيضًا، فطلبت من فرتس أن يعيد ما فعل؛ احمرَّ مثل ديك حبش. لم يخطر ببالي إطلاقًا كيف سَرّى عنهن - كنت أعلم ما بجعبته من الألف إلى الياء: «زفاف الآلهة،» «كتب العهد القديم مُقَفّاة،» ونُتَفًا من «زفاف كَماچـو» التي يستمتع بها الفتيان دائمًا لأن فيها شيئًا عن كرسي مرحاض.[14] لا أعرف ما الذي يستدرّ الدموع في أيٍّ من هذه. لكن الفتيات الصغيرات يبكين بسهولة.

كن يتصايحن، «هيا يا فرتس! أجل، يا فرتس! تفضل يا فرتس!» وأخيرًا استجاب فرتس. أنا لا أتفق مع تشويق القارئ عمدًا، لذلك يمكنني القول فورًا إنه قبل مغادرة البيت فتح فرتس وماري رُزمة شالمان واستخرجا منها كمًّا من الكتابات الوعظية والعاطفية المملة، وهذا ما جلب لي متاعب لا نهاية لها. لكن عليَّ أن أعترف، أيها القارئ، أن هذا الكتاب الذي بين يديك جاء أيضًا من تلك الرُّزمة، وسأعطي لاحقًا وصفًا مناسبًا لهذه الحقيقة، لأنني، من باب الغيرة على سمعتي، أعشق الصدق وأعرف عملي. (شركتنا هي لاست وشريكه، سماسرة قهوة، 37 لاورير خراخت).

ثم قرأ فرتس قطعةً من الهراء من أولها إلى آخرها. لا، لا يمكن أن تصفها بالقطعة، إذ لم تكن مترابطة إطلاقًا. كان شابٌّ يكتب إلى أمه عن وقوعه في الغرام، وأن الفتاة تزوجت شخصًا غيره - وهذا عين الصواب، برأيي - لكن على الرغم من ذلك ظل يحب أمه دائمًا. هل هذه الأسطر الأخيرة القليلة واضحة أم لا؟ هل تعتقدون أن الأمر يحتاج إلى كلمات أكثر لقول ذلك؟ حسنٌ ... لقد أكلتُ لُفافة جبنة، ثم قشَّرتُ إجاصتين وأكلتُها، وكنت أقرُط الثالثة وكِدتُ

أنتهي من نصفها قبل أن ينتهي فرتس من حكايته. ولكن لويز راحت تبكي من جديد، وقالت السيدات إن الحكاية جميلة جدًا، جدًا. عندئذٍ أخبرنا فرتس، الذي كان يعتقد أنه فعل شيئًا استثنائيًا، على ما أظن، أنه وجد الحكاية في تلك الرُّزمة التي أتت من شالمان، فشرحتُ للسادة الأفاضل كيف جاءت إلى منزلي. لكني لم أقل شيئًا عن الفتاة اليونانية لأن فرتس كان حاضرًا، كما أنني لم أذكر شيئًا عن السير في كاپل ستيخ. وأثنى الحاضرون على صنيعي في التخلص من ذلك الرجل. وسترون في الحال أنه كانت في الرُّزمة أشياء أخرى، ولكنها ذات طبيعة أكثر تماسكًا، وسأُدرج بعضها في هذا الكتاب لأنها لها علاقة بمزادات القهوة للشركة التجارية الهولندية.[15] لأن مهنتي هي حياتي، بالنسبة إلي.

وفيما بعد سألني الناشر إن كنت لا أمانع في إدراج ما قرأه فرتس. لا أمانع شريطة أن يُفهَم بشكلٍ جليٍّ أنني عادةً لا أتعامل مع هذا الشيء.[16] أكاذيب وسخافات، من البداية إلى النهاية. لكني سأمتنع عن التعليق، مخافةَ أن يطول كتابي كثيرًا. لكني أكتفي بالقول: إن الهَمْروجة(1) قد كُتبت، فيما يبدو، حوالي سنة 1843 في ضاحية پـادَن، وأن ذلك الصنف من النوع الرديء. أقصد صنف القهوة.

بعيدةٌ، بعيدةٌ مني، يا أمي
بلادُ سنواتي الأولى
بلادُ سنواتي الأولى
حيث حبُّك وإحسانُك
حيث قلبك، قلب الأم المخلصة
أسبغ الرعاية على ولدك

(1) المُتلوّية، المُتثنيّة.

وشاطرتِه كلَّ شيء، الأفراح والأتراح،
سبّاقةً لمداواة كل الجراح ...
قد يظن الناس أن القدر، بلا رحمةٍ،
فَلَق الرباط الذي يوحدنا ...
صحيحٌ، أقف على شاطئٍ غريبٍ
وحيدًا، مع الله ونفسي ...
لكن أيًا كان ما ذقته
من أسىً أو لذةٍ أو ألم،
فكوني على يقين، يا أُمي،
من محبة ابنك لك.

بالكاد مرت أربع سنوات
منذ أن كنتُ في الوطن العزيز
أحدِّق، صامتًا على الساحل،
في سرّاء المستقبل وضرّائه،
عندئذٍ استجمعتُ إليَّ
كل الجَمال المكنوز
هاجرًا ضجر الأيام
لأجل الفراديس الدانية ...
فداس القلبُ في عنفوان الشباب
على قفر الحياة بجسارة،
وأزاح الحواجز
وراح يحلم بالنعيم.

لكن السنين الأربع التي انقضت

منذ لقائنا الوداعي الحميم الأخير
الذي مر سريعًا كالبرق
مثل طيفٍ عابرٍ في واضحة النهار
تاركًا في سباقها الخفي
علاماتٍ لا يمحوها الزمن أبدًا!
في أفراحي الممزوجة بالأتراح
صلَّيتُ، وتفكَّرتُ
وابتهجتُ وقاتلتُ
خلال أيام بدت كأنها دهورٌ!
لقد وجدتُ، وأضعتُ،
وسعيتُ إلى ذُرَة الدنيا.
طفولتي مزَّقها الألم،
والساعات كلَّفتني سنين.

ورغم هذا، يا أماه، صدقيني،
قسمًا بعين إلهنا المبصرةِ كلَّ شيء،
أمي، أمي، صدقيني
إنك تسكنين في ذاكرتي!
أحببتُ فتاةً، فبدا عبء الحياة برمتها
بفعل ذلك الحب خفيفًا كالهواء.
إنها في عينيّ جائزةٌ،
إكليلٌ من الغار ينتظر
ليرسله إليَّ الله بعنايته ومحبته.
هانئًا بكنزي الناصع
الذي أُعطيتُه هدفًا لحياتي

وعلامةً على رضا خالقي
شكرتُه راكعًا.
الحب والدين - كانا شيئًا واحدًا ...
وسمَت النفس مُسبِّحةً شاكرةً
أنها خُلِقت
ومصليةً لأجلها وحدها!

ذلك الحب جلب لي الهموم،
والعذاب فَلَق قلبي نصفين
لا يقوى الإنسان على احتمال الألم
حين تمزق الجراح روحه الرقيقة.
الخوف والأسى وحدهما، في وفرةٍ،
حلّا محل أسمى لذةٍ
فأورثاني قسمةَ الويل والسم
بدلًا من كنزي المأمول.

كانت المكابدة الصامتة بهجةً!
صامدًا وقفتُ، يدفعني أملٌ مجنونٌ
لا طائل منه، أخوض معركتي
ولأجلها تحملت الأسى بطيب خاطر!
التعاسة التي أتاني بها بختي
جعل الكنز أكثر إشعاعًا،
ويا حبذا كل صعبٍ
لو أن القَدَر تركها لِي.
ولكن تلك الصورة التي حملتُها في قلبي -

وهي أجمل ما عندي في الدنيا -
في صميم قلبي المسكين،
كنعيم بلا ثمنٍ ...
حبي لها كان غريبًا إليَّ!
ورغم أن ذلك الحب سيبقى
إلى أن ينفتح بابُ الموت
فيعيدها إلى ذراعيَّ
في وطنٍ أفضل ...
الحب قد بدأ لتوِّه!

ما قيمة الحب الذي يجب أن يولَد
قياسًا إلى الحب الذي يغرسه الله
في قلبِ وليدٍ أبكم
تغمره المداعبات منذ البداية؟
حين يجد في صدر أمه،
وهو خارجٌ لِتَوِّه مِن رحمها،
أولَ قطرةِ ندى يَبُلّ بها عطشه
وفي عينيها أولَ نورٍ في الظلام؟

لا شيءَ أوثقُ،
مهما هاج بحر الحياة،
من الرابطة التي يعقدها الله
بين الأم وطفلها!

وقلبٌ نيرانُه المتأججة

كانت لأجل وميض الجمال العابر،
لا يضفر إلا تاجًا من الأشواك،
لا إكليلًا واحدًا لحلمي -
هل ينسى ذلك القلب إخلاصَ
قلبِ الأم الوفية؟
وعاطفةَ المرأةِ العميقةَ
التي تنحاز بلا ترددٍ لحبيبها
وهي تواسيني في حزني الطفولي،
وتسمع صرخاتي الطفولية الأولى،
وتمسح الدموعَ من عينيَّ بقُبُلاتِها،
وتمدني بأسباب الحياة من حياتها؟

أماه، قد لا تصدقينني:
قسمًا بعين إلهنا المبصرةِ كلَّ شيء،
عليكِ أن تصدقيني يا أمي
لأنك تسكنين في ذاكرتي!

ها أنا بعيدٌ، بعيدٌ جدًّا
من فيض الجمال والمرح في بلادي،
وأفراحُ الشباب في ربيعه الأول،
الثريةُ النادرةُ، التي طالما تبجَّحنا بها،
لن تكون من نصيبي في الغُربة،
فالقلب الوحيد لا يطربُ أبدًا.
شاهقٌ شائكٌ طريقي،
أثقلت كاهلي الهموم،

ولم تُبقِ لي الأعباءُ مكانًا في نفسي
للطمأنينة أو الفرح أو المرح ...
ولْتَشهَد دموعي وحدها
أن ساعات الألم الطويلة
تدفع ابنك، من شدة الحزن،
للعودة إلى ثدي الطبيعة من جديد ...

وكثيرًا، حين هجرتني شجاعتي،
وجدتُ نفسي أقول مضطرًا:
«أبَتي، هَبني وأنا بين الأموات
ما لم يكن مُقدَّرا لي في الحياة!
أبَتي، هَبني هناك -
- حين أشعر بقُبلة الموت -
أبَتي، هَبني هناك
راحةً لم أعرفها وأنا على قيد الحياة!»

لكن ذلك الدعاء ظل حبيسًا،
لم يُرفَع إلى خالق السماء ...
ركعتُ ركوعَ الخاشع الخانع،
فلم يكن نَفْثُ آهاتي إلا:
«مهلًا، ربّاه، أنعِم عليَّ وتكَرَّم -
هبني قُبَيل الموتِ قُبلةً من أميَ!»

[4]

قبل أن أكمل، أودُّ أن أخبركم أن الشاب شتيرن قد وصل. وهو شابٌ لطيفٌ بما يكفي. يبدو أنه فَطِنٌ وبارعٌ، لكني أعتقد أنه حالم - schwärmt - كما يقول أولئك الألمان. ماري في الثالثة عشرة. ملابسه أنيقةَ جدًّا. جعلتُه يعمل على دفتر النسخ لعلَّه يتعود على الأسلوب الهولندي. عندي فضول لأعرف متى سنتلقى طلبياتٍ من لودفِگ شتيرن. ستطرِّز له ماري خُفَّين ... أقصد للشاب شتيرن. أما بوسَلِنك وَواترمَن فقد فاتهم القطار. السمسار المحترم لا يبيع بسعرٍ أقل، هذا رأيي!

بعد يوم من الحفلة في بيت آل روزماير، سماسرة السكر، ناديت فرتس وقلت له أن يأتيني برزمة شالمان. يجب أن تعرف، أيها القارئ، أنني متشددٌ في مسائل الدين والأخلاق في أسرتي. ففي الأمسية السابقة، وبعد أن قشَّرتُ إجاصتي الأولى، فهمتُ من وجه إحدى الفتيات أن في تلك القصيدة شيئًا لا يليق. أنا شخصيًا لم أستمع إليها، لكني لاحظتُ أن بِتسي فتَّتت لُفافة خبزها، وكانت تلك الإشارة تكفيني. ستدرك، أيها القارئ، أنك تتعامل مع رجل خَبِرَ الدنيا. لذلك جعلتُ فرتس يقرأ تلك المقطوعة النفيسة التي قرأها ليلة أمس، وسرعان ما وجدت ذلك البيت الذي تسبب في تفتيت لفافة بِتسي، وفيه ذِكرٌ لطفلٍ على صدرِ أمه - لا بأس في ذلك، على ما أظن - لكن: «وهو خارجٌ لِتَوِّه من رحمها» لا أظن ذلك لائقًا - أقصد الحديثَ عن هذا الأمر - وهذا هو رأي زوجتي أيضًا. ماري في الثالثة عشرة. في بيتنا لا نتحدث عن «الأخت الصغيرة

الجديدة الآتية من عند بائعة الخضار في رأس كرنب كبير» أو عن «اللقلق» أو ما شابه ذلك، لكني أيضًا لا أظن أن الحديث الفَجَّ عن هذا الموضوع ضروري، لأني أهتم بالأخلاق كثيرًا. للأسف كان فرتس يعلم الأمر «ظاهريًا» كما يسميه شتيرن، أي عن ظهر قلب. لكنني جعلته يَعِدُني ألا يقرأ تلك القصيدة ثانيةً - على الأقل، ليس قبل أن يصبح عضوًا في الدُّكْترينا، حيث لا يُسمح للفتيات بالدخول إلى ذلك النادي - ثم خبَّأتُها في دُرج مكتبي، أقصد القصيدة. لكنني بعد ذلك أردت أن أعرف إن كان في تلك الرزمة شيءٌ آخر مُسيء. ولذلك رحت أبحث في الأوراق. لم أستطع قراءتها جميعًا، لأن بعضها كان بلغاتٍ لا أعرفها. لكن فجأةً وقعت عيني على حُزمةٍ بعنوان «تقريرٌ عن زراعة القهوة في متصرفية مينادو.»

قفز قلبي لأنني سمسار قهوة - 37 لاورير خراخت - ومينادو علامة تجارية جيدة. إذن، شالمان هذا، الذي كتب تلك الأشعار الفاسقة - كان سمسار قهوة أيضًا. وهذا جعلني أنظر إلى رزمته من جديد، بعينين مختلفتين تمامًا، فوجدتُ فيها مقالاتٍ لم أفهمها تمامًا - أي نعم، هذا صحيح - لكن فيها معرفة حقيقية نابعة من خبرة. كانت هناك قوائم وبيانات وحسابات مع صور لم أفهم رأسها من ذيلها، وكان كل شيء معمولًا بعنايةٍ ودقةٍ جعلتني بصراحة - وأنا أعشق الصراحة - أفكر لو أن موظفنا الثالث استقال يومًا ما - وهذا واردٌ جدًا نظرًا لتقدمه في السن ووهنه - لو أنه استقال لحلَّ محله شالمان. ومن البدهي أنه يتوجب عليَّ في البداية أن أُجري تحرياتي بخصوص نزاهته ودينه واحترامه، لأنني لا أوظف أحدًا في المكتب ما لم أتأكد من تلك النقاط. هذا مبدأٌ ثابتٌ عندي، كما رأيتم من رسالتي إلى لودڤِگ شتيرن.

لم أُرِد أن يرى فرِتس أنني مهتمٌ إطلاقًا بمحتوى الرزمة، لذلك صرفتُه. لقد

ذُهِلْتُ بالفعل حين التقطتُ حزمةً بعد حزمةٍ من الأوراق، وقرأت العناوين. صحيحٌ أن بينها الكثيرَ من القصائد، لكني وجدتُ أشياء كثيرةً نافعةً، وأدهشني تنوع الموضوعات. وعليَّ أن أعترف - لأني أعشق الصدق - أنني أنا الذي طالما عمل في سمسرة القهوة لم أكن مؤهلًا لتخمين قيمة كل هذه الأشياء، لكن، مع ذلك، كانت قائمة العناوين بحد ذاتها مذهلةً جدًا. لقد أخبرتُكم عن قصة اليوناني، وهكذا أنتم تعلمون من قبل أنني كنت في شبابي دارسًا للاتينية. ومع أنني أمتنع امتناعًا باتًّا عن الاستشهاد بمقولات كلاسيكية في مراسلاتي - وهو أمرٌ غير وارد، بطبيعة الحال، في مهنة السمسار - خطر لي رغمًا عني حين رأيتُ كلَّ هذا: de omnibus aliquid, de toto nihil [17] أو multa, non multum.[18]

ولكن ذلك كان بدافع الانزعاج ورغبةً في مخاطبة هذا الكم المعرفي الماثل أمامي بعبارةٍ لاتينيةٍ، وليس لأنني تعمَّدتُ ذلك بصدقٍ. لأنني حين أمعنت النظر في بعض المقالات، عليَّ أن أعترف أن الكاتب كان على قَدْر المهمة، بل إن منطقه سليمٌ جدًّا.

وجدتُ أطروحاتٍ ومقالاتٍ:

عن السنسكريتية بوصفها أم اللغات الجِرمانية.

عن عقوبات وأد الأطفال.

عن أصل الأرستقراطية.

عن الفرق بين مفهوم «الزمن اللانهائي»، ومفهوم «الخلود.»

عن نظرية الاحتمالات.

عن سِفْر أيّوب. (وجدتُ شيئًا آخر عن أيّوب لكنه كلامٌ منظوم).

عن البروتين في الغلاف الجوي.

عن فن إدارة الدولة عند الروس.

عن الأحرف الصائتة.

عن السجون الزنزانية.

عن النظريات المتعلقة بمقولة «الطبيعة تمقت الفراغ».[19]

عن الرغبة في إلغاء عقوبات التشهير.

عن أسباب التمرد الهولندي على إسبانيا غير الناشئة، عن الرغبة في الحرية الدينية أو السياسية.

عن الحركة الدائمة، وتربيع الدائرة، والجذر التربيعي الأصم.

عن جاذبية الضوء.

عن انحطاط الحضارة منذ نشأة المسيحية. (ماذا؟!)

عن الأساطير الآيسلندية.

عن كتاب «إميل» لروسّو.

عن القانون المدني في التجارة.

عن كوكب الشِّعْرى بوصفها مركز النظام الشمسي.

عن جمارك الاستيراد، كونها غير فعالة ومسيئة وغير أخلاقية. (أنا لم أسمع بشيءٍ من هذا القبيل).

عن الشعر بوصفه أقدم اللغات. (لا أصدق هذا).

عن النمل الأبيض.

عن المدارس كونها مخالفة للفطرة.

عن البِغاء في الزواج. (عمل فضائحي).

عن استخدام الهيدروليك في زراعة الأرز.

عن الصعود الظاهر للحضارة الغربية.

عن ضريبة المسح التفصيلي، والتسجيل، والطابع.

عن كتب الأطفال، والخرافات وحكايات الجِن. (أعتقد أنني سأقرأ هذا لأنه يُصر على الحاجة إلى الصدق).

عن السماسرة في التجارة. (لا يعجبني هذا العنوان إطلاقًا. أظن أنه يريد أن يتخلص من السماسرة. لكني اخترت هذه الأطروحة ووضعتها

جانبًا لأن فيها شيئًا أو شيئين يمكن أن أستخدمهما في كتابي).
عن ضريبة الموت بوصفها أفضل الضرائب.
عن اختراع العِفَّة. (لا أفهم هذا).
عن عملية الضرب. (يبدو هذا العنوان في غاية البساطة، لكن المقالة فيها أشياء كثيرة لم تخطر ببالي).
عن نوعٍ معينٍ من فِطنة الفرنسيين الناشئة من فقر اللغة الفرنسية. (هذا صحيح تمامًا، برأيي. الفطنة والفقر ... لا بد أنه يعرف).
عن الصلة بين روايات أوگست لافونتين ومرض السُّل. (سأقرأ هذه، وعندنا في العِلِّية بعض كتب لافونتين. لكنه يقول: إن الأثر لا يظهر إلا في الجيل الثاني. جدّي لم يكن يقرأ).
عن قوة بريطانيا خارج أوربا.
عن المحاكمة بالمحنة في العصور الوسطى والعصر الحاضر.
عن علم الحساب عند الرومان.
عن افتقار المؤلفين الموسيقيين للشعر.
عن التقوى، والتنويم المغناطيسي، وقلب الطاولة.
عن الأمراض المُعدية.
عن فن العمارة المغربية.
عن قوة التحامل، كما يتضح من الأمراض التي تُنسَب إلى القحط. (ألم أقل لكم إن القائمة مذهلة؟)
عن الوحدة الألمانية.
عن خطوط الطول في البحر. (لا أعتقد أن الأشياء في البحر أطول مما هي عليه في اليابسة).
عن واجبات الحكومة فيما يتعلق بتسلية العامة.
عن التشابه بين اللغتين الإسكوتلندية والفَريزية.
عن علم العَروض.

عن جمال نساء نيم وآرل، وبحثٌ في نظام الاستعمار لدى الفينيقيين.
عن العقود الزراعية في جاوا.
عن قوة السحب في مضخّة جديدة.
عن مشروعية السلالات الحاكمة.
عن الأدب القومي كما يتجلّى في الملاحم الشعرية.
عن الطريقة الجديدة في طيِّ الأشرعة
عن تطبيق القَدح في القنابل اليدوية. (هذه المقالة مؤرّخة في سنة 1847، أي قبل أورسيني).[20]
عن فكرة الشرف.
عن الكتابات المشكوك في صحتها.
عن قوانين سولون، ليكورگوس، زرادشت، كونفوشيوس.
عن السلطة الأبوية.
عن شكسبير المؤرخ.
عن العبودية في أوربا. (لا أفهم ماذا يقصد بهذا).
عن لَوالِب أرخميدس.
عن حق العفو السيادي.
عن المكونات الكيميائية للقِرفة السيلانية.
عن الانضباط على متن السفن التجارية.
عن نظام ترخيص الأفيون في جاوا.
عن ضوابط بيع السموم.
عن شقِّ قناة السويس وعواقب ذلك.
عن تسديد ضريبة الأراضي عينيًا.
عن زراعة القهوة في مينادو. (لقد ذكرتُ هذا من قبل).
عن تقسيم الإمبراطورية الرومانية.
عن Gemüthlichkeit حيمية الألمان.

عن الإدّا الإسكندناڤية.
عن واجب فرنسا تجاه نفسها، لمواجهة نفوذ إنجلترا في الأرخبيل الماليزي. (هذا مكتوبٌ بالفرنسية، لسببٍ لا أعرفه).
عن صناعة الخَل.
عن تبجيل الطبقات الألمانية الوسطى لِشِلَر وگوته.
عن مطلب السعادة لدى الإنسان.
عن حق التمرد على الظلم. (كان هذا باللغة الجاوية، ولم أتبين العنوان إلا فيما بعد).
عن مسؤولية الوزراء.
عن مسائل في القانون الجنائي.
عن حق الشعب في المطالبة بأن تُصرَف الضرائب التي يدفعونها على مصالحهم. (وهذه أيضًا باللغة الجاوية).
عن حرف A المزدوج، وإيتا الإغريقية.
عن وجود إله غير شخصي في قلوب البشر.
عن الأسلوب.
عن دستورٍ لإمبراطورية إنسولِندي.[21] (لم أسمع بهذه الإمبراطورية قط).
عن غياب نون الوقاية في قواعدنا النحوية.
عن الحذلقة. (أعتقد أن هذه المقالة نابعةٌ من معرفة وخبرة).
عن مديونية أوربا للبرتغاليين.
عن أصوات الغابة.
عن قابلية احتراق الماء. (أظن أنه يقصد «الماء القوي»).
عن بحر الحليب. (لم أسمع بهذا قط. يبدو أنه شيءٌ قريبٌ من جُزر باندا).
عن العَرّافين والأنبياء.
عن الكهرباء بوصفها قوةً محركةً من دون حديدٍ مُطاوع.
عن نهوض الحضارة وأُفولها.

عن الفساد المستشري في الاقتصادات الوطنية.
عن الشركات التجارية ذات الامتيازات. (هذه تحتوي على عدة أشياء أحتاجها لكتابي).
عن فائدة التأثيل في الدراسات الإثنولوجية.
عن أعشاش الطيور في الأجراف الصخرية في الساحل الجنوبي لجاوا.
عن مطلع النهار. (لا أفهم هذا).
عن الآراء الشخصية بوصفها معيارًا للمسؤولية في العالم الأخلاقي.
عن التأدُّب مع النساء.
عن نظم الشعر لدى العبرانيين.
عن كتاب «قرن الاختراعات» للماركيز دو وِستر.
عن الأهالي الصائمين في جزيرة روتي القريبة من تيمور. (لا بد أن المعيشة رخيصة هناك).
عن أكل لحوم البشر لدى البَتَك، وقطع الرؤوس بين الألفورس.
عن فقدان الثقة في الأخلاق العامة. (أظن أنه يريد إلغاء صناعة الأقفال، وهذا ما لا أوافق عليه).
عن التضاد بين «القانون والحقوق.»
عن الفيلسوف بيرونجيه. (وهذا شيء آخر لا أفهمه).
عن كراهية الملاويين للجاويين.
عن قلة نفع التعليم فيما يُسمى بالجامعات.
عن روح أسلافنا الخالية من الحب، كما تتضح من خلال أفكارهم عن الله. (كلامٌ فيه زندقة).
عن ترابط الحواس. (صحيح، فعندما رأيته شممتُ عطر الورود).
عن الجذر المخروطي لشجرة القهوة. (وضعتُ هذه جانبًا لكتابي).
عن الشعور والحساسية والعاطفية عند الإنجليز والفرنسيين والألمان، إلخ.

عن خلط الأساطير بالدين.
عن نبيذ نخيل الـگـومَتي في جزيرة الملوك.
عن مستقبل التجارة الهولندية. (هذه هي المقالة التي دفعتني لكتابة كتابي، وفيها يقول: إن المزادات الكبرى للقهوة لن تدوم، وأنا مهنتي هي حياتي).
عن سِفْر التكوين. (مقالة مخزية).
عن الجمعيات السرية الصينية.
عن الرسم بوصفه الشكل الطبيعي للكتابة.
عن الصدق في الشعر. (إلا هذه!).
عن قلة رواج مضارب الأرز في جاوا.
عن الصِّلة بين الشِّعر والعلوم الرياضية.
عن عُروض الظل الصينية.
عن سعر القهوة الجاوية. (وضعتُ هذه جانبًا).
عن عملةٍ أوربيةٍ.
عن ري الأراضي المشاع.
عن أثر التزواج بين الأعراق في الذهن.
عن التوازن التجاري. (في هذه يتحدث عن العلاوات على سندات الصرف، وقد وضعتُها جانبًا لأجل كتابي).
عن ثبات العادات الآسيوية. (يدّعي أن يسوع كان يلبس عَمامة).
عن نظريات مالتوس عن نسبة السكان إلى وسائل العيش.
عن سكان أمريكا الأصليين.
عن الأرصفة والأرصفة البحرية في بتاڤـيا وسِمَران وسورابايا.
عن العمارة بوصفها تعبيرًا عن الأفكار.
عن علاقة المسؤولين الأوربيين بالمتصرفين في جاوا. (سأستخدم شيئًا أو شيئين من هذه في كتابي).

عن مساكن الأقبية في أمستردام.
عن قوة الخطأ.
عن خمول كائنٍ أسمى بالنظر إلى وجود قوانين طبيعية تامة.
عن احتكار الملح في جاوا.
عن الديدان في نخيل السيكاد الملتف. (إنهم يأكلونها ... ما أقرفهم!).
عن سِفْر الأمثال، وسِفر الجامعة، ونشيد سليمان، وقصائد الپانتون الجاوية.
عن أحقية الأول بالاحتلال.[22]
عن بؤس فن الرسم.
عن سَفالة الصيد بالصنارة. (ما سمعنا بهذا من قبل!).
عن جرائم الأوربيين خارج أوربا.
عن أسلحة الحيوانات الأضعف.
عن حق الأخذ بالثأر. (قبَّحه الله! في هذه قصيدةٌ علمتُ أنها ستكون فاضحةً لو أنني قرأتها إلى النهاية).[23]

ولم يكن هذا كل شيء! فبالإضافة إلى القصائد - كانت هناك قصائد بعدة لغات - وجدتُ لفافاتٍ صغيرةً غير مُعَنْوَنة: غرامِيّات بلغة الملاوي، وأناشيد حربية بالجاوية، والله أعلم ماذا أيضًا! كما وجدتُ رسائلَ، كثيرٌ منها بلغاتٍ لا أعرفها. بعضها كان موجَّهًا إليه، وأخرى كتبها هو، أو بالأحرى، كانت نسخًا من رسائل كتبها هو. لكن يبدو أن له هدفًا من هذه الرسائل، فكل شيءٍ كان مُذيَّلًا من قبل أشخاصٍ آخرين بعبارة «نسخة حقيقية مُصدَّقة.» بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مقتطفات من يومِيّات، وملاحظات وتدوينات غريبة ... بعضها كان غريبًا جدًا.

وكما قلت من قبل، وضعتُ بعض المقالات جانبًا، إذ بدت مفيدةً لي في

مهنتي، ومهنتي هي حياتي. لكن عليَّ أن أعترف أنني احترتُ ماذا أفعل بالبقية. لم يكن باستطاعتي إعادة الرزمة إلى شالمان، إذ لم أكن أعرف أين يسكن. ثم إنني فتحتُها. لم يكن بإمكاني أن أنكر أنني نظرتُ فيها، ولا ينبغي لي أن أنكر ذلك في كل الأحوال، لأنني رجلٌ صادقٌ. إضافةً إلى ذلك، لم أستطع، مهما حاولتُ، أن أربطها بحيث تبدو بالضبط كما كانت من قبل. وكان عليَّ أن أعترف أن بعض المقالات المتعلقة بالقهوة أثارت اهتمامي، وأردت أن أستفيد منها. كنت كل يوم أقرأ بضع صفحات من هنا وهناك، فأصبحتُ مقتنعًا أكثر فأكثر - فرتس يقول الأكثر فالأكثر، أما أنا فلا أقول ذلك - أنه لا بد أن تكون سمسار قهوة لتكتشف بهذه الطريقة ماذا يجري في الدنيا. أنا واثقٌ أن آل روزمايَر، سماسرة السكر، لم يقع نظرهم على شيءٍ من هذا القبيل في حياتهم.

وهكذا بدأتُ الآن أخشى أن يظهر لي فجأةً شالمان من جديد، وأن يقول لي شيئًا. بدأت أندم لأني انعطفت نحو كاپل ستيخ في ذلك المساء، وأدركت أن المرء يجب ألا يغادر أبدًا الطريقَ المستقيمَ الضيقَ. بلا شك، كان يريد مني مالًا وأن يتحدث عن رُزمته. ليتني أعطيته شيئًا، فحينها لو أرسل لي كومة الخربشات في اليوم التالي لأصبحتْ بالقانون ملكًا لي. وحينها يصبح بإمكاني أن أفرز الغثَّ من السمين، وأُبقي على المقالات التي أحتاجها في كتابي، وأحرق البقية أو أُلقيها في سلة المهملات الورقية، وهذا ما لا أستطيع فعله الآن. لأنه لو عاد شالمان فسيتوجَّب عليَّ أن أتخلى عن الرزمة، وإن رأى أنني مهتم بمقالةٍ أو مقالتين من تدبيج قلمه، فسيطمع كثيرًا ويطلب مبلغًا كبيرًا لقاءَ ذلك. لا شيء يُطمع البائع أكثر من أن يكتشف أن الشاري بحاجةٍ إلى بضاعته. لذلك على التاجر الماهر أن يبذل ما بوسعه لئلا يقع في هذه الورطة.

خطر لي خاطرٌ آخر - مع أنني ذكرتُه من قبل - أن الحياة في عالم البورصة

عرضةٌ للتأثر، فيصبح المرء بالنتيجة عرضةً لانطباعاتٍ إنسانيةٍ. لاحظتُ مؤخرًا أن باستيانْس - الموظفَ الثالثَ الواهنَ المتقدمَ في السن - صار من النادر أن يُداوم في المكتب خمسةً وعشرين يومًا من أصل ثلاثين، وحين يأتي فهو يعمل بلا إتقان. وبما أنني رجلٌ نزيه، فإنني أشعر بأنني مُلزَم أمام الشركة - لاست وشريكه، منذ أن غادرها آل ماير - أن يقوم كل موظفٍ بعمله بشكل مناسب، وأنا لست مُخوَّلًا أن أبعثر مال الشركة بسبب تصور خاطئ عن الشفقة أو تأنيب الضمير. هكذا هي مبادئي. فأنا أفضِّل أن أمنح باستيانس هذا ثلاثة خولدنات من جيبي الخاص بدلًا من الاستمرار في دفع سبعمئة خولدن سنويًا لم يعد يكسبها بعرق جبينه. لقد حسبت أنه خلال الأربع والثلاثين سنة الماضية، تمتع هذا الرجل بدخلٍ - من لاست وشريكه ومن لاست وماير، لكن آل ماير خرجوا - مقداره خمسة عشر ألف خولدن تقريبًا، وهذا بالنسبة إلى عامل مكتبٍ بسيطٍ مبلغٌ صغيرٌ محترمٌ. لا يوجد كثيرون في مثل وضعه الحياتي يتمتعون بمثل هذا الدخل. لذلك ليس لديه ما يشكو منه. ما دفعني إلى إجراء هذه العملية الحسابية هو مقالة شالمان عن الضرب.

خطر لي أن شالمان هذا خطه جميل. كان مظهره رثًّا، ولم يعرف كم الساعة ... ماذا لو أعطيته وظيفة باستيانس؟ عليَّ أن أخبره، طبعًا، أنه يجب أن يناديني «سيدي» لكنه على الأرجح لن يحتاج إلى من يخبره، لأنه ليس من الطبيعي أن يخاطب موظفٌ ربَّ عمله بكُنْيَتِه، وبهذه الطريقة يمكنه أن يستقر مدى الحياة. بإمكانه أن يبدأ براتبٍ أربع مئة، أو خمس مئة خولدن -صاحبنا باستيانس اضطر للعمل زمنًا طويلًا قبل أن يصل إلى راتب سبعمئة- وأظن أنني أُحسن صنعًا في هذه الصفقة. في الحقيقة، لا يوجد ما يمنع أن يبدأ بمبلغ ثلاثمئة خولدن - وبما أنه لم يدخل مجال التجارة من قبل قطّ، فبإمكانه أن ينظر إلى السنين القليلة الأولى

بمثابة فترة تدريب، وهي ليست أكثر من معقولة، لأنه لا يمكن أن يساوي نفسه بمن لديهم خبرة طويلة في العمل. أنا واثقٌ تمامًا أنه سيرضى بمبلغ مئتي خولدن.

لكنني لم أكن مرتاحًا لسجِلِّه ... فهو كان يلبس وشاحًا، كما تعلمون. ثم إنني لا أعرف أين يسكن.

وبعد يومين من هذا، ذهب الشاب شتيرن وفرتس إلى مزادٍ للكتب في «هت واپن فن بيرن.» وكنتُ قد منعت فرتس من شراء أي شيء، ولكن شتيرن، الذي كان لديه الكثير من مصروف الجيب، جاء إلى البيت محملًا بما راق له من سقط المتاع. وهذا شأنه هو. لكن هل تصدقون، أخبرني فرتس أنه رأى شالمان، ويبدو أنه كان يعمل في المزاد. كان يُنزل الكتب من الرفوف إن طُلِبت، وينثرها على الطاولة الطويلة أمام الدلّال. قال فرتس إنه كان شديدَ الشحوب، وإن رجلًا - يبدو أنه المسؤول هناك - قد شتمه لأنه أسقط بعض الأجزاء المجلَّدة من «أگـلايا.» وهذه بلا شك قمة الخَرَاقة، فكيف له أن يُسقِط هذه المجموعة الفاتنة من أنماط التطريز للسيدات؟ تتقاسم ماري هذه المجموعة مع أسرة روزماير، سماسرة السكر. ماري تُطرِّز منها ... أقصد من «أگـلايا.» ولكن خلال الشجار سمع فرتس كم يكسب شالمان، حين سأله الرجل، «هل تظن أني سأضيِّع عليك خمسة عشر ستاوفَر كل يوم؟» وقد حسبتُ أن خمسة عشر ستاوفَر تساوي مئتين وعشرين خولدن في السنة - لا أظن أن أيام الأحد والعطلات تُحسَب، وإلا لتوجّب عليه تسمية راتب شهري أو سنوي. أنا سريعٌ في اتخاذ القرارات - حين تُنفق من العمر ما أنفقتُ في التجارة، فستعرف دومًا ما يجب عليك فعله - وهكذا توجهتُ إلى مكان خاف زواخَر،[24] بائع الكتب الذي أقام المزاد، وسألته عن الرجل الذي أسقط «أگـلايا.»

قال خاف زواخَر، «لقد طردتُه. فقد كان كسولًا، وقحًا، مريضًا.»

اشتريتُ علبة من رقائق البسكويت المحشو من الدكان، وقررتُ فورًا أن أمنح صاحبنا باستيانس فرصةً أخرى. لم يُطاوعني قلبي على رمي رجلٍ مُسنٍّ في الشارع. الحزم، لكن، إن أمكن، اللطف - هذا مبدئي في الحياة دائمًا. لكن لا يفوتني أبدًا أن أتعلم أي شيء ينفعني في تجارتي، لذلك سألتُ خاف زواخَر عن مكان سكن صاحبنا شالمان. أعطاني عنوانه، فدوَّنتُه.

مكثتُ أفكر مليًا في كتابي. ولكن، بما أنني رجلٌ صادق، عليَّ أن أعترف بصراحةٍ أنني لم أعرف من أين أبدأ. الشيء المؤكد الوحيد هو أن المادة التي وجدتُها في رزمة شالمان مفيدةٌ جدًّا لسماسرة القهوة. السؤال الوحيد كان: كيف أُغَرْبِل تلك المادة وأجمعها جمعًا صحيحًا. فكل سمسار يعرف مدى أهمية تصنيف أنواع القهوة المختلفة تصنيفًا مناسبًا.

لكن ... الكتابة - باستثناء مراسلة مديري الشركات - ليست مهنتي. لكني شعرتُ بواجب الكتابة، لأن مستقبل المهنة برمتها قد يتوقف عليها. والمعلومات التي وجدتها في أوراق شالمان، لا يمكن أن تحتفظ بها شركة لاست وشريكه لمصلحتها الفردية فقط. لو كانت كذلك، لَفَهِم الناس أنني لن أتحمل مشقة طباعة كتاب، ستقرؤه شركة بوسَلِنك وَواترمَن أيضًا، لأن من يساعد منافسًا في طريقه فهو أحمق. هذا مبدأ ثابت عندي. لا ... أدركت أن خطرًا يتهدد سائر سوق القهوة، وهو خطرٌ لا يمكن تجنبه إلا بتوحيد جهود كل السماسرة، بل إن هذه الجهود قد لا تكفي، وأن أصحاب معامل تكرير السكر - raffinadeurs كما نسميهم بالهولندية - فرتس يقول raffineurs لكن أنا أقول raffinadeurs؛ وكذلك يقول آل روزماير، وهم سماسرة سكر. أنا أعلم أنه إذا تحدثنا عن وغد يمكننا أن نقول إنه geraffineerd [مهذب]، لكن ليس geraffinadeerd، لكن

هذا مردُّه إلى أن كل من يتعامل مع الأوغاد يتخلص منهم بأسرع ما يمكن، من غير إضاعة مقطع صوتي عليهم - حسنٌ، إذن، على أصحاب معامل تكرير السكر وتجار النِّيلة أن ينضموا إلى هذا المجهود.

حين أتأمل المسألة على هذه الشاكلة وأنا أكتب، يبدو لي أنه حتى مالكو السفن سيتأثرون بهذا الأمر إلى حدٍّ ما، والبحرية التجارية ... بلا شك ستتأثر، لا جدال في ذلك! وحتى صانعو الأشرعة، ووزير المالية، والأوصياء على قانون الفقراء، والوزراء الآخرون، وصانعو المعجنات، وبائعو الخردوات، والنساء وصنّاع السفن، وبائعو الجملة والتجزئة، والوكلاء، وعمال الحدائق.

ما أغرب الأشياء التي تخطر للمرء وهو يكتب - وكتابي يهتم أيضًا بأصحاب المطاحن، ورجال الدين، وبائعي حبوب هولواي، وصانعي الخمور والبلاط، والناس الذين يعيشون على الضمان (بموجب شهاداتٍ مذهَّبة الأطراف) وصانعي المضخات، والحبال، والنساجين، والجزارين، وموظفي السماسرة، والمساهمين في شركة التجارة الهولندية، وفي الحقيقة، عمومًا كل شخص آخر أيضًا ...

والملك أيضًا ... أي نعم، الملك فوق الجميع!

يجب أن يخرج كتابي إلى الدنيا. لا مناصَ من ذلك. لا يهم إن كانت شركة بوسَلِنك وَواترمَن ستطَّلع عليه أيضًا ... الحسد ليس من طباعي. لكنهم نصّابون وحقيرون، هذا رأيي أنا فيهم. في الحقيقة، هذا ما قلته اليوم للشاب شتيرن حين رشحتُه لعضوية «آرتِس.» وإن شاء أن يكتب لأبيه ويخبره بهذا، فعلى الرحب والسعة.

على أية حال، ... قبل بضعة أيام، كنت في حيرة من أمري بشأن كتابي، ولكن فرتس، والحمد لله، أنقذني الآن من الورطة. لم أخبره بذلك، لأني لا

أستحسن أن تعترف للناس بأنك مدينٌ لهم - هذا واحدٌ من مبادئي - ولكنه صحيح مع ذلك. قال: إن شتيرن شاب ذكي، وإنه يتعلم لغتنا بسرعة؛ بل إنه ترجم بعض القصائد الألمانية التي كتبها شالمان إلى الهولندية. كما ترون، انقلبت الدنيا رأسًا على عقب في بيتي: الهولندي كتب بالألمانية، والآن الألماني يترجمها إلى الهولندية! لو أن كل واحد التزم بلغته، لوفَّر علينا المشقّة. لكن خطر ببالي هذا الخاطر: ماذا لو جعلتُ شتيرن يكتب كتابي نيابةً عني؟ وإن كان لدي ما أضيفه، فبإمكاني أن أكتب بنفسي فصلًا منه بين الحين والآخر. كما خطر لي أن فرتس بإمكانه أن يساعدني أيضًا. لديه قائمة بالكلمات التي تُكتَب بحرفي e. وماري بإمكانها تبييض كل شيء؛ وهذه ضمانة للقارئ من أي فجور. وسترون أنه لا يمكن لأي سمسار محترم أن يضع بين يدي ابنته أي شيء مخالفٍ للأخلاق والحشمة.

لذلك تحدثت إلى الصبيين عن مشروعي، فاستحسنه كلاهما. بيد أن شتيرن، وهو صاحب ميول أدبية - مثل كثيرٍ من الألمان - أراد، فيما يبدو، أن يكون له رأي في تنفيذ هذا المشروع. بصراحة، لم يُعجبني هذا الأمر كثيرًا، لكن مزاد الربيع على الأبواب، وحتى الآن لم أتلقَ أي طلبيات من لودفِگ شتيرن، لذلك لم أرغب في مخالفته كثيرًا. لقد قال: «حين توهَّج صدره بإحساس الحق والجمال، لم تستطع قوةٌ على الأرض أن تمنعه من عزف تلك الأنغام التي تنسجم مع هذا الإحساس، وأنه يفضل الصمت على أن يرى كلماته تقيدها القيود المهينة لعالم اليوم.» (فرتس يقول «للعالم اليومي،» أما أنا فلا أقول ذلك - كما أنه لا عيب في العمل). كان هذا برأيي في غاية السخف من شتيرن، لكن مهنتي تأتي في المقام الأول، وأبوه صاحب شركة محترمة. لذلك اتفقنا على ما هو آتٍ:

1. أن يكتب شتيرن بضعة فصول لكتابي كل أسبوع؛
2. ألا أغير أي شيء يكتبه؛
3. أن يصحح فرتس الأخطاء النحوية؛
4. أن يكون لي الحق في كتابة فصلٍ بين الحين والآخر، وذلك لكي نعطي الكتاب مظهرًا محترمًا؛
5. أن يكون عنوانه «مزادات القهوة في شركة التجارة الهولندية»؛
6. أن تُعِدَّ ماري النسخة المبيَّضة للطباعة، على أن نصبر عليها في الأيام التي يصل فيها الغسيل إلى البيت؛
7. أن تُقرأ الفصول المنتهية بصوتٍ عالٍ كل أسبوعٍ في الحفلة؛
8. أن يُجتَنب الفجور أيًا كان نوعه؛
9. ألا يظهر اسمي على صفحة العنوان، لأنني سمسار؛
10. أن يُفوَّض شتيرن بنشر ترجماتٍ ألمانية وفرنسية وإنـكـليزية لكتابي، لأن هذه الأعمال - كما يقول - تُفهَم في البلدان الأجنبية خيرًا مما تُفهَم في بلادنا؛
11. (أصر شتيرن على هذا الشرط). أن أرسل إلى شالمان ماعونًا من الورق ومئة وأربعة وأربعين قلمًا ومِحْبَرة.

وافقت على كل شيء، بما أن كتابي كان مُلِحًّا. في اليوم التالي، كان شتيرن قد انتهى من فصله الأول؛ وهنا، أيها القارئ، الجواب على سؤال كيف أصبح سمسار قهوة - لاست وشريكه، 37 لاورير خراخت - يكتب كتابًا شبيهًا برواية.

لكن ما إن بدأ شتيرن بالعمل حتى واجهته مصاعب. فبالإضافة إلى مشكلة

انتقاء المواد الضرورية من هذا الكم الهائل وترتيبها، ظهرت في المخطوطات مرةً بعد أخرى كلماتٌ وتعبيرات لم يفهمها، ولم أعرفها أنا. كانت في معظمها كلمات جاوية أو مَلاوية. وهنا وهناك استُخدمت اختصاراتٌ كان من الصعب حلُّ شِفْرتها. أدركتُ أننا لا نستطيع الاستغناء عن شالمان، لكن، وبما أنني لا أعتقد أنه يليق بشابٍّ أن يكوِّن ارتباطاتٍ غيرَ مرغوبٍ فيها، لم أشأ أن أُرسل إليه إما شتيرن أو فرتس. أخذت معي بعضًا مما تبقّى من برقوق السُّكَّر من الحفلة الماضية - لأني دائمًا أفكر في كل شيء - ثم انطلقت لأبحث عنه.

لم يكن مسكنُه فخمًا، لكن التساوي بين البشر - وهذا يعني تساويهم في المسكن بطبيعة الحال - ما هو إلا سرابٌ. وقد قال بهذا شالمان نفسه في مقالته عن مطلب السعادة لدى الإنسان. كما أنني لا أحب مَن لا يرضى بِقسمته.

كان يسكن في غرفةٍ خلفيةٍ في لانگه لايدسه دوارس سترات. كان الطابق الأرضي يسكنه تاجرٌ للسلع المستعملة، وكان يبيع كل أنواع الخُردة والفناجين وصحونها، والأثاث، والكتب القديمة، والأواني الزجاجية، وصور فون شپايك،[25] وهلم جرّا. كانت خشيتي من أن أكسر شيئًا كخشيتي من الموت، لأنك إن كسرتَ شيئًا يطالبك الناس بدفع مالٍ أكثر مما تستحقه تلك الأشياء. كانت فتاةٌ صغيرةٌ تجلس في الظُّلّة المدرَّجة، وتُلبِس دُميتها. سألتها إن كان السيد شالمان يعيش هنا، فهربت مني، فخرجت أمها.

«نعم، يعيش هنا يا سيدي. اصعد الدرج إلى البَسْطة الأولى، ثم اصعد درجاتٍ كثيرة إلى البَسْطة الثانية، ثم اصعد درجاتٍ كثيرة، بعدها تكون قد وصلت. مِنِي، اذهبي وقولي لهم إن سيدًا يريد أن يزورهم. مَن تقول لهم يا سيدي؟»

قلت لها إني أنا السيد دروخستوپل، سمسار القهوة من لاورير خراخت،

لكني سأذهب بنفسي وأقول لهم من أنا. صعدتُ كما أشارت عليَّ، وعند البَسْطة الثالثة سمعتُ صوتَ طفلٍ يغنّي، «سيأتي أبي حالًا، بابا العزيز.» طرقتُ ففتحت البابَ امرأةٌ أو سيدة - في الحقيقة لم أستطع أن أجزم إن كانت هذه أم تلك. كانت شاحبةً جدًّا، وكانت في ملامحها علامات الإرهاق، فذكَّرتني بزوجتي حين تنتهي من الغسيل. كانت ترتدي قميصًا أبيضَ طويلًا أو سترةً بلا خصر تتدلى حتى رُكبتيها وتشدُّها من الأمام بدبّوس أسود. وبدلًا من فستانٍ ملائم أو تنورة، كانت ترتدي تحت ذلك قطعةً من الكتان الداكن المُزَهَّر، وقد لفَّتها عدة مرات حول جسدها حتى ضاق عند وركيها وركبتيها. لم يكن هناك أثر لأي طيةٍ أو عَرْضٍ أو اتساعٍ، كما هو الواجب في ملابس النساء. سعِدتُ لأنني لم أرسل فرتس، لأن ملبسها بدا لي فاضحًا جدًا، وما فاقم في غرابته هو الطريقة المبتذلة في مشيتها، وكأنها في غاية الارتياح والرضا. لم يبدُ أن المخلوقة تعي إطلاقًا أنها لا تشبه النساء الأخريات. كما تكوَّن لدي انطباعٌ أن زيارتي لها لم تسبب لها أي إحراج. لم تخبئ أي شيء تحت الطاولة، أو تغيِّر مكان كرسي - باختصار، لم تفعل أي شيء مما هو معهودٌ حين يُفاجئك غريبٌ ذو مظهر محترم بزيارة.

كان شعرُها مُسرَّحًا إلى الخلف مثل الصينيات، ومعقودًا خلف رأسها على هيئة عُقدة. (علمتُ فيما بعد أن ثوبها كان نوعًا من الأزياء الهندية الشرقية الذي يسمّونه سارون وكَبايا في تلك الأنحاء، لكنه بشعٌ جدًّا برأيي).

سألتُها، «هل أنت يوفراو شالمان؟»[26]

«ومن الذي أتشرف بالحديث إليه؟» أجابتني بلهجةٍ توحي أنه كان بإمكاني أن أسأل سؤالي بشيءٍ من الشرف.

حسنٌ، أنا لستُ مولَعًا بالمجاملات. لكن الأمر يختلف إذا كنت أتحدث إلى

مدير شركة، وخبرتي في التجارة طويلة لا تخوّلني إلا أن أعرف دُنياي. لكني لم أجد ضرورةً لتنميق الأمور في مسكنٍ في الطابق الثالث. لذلك قلتُ بصراحةٍ إنني السيد دروخستوپل، سمسار قهوة، 37 لاورير خراخت، وإنني أود الحديث مع زوجها.

أشارت إلى كرسي من الخيزران، ووضعت فتاةً صغيرةً كانت تلعب على الأرض في حضنها. راح الولد الصغير الذي سمعتُه يغني يحدِّق فيّ بثباتٍ، وينظر إليّ من رأسي إلى قدميَّ. ولم يبدُ أنه خجولٌ إطلاقًا. كان في حوالي السادسة من عمره، وكانت ملابسه غريبةً كذلك. كان بنطاله الفضفاض بالكاد يصل إلى منتصف فخذيه، وكانت ساقاه عاريتين من هناك إلى كاحليه. ما أقلَّ احتشامه! سألني فجأةً، «هل جئتَ لرؤية بابا؟» وأدركتُ على الفور أن تربية هذا الطفل ينقصها الكثير، وإلا لَقال «جئتم» كما يليق بصبيٍّ صغيرٍ يخاطب الأكبر منه سِنًّا ومقامًا، ولَمَا استخدم الصيغة المخصصة لمخاطبة الأنداد والأدنى منزلةً. لكن بما أنني أنا شخصيًا شعرتُ بالحرج، وكنت ميّالًا للحديث، فقد أجبته:

«نعم، يا سيدي الصغير، لقد جئت لرؤية بابا. هل تعتقد أنه سيعود إلى البيت قريبًا؟»

«لا أعرف. لقد خرج ليبحث عن مالٍ يشتري لي به علبة ألوان.» (فرتس يقول «علبة تلوين» أما أنا فلا أقول ذلك).

قالت المرأة، «اخرس، يا ولد. اذهب والعب بصورك أو بصندوقك الموسيقي الصيني.»

«كيف ألعب، وأنت تعلمين تمامًا أن ذلك السيد أخذ كل شيء معه يومَ أمس؟»

حتى أمه كلَّمها بصيغة المخاطَب المفرد، لكن فهمتُ منه أنه هناك «سيدًا

أخذ كل شيء» ... لا بد أنها كانت زيارة مبهجة! لم تكن المرأةُ سعيدةً جدًا، فيما يبدو - لقد مسحت عينها خِلسةً حين نهضت، وحملت الطفلة الصغيرة إلى أخيها الصغير. قالت له، «هيّا العب مع نونّي.» اسم غريب. لكنه لَعِبَ.

سألتها، «حسنٌ، يوفراو، هل تتوقعين أن يعودَ زوجُك قريبًا؟»

قالت، «لا يمكنني أن أقول لك على وجه اليقين.»

فجأة ترك الولدُ الصغيرُ أختَه الصغيرةَ التي كان يلعب معها لعبة تجديف القوارب، وسألني:

«سيدي، لماذا تنادي ماما «يوفراو؟»»

«ماذا تقصد أيها الغلام؟ وبِم تريدني أن أناديها؟»

«كما يناديها الناس الآخرون! المرأة التي في الأسفل يوفراو، فهي تبيع الفناجين وصحونها.»

الآن أنا سمسار قهوة - لاست وشريكه، 37 لاورير خراخت؛ ونحن ثلاثة عشر في المكتب - أربعة عشر إن حسِبتَ شتيرن في عِدادِهم، مع أنه لا يتقاضى أي راتب. حسنٌ إذن ... زوجتي أنا ما زالت «يوفراو» ويُتوقَّع مني أن أقول «مِفراو» لهذه المرأة؟ هذا في منتهى السخف! يجب على كل إنسان أن يعرف موقعه من الإعراب، ولاسيما إذا كان مأمور الحجز قد جاء في اليوم السابق فقط ليأخذ كل ممتلكاتهم الثمينة. لذلك لا أرى بأسًا في استخدامي لقب «يوفراو» وسأواظب على ذلك.

سألتُها لماذا لم يأتِ شالمان إلى بيتي ليأخذ رزمته. ظهر أنها تعرف عن أمر الرزمة، فقالت: إنهم كانوا في بروكسل. كان يعمل هناك لمصلحة صحيفة إندپـندانس [*الاستقلال*]، لكنه لم يستطع البقاء فيها، لأن مقالاته كثيرًا ما تسببت في إرجاع الصحيفة عند الحدود الفرنسية. وقد عادوا إلى أمستردام قبل

بضعة أيام، لأن شالمان جاء للبحث عن عمل هنا ...

سألتها، «عند خاف زواخَر، على ما أظن؟»

قالت، نعم، هو كذلك. لكن الأمر فشل. طبعًا، أنا أعلم عن الأمر أكثر منها. لقد أسقط مجلدات «أگـلايا»، وكان كسولًا ووقحًا ومريضًا ... ولهذا السبب طُرِد.

تابعتْ قائلةً إنه سيأتي بكل تأكيد ليراني قريبًا، بل لعلَّه كان عند بيتي في تلك اللحظة بالذات، ليسأل عن جوابي على الطلب الذي كان قد طلبه.

قلت لها إنه يجدر بشالمان أن يأتيني قريبًا، لكن عليه ألا يرن الجرس لأن هذا يُزعج الخادمة كثيرًا. قلت لو أنه انتظر قليلًا، فإن الباب مُقَدَّرٌ له أن يُفتَح إن آجلًا أم عاجلًا حين يضطر أحدنا للخروج. ثم غادرتُ وأخذتُ معي برقوق السُّكَّر لأنني بصراحة لم يعجبني الوضع هناك. لم أشعر بالراحة. فالسمسار ليس عَتّالًا، وأنا أصر على أن أظهر بمظهر محترم. كنت أرتدي معطفي المرصَّع بالفرو، ومع ذلك كانت تجلس بابتذال وتتحدث إلى طفليها بمنتهى الهدوء كأنها تجلس وحدها. كما أنها، فيما يبدو، كانت تبكي، وأنا لا أطيق رؤية من لا يرضون بقسمتهم. كما أن غرفتهم كانت باردةً وغير مريحة - ربما لأن معظم الأثاث قد صودِر - وأنا أحب أن تكون الغرفة دافئة. في طريقي إلى البيت قررت أن أمنح باستيانس فرصةً أخرى، لأنني لا أحب أن أرمي أحدًا في الشارع.

والآن أتى عمل أول أسبوع لشتيرن! من الطبيعي أنني لستُ راضيًا عن كثيرٍ من الأشياء. لكنني ملزَمٌ بالبند الثاني من اتفاقنا، كما أن آل روزماير استحسنوا عمله. أعتقد أنهم يُداهنون شتيرن، لأن لديه عمًّا في هامبورگ يعمل في مجال السكر.

بالفعل زارني شالمان. لقد رأى شتيرن، وشرح له بعض الكلمات والأمور

التي لم يفهمها. أقصد التي لم يفهمها شتيرن. والآن عليَّ أن أطلب من القارئ أن يخوض في الفصول التالية، كما أعده لاحقًا بشيء أكثر رصانةً مني أنا بتافوس دروخستوپل، سمسار قهوة، لاست وشريكه، 37 لاورير خراخت.

[5]

في حوالي العاشرة صباحًا من أحد الأيام كانت هناك حركة دائبة غير عادية في جاوا على الطريق العام الذي يربط مقاطعتي پـاندِگـلان وليباك. قد يكون في عبارة «طريق عام» شيءٌ من المبالغة بالنظر إلى عرض الممشى الذي يُسمى «الطريق» من باب المجاملة ولعدم وجود تسمية أفضل. لكن حين تغادر سيران، البلدة الكبرى في متصرفية بانتام، في عربةٍ تجرها أربعة خيول بقصد الذهاب إلى رانْكَس بيتون، المركز الجديد في ليباك، فلا بد أن تصل إلى هناك إن آجلًا أم عاجلًا. إذن، فهو طريق. بصراحة، قد تَعْلَق في الوحل بين الحين والآخر، وهذا الوحل في وِهاد بانتام سميكٌ، صلصاليٌّ، دبقٌ: بصراحة، يتوجب عليك بين الحين والآخر أن تستنجد بأهالي أقرب قرية - مع أنه لا توجد قريةٌ قريبةٌ جدًّا، لأن القرى ليست كثيرة في تلك النواحي؛ لكن حين تنجح أخيرًا في جمع عشرين فلاحًا أو نحوهم من الجوار، عادةً لا يستغرق الأمرُ كثيرًا قبل أن تعود العربة والأحصنة إلى اليابسة من جديد. يسوط السائقُ الهواءَ بسوطه، فيستأنف السُّعاة ذوو الأسواط القصيرة السميكة الذين لا مثيلَ لهم (أعتقد أنهم يسمون في أوربا أُجَراء - لكن لا، لا يوجد في أوربا مثل هؤلاء) هَرْوَلتهم بجانب الخيول الأربعة، ويطلقون صرخاتٍ لا توصَف ويضربون الخيول على بطونها لتشجيعها على المسير. وبهذه الطريقة ستسير مدةً إلى أن تحين لحظة الشؤم من جديد، وتغوص في الوحل إلى ما فوق مِحْوَر العجلات. وحينها تنطلق صرخات الاستنجاد من جديد. تنتظر إلى أن تأتيك النجدة ثم ... تتابع مسيرة الكفاح.

وكلما سلكتُ ذلك الطريق، كان ينتابني إحساسٌ في هذا المكان أو ذاك، أنني قد أجد عربةً من المسافرين تُركوا من القرن الماضي، بعد أن غرقوا في الوحل ونُسيَ أمرُهم. لكن هذا لم يحدث لي شخصيًا. لذلك أفترض أن كل من سلك ذلكَ الطريق وصل أخيرًا إلى وجهته التي يريدها.

لذلك من الخطأ الكبير أن تحكم على الطريق الرئيسي الذي يمر عبر جاوا، من خلال صفة هذا الطريق في ليباك. أما الطريق العام الحقيقي، بتفرعاته الكثيرة، الذي أمر ببنائه الماريشال داندِيلس بتضحيات هائلة في الحياة البشرية، فهو بالفعل في غاية الإتقان؛ وما يثير الدهشة هو هِمة الرجل الذي، برغم العوائق التي وضعها في طريقه حُسّادُه من منافسين وخصوم في بلاده، تحدّى نُفور السكان، وسخط الزعماء المحليين، لكي يُنشئ شيئًا يثير إعجابَ كل زائرٍ ويستحقه حتى يومنا هذا.

وحقًا، لا تضاهي خدمة بريد الخيول في أوربا - لا في إنـكـلترا ولا روسيا ولا هنغاريا - مثيلتها في جاوا. فعبر ثغور الجبال الشاهقة، بمحاذاة مَهاوٍ تجعلك ترتعد، تطير عربة البريد المثقلة بسرعة ثابتة. يجلس السائق فوق الصندوق كأنه مثبت به بمسامير لساعاتٍ، بل قُل لأيام بلا توقف، وهو يمسك سوطه بيدٍ من حديد. ويستطيع أن يحسب بدقةٍ أين يجب عليه أن يكبح جماح الخيول المندفعة بسرعةٍ وإلى أي حدٍّ، وذلك لكي يتمكن، بعد رحلةٍ متهورةٍ على سفحٍ جبليٍّ، عند المنعطف هنالك ...

يصرخ المسافر غير الخبير، «يا إلهي، الطريق ... اختفى! سنهبط إلى الهاوية! لا يوجد طريق ... لا يوجد إلا شَفا الهاوية!»

نعم، هكذا يبدو الأمر. ينعطف الطريق، وحين تكفي قفزةٌ واحدةٌ من الخيول المندفعة لقذف الزعماء في الهواء، تنعطف الخيول فتعطفَ العربةَ وراءها

عند الزاوية، ثم تندفع صاعدةً سفحَ الجبل الذي لم تَرَه أنت قبل لحظةٍ، ثم ... تصبح الهاوية وراءك.

في مناسباتٍ كهذه هناك لحظات لا تستقر العربة إلا على العجلات داخلَ المنعطف الذي ترسمه هي: فالقوة النابذة رفعت العجلتين الخارجيتين عن الأرض. ولن تستطيع إبقاء عينيك مفتوحتين إلا إذا كنت بارد الأعصاب؛ ومن يسافر هكذا لأول مرة يكتب إلى أهله في أوربا ليخبرهم أنه تعرض لأكبر خطر في حياته. أما أهل الخبرة في جاوا فيسخرون منه.

لا أنوي، ولاسيما في مُستَهلِّ قصتي، أن أستهلك كثيرًا من وقت القارئ بوصف الأماكن والمناظر والمباني. أخشى كثيرًا أن أُنَفِّره من أي شيءٍ تفوح منه رائحة الإطناب. فقط لاحقًا، حين أستوثق من وقوفه إلى صفِّي، حين أرى من نظرته وموقفه أنه مهتم بمصير البطلة التي تقفز من شرفةٍ في الطابق الرابع - حينها فقط، وباحتقارٍ سافرٍ لكل قوانين الجاذبية، سأتركها معلقةً بين السماء والأرض إلى أن أخفِّفَ من غلواء مشاعري بوصفٍ مُفَصَّلٍ لجمال الريف أو مبنى يبدو كأنه وُضِع هناك ليكون ذريعةً لمقالةٍ من عدة صفحاتٍ عن فن العمارة في القرون الوسطى. كل تلك القلاع تبدو متشابهة. وطرازها دائمًا متجانس. يعود تاريخ القلعة إلى بضعة عهودٍ سابقةٍ على الملحَقات التي أضافها ملوكٌ لاحقون. الأبراج متهالكة ...

عزيزي القارئ، لا وجود للأبراج. «البرج» فكرة، حلم، مثلٌ أعلى، خيال، تبجح لا يطاق! لا وجود إلا لأنصاف الأبراج ... والأبراج المصغَّرة.

الحماسة التي ارتأت نصبَ أبراجٍ على صُروحٍ أُقيمت على شرف هذا القديس أو ذاك لم تدم طويلًا لإكمالها، والبرجِ الذي يرمي إلى إرشاد المؤمنين إلى السماء، عادةً ما يجثم على قاعدته الهائلة على مسافة تقصُر عن غايته بمرحلتين، فيذكِّر

المرءَ بالرجل المقطوع الفخذين في المهرجان. لم تكتمل قط إلا الأبراج الصغيرة، أبراج الكنائس القروية الصغيرة.

ومن المعيب في الحضارة الغربية أنه يندر أن يدوم الطموح لخلق عمل عظيم إلى أن يرى ذلك العمل النور. أنا لا أتحدث الآن عن مشاريع يجب أن تكتمل لتغطية النفقات. إن شاء أحدهم أن يعرف ما أعنيه بالضبط، فليذهب وينظر إلى كاتدرائية كولونيا.[27] فليتأمل التصميم العظيم لذلك الصرح في روح مهندسه ... والإيمان في قلوب الناس الذي مكّنه من البدء في هذا الجهد ومتابعته ... أثر الأفكار التي جعلت من هذا الصرح العملاق صورةً مرئيةً لإحساسٍ دينيٍّ لا يُرى ... وليقارنْ هذا التوتر الهائل مع الحركة التي أنجبت، بعد بضعةِ قرونٍ، تلك اللحظة التي أُوقِف العملُ فيها.

هناك فجوةٌ عميقةٌ بين إرڤِن فون شتاينباخ وبنّائينا! أعرف، بطبيعة الحال، أن الناس يحاولون منذ سنين أن يمحوا هذه الهوة. وفي كولونيا يعملون من جديد على الكاتدرائية. لكن هل سيتمكنون من وصل ما انقطع؟ هل من الممكن أن نجد من جديدٍ في زماننا ما شكَّل حينها قوة الأُسْقُف وراعي المهندسين المعماريين؟ لا أظن ذلك. لا شك أن المال يمكن توفيره، والمال سيشتري القرميد والملاط، وبه ندفع أجر الفنان الذي يضع الخطط والحجّار الذي يصُفّ الأحجار. لكن لا مالَ يشتري تلك العاطفة المفقودة العجيبة التي رأت في المبنى قصيدةً، قصيدةً منقوشةً في الـگرانيت تخاطب الناس بصوتٍ عالٍ، قصيدةً في رخامٍ ينتصب كأنه صلاةٌ أبديةٌ لا تتزحزح.

وذاتَ صباحٍ على الحدود بين ليباك وپـاندِگـلان كان هناك صخبٌ غير عادي. كانت مئات الأحصنة المُسرَجة تسد الطريق، وكان ألفُ شخصٍ على الأقل - وهذا كثيرٌ بالنسبة إلى ذلك المكان - يذرعون المكان جيئةً وذهوبًا في

ترقُّبٍ محموم. ومن بين هؤلاء شيوخ القرى ومديرو نواحي ليباك، كلٌ مع حاشيته. كما كان هناك زعيمٌ أعلى مرتبةً، يُستَدلُّ على حضوره من خلال الحصان العربي الـمُهجَّن الجميل، الذي كان يقف مُجَلَّلًا بأغطيته المزركشة الفاخرة، وهو يقضم شكيمته الفضية. هذه هي بالفعل الحال. كان متصرف ليباك شخصيًا، رادن أديپاتي كارتا ناتا نيگارا،[28] قد غادر رانْكَس بيتون مع عددٍ كبيرٍ من أتباعه، ورغم كبر سنه، فقد قطع مسافة الاثني عشر إلى أربعة عشر ميلًا التي تفصل موطنه عن حدود مقاطعة پاندِگلان المجاورة.

كانوا يترقبون وصول مساعدِ مقيم جديدٍ، ويقضي العُرف، الذي له سلطة القانون في الهند الشرقية الهولندية، أن يُستقبلَ المسؤولُ المكلفُ إدارةَ أي مقاطعةٍ استقبالًا حافلًا. كان المراقب، وهو رجلٌ متوسط العمر قام بواجباتِ رئيسه الراحل لبضعة أشهر بعد وفاة مساعد المقيم السابق، أيضًا من الحاضرين.

ما إن عُرِف تاريخ وصول مساعد المقيم الجديد، حتى بُني پندوپّو على عَجَلٍ، وأُحضِرَت طاولةٌ وبعض الكراسي، وأُعِدَّت بعض المرطِّبات. في هذا الـپِندوپّو كان المتصرف والمراقب ينتظران رئيسهما الجديد.

إلى جانب القبعة العريضة الحواف أو المظلة أو الشجرة الجوفاء، الـپِندوپّو هو بلا شك أبسط تجسيد لمفهوم «السقف.» لو تخيلت أربعةً أو ستةً من أعواد الخيزران مغروزةً في الأرض ومتشابكةً من فوق بأعواد خيزران أخرى، وقد ثُبِّت عليها غطاءٌ مصنوعٌ من أوراق نخيل النِّپا الطويلة، التي تسمّى أتپ في تلك النواحي، لَصار لديك تصورٌ عن الـپِندوپّو. وهو، كما ترون، أبسط ما يكون. بل في الحقيقة، كان الهدف منه هنا هو أن يكون مسكنًا مؤقتًا ليس إلا للمسؤولين من الأوربيين، وأهالي البلاد الذين جاؤوا للترحيب برئيسهم الجديد على الحدود بين المقاطعتين.

حين قلتُ إن مساعد المقيم هو أيضًا رئيس المتصرف، فأنا لم أعبِّر عن نفسي بشكلٍ صحيحٍ تمامًا. ولكي أساعدكم على فهم ما يلي، عليَّ أن أستطرد هنا بخصوص آليةّ الحكم في هذه المناطق.

يمكن تقسيم الهند الهولندية، أو الهند الشرقية الهولندية - استخدام كلمة «هولندية» يبدو غيرَ صحيحٍ بنظري، لكنها مستخدمةٌ بصفةٍ رسميةٍ - إلى جزأين أساسيين مختلفين جدًّا من حيث علاقة البلد الأم بالأهالي. جزء يتألف من قبائل اعترف أُمراؤها ووجهاؤها بسيادة هولندا، لكن الحكم المباشر يظل تقريبًا في أيدي الزعماء المحليين أنفسهم. والجزء الآخر الذي يتألف من جاوا برمتها - باستثناءٍ طفيفٍ جدًّا، ولعلّه ظاهري فقط - يخضع خضوعًا مباشرًا للحكم الهولندي. لا توجد هنا مسألة جِزْيَة أو ضريبة أو تحالف. الجاوي رَعِيَّةٌ هولندي. ومَلِكُ هولندا هو ملكه. ونسلُ أمرائه السابقين ووجهائهم مسؤولون هولنديون. فالحاكم العام، الذي يحكم باسم الملك، هو الذي يُعيِّنهم وينقلهم ويُرَقِّيهم ويفصلهم. والمجرم يُدان ويُحكَم عليه بموجب قانونٍ سُنَّ في لاهاي. والضرائب التي يدفعها الجاوي تصبُّ في خزينة الدولة الهولندية.

وصفحات هذا الكتاب لا تتعامل بالدرجة الأساسية إلا مع هذا الجزء من الممتلكات الهولندية الذي يشكل جزءًا لا يتجزأ من مملكة هولندا.

للحاكم العام مجلسٌ يساعده، لكن هذا المجلس ليس له صوتٌ حاسمٌ في قرارات الحاكم. في بَتافيا [*جاكرتا*]، تُقسَّم فروع الحكومة المختلفة إلى مديريات يديرها مديرون يشكلون حلقة الوصل بين السلطة العليا للحاكم العام، والمقيمين في الأقاليم. لكن في الحالات ذات الطبيعة السياسية، يخاطب المقيمون الحاكم العام بشكل مباشر.

يعود لقب المقيم إلى العهد الذي كانت فيه هولندا لا تزال تحكم الأهالي

بشكل غير مباشر، بصفة حاكم أعلى، وكان يمثلها مقيمون في دواوين الأمراء الذين كانوا ما زالوا يحكمون. لم يعد هؤلاء الأمراء موجودين، وأصبح المقيمون حكام المناطق، مثل حكام الأقاليم أو الوُلاة. تغيرت مهمتهم، لكن الاسم بقي.

هؤلاء المقيمون هم الذين يمثلون السلطة الهولندية فعليًا في أعين الجاويين. هؤلاء الأهالي لا يعرفون الحاكم العام، ولا مجلس الهند الشرقية، ولا مديري المديريات في بتافيا. لا يعرفون إلا المقيم والموظفين الصغار الذين يحكمونهم بتوجيهٍ منه.

تتألف كل متصرفية - بعضها فيها ما يقرب من مليون نسمة - من ثلاث أو أربع أو خمس مقاطعات يُنصَّب على رأسها مساعدو مقيمين. وتحت هؤلاء يقوم بالإدارة المراقبون والمفتشون وعدد من الموظفين اللازمين لجباية الضرائب، والإشراف على الزراعة والأشغال العامة والشرطة وتطبيق العدالة.

في كل واحدة من هذه المقاطعات يساعد مساعد المقيم زعيمٌ ذو مكانة عالية من الأهالي له لقب المتصرف. مع أن علاقة المتصرف بالحكومة ووظيفته هي علاقة موظفٍ مدفوعِ الأجر، إلا أنه دائمًا من أشراف البلاد، وفي أغلب الأحيان ينحدر من أسرة الأمراء الذين كانوا في الماضي حكامًا مستقلين في تلك المنطقة أو المناطق المجاورة. وهكذا يُستخدم الدهاء السياسي للاستفادة من تأثيرهم الإقطاعي القديم - الذي له عمومًا أهمية عظيمة في آسيا، ويراه معظم الناس جزءًا من دينهم، لأنه من خلال تعيين هؤلاء الزعماء وجعلهم موظفين لدى التاج، ينشأ تسلسلٌ هرمي تقف على قمته السلطة الهولندية التي يمارسها الحاكم العام.

لا جديد تحت الشمس. ألم يكن الولاة والحكام في الإمبراطورية الرومانية المقدسة يُعيَّنون بطريقة مماثلة، وكان معظمهم يُنتقى من البارونات؟ ومن غير

توسع في شرح منشأ الأرستقراطية، المتجذرة في الطبيعة نفسها، لا بد أن أذكر هنا أنه في هذا الجزء من عالمنا، وهناك في الهند الشرقية البعيدة، أدت الأسباب ذاتها إلى النتائج ذاتها. فالبلادُ التي تُحكَم من مسافةٍ بعيدةٍ جدًا تحتاج إلى مسؤولين يمثلون السلطة المركزية. وفي ظل نظام الاستبداد العسكري، اختار الرومان لهذا الغرض الولاة، وهؤلاء كانوا عادةً هم قادة الفيالق التي أخضعت الأرض المعنية. ولهذا ظلت هذه المناطق أقاليم، أي، مناطق محتلة. لكن فيما بعد شعرت السلطة المركزية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة بحاجة إلى ربط بعض الشعوب البعيدة بها بوسائل غير القوة الوحشية. وحالما صارت منطقةٌ بعيدةٌ تُعامَل على أنها تنتمي بشكل طبيعي إلى الإمبراطورية، من خلال تشابه المنشأ، أو اللغة أو العادات، حتى أوكِلت إدارةُ الأمور هناك إلى شخصٍ ليس فقط من أبناء تلك المنطقة، بل من وجهاء قومه، وهذا يُسَّهِل إطاعة أوامر الإمبراطورية من خلال دغدغة الغرائز التلقائية لديهم، بإطاعة الشخص المكلَّف تنفيذ تلك الأوامر. وكان من شأن هذه الوسيلة أيضًا أنها وفرت على الإمبراطورية نفقات جيشٍ عاملٍ إما كليًا أو جزئيًا، وبالنتيجة أيضًا أزاحت عبئًا عن كاهل الخزينة الإمبراطورية أو، كما في أغلب الأحوال، عن كاهل المناطق التي يحرسها ذلك الجيش. ولهذا السبب انتُقي الكونتات الأوائل من بين بارونات البلاد، ولذلك فإن لقب الكونت، بالمعنى الدقيق للكلمة، ليس لقبَ نبالةٍ على الإطلاق، بل هو مسمّى شخصٍ أوكلتْ إليه مسؤوليةٌ ما. وأنا أعتقد أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كان لديها في العصور الوسطى الحق في تعيين الكونتات، أي حكام الأقاليم، والدوقات، أي قادة الجيش، لكن من ناحية أخرى اعتقد البارونات أنهم نظراء الإمبراطور من حيث المولد، ولا يدينون بالولاء إلا لله. والإمبراطور على شرط أن يُنتَخب بموافقتهم ومن بين صفوفهم. الكونت

يشغل منصبًا وضعه فيه الإمبراطور، والبارون يرى أنه بارون «بفضلٍ من الله ومِنَّتِه.» كان الكونتات يمثلون الإمبراطور، ولذلك فهم يرفعون رايته، أي راية الإمبراطورية. أما البارون فقد كان يجمع الرجال تحت رايته هو.

لقد كان من شأن الظرف الذي انتُقِي فيه الكونتات والدوقات من بين البارونات أن مكَّنهم من إلقاء ثِقَلِ منصبهم في الميزان، بالإضافة إلى النفوذ الذي يستمدونه من مولدهم. ومن هنا فيما يبدو - ولاسيما حين تصبح المناصب وراثيةً - نشأت الأسبقية التي اكتسبتها تلك الألقاب لاحقًا على لقب البارون. وحتى في أيامنا هذه، ترى كثيرٌ من الأُسَر البارونية (من دون تفويضٍ إمبراطوري أو ملكيٍ، أي، أسرة يعود أصلها النبيل إلى نشأة البلاد، أسرة كانت دائمًا نبيلة لأنها نبيلة - أصيلة) أن الترقية إلى مرتبة الكونت فيها انتقاصٌ من مكانتها. وهناك أمثلةٌ فعليةٌ على ذلك قد حدثت.

بطبيعة الحال، سعى الأشخاص المكلَّفون حكمَ هذه الكانتونات للحصول من الإمبراطور على تطميناتٍ أن يخلفهم أبناؤهم أو أقرباؤهم الآخرون، إن لم يكن لهم أبناء، في مناصبهم. وهذا ما حصل بالفعل عمومًا، مع أني لا أعتقد أن حق الخلافة هذا لم يُعترَف بها اعترافًا دستوريًا على الإطلاق، على الأقل فيما يتعلق بهؤلاء الموظفين في هولندا، على سبيل المثال، كونتات هولندا، نيوزيلاندا، فلاندرز، إينو، برابانت، خُلْدرلاند، إلخ. اتخذ هذا الشكل من الامتياز الوراثي شكل المحاباة في البداية، ثم ما لبث أن صار عادةً، وفي النهاية ضرورةً، لكنه لم يصبح قانونًا قط.

وتقريبًا بذات الطريقة - فيما يتعلق بانتقاء الأشخاص، بما أنه لا توجد هنا مسألة الواجبات ذاتها، مع أنه يُلاحَظ تطابقٌ معين - يقوم بمنصب المتصرف في جاوا مسؤولٌ من أهل البلاد يجمع بين المرتبة التي تمنحه إياها الحكومة وبين

نفوذه الأصلي، لكي يسهِّل حكمَ المسؤول الأوربي الذي يمثل السلطة الهولندية. وهنا أيضًا أصبحت الخلافة الوراثية عُرفًا من دون أن يُقِرَّها قانون. وبحكم العُرف، تُسوّى المسألة في حياة المتصرف، ويُعدُّ الوعدُ بأن يَخْلِفَه ابنُه في منصبه بمثابة مكافأة له على إخلاصه في اندفاعه وخدمته. ولا يُشَذُّ عن هذه القاعدة إلا لأسبابٍ وازنةٍ جدًّا، ومع ذلك يُنتقى الخليفةُ عمومًا من بين أفراد العائلة ذاتها.

العلاقة بين المسؤولين الأوربيين، وهؤلاء الوجهاء الجاويين ذوي المراتب العليا ذات طبيعة حساسة جدًا.

مساعد المقيم في أي مقاطعة هو الشخص المسؤول. لديه تعليماته، وهو يُعَدُّ رئيس المقاطعة. لكن بالرغم من هذا فإن المتصرف أعلى منزلةٍ بكثير، وذلك بفضل معرفته المحلية، ومولده ونفوذه بين الأهالي وموارده المالية، وما توفره له هذه من معيشة باذخة. علاوةً على ذلك، بوصفه ممثلًا للعنصر الجاوي في منطقة ما، وناطقًا باسم مئة ألف من الأنفس أو يزيد من سكان مقاطعته، فإن المتصرف، حتى في نظر الحكومة، أهم بكثيرٍ من المسؤول الأوربي البسيط الذي لا يُخشى من سخطه، حيث يوجد كثيرون يمكن أن يحلوا محله، بينما سخط المتصرف يمكن أن يكون بذرةَ اضطراب أو تمرد.

كل هذا، إذن، ينجم عنه وضعٌ غريبٌ يأمرُ فيه المرؤوس رئيسَه. يأمر مساعدُ المقيم المتصرفَ أن يزوده بالتقارير. يأمره أن يرسل العمال للعمل في الجسور والطرق. يأمره أن يجبي الضرائب. يزوره لحضور مجلس المقاطعة الذي يرأسه هو مساعد المقيم. يوبخه إذا قصَّر في واجبه. وهذه العلاقة الغريبة جدًّا لا تصبح ممكنةً إلا من خلال أكثر الصور لباقةً، لكن هذه اللباقة لا تستبعد بالضرورة المودةَ أو، في بعض الأحيان، الشِّدة. وأعتقد أن اللهجة التي يجب أن تسود العلاقة موصوفةٌ وصفًا جيدًا في التعليمات الرسمية بهذا الشأن، «يجب على

المسؤول الأوربي أن يعامل مساعده من أهل البلاد معاملةَ الأخ الأصغر.»

وعليه ألا ينسى أن هذا الأخ الأصغر محبوبٌ - أو مُهابٌ - جدًّا من والديهما، وأنه إذا نشب خلافٌ بينهما، فهو المَلومُ بحكم سِنِّه ولأنه لم يعامل أخاه الأصغر بالحلم واللباقة.

بيد أن لباقة الوجيه الجاوي المتأصِّلة - حتى الجاوي من الطبقة الأدنى أكثر تهذيبًا من نظيره الأوربي - تجعل هذه العلاقة الصعبة في ظاهرها أكثر احتمالًا مما في سِواها.

إذا كان الأوربي مهذَّبًا ومتعقِّلًا، وتصرف بوقارٍ ودودٍ، فبإمكانه أن يطمئنَّ أن المتصرف، من جهته، سيسهِّل عليه مهمة الحكم. فالأمرُ - على ما فيه من كراهةٍ عمومًا - يمكن أن يُنفَّذ بحذافيره إن جاء على هيئة طلب. فارق الرتبة والمولد والثروة يطمسه المتصرف نفسه الذي يرفع الأوربي إلى مستواه، بوصفه ممثلًا لملك هولندا. وفي النهاية تصبح العلاقة - المقدَّر لها أن تثير الخلافات إذا ما نُظِر إليها نظرةً سطحيةً - في غالب الأحيان مصدرَ تواصلٍ لطيفٍ.

لقد قلتُ: إن ثروة المتصرفين هي أحد الأمور التي منحتهم أسبقيةً على المسؤول الأوربي؛ وهذا أمرٌ متوقَّعٌ. فحين يُنتدبُ الأوربي لحكم إقليم تُضاهي مساحته كثيرًا من الدوقيات الألمانية، فهو يكون عادةً متوسطَ العمرِ أو أكثر، ومتزوجًا ولديه أولاد. فهو يشغل هذا المنصب ليكسب معيشته. ودخلُه بالكاد يكفي، بل لا يكفي في غالب الأحيان، لإعالة أسرته. أما المتصرف فهو تُمونـگـون، أو أديـپـاتّي، أو حتى پـَنـگـيران، أي، أميرٌ جاوِيٌّ. فالمسألة بالنسبة إليه لا تتعلق فقط بالمعيشة؛ بل عليه أن يعيش بالطريقة التي اعتادها الناس بين طبقتهم الأرستقراطية. فبينما يعيش الأوربي في منزلٍ، يكون مسكن المتصرف في أغلب الأحيان كْراتون يضم عددًا من المنازل والقرى في داخله. وبينما يكون

لدى الأوربي زوجةٌ واحدةٌ وثلاثة أطفال أو أربعة، يكون لدى المتصرف عددٌ من النساء، مع ما يعنيه كل هذا. وبينما يسير الأوربي في موكبٍ يتبعه بضعة مسؤولين لا يزيد عددهم عن المطلوب، لجولته التفتيشية وجمع المعلومات في أثناء الرحلة، يرافق المتصرف مئاتٌ من حاشيته التي لا تنفصل، بنظر قومه، عن رتبته الرفيعة. يعيش الأوربي مثل مواطنٍ من الطبقة الوسطى، أما المتصرف فيعيش، أو يُفتَرَض به أن يعيش، مثل أمير.

لكن كل هذا مدفوعٌ تكلفتُه. هذا أمرٌ تدركه الحكومة الهولندية التي أرسَت نفسها على نفوذ هؤلاء المتصرفين، ولذلك لا غرابةَ إطلاقًا في رفع دخلِهم إلى مستوى، يبدو مُبالَغًا فيه بالنسبة إلى غير الهندي الشرقي، لكنه في الحقيقة بالكاد يكفي لسد النفقات المتعلقة بنمط المعيشة لهؤلاء الزعماء من أهل البلاد. وليس غريبًا أن يكون متصرفٌ دخلُه مئتا ألف أو ثلاثمئة ألف خولدن سنويًا في ضائقةٍ ماليةٍ. وهذا عائدٌ بالدرجة الأولى إلى اللامبالاة التي تليق حقًا بالأمراء والتي يبعثرون بها عائداتهم، وإلى إهمالهم في الإشراف على مرؤوسيهم، وهَوِسِهم لشراء الأشياء، وبالأخص إلى استغلال الأوربيين في أغلب الأحيان لنقاط الضعف هذه.

يمكن تقسيم عائدات هذا الزعيم الجاوي إلى أربعة أقسام. أولًا، هناك راتبه الشهري الثابت. ثانيًا، تعويضٌ معيَّن عن حقوق تُنقَل إلى الحكومة الهولندية. ثالثًا، علاوةٌ تتناسب مع كمية المنتَجات التي تنتجها مقاطعته مثل القهوة والسكر والنيلة والقِرفة، إلخ. وأخيرًا، الاستخدام التعسفي للعمال وممتلكات رعاياه.

يحتاج مَصدرا الدخل الأخيران إلى شرح. الجاوي فلاحٌ بالفطرة. فالأرض التي يولَد عليها تعطيه الشيء الكثير مقابل قليلٍ من العمل، فتغريه بذلك،

ولهذا فهو يتفانى في زراعة حقول أرُزّه التي يبرع فيها أيما براعة. وهو ينشأ بين السَّواه والـگـاگـاه والتيـپـار،[29] ويرافق أباه إلى الحقول منذ سن مبكرة، ليساعده في المحراث والمِغْوَل، وفي السدود والسواقي لري أرضه. وهو يُحصي السنين بمواسم الحصاد، ويحسب الزمن والموسم بلون مزروعاته القائمة، يشعر بالألفة مع رفاقه الذين يحصدون الـپـادي[30] معه، وينتقي زوجته من بين فتيات الدِّسَّه[31] اللاتي يَهْبِجْنَ الأرز في الأماسي على أنغام الغناء المرح لنزع قشرته ... وامتلاك رأسين من الجواميس لجرّ محراثه هو أسمى ما يسعى إليه ... باختصار، الأرز بالنسبة إلى الجاوي، كالعنب بالنسبة إلى مُزارعي الكُروم على ضفتي الراين وفي جنوبي فرنسا.

لكن الغرباء جاؤوا من الغرب، وجعلوا أنفسهم سادة بلاده. أرادوا أن يستفيدوا من خصوبة الأرض، فأمروا ساكنها أن يكرِّس جزءًا من عمله ووقته لزراعة منتجاتٍ أخرى تُدِرُّ أرباحًا أعلى في الأسواق الأوربية. ولحَمل الرجل العادي على فعلِ هذا، كان يكفي وضع سياسة بسيطة جدًا. وبما أن هذا الرجل العادي يطيع زعماءه، لم تكن هناك ضرورةٌ إلا إلى استمالة هؤلاء الزعماء من خلال وعدهم جزءًا من الأرباح ... فنجحت الخطة تمامًا.

لو رأى المرء الكم الهائل للبضائع الجاوية التي تُباعُ في هولندا، فلا بد أن يقتنع بنجاعة هذه السياسة، حتى وإن كانت غير نزيهة، لأنه لو سأل إن كان من يزرع هذه المحاصيل يكافأ مكافأةً تتناسب مع المحصول، فإن الجواب هو بالنفي القاطع. فالحكومة تجبره على أن يزرع في أرضه ما يحلو لها هي؛ وتعاقبه إن باع المحصول إلى أي شخصٍ غيرها هي؛ وهي التي تحدد السعر الذي تدفعه له هي. وتكلفة النقل إلى أوربا، من خلال شركة تجارية تحظى بامتيازات، عاليةٌ. والمال الممنوح للزعماء لتشجيعهم يضخم سعر الشراء أكثر ... وبما أن هدف

التجارة برمتها هو جني الأرباح، فإن هذه الأرباح لا تُجنى إلا من خلال تسديد فقط ما يكفي لسد رمق الجاوي، وهذا يخفض القوة الإنتاجية لدى الأمة.

كما تُدفَع للمسؤولين الأوربيين علاواتٌ تتناسب مع الإنتاج.

إذن، صحيحٌ أن الجاوي المسكين يُساط إلى عمله من قِبَل سلطة مزدوجة. وصحيحٌ أنه أيضًا يُنتَزعُ في كثيرٍ من الأحيان من حقول أرُزِّه ليعمل في غيرها؛ وصحيحٌ أن المجاعة في غالب الأحيان هي نتيجة هذه الإجراءات. لكن ... تخفق الأعلام بمرحٍ في بتافيا، سِمَران، سورابايا، پاسَروان، بيسوكي، پروبولِنگو، پاچيتان، چيلاچاپ، وعلى متن السفن التي تُحمَّل بالمحاصيل التي تجعل هولندا غنيةً!

مجاعة؟ في جاوا الغنية الخصبة المباركة؟ أجل، أيها القارئ. منذ بضع سنين فقط، ماتت مناطق بأكملها من المجاعة. عرضت أمهاتٌ أبناءهن للبيع من أجل أن يحصلن على طعام، وأمهاتٌ أكلن أطفالهن ...

لكن عندئذٍ تدخل الوطن الأم في المسألة. عمَّ السخط في قاعات مجلس ممثلي الشعب في هولندا، فأصدر الحاكم العام في ذلك العصر تعليماتٍ تقضي بألا يتسبب إنتاج ما يُسمّى منتجات السوق الأوربية في المستقبل في مجاعة ...

أرى أن حديثي فيه مرارة. لكن ما ظنكم بمن يكتب مثل هذه الأمور بلا مرارة؟

يبقى عليَّ الآن أن أتحدث عن المصدر الأخير والأساسي للدخل لدى الزعماء المحليين: تصرفهم التعسفي بالأشخاص وممتلكات رعاياهم.

وفقًا للفكرة السائدة عمومًا في كل أنحاء آسيا تقريبًا، تعود ملكية الرعية وكل ما يملكه إلى الأمير. يستغل نسل الأمراء السابقين وأقرباؤهم جهل الناس الذين لا يدركون أن التُمونگون أو الأديپاتي أو الپَنگيران قد صار الآن

مسؤولًا أجيرًا باع حقوقه وحقوقهم لقاء دخلٍ ثابتٍ، وأنه لهذا السبب حل العمل القليل الأجر في مزارع القهوة أو حقول قصب السكر محل الضرائب التي كان في السابق يجبيها سادتهم من ساكني الأرض. ولهذا لا غرابةَ في أن تُستدعى مئاتُ العائلات من مسافةٍ بعيدةٍ للعمل بلا أجر في حقولٍ تعود ملكيتها للمتصرف. ولا غرابةَ في تقديم الطعام مجانًا إلى بلاط المتصرف. وإن استملح المتصرف حصانَ الرجل العادي أو جاموسته أو ابنته أو زوجته، فليس من المعقول أن يرفض المالك أن يتخلى عما اشتهاه المتصرف بلا شروط.

هناك متصرفون لا يستغلون هذه الصلاحيات التعسفية إلا باعتدالٍ، ولا يأخذون من الوُضَعاء إلا ما هو ضروري لتدعيم مراتبهم. وهناك آخرون يتمادون قليلًا. لا ينعدم هذا الجور بتاتًا في أي مكان. ومما لا شك فيه أنه يصعب، إن لم يكن مستحيلًا، استئصال هذا العسف استئصالًا تامًا، حيث إنه متأصلٌ في طبيعة الناس الذين يكابدون منه. والجاوي كريمٌ، ولاسيما حين يتعلق الأمر بالبرهنة على ولائه لزعيمه، ولسليلِ من كان يطيعه أسلافُه. بل إنه يحسب نفسه مقصِّرًا في الاحترام الواجب لسيده بالوراثة، إن هو دخل الكْراتون من غير هدية. صحيحٌ أن هذه الهدايا تكون في أغلب الأحيان ذات قيمة بسيطة إلى درجة تجعل رفضَها يرقى إلى إهانة المُهدي. ولذلك من الأجدر مقارَنة هذه العادة في أغلب الأحيان باحترام الطفل لأبيه، وهو يسعى إلى التعبير عن حبه له، من خلال هديةٍ صغيرةٍ لا بجزيةٍ تُدفَع إلى مستبدٍ طاغية.

لكن بهذه الطريقة، تجعل العادة الساحرة استئصالَ الجور أمرًا صعبًا.

لو كان الألُون ألُّون[32] أمام مسكن المتصرف مُهمَلًا لَشَعَر الجيران بالعار، ولَتَطلَّب الأمر سُلطةً هائلةً لمنعهم من الانحناء، وتخليص تلك الساحة من الأعشاب الضارة، ووضعها في حالةٍ تتناسب مع مكانة متصرفهم. ولو عُرِض

عليهم أيُّ أجرٍ لَعُدَّ ذلك إهانةً عمومًا. لكن إلى جانب هذا الأُلُون أَلُون، أو في أي مكان آخر، هناك سَواه بحاجة إلى حراثة أو إلى ساقية تأتيها بالماء، من مسافة أميالٍ في أغلب الأحيان ... وهذه السَّواه يملكها المتصرف. ولكي يحرث حقوله أو يسقيها، يستدعي المتصرف سكان قرى بأكملها، لا تقل حاجة سَواهِهِم للحرث والسقي عن حاجة سَواه المتصرف ... وهنا يكمن الجور.

هذا معروفٌ للحكومة، وحين تقرأ الجريدة الرسمية التي تحتوي على القوانين والتعليمات والنصائح للموظفين، لا بد أن تُكْبِرَ الإنسانية الظاهرة في صياغتها. من الواجبات المقدسة التي يُوصَى بها كل أوربي مخولٍّ سلطةً هي حماية السكان في كل مكان من خنوعهم هم وجشع زعمائهم. وكأنه لا يكفي لوصف هذا الالتزام بشكل عام، يطالَب مساعدو المقيمين، حين تسلُّمِهِم إدارةَ مقاطعةٍ ما، أن يُقْسِموا يمينًا منفصلًا يُلْزِمهم أن تكون هذه الرعاية الأبوية للسكان أولى مسؤولياتهم.

لا شك أن مهنتهم مهنة نبيلة. أن تمثل العدالة، أن تحمي الوضعاء من الكبراء، أن تدافع عن الضعفاء من الأقوياء، أن تطالب بعودة خروف الفقير من حظيرة الأمير السارق، أن يُستَنجَد بك إلى هذه المهمة المجيدة ... ألا يكفي هذا لجعل قلب الرجل يتوهج فرحًا؟ وإن استاء المسؤول في جاوا في بعض الأحيان من منصبه أو مكافأته، فلينظر إلى الواجب الأسمى الذي آل إليه - إلى البهجة الأسمى الناجمة عن القيام بهذا الواجب، ولن يرغبَ بمكافأة سواها.

لكن ذلك الواجب ليس سهلًا. أولًا، عليه أن يقرر أين توقف العدل ليفسح المجال للجور. وحيثما وُجد الجور، أين مورست السرقة أو الاستبداد بالفعل، وما إن كان الضحايا أنفسهم هم في أغلب الأحيان شركاء في هذا الجور، إما من خنوعهم المفرط، أو خوفًا، أو من قلةٍ في ثقتهم في الإرادة أو القوة لدى الشخص المنصَّب لحمايتهم. الكل يعلم أن المسؤول الأوربي يمكن أن يُستدعى

في أي لحظة ليتسلَّم منصبًا آخر، بينما المتصرف، المتصرف المتسلط، باقٍ. أضف إلى ذلك أن هناك طرقًا عديدةً لمصادرة ممتلكات رجلٍ فقيرٍ جاهلٍ. إن قال له مانتريٌّ [33] إن المتصرف يرغب في حصانه، فستجد أن هذا الحصان قد صار من فوره في إسطبلات المتصرف، لكن هذا لا يثبت بأي شكل من الأشكال إنِ المتصرف لا ينوي أن يدفع له ثمنًا غاليًا ... في بعض الأحيان. إن عَمِلَ مئاتُ الناس في حقول زعيم ما من غير أجرٍ، فهذا لا يعني بأي شكلٍ من الأشكال أن هذا الأمر يُفعَل لمصلحته. ألا يمكن أن يكون هدفه هو تجيير المحصول لمصالحهم من منطلق إنساني بحت يرى أن أرضه أحسن موقعًا وأكثر خصبًا من حقولهم، ولهذا سيكافئ جهودهم بسخاءٍ أكبر؟

إضافةً إلى ذلك، أين هو المسؤول الأوربي الذي يجد شهودًا شجعانًا يدلون بشهادة ضد سيدهم المتصرف المرهوب الجانب؟ ولو غامر المسؤول بتوجيه تهمةٍ بلا برهان له عليها، فما مصير علاقة الأخ الأكبر الذي سيكون حينها قد طعن في شرف أخيه الأصغر بلا سببٍ موجب؟ وما مصير رأي الحكومة الطيب التي تعطي المسؤول قوتَ يومه، لقاء خدماته، لكنها ستحرمه من ذلك القوت وتفصله بدعوى عدم الكفاءة لو شك، ولو شكًّا طفيفًا، أو وجّه تهمة الظلم لرجل عالي المقام، مثل التُمونـگـون أو الأديـپـاتّي أو الـپـنـگـيران؟

لا، لا، ليس واجب المسؤول سهلًا! وهذا واضحٌ من كون الكل يعلم أن المسؤول المحلي يتجاوز الحدود المسموح بها في استخدام مجهود رعاياه وأملاكهم ... وأن كل مساعدي المقيمين يُقسمون على مكافحة هذا ...، وأنه من النادر جدًّا أن يُتَّهم متصرف بالاستبداد أو إساءة استخدام السلطات.

لذلك يبدو أن هناك مصاعب لا يمكن تخطيها، تمنع المسؤول من الوفاء بيمينه «لحماية الأهالي من الاستغلال والابتزاز.»

[6]

كان المراقب فيربروخَه رجلًا طيبًا. فحين تراه جالسًا بزيِّه الرسمي المصنوع من الجوخ الأزرق، تُطَرِّز ياقته وكفَّتي سترته أغصانٌ من شجر السنديان والبرتقال، لا يمكنك إلا أن ترى فيه نموذجًا سائدًا بين الهولنديين في الهند الشرقية ... وهو، بالمناسبة، نموذجٌ مختلفٌ جدًا عن الهولندي في هولندا. فهو خاملٌ ما لم يوجد هناك عملٌ يعمله، لا يعرف التدقيق في التفاصيل الذي يُسمَى حماسةً في أوربا، لكنه متحمسٌ للفعل إن دعت الحاجة ... بسيطٌ لكنه ودودٌ تجاه كل من حوله ... زاخرٌ بالمعلومات، مِعوانٌ، مِضيافٌ ... لبقٌ من دون تكلُّف ... حسنُ الظن بالناس ... نزيهٌ ومخلصٌ، لكن من دون نزوعٍ إلى أن يستشهد من أجل هذه الفضائل ... باختصار، إنه، كما يقولون، الرجل المناسب في أي مكان، من دون أن يدفع المرءَ للتفكير بتسمية القرن باسمه - ولو وصل الأمر إلى هذا الحد، فهذا شرفٌ لا يريده في كل الأحوال.

جلس في وسط الـپِـندوپـو إلى الطاولة، وكانت مغطاةً بقماشٍ أبيضَ وعليها أطباقٌ كثيرةٌ. وكان من حينٍ إلى آخر يخاطب المندور (رئيس الشرطة والموظفين الإداريين تحت إمرة مساعد المقيم) بنافد صبرٍ واضحٍ ليسأله، على شاكلة أخت السيدة بلوبيرد،[34] إن كان يرى شخصًا قادمًا. ثم ينهض ويحاول عبثًا أن يجعل مهاميزه تُجلجل على أرض الـپِـندوپـو الطينية المطروقة طرقًا جيدًا، يشعل سيجاره للمرة العشرين، ثم يجلس من جديد. وكان قلَّما يتكلم.

لكن كان بإمكانه أن يتكلم لو أراد، لأنه لم يكن وحيدًا. وبهذا لا أقصد

ببساطةٍ مجموعة العشرين أو الثلاثين خادمًا جاويًا، والمانتري وغيرهم من المرافقين المقرفصين على الأرض داخل الـپندوپـو أو خارجه، ولا الكثيرين من الداخلين والخارجين، ولا العدد الكبير من الأهالي من جميع الطبقات والأحوال الذين يمسكون بأزِمّة الخيل أو يمتطونها ... لا، بل كان متصرف ليباك نفسه، رادن أديپاتي كارتا ناتّا نيگارا، يجلس قُبالته.

الانتظار مملٌ دائمًا. يبدو ربع الساعة كأنه ساعة، والساعة كأنها نصف يوم، وهكذا. ربما ثرثر فيربروخَه قليلًا. كان متصرف ليباك شيخًا مثقفًا يستطيع أن يتحدث عن موضوعاتٍ عديدةٍ حديثَ العارفِ الحصيفِ. ما عليك إلا أن تنظر إليه لتقتنع أن معظم الأوربيين الذين التقاهم كان بإمكانهم أن يتعلموا منه أكثر مما يتعلم هو منهم. كان بريقُ عينيه الداكنتين المتقدتين يناقض تراخي ملامحه والشيب الذي في شعره. لا ينطق عادةً بقولٍ إلا بعد تَرَوٍّ، وهذه في الحقيقة سمةٌ عامةٌ بين الشرقيين من ذوي الحسب والنسب. فحين تحادثه تشعر بأن عليك أن تنظر إلى كلماته بمثابة مذكِّراتٍ يَحْتَفِظُ بمحاضرها في محفوظاته للعودة إليها إن دعت الحاجة. قد يبدو هذا أمرًا بغيضًا لمن لم يَعْتَدْ على التعامل مع الأرستقراطيين الجاويين. لكن ليس من الصعب تفادي كل الموضوعات التي قد تُسيء، ولاسيما أن الجاويين أنفسهم لا يغيرون الموضوع بفظاظةٍ، لأن ذلك مخالفٌ للمفهوم الشرقي للباقة. لذلك لا يحتاج من يرغب في تفادي التطرق إلى مسألة معينة إلا إلى الحديث عن سفاسف الأمور، وله أن يطمئن أن الزعيم الجاوي لن يأخذه إلى حيث لا يرغب، من خلال عطف الحديث إلى جهةٍ لا يرغب بها.

صحيحٌ أن الآراء تختلف حول أفضل السبل للتعامل مع هؤلاء الزعماء. لكن يبدو لي أن الصراحة الطبيعية، من غير محاولة للاحتراز الدبلوماسي، هي

الطريقة المفضلة.

على أية حال، بدأ فيربروخَه حديثه بعبارةٍ تافهةٍ عن الطقس والمطر.

قال المتصرف، «أجل، إنها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية.»

وهذا شيءٌ يعلمه فيربروخَه جيدًا بطبيعة الحال، حيث إن الشهر هو كانون الثاني. لكن ما قاله عن المطر كان أيضًا معروفًا تمامًا لدى المتصرف. تلا ذلك صمتٌ قصيرٌ آخر.

أشار المتصرف بحركةٍ طفيفةٍ من رأسه لا تكاد تُرى إلى خادم يقرفص عند مدخل الـپـِندوپـّو. وكان هذا غلامًا صغيرًا يرتدي سترةً مخمليّةً زرقاء فاتنةً وبنطالًا أبيض وحزامًا مذهَّبًا يشد سارونه[35] الثمين حول عورته وعلى رأسه الكَيْن كَـپـالا[36] الثمينة التي كانت تطل من تحتها عيناه السوداوان الماكرتان. جاء يزحف مقرفصًا إلى قدمي المتصرف، ثم وضع العلبة الذهبية التي تحتوي على التبغ والجير والسيري والـپـينانـگ والـگـمبير،[37] ثم أدى السلام برفع يديه المضمومتين كما في الدعاء إلى جبينه المنحني جدًا، ثم قدم لسيده العلبة الثمينة.

«سيكون الطريق صعبًا بعد هذا المطر الغزير،» قال المتصرف كأنه يقدم تفسيرًا لذلك الانتظار الطويل. كان ينثر شيئًا من الجير على ورقة تَنبول وهو يتحدث.

«الطريق في پـاندِگـلان ليس بهذا السوء،» قال فيربروخه الذي تهوَّر إلى حدٍّ ما في إجابته، ما لم يكن يرغب حقًّا بالتطرق إلى موضوعٍ حساسٍ، لأنه كان عليه أن يتذكر أن متصرف ليباك لا يسرُّه أن يسمع ثناءً على طُرقات پـاندِگـلان حتى وإن كانت أفضل من طرقات ليباك.

لم يرتكب الأديـپـاتّي خطأ التسرع في الإجابة. عاد الماس أو الغلام الصغير أدراجه زاحفًا وهو جاثٍ حتى مدخل الـپـِندوپـّو، حيث أخذ مكانه من جديدٍ

بين رفاقه ... وكانت شفتا المتصرف وأسنانُه القليلة الباقية قد صبغتها عصارةُ السِّيري باللون الكستنائي قبل أن يقول:

«أجل، هناك أناسٌ طيبون كثر في پـاندِگـلان.»

وهكذا بدا أن الحديث قد تحول إلى خلاف واضح لمن يعرف المتصرف والمراقب، ولمن يعرف الأوضاع في ليباك. فأي تلميح إلى حالة الطرق الأفضل في مقاطعة مجاورة يمكن تفسيره على أنه ناجمٌ عن محاولات فاشلة لبناء مثل هذه الطرق الجيدة في ليباك أيضًا، أو لصيانة الطرق الموجودة صيانةً أفضل. لكن المتصرف كان محقًّا في هذا المقام، لأن كثافة السكان في پـاندِگـلان أكثر، ولاسيما بالقياس إلى مساحتها الأصغر منها بكثير، ولذلك فإن العمل على الطرق الرئيسة، حيث تتحد القوى، أسهل منها بكثير من العمل في ليباك، وهي مقاطعة تبلغ مساحتها مئات الأميال المربعة لكن ليس فيها إلا سبعون ألف نسمة.

قال فيربروخه، «هذا صحيح. ليس لدينا ناسٌ كثيرون هنا. لكن ...»

نظر إليه الأديپـاتي كأنه يتوقع هجومًا. كان يعلم أن «لكن» تلك قد يتلوها شيءٌ يبغض سماعَه، وهو الذي قضى ثلاثين عامًا في منصبه متصرفًا على ليباك. لكن بدا أن فيربروخه لا يرغب في مواصلة القتال حاليًا. على أية حال، قطع الحديثَ وسأل المندور إن كان يرى شخصًا قادمًا.

«ما زلت لا أرى شيئًا في اتجاه پـاندِگـلان، يا سيدي، لكن، على الناحية الأخرى، هناك شخصٌ قادمٌ على ظهر حصان ... إنه توان كوماندان.»

قال فيربروخه وهو يتطلع نحو الخارج، «إنه بالفعل هو، يا دونـگـسو. إنه الكوموندانت! إنه يصطاد في هذه النواحي، وقد خرج باكرًا صباح هذا اليوم. هاي، دوكلاري ... دوكلاري!»

«لقد سمعك يا سيدي، وهو قادمٌ نحونا. وغلامه يركب وراءه، ووراءه

كيدان[38] يتعامد مع ظهر الحصان.»

أمر فيربروخه أحد الخدم المقرفصين في الخارج، «پيگن كودانيا توان كوماندان.[39] صباح الخير، يا دوكلاري. هل تبللت؟ ماذا في الحقيبة؟ تفضل!»

دخل الـپِـندوپـو رجلٌ قويُّ البنية في الثلاثين من عمره، له مظهر جندي مع أنه ليس عليه أي أثر لزيٍّ عسكريٍّ. إنه الملازم دوكلاري، قائد حامية رانْكَس بيتون الصغيرة. كان هو وفيربروخه صديقين، وقد تعززت صداقتهما أكثر في أثناء إقامة دوكلاري في منزل فيربروخه مدةً بينما كان ينتظر اكتمال حصن جديد. صافحه وحيّا المتصرف بلباقة، ثم جلس وهو يسأل، «حسنٌ، ماذا لديك من ضيافة؟»

«هل تريد شايًا، يا دوكلاري؟»

«لا، شكرًا، حرارتي مرتفعة بما يكفي! ألا يوجد لديك حليب جوز الهند؟ فهذا منعشٌ أكثر.»

«لن تحصل عليه. حين ترتفع حرارتك فحليب جوز الهند مُضرٌّ جدًا بك. فهو يجعلك متيبِّسًا ويصيبك بأوجاع المفاصل. فقط انظر إلى أولَئك العتّالين الذين يحملون الأحمال الثقيلة عبر الجبال، فهم يحافظون على لياقتهم ومرونتهم من خلال شرب الماء الحار أو الكوپـي داون. لكن الشاي بالزنجبيل أفضل ...»

«ماذا؟ كوپـي داون، شاي مصنوع من أوراق القهوة؟ لم أسمع بمثل هذا في حياتي!»

«هذا لأنك لم تخدم في سومطرة. فهذا هو العرف السائد هناك.»

«لا بأس إذن. هات لي شايًا ... لكن ليس من أوراق القهوة ولا بالزنجبيل. بلا شك، أنت كنت في سومطرة ... وكذلك كان مساعد المقيم الجديد، أليس كذلك؟»

كانا يتحدثان بالهولندية التي لا يفهمها المتصرف. فجأةً راح دوكلاري يتحدث بالملايوية إما لأنه شعر بأنه ليس من اللباقة أن يستبعد المتصرف من الحديث، أو لسبب آخر، فخاطبه:

«هل تعلم أيها الأديپاتّي أن السيد فيربروخه يعرف مساعد المقيم الجديد؟»

قال فيربروخه مقاطعًا، «لا، لا، لم أقل ذلك! أنا لا أعرفه – لم أره قط. هو كان يعمل في سومطرة قبلي بسنين. كل ما قلته لك هو أنني سمعتُ عنه الكثير!»

«حسنٌ، النتيجة واحدة. لا تحتاج في الحقيقة إلى رؤية شخص لكي تعرفه. ما رأيك أنت، أيها الأديپاتّي؟»

في تلك اللحظة كان على الأديپاتّي أن ينادي خادمًا، لذلك مضت بضع دقائق قبل أن يتمكن من القول، «أنا أتفق معك، أيها القائد، لكن من الضروري في كثير من الحالات أن ترى الشخص قبل أن تُكَوِّن رأيًا عنه.»

«عمومًا، قد يكون هذا صحيحًا،» تابع دوكلاري قائلًا بالهولندية – إما لأنه أكثر ألفةً بتلك اللغة ورأى أنه فعل ما يكفي للوفاء بمتطلبات اللباقة، أو لأنه أراد أن يفهمه فيربروخه لوحده فقط – «عمومًا، قد يكون هذا صحيحًا، لكن حين يتعلق الأمر بهافِلار، لستَ بحاجةٍ إلى لقائه ... إنه أحمق!»

«لم أقل ذلك، يا دوكلاري!»

«لا، أنت لم تقل ذلك، لكن أنا أقوله، بعد كل ما أخبرتني عنه. من يقفز في الماء لينقذ كلبًا من أسماك القرش فهو أحمق برأيي.»

«حسنٌ، لم يكن ذلك تصرفًا حكيمًا، ولكن ...»

«كما أن ذلك الهجاء الساخر الذي قاله بحق الجنرال فان دامّه ... كان ذلك سلوكًا لا يليق!»

«كان هِجاء ظريفًا.»

«صحيح! لكن لا يحق لشاب أن يتحاذق على حساب جنرال.»

«لا تنسَ أنه كان صغيرًا جدًّا في السن ... كان ذلك قبل أربعة عشر عامًا. كان حينها في الثانية والعشرين من عمره فقط.»

«وماذا عن ديك الحبش الذي سرقه؟»

«كان ذلك لإغاظة الجنرال.»

«بالضبط! لا يليق بشابٍّ أن يُغيظ جنرالًا ورئيسه أيضًا، حيث كان الجنرال في هذه الحال هو الحاكم المدني. ظننتُ أن تلك القصيدة الصغيرة الأخرى ممتعةٌ بما يكفي لكن ... مبارزاته الخالدة تلك!»

«كانت تلك المنافحات الشعرية عادةً نيابةً عن شخص آخر. كان دائمًا يساند الجانب الأضعف.»

«لندعِ الناسَ يخوضون مبارزاتهم بأنفسهم إن كان عليهم أن يخوضوها! وهي برأيي غير ضرورية في أغلب الأحيان. فإن كان لا بُدَّ من ذلك، فأنا مستعد للتحدي، وفي حالات معينة قد أكون أنا المتحدي، لكن معاذ الله أن يتحول هذا إلى شأن يومي. دعونا نأمل أنه قد تغير في تلك الناحية.»

«بكل يقين قد تغير، ولا شك في ذلك! لقد كبر كثيرًا الآن، وهو متزوجٌ منذ سنين، وهو مساعدُ مقيمٍ. أضف إلى ذلك أنني سمعتُ أنه صاحبُ قلبٍ طيبٍ ميالٍ للعدل.»

«هذا مفيدٌ جدًّا في لبياك! حدث شيءٌ هذا الصباح ... هل تظن أن المتصرف يفهمنا؟»

«لا أرجِّح ذلك. لكن أرني شيئًا من كيس صيدك، وسيظن أننا نتحدث عن ذلك.»

أخذ دوكلاري كيسه، وأخرج اثنتين من حمائم الغابات، وراح يقلِّب

الطائرين كأنه يتحدث عن الصيد، ثم أخبر فيربروخه أنه في أثناء الصيد لحق به جاويٌّ راكضًا، وسأله إن كان بإمكانه أن يفعل شيئًا، ليخفف من الأعباء التي يرزح تحتها الناس.

ثم تابع قائلًا، «وهذا يعني الكثير، يا فيربروخه! وإن كنت لستُ متفاجئًا بما قال. لقد أمضيت في بانتام من الوقت ما يكفي لمعرفة ما يجري هناك، ولكن صاحبك الجاوي المتواضع عادةً ما يكون حذرًا وكتومًا فيما يتعلق بزعمائه إلى درجةٍ تجعلني أستغرب أن يطلب شيئًا من شخصٍ لا علاقة له بالأمر إطلاقًا!»

«وبِمَ أجبتَه، يا دوكلاري؟»

«حسنٌ، لقد قلت له إن الأمر لا يعنيني! قلت له أن يأتي إليك، أو إلى مساعد المقيم الجديد حين يصل إلى رانْكَس بيتون، ويتقدم بشكواه هناك.»

نادى المندور دونـگـسو فجأةً، «إنِي آپـا توان توان داتان! إني أرى مانتريًّا يلوِّح بتُودونِه!»[40]

هب الجميع واقفين. لم يرغب دوكلاري أن يُفسَّر حضورُه في الـپِـندوپّـو بمعنى أنه جاء هو أيضًا إلى حدود المقاطعة للترحيب بمساعد المقيم الذي لم يكن رئيسه، وإن كان أعلى منه مرتبةً، وأحمقَ أيضًا. لذلك امتطى حصانه ومضى في سبيله، يتبعه خادمه.

وقف الأديـپـاتّي وفيربروخه عند مدخل الـپِـندوپّـو، وشاهدا عربةً قادمةً تجرها أربعةٌ من الخيل، وهي ملطخةٌ جدًّا بالطين. توقفت المركبة قريبًا من البنيان الخيزراني الصغير.

لم يكن من السهل تخمين كل ما تحتويه تلك العربة قبل أن يفك دونـگـسو، بمساعدة «السُّعاة» وعددٍ من الخدم من حاشية المتصرف، كل الأربطة والعُقَد التي كانت تُغلِّف العربة في غلاف جلدي أسود يذكِّر المرء بحذر الأيام الخوالي

حين كان يؤتى بالأُسود والنمور إلى المدينة وكانت حدائق الحيوانات ما زالت مَعارض متجولة. أما الآن فلم يكن في العربة أُسودٌ ولا نُمورٌ. إنما أُغلِقت على هذا النحو بعنايةٍ بسبب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي جعلت ذلك ضروريًا تحسُّبًا للأمطار.

إن النزول من عربةٍ كانت تخضُّك خضًّا على الطريق طَوَال الرحلة الطويلة ليس سهلًا كما قد يتصور الناس الذين قلّما يسافرون. إن الأمر يشبه تقريبًا عَظائيات ما قبل التاريخ المسكينة التي، بسبب انتظارها الطويل، شكلت جزءًا لا يتجزأ من الطين الذي لم تستوطن فيه أصلًا بقصد البقاء الدائم، وهكذا تنشأ لدى المسافرين الذين جلسوا طويلًا محشورين حشرًا في عربةٍ شديدةِ الاكتظاظ حالةٌ أقترح تسميتها «الاندغام.» ففي نهاية المطاف لا يعود المرء يعرف أين تنتهي وسادةُ العربةِ الجلديةُ وأين يبدأ الأنا. في الحقيقة، لقد خطر ببالي أحيانًا أنه في عربةٍ كهذه يمكن أن يُصاب المرءُ بوجعٍ في أسنانه أو بتشنُّجٍ، فيتوهَّم أنه عُثٌّ في النسيج أو بالعكس.

هناك ظروفٌ قليلةٌ في العالم المادي لا تمنح الإنسانَ المفكرَ فرصةً ليكوِّن ملاحظاتٍ على المستوى الفكري. لذلك كثيرًا ما تساءلتُ: تُرى، هل الأخطاء الكثيرة التي لها قوة القانون عندنا، والانحرافات الكثيرة التي نتوهم أنها الاستقامة، ناتجةٌ من جلوسنا الطويل مع ذات الصحبة وفي ذات العربة؟ فالساق التي تضطر إلى مدِّها يسارًا، بين صندوق القبعات وسلة الكرز ... والركبة التي ظللتَ تُلصِقها بباب العربة، لكي لا تظنن السيدة المقابلة أنك تنوي الهجوم على تنورتها المنتفخة أو عفَّتها ... والقدم المصابة بالمسامير وهي تخشى من كعب المندوب التجاري المتجول الجالس إلى جانبك ... والرقبة التي أُجبرتَ على لفتها نحو اليسار لمدة طويلة، لأن المطر كان يتسرب على اليمين أمامك ... كل هذه،

كما ترون، لا بد أن تصبح رقابًا ورُكَبًا وأقدامًا مُشَوَّهةً. أعتقد أنه يجدر بالمرء أن يغير عربته أو مقعده أو صحبته من المسافرين بين الحين والآخر. فذلك يُمَكِّنك من لفت رقبتك في اتجاه آخر، كما يمكِّنك من تحريك ركبتك بين الحين والآخر، ولعل جليسك يكون أحيانًا سيدةً تلبس حذاء رقص، أو ولدًا صغيرًا لا تصل قدماه إلى أرض العربة. حينها تكون عندك فرصةٌ أفضل للنظر باستقامة، والمشي باستقامة، ما إن تطأ قدماك الأرضَ الصلبةَ من جديدٍ.

لا أدري الآن إن كان، في العربة التي توقفت أمام الـپـندوپـو، أي شيءٍ مخالفٍ لمسألة «فسخ الاستمرارية.» لكن الأمر استغرق وقتًا طويلًا قبل أن يظهر أي شيء. وكان هناك تضاربٌ واضحٌ بين تعبيرات الترحيب واللباقة، فمن قائلٍ، «تفضلي بالنزول أولًا، سيدة هافِلار» إلى قائلٍ، «سعادة المتصرف!» على أية حالٍ، خرج أخيرًا سيدٌ محترمٌ تذكِّر مشيته ومظهره بالعَظائيات التي ذكرتُها للتوّ. وبما أننا سنراه مرةً أخرى، فربما يحسن بي أن أخبركم في الحال أن سكونه، لا يمكن عَزْوُه حصريًا إلى الاندغام مع عربة السفر لأنه، حتى في غياب أي عربة على بعد أميالٍ، يظل يُبدي من الهدوء والتباطؤ والحذر ما يجعل كثيرًا من العظائيات تغار، بل هي في أعين عددٍ كبيرٍ من الناس أمارات دماثة ورزانة وحكمة. لمعظم الأوربيين في الهند الشرقية، كان شاحبًا جدًّا، مع أن هذا في تلك النواحي لا يُعَدُّ علامةً على اعتلالٍ في الصحة. كانت ملامحه رقيقةً تشهد على شيءٍ من التطور الفكري. لكن كان في نظرته برودٌ، شيءٌ يذكرِّك بجدول لوگـارِتميات؛ ومع أن مظهره عمومًا لم يكن مزعجًا أو مُنَفِّرًا، لا يملك المرء إلا أن يشتبه أن أنفه الدقيق الكبير إلى حدٍّ ما، كان يشعر بالملل على ذلك الوجه لأنه لا يحفلُ بكثيرٍ من الأحداث.

مدَّ يده بلباقةٍ إلى سيدةٍ ليساعدها على الترجُّل من العربة، وحين تناولتْ

طفلًا صغيرًا أشقرَ الشعر في الثالثة من عمره من سيدٍ محترمٍ ما زال يجلس في العربة، دخلا الـپـندوپـو. وبعدهما جاء السيد المحترم الثاني الذي أشرنا إليه للتوّ، وسيلاحظ العارفون بجاوا أنه لأمرٌ فريدٌ أنه انتظر عند باب العربة، ليساعد بابو جاويَّةً على الترجُّل. في هذه الأثناء تمكن ثلاثةٌ من الخدم الآخرين أن يتملصوا من الخزانة المصنوعة من الجلد اللمّاع، الملصقة بظهر العربة مثل محارةٍ صغيرةٍ على ظهر أمها.

مدَّ السيد المحترم الذي ترجل أولًا يده للمتصرف والمراقب فيربروخَه، فصافحاه باحترام؛ وكان سلوكهما برمته يوحي أنهما يشعران في حضرة شخصٍ مهم. إنه السيد سلايميرِن، مقيم بانتام، الإقليم الممتد الذي تشكل ليباك إحدى متصرفياته، أو، كما تسمى رسميًا، قضاءً.

في قراءتي للأعمال الروائية أثار غضبي أكثر من مرة، قلة الاحترام التي يبديها الكتّاب لذوق الجمهور، ولاسيما حينما كانوا يحرصون على إنتاج شيء يُفتَرض أن يكون طريفًا أو هزليًا، لكي لا أقول فكاهيًا، وهذه سمةٌ لا يميزها الناس في أغلب الأحيان من الكوميديا في أبأس صورها. فهم يأتون بمتحدثٍ لا يفقه اللغة أو يلفظها لفظًا سيئًا؛ على سبيل المثال، يجعلون ألمانيًا يقول، «إزهب بشرعة إلى القناة العزيمة» أو «صِيْرتي لا تحشِن قَزْف الأخياء.» وإن لم يجدوا ألمانيًا، يأتون بشخص يتلعثم أو «يخلقون» شخصًا يكابد حتى الموت لكي يلفظ كلمتين تترددان باستمرار. لقد رأيتُ مسرحيةً هزليةً بلهاء تحقق نجاحًا كبيرًا لأن فيها رجلًا ظل يقول «اسمي مايَر.» برأيي هذا النوع من التذاكي[1] رخيصٌ إلى حدٍّ ما، وبصراحةٍ، سأغضب منكم إن استظرفتموه.

لكن عليَّ الآن شخصيًا أن أضع أمامكم شيئًا من هذا القبيل. فبين الحين

---

(1) ادّعاء الذكاء.

والآخر، عليَّ أن أجعل شخصًا «يتابع المسير» - أعدكم ألا أفعل ذلك إلا بالحد الأدنى - شخصًا يتكلم بالفعل بطريقةٍ ستستجرُّ عليَّ، يا ويح قلبي، تهمةَ محاولةٍ فاشلةٍ لجعلكم تضحكون. لذلك عليَّ أن أؤكد لكم تأكيدًا قاطعًا أنه ليس ذنبي إن كان مقيمُ بانتام المبجَّل، المشار إليه هنا، له طريقةٌ غريبةٌ جدًا في التعبير عن نفسه، إلى درجةٍ تجعل من الصعب عليَّ أن أستنسخها كما هي، من غير أن أظهر كأنني أحاول، أن أتظارف عليكم باللجوء إلى هذه الحيلة المبتذلة. إذ كان يتحدث كأن هناك توقفًا كاملًا بعد كل كلمة، أو حتى استراحة مُطَوَّلة، ولا أجد خيرًا من الصمت الذي يتلو كلمة «آمين»، بعد صلاةٍ طويلةٍ في الكنيسة أقارن به الفواصل بين كلماته، وهذا الصمت، كما يعلم الجميع، هو إيذانٌ بأن لدى المرء فسحةً من الوقت، لكي يتململ في مقعده أو يسعل أو يتمخَّط. كان من عادته أن يقول كلامًا مترويًا، ولو أنه أقلع عن عادة التوقف في أماكن غير مواتية في حديثه، لكانت جُمَلُه صحيحةً بما يكفي في معظمها، على الأقل من ناحيةٍ بلاغيةٍ. لكن ذلك الإلقاء بالتقسيط، وكل ذلك التلعثُم والتَّعْتَعة، جعل الإصغاء إليه أمرًا مزعجًا. وفي غالب الأحيان كان يضع أمامك العراقيل. ففي العادة، ما إن تبدأ بالإجابة، ظنًّا منك أن الجملة قد انتهت، وأن إكمال الجزء المحذوف قد تركه لحصافة مستمعيه، حتى تأتيك الكلمات المفقودة تتهادى كأنها فلولُ جيشٍ مهزوم، وتجعلك تشعر كأنك قاطعته، وهذا أمرٌ بغيضٌ في كل الأحوال. قال سكان سيران، وهي المدينة الكبرى في المندوبية، عن أحاديثه إنها «دَبِقَة» - أو هذا ما قاله على الأقل من لم يكن في السلك الحكومي، وهذا منصبٌ يجعل غالبية السكان حذرين إلى حدٍّ ما. أنا لا أرى أن هذه الكلمة لبقةٌ جدًّا، لكنني ملزمٌ بالاعتراف بأنها تعبر إلى حدٍّ دقيقٍ جدًّا، عن السمة الأساسية لأسلوب المقيم في الخطابة.

لم أقل أي شيء حتى الآن عن ماكس هافِلار وزوجته - لأن هذين هما من ترجَّلا من العربة مع طفلهما والبابو، بعد المقيم - ولعلّه يكفي أن أترك وصف مظهرهما الخارجي، وشخصيتهما لمجرى الأحداث وخيال القارئ. لكن، وبما أنني بدأت الوصف في كل الأحوال، فسأقول لكم إن السيدة هافِلار لم تكن جميلة، لكن الطريقة التي تنظر أو تتكلم بها كانت عذبةً جدًّا، وتدل أريحية أخلاقها وعفوية تعاملها بشكلٍ لا مراءَ فيه، على أنها خَبِرَت الدنيا وتنتمي إلى طبقات المجتمع الراقية. لم يكن فيها رِقَّة الطبقة المتوسطة المتكلفة المنفِّرة، التي ترى أنه يجب أن تعذب نفسها وغيرها، بادِّعاء حياءٍ زائفٍ لكي يُقال عنها إنها «مميزة.» ولذلك لم تُعِر إلا أهميةً بسيطةً للمظاهر الخارجية، التي يبدو أن لها قيمةً عند غيرها من النساء. وقد كانت قدوةً تُحتذى في ملبسها أيضًا. كانت ملابس سفرها تتألف من باجو أبيض من الموسلين مع حزامٍ أزرق - أعتقد أن هذا اللباس يُدعى في أوربا رداءً. وعلى عنقها كانت تلبس خيطًا حريريًا رفيعًا تتدلى منه قلادتان صغيرتان، لكنهما غير ظاهرتين للعيان، إذ تختفيان في الثنايا التي تغطي صدرها. أما بالنسبة إلى البقية، فقد كان شعرها معقودًا ألا شِنواز [*على الطراز الصيني*]، بشيء من رذاذ الميلاتي[41] في قُنديهتها[42] ... هذه هي كل زينتها.

لقد قلتُ إنها ليست جميلةً، لكني لا أريدكم أن تظنوا أنها كانت عكس ذلك. أعتقد أنكم ستجدون أنها جميلة، حالما تُتاح لي الفرصة لتقديمها وهي تتميز غضبًا، مما سمته «إهمال العبقرية» حين يتعلق الأمر بمحبوبها ماكس، أو حينما تستثيرها فكرةٌ تتعلق برفاهية طفلها. لقد قيل كثيرًا إن الوجهَ مرآةُ النفس، فلا تجد من يقيم وزنًا لصورة وجهٍ جامدٍ لا مرآة فيه لنفسٍ. إذن، دعوني أقل إنَّ لها نفسًا جميلةً، وأنه لا بد للمرء من أن يكون أعمى، لكي لا يرى الجمال أيضًا،

في الوجه الذي تنعكس فيه تلك النفس.

كان هافلار رجلًا في الخامسة والثلاثين من عمره. نحيفًا، سريعَ الحركة. وليس في مظهره ما يلفت الانتباه، سوى شفته العليا القصيرة المتقلبة، وعينيه الكبيرتين الفاتحتي الزُّرقة اللتين تكونان حالمتين، حين يكون في مزاج رائق، لكنهما تقدحان شررًا إن استحوذت عليه فكرةٌ عظيمةٌ. كان شعره الأشقر يسترسل على صِدْغَيْه، وبإمكاني أن أفهم جيدًا، لماذا يتوهم الناس الذين يرونه لأول مرة، أنهم في حضرة واحدٍ من نادري العقل والقلب في الأرض! لقد كان «كتلةً من المتناقضات.» كان حادًّا مثل شفرةِ حلاقةٍ، ورقيقَ القلب مثل فتاةٍ صغيرةٍ، وكان دومًا أول من يشعر بالجرح الذي تُحدثه كلماتُه اللاذعة، فكان يعاني من جَرّائها أكثر من الطرف المتضرر. كان سريعَ البديهة فَطِنًا، يستوعب أعقد المسائل وأسماها؛ ويتلذذ بحل المشكلات العويصة، التي لا يستكثر في حلها جهدًا أو دراسةً أو بذلًا مهما بلغ. ولكنه كان في غالب الأحيان يعجز عن فهم أبسط الأمور، التي يمكن أن يشرحها له طفلٌ. كان يعشق الحقيقة والعدل، ولذلك كثيرًا ما يُهمل أقرب واجباته وأكثرها وضوحًا، لكي يرد مظلمةً مهما سَمَتْ أو نَأَت أو تعمَّقت، مظلمةً تشده إليها الحاجةُ المحتملة لجهدٍ أكبر في معالجتها. كان شهمًا مقدامًا، لكنه كان، مثل دون كيخوته، يضيع شجاعته على طواحين هواء، ويدفعه طموحٌ لا يرتوي يجعل كل التمايز الاجتماعي العادي لا قيمة له، ومع ذلك كانت أعظم سعادة لديه في حياة عائلية هادئة منعزلة. كان شاعرًا بأسمى معاني الكلمة، يحلم بأنظمة شمسية تُخلَق من شرارة، ليُسكِن فيها كائناتٍ من خلقه هو، وكان يشعر بأنه سيدٌ لعالمٍ أوجده هو، ومع ذلك تجده بعد ذلك مباشرةً مستعدًا تمامًا للمواصلة بلا أدنى حُلم يراوده، أو يتحدث عن سعر الأرز، أو قواعد النحو، أو الفوائد الاقتصادية لمدجنة مصرية. لا يوجد علمٌ

غريبٌ عليه كليةً. كان يتنبأ بما لا يعرفه، ويمتلك قدرةً عاليةً على تطبيق القليل الذي يعرفه - كل إنسانٍ يعرف شيئًا قليلًا، وهو ليس استثناءً لهذه القاعدة، ولعله يعرف أكثر من غيره - ويطبقه بطريقة تضاعف مقدار معرفته. كان دقيقًا ومنضبطًا، وصبورًا إلى أبعد الحدود؛ لكن كل ذلك كان انضباطًا ذاتيًا - الدقة والانضباط والصبر لم تأته تلقائيًا، حيث إن عقله ميالٌ للتهور. كان بطيئًا ومحترسًا في إطلاق الأحكام، مع أنه لم يكن يبدي ذلك لمن سمعوه يعبر عن استنتاجاته بسرعة. كانت انطباعاته أقوى من أن تجعل الناس يعتقدون أنها ستدوم، لكنه في أغلب الأحيان أثبت أنها تدوم. كان ينجذب إلى كل ما هو عظيمٌ وسامٍ، وفي الوقت نفسه كان بسيطًا وساذجًا كطفلٍ. نزيهًا، ولاسيما حين يمكن أن تتحول النزاهة إلى سخاءٍ، وكان لا يدفع ديونًا تبلغ مئات الخولدنات، لأنه تبرع بالآلاف. كان فَطِنًا ومسليًا إذا شعر أن فِطنَته ستُفهَم، وإلا فإنه مُقتضب الحديث ومتحفظ. كان ودودًا مع أصدقائه، يصادق - أحيانًا بلا تردد - كل من يعاني. مُرهَف الإحساس تجاه الحب والمودة ... صادقَ القول إن وعد ... يتنازل عن أشياء بسيطة، لكنه ثابت إلى درجة العناد إذا رأى أنه من الأجدى إبداءُ الحزم ... متواضعٌ وخدومٌ لمن يعترفون بتفوقه العقلي، ولكنه صعب المِراس إذا حاولوا منازعته في ذلك ... تارةً صريحٌ بلا تفاخر، وكتومٌ تارةً أخرى إن خشي أن تُظَنَّ صراحتُه حماقةً ... ميّالٌ للملذات الحسية بقدر ميله للملذات الروحية ... خجولٌ لا يتقن التعبير عن نفسه إذا ظن أنه لم يُفهَم، وفصيحٌ إذا شعر أن كلماته تقع على أرض خصبة ... خاملٌ ما لم يحثُّه حافزٌ من نفسه، ومتحمسٌ إن كان الأمر كذلك ... وأخيرًا، كان دَمِثًا، خلوقًا، لا تشوب سلوكَه شائبة: هكذا كان هافلار، تقريبًا.

أقول: تقريبًا. صحيحٌ أن التعريفات صعبةٌ بحد ذاتها، إلا أنها تصبح أكثر

صعوبةً حين يتعلق الأمر بوصف شخصٍ يشذُّ كثيرًا عن العُرْف اليومي. وهذا بلا شك ما يدفع الروائيين لجعل أبطالهم إما شياطين أو ملائكة. من السهل رسم الأمور بالأسود والأبيض، لكن الأصعب هو نسخ الظلال والفروق الدقيقة بينهما، حين يتقيد المرء بالحقيقة، وبهذا لا يحق له أن يلوّن الصورة بلون داكنٍ جدًّا أو فاتحٍ جدًّا. أشعر أن رسمي لشخصية هافلار ناقص إلى أبعد الحدود. فالمواد التي أمامي ذات طبيعة متنوعة جدًّا، إلى درجة تعيق حكمي بسبب «الإفراط في الثراء»؛ ولذلك لعلّي أعود إليها لأكمل الصورة في سياق الأحداث التي أرغب في سردها. هناك شيءٌ وحيدٌ مؤكَّد: كان هافلار رجلًا غيرَ عادي، ويستحق عناء الدراسة. (لاحظتُ أنني نسيتُ أن أذكر أن إحدى أبرز خصاله، هي أنه كان يدرك الجانب المضحك والجِدّي للأمور بذات القَدْر من السرعة والعفوية، وهذا ما يضفي على أسلوب حديثه نوعًا من «الفكاهة» من غير أن يعلمها، ما يترك جمهوره في شكٍّ دائم، إن كانوا قد تأثروا بالشعور العميق الذي ساد في كلماته، أم عليهم أن يضحكوا من السخافة التي كبحت تلك الجدية فجأةً).

واللافت للنظر أن مظهره، بل حتى عواطفه، ليس فيها إلا أثرٌ قليلٌ للحياة التي يحياها. لقد صار التبجح بالخبرة أمرًا مبتذلًا سخيفًا. هناك أناسٌ ظلوا مدة خمسين أو ستين سنةً يسيرون مع تيار الجدول الصغير الذي يدَّعون أنهم يسبحون فيه، وليس لديهم ما يخبرونك به، سوى أنهم انتقلوا من المربع أ إلى الشارع ب. وليس هناك أكثر شيوعًا من أن تسمع هؤلاء الناس أنفسهم يتفاخرون بتجاربهم، وهم من شاب شعرُهم بأخف التجارب. وهناك آخرون يدَّعون أن تجاربهم مستمدةٌ من تصاريف الدهر التي مرّوا بها فعلًا، لكن من غير دليلٍ على أن تلك التقلبات تركت في حياتهم العقلية أي أثر عميق. أستطيع أن

أتصور أن بعض النفوس التي تشهد أحداثًا جسامًا، أو حتى تشارك فيها، قد لا تتأثر إلا قليلًا، إذا كانت لا تمتلك القدرة على تلقي الانطباعات واستيعابها. وإن كان هناك أحد يشكك في هذا الأمر، فليسأل نفسه إن كان يحق له أن ينسب «الخبرة»، إلى كل سكان فرنسا الذين كانت أعمارهم أربعين أو خمسين سنة عام 1815. ومع ذلك كل هؤلاء كانوا أشخاصًا لم يشهدوا الدراما المذهلة التي بدأت سنة 1789 فحسب، بل كانت لهم أدوارٌ تتراوح في أهميتها بين كثيرٍ وقليلٍ.

وعلى النقيض من ذلك، كم من أناسٍ كابدوا عواطف لا تبدو لها مسوغاتٌ من ظروفٍ خارجيةٍ؟ لعل المرء يتذكر روايات روبنسِن كروزو، أو كتاب «سُجوني» لسِلـڤيو پِلِّيكو، أو كتاب «پِيـچيولا» الساحر لسانتين،[43] أو الصراع في صدر «الخادمة العجوز» التي تظل طوال حياتها تتعلق بحبٍّ وحيدٍ، من غير أن تنبس بكلمة واحدة تدل على ما يعتلج في صدرها، أو أخيرًا مشاعر محبٍّ للبشرية لا ينخرط ظاهريًا في مسار الأحداث، إلا أن لديه اهتمامًا عارمًا في سعادة إخوته في المواطَنة أو في البشرية. يمكن للمرء أن يتخيل كيف تتناوب الآمال والمخاوف على محب الإنسانية ذاك، وكيف يراقب كل تغيير، أو يتحمس لفكرة رائعة، ويتميز غيظًا حين يرى فكرته يُضرب بها عرضُ الحائط، أو تدوسها الجماهير الذين تتفوق قوتهم، على الأقلِ مؤقتًا، على الأفكار الرائعة. تأملوا الفيلسوف الذي يحاول من زنزانته أن يعلِّم الناس ما هي الحقيقة، حين يغرق صوتُه في خضم نفاق المتدينين، ودجل الساعين إلى المال. تأملوا سقراط – ليس وهو يتجرع كأس السم، لأنني هنا أشير إلى تجربة النفس الباطنية، لا إلى ما يأتي من الظروف الخارجية – وكم حزَّ في نفسه أن يُدعى «مُفسد الشباب ومُنكِر الأرباب»، وهو الذي سعى لإيجاد الخير والحقيقة.

بل ألا أدلكم على خير من هذا: تأملوا يسوعَ، وهو يحدق بأسى على

أورشليم، ويحزن لأن أهلها «لن» يكترثوا لنصحه.

صرخة الأسى هذه - قبل كأس السم أو الشجرة - لا تأتي من قلب غير مُجرِّب. فهناك تكمن المعاناة، المعاناة العظيمة ... هناك تكمن التجربة الحقة!

بوح المشاعر هذا أفلت مني على حين غِرَّة ... لا بأس، ها قد بُحْتُ به، وهنا سيبقى. لقد مرَّ هافلار بتجارب كثيرة. هل تريدون شيئًا تناظرون به الانتقال من المربع أ؟ لقد غرقت سفينته - أكثر من مرة. تحفل مذكراته بالحرائق والشغب والاغتيالات، والحرب والمبارزات والثراء والفقر والجوع، والكوليرا والحب «وقصص الحب.» لقد زار بلادًا كثيرةً، واختلط بأناس من كل الأعراق والأحوال، والعادات والتصورات المسبقة والأديان والألوان.

ولهذا، يمكن القول إنه كان بإمكانه أن تكون لديه تجارب كثيرة، بالنظر إلى ظروف حياته، وإنه في الحقيقة مرَّ بتجارب كثيرة، وإنه لم يمر بالحياة من دون أن يلتقط الانطباعات التي قدمتها له بكثرة - وهذا أمرٌ يمكن أن تتكفَّل به نباهة عقله وانفتاح قلبه.

لقد تعجَّب كل من عرف أو خمَّن حجم التجارب التي رآها ومر بها هافلار، أن قليلًا منها يمكن قراءتها في قسمات وجهه. لا شك أن قسماته تدل على شيءٍ شبيهٍ بالإرهاق، ولكن هذا يوحي بنضوجٍ مبكرٍ جدًّا لا شيخوخةٍ قادمةٍ - لكن، مع ذلك، لا بد أنها شيخوخةٌ قادمةٌ، لأنَّ رجلًا في الخامسة والثلاثين من عمره في جزر الهند الشرقية لا يُعَدُّ شابًّا.

وكما قلت، لقد بقيت عواطفه شابَّةً أيضًا. يمكنه أن يلعب مع طفل ومثل طفل، وكان كثيرًا ما يتذمر لأن «ماكس الصغير» يُطيِّر الطائرات الورقية، بالرغم من حداثة سنه لأنه هو، «ماكس الكبير،» كان مولعًا جدًّا بتلك اللعبة. يلعب مع الصبيان لعبة قفزة الضفدع، ويتلذذ في رسم أنماط التطريز للفتيات. بل إنه

كان يأخذ الإبرة من أيديهن، ويسلّي نفسه بهذا العمل، مع أنه كثيرًا ما يقول: إن بإمكانهن أن يفعلن شيئًا أفضل من «عدِّ الدرزات ميكانيكيًا.» كان طالبًا شابًّا ينضم إلى الصبيان في الثامنة عشرة من أعمارهم بكل سرورٍ لغناء أغنية «دعونا نَغنِّ للوطن»، أو أغنية «دعونا نبتهج» ... في الحقيقة، لستُ متأكدًا تمامًا إن كان، قبل مدةٍ قصيرةٍ جدًّا، حين كان في إجازة في أمستردام، قد أزال لوحةً إعلانيةً لم تَرُقْهُ لأنها تُظهر زنجيًا مُصفِّدًا عند قدمي أوربيٍّ وفي فمه غليونٌ طويلٌ، وفي أسفلها هذه الكلمات، «التاجر الشاب المدخِّن.»

كانت البابو التي ساعدها على الترجل من العربة، تشبه جميع البابوهات الأخرى في الهند الشرقية حين يتقدم بهن السن. إن كنتم تعرفون هذا النوع من الخادمات، فلا حاجة لي لأن أخبركم كيف هو مظهرها، وإن كنتم لا تعلمون، فليس بإمكاني أن أخبركم. ليس هناك إلا أمرٌ واحدٌ يميزها من مربيات الأطفال الأخريات في الهند الشرقية ... وهو أنه ليس لديها إلا القليل جدًا من العمل. لأن السيدة هافلار كانت قدوةً في العناية بطفلها، فكانت هي من تقوم بكل ما يجب فعله لأجل ماكس الصغير أو معه، وهذا ما أدهش الكثير من السيدات الأخريات اللواتي لم يستحسنَّ أن تكون الأم «عبدةً لأطفالها.»

[7]

قدَّم مقيمُ بانتام المتصرفَ والمراقبَ إلى مساعد المقيم الجديد. حيّا هافلار كلا المسؤولَيْنِ بلباقة، وتمكن ببضع كلمات لبقة أن يزيل توتر المراقب - هناك دائمًا منغصات في لقاء رئيس جديد - كأنه كان يريد أن يخلق على الفور نوعًا من الحميمية التي تسهِّل تعاملاتهما التالية. كان لقاؤه مع المتصرف يليق بمن يحق له أن يحمل پـايون[44] ذهبية، ولكنه كان في الوقت نفسه «أخاه الأصغر.» وبدماثةٍ لطيفةٍ وبَّخه على إفراطه في أداء الواجب، الذي أخرجه في هذا الطقس إلى حدود مقاطعته، لأن المتصرف، وفقًا لقواعد التشريفات الصارمة، ليس ملزمًا بالقيام بهذا.

«في الحقيقة، أيها الأديـپـاتّي، أنا غاضب منك لأنك تجشمت كل هذا العناء من أجلي. لم أتوقع أن أراك إلا حين أصل إلى رانْكَس بيتون.»

قال الأديـپـاتّي، «أردت أن أقابل مساعد المقيم بأسرع ما يمكن لكي أصادقه.»

«أَجَلْ، أجل، هذا شرفٌ كبيرٌ لي! لكني لا أود أن أرى شخصًا في مقامك وسنِّك يتجشم كل هذا العناء. وعلى ظهر حصان، فوق ذلك!»

«أجل، يا سيد هافلار، حين يدعوني الواجب، فأنا ما زلتُ أتمتع بالسرعة والقوة.»

«آه، ولكنك ترهق نفسك كثيرًا! أليس كذلك، أيها المقيم؟»

«الأديـپـاتّي. متحمسٌ ...»

«صحيح، ولكنْ هناك حدودٌ.»

«جدًّا،» أتمَّ المقيم جملته بعد لأْيٍ.

كان على هافلار أن يكرر كلماته السابقة، وكأنه يكاد يبتلعها، «صحيح، ولكنْ هناك حدودٌ. إن لم يكن لديك مانعٌ، أيها المقيم، سنجعل للأديـپـاتي مكانًا في العربة. يمكن لمربية طفلنا أن تبقى هنا، وسنرسل تاندو[45] من رانْكَس بيتون من أجلها. ستضع زوجتي ماكس في حضنها ... أليس كذلك، يا تينا؟ وبهذه الطريقة سيكون لدينا متسعٌ من المكان.»

«أنا. ليس. عندي ...»

«فيربروخه، سنوصلك أيضًا؛ لا أرى ...»

«مانع!» قال المقيم.

«لا أرى لماذا عليك أن تخوض في الوحل على ظهر حصانك بلا سببٍ موجبٍ ... هناك متسعٌ لنا جميعًا، ثم يمكننا أن نتعارف. ماذا تقولين، يا تينا - سنتدبر الأمر، أليس كذلك؟ تعال إلى هنا، يا ماكس ... انظر، يا فيربروخه، أليس صبيًّا صغيرًا لطيفًا؟ هذا ابني ... هذا ماكس!»

كان المقيم قد جلس في الـپِـندوپّـو، مع الأديـپِـاتي. نادى هافلار فيربروخه يسأله لمن الحصان الأبيض ذو السرج القماشي الأحمر؟ ولكن حين جاء فيربروخه إلى مدخل الـپِـندوپّـو ليرى أي حصان يقصد، وضع هافلار يده على كتف المراقب، وسأله:

«هل المتصرف دائمًا شديدُ الحرص على أداء الواجب؟»

«إنه بصحة جيدة بالرغم من سنه، يا سيد هافلار، وعليك أن تفهم أنه يريد أن يترك لديك انطباعًا جيدًا.»

«أجل، فهمت. لقد سمعتُ عنه أخبارًا طيبةً كثيرةً ... وهو رجل مثقف،

أليس كذلك؟»

«أوه، أجل ...»

«ولديه أسرة كبيرة؟»

نظر فيربروخه إلى هافلار كأنه لم ير مناسبة السؤال. وهذا بالفعل أمرٌ يصعب في غالب الأحيان على من لم يعرفوا الرجل. فرشاقته العقلية تجعله في غالب الأحيان، يتخطى بعض الحلقات في سلسلة التفكير المنطقي خلال الحديث، ومهما كان الانتقال في أفكاره متدرجًا، فلا يمكن لومُ الناس الأقل منه رشاقةً في الفكر أو غير المعتادين على رشاقته، إن حدّقوا فيه في مثل هذه المناسبات وعلى شفاههم سؤالٌ غير منطوق يقول: «هل جُننتَ أم ماذا؟»

يمكن قراءة شيءٍ من هذا القبيل على وجه فيربروخه، فكان على هافلار أن يكرر السؤال قبل أن يجيب:

«نعم، لديه أسرة كبيرة جدًا.»

«وهل هناك مساجد قيد الإنشاء في المقاطعة؟» واصل هافلار أسئلته بلهجةٍ تشير، بخلاف الكلمات ذاتها، إلى علاقة بين تلك المساجد وأسرة المتصرف الكبيرة.

أجاب فيربروخه أن بناء المساجد قائم على قدم وساق.

هتف هافلار قائلًا، «نعم، نعم، كما ظننتُ! قل لي، هل يتخلف الناس كثيرًا عن دفع ضرائب الأراضي؟»

«نعم، يمكن للأمور أن تكون أفضل ...»

«بالضبط! ولاسيما في ناحية پاران كوجان،» قال هافلار، وكأنه وجد أنه من الأسهل له أن يجيب هو عن أسئلته. «ما هو التخمين لهذه السنة؟» تابع أسئلته؛ وحين تردد فيربروخه، وكأنه يفكر في الجواب الذي يريده، سبقه هافلار وهو

يقول في الوقت نفسه:

«لا بأس، لا بأس، أنا أعلم ... ستة وثمانون ألفًا وبضع مئات ... أكثر من السنة الفائتة بخمسة عشر ألفًا ... وأكثر من سنة 55 بستة آلاف فقط. منذ سنة 53 لم نزدد إلا بمعدل ثمانية آلاف ... والسكان قليلون جدًا، أيضًا ... نعم، بلا شك، مالتوس وهلمَّ جرا! خلال اثني عشر عامًا، لم نزدد إلا بنسبة أحد عشر في المئة، وحتى هذه النسبة مشكوكٌ فيها، حيث إن الإحصاءات السابقة كانت غير صحيحة ... وما زالت، في الحقيقة! في سنة 51 انخفض الرقم، وأعداد المواشي على ما هي ... وهذا مؤشر سيئ، يا فيربروخه! يا إلهي، انظر إلى ذلك الحصان وهو يَثِب مَرحًا! أعتقد أنه مصابٌ بدوار الخيل ... تعال وانظر، يا ماكس!»

أدرك فيربروخه أنه لن يتوجب عليه أن يعلِّم مساعدَ المقيمِ الجديدَ الكثير، وأنه لا توجد مسألة هيمنة من خلال «أقدمية الأهالي» - وهي مسألةٌ، إذا أردنا أن نُنْصِف الرجل الطيب، لم يكن يرغب فيها على أية حال.

«ولكن هذا أمر طبيعي ليس إلا،» واصل هافلار، وهو يأخذ ماكس بين ذراعيه. «في چيكاندي وبولان[46] هذا أمرٌ يُسعِد الناس كثيرًا، كما يُسعد المتمردين في نواحي لامپون. سأكون شاكرًا لتعاونك، يا سيد فيربروخه! العُمر يتقدم بالمتصرف، ولذلك علينا ... قل لي، هل ما زال صهرُه مديرَ الناحية؟ بعد التفكير مليًا في الأمر، أعتقد أنه يجب علينا أن نكون متساهلين معه ... أقصد المتصرف. يُسعدني جدًا أن كل شيء هنا متخلفٌ وفقيرٌ ... وآمل أن أبقى هنا وقتًا طويلًا.»

وبعد هذا القول صافح هافلار فيربروخه، وحين عاد هذا معه إلى الطاولة التي يجلس عندها المقيم والأديپاتي والسيدة هافلار، أدرك قبل أكثر من خمس دقائق «أن هافلار ليس بذلك الأحمق» كما ظن الكومندانت. لم يكن فيربروخه

ينقصه الذكاء بأي شكل من الأشكال، وبسبب معرفته لمقاطعة ليباك على أفضل ما يمكن، لأي إنسان أن يعرف منطقة مترامية الأطراف، وليس فيها شيء مطبوع، راح في نهاية المطاف يرى رابطًا بين أسئلة هافلار غير المترابطة، وأن مساعد المقيم الجديد أيضًا، مع أنه لم يطأ أرض المقاطعة من قبل، كان على اطلاع إلى حدٍّ ما على ما يجري فيها. لكنه بصراحة لم يفهم سبب ابتهاج هافلار بالفقر في ليباك، لكنه أقنع نفسه أنه أساء فهم كلمات الرجل. لكن حين كررها هافلار فيما بعد كثيرًا، أدرك مدى العظمة والنبل في ذلك الابتهاج.

جلس هافلار وفيربروخه إلى الطاولة، وراحا يتحدثان في سفاسف الأمور وهما يشربان الشاي، وانتظرا إلى أن جاء دونگسو ليخبر المقيمَ أن أحصنةً جديدةً قد شُدَّت إلى العَرَبة. حشر المسافرون أنفسهم في العربة بما تيسر لهم من الراحة، ثم انطلقوا.

جعل الارتجاجُ والاهتزازُ الحديثَ صعبًا. أُلْهِيَ ماكس الصغير بپيسان،[47] ورفضت أمه التي كانت تضعه في حضنها رفضًا قاطعًا أن تعترف أنها متعبة حين عرض عليها هافلار أن يريحها من الطفل الثقيل. خلال لحظة راحة قسرية في حفرة طينية، سأل فيربروخه المقيمَ إن كان قد تحدث إلى مساعد المقيم الجديد عن السيدة سلوتيرِنگ.

«يقول. السيد. هافلار ...»

«بالتأكيد، يا فيربروخه، لِمَ لا؟ يمكن للسيدة أن تقيم معنا. لا أودُّ ...»

قال المقيم وهو يجر كلماته بعناءٍ كبير، «إن. كان. ذلك. لا. بأس به.»

«لا أودُّ أن أغلق بابي في وجه سيدةٍ في ظروفها! هذا أمرٌ مفروغٌ منه ... أليس كذلك، يا تينا؟»

وافقت تينا أيضًا على أن الأمرَ مفروغٌ منه.

قال فيربروخه، «لديك منزلان في رانْكَس بيتون، ولديك متسع يكفي لأسرتين وزيادة.»

«حتى لو لم يكن ...»

«لا. أستطيع. أن. أعِدها ...»

قالت السيدة هافلار متعجبةً، «أوه، أيها المقيم! ما من شكٍّ في ذلك!»

«بذلك. لأن. في. ذلك ...»

«حتى لو كان هناك عشرة منهم، ما داموا يَقْبلون بنا كما نحن.»

«إزعاجًا. كبيرًا. وهي ...»

«ولكن يستحيل أن تسافر وهي في هذه الحال، أيها المقيم!»

ارتجت العربة ارتجاجًا عنيفًا وهي تخرج من الوحل، فختمت بعلامةِ تعجبٍ توكيدَ تينا أن سفر السيدة سلوتيرِنـگ مستحيل. فالكل صاح «ووه!» وهي الصيحة المعهودة التي تتبع ارتجاجًا كهذا. وجد ماكس في حضن أمه الـپيسان التي أضاعها من جراء الخَضَّة، فراحوا يُغِذّون السير إلى حفرة الطين التالية قبل أن يتمكن المقيم من إنهاء جملته بقوله:

«امرأة. من. أهل. البلاد.»

«لا يهم،» حاولت السيدة هافلار أن تخبره. أومأ المقيم برأسه كأنه يقول إنه مسرور لتسوية المسألة على هذا النحو! وبما أن الحديث كان متعثرًا، فقد كفُّوا عن ذلك.

كانت السيدة سلوتيرِنـگ المشار إليها آنفًا، أرملةَ سَلَفِ هافلار الذي مات قبل شهرين. وبما أن فيربروخه قد عُيِّن حينها قائمًا بأعمال مساعد المقيم، فقد كان مخولًا للسكن مؤقتًا في المنزل الفسيح الذي بنته الحكومة، في رانْكَس بيتون كما في كل مقاطعة أخرى، لرئيس الإدارة الإقليمية. إلا أنه لم يسكنه، ربما لأنه كان

يخشى أنه سيضطر لمغادرته عما قريب، أو لأنه أراد أن يتركه للسيدة سلوتيرِنـگ وأطفالها. المسألة لا علاقة لها بعدم وجود مكان يكفي له. فبالإضافة إلى المسكن الرسمي الفسيح إلى حدٍّ ما، هناك بجانبه، وفي ذات الحوش، منزلٌ آخر كان في السابق يُستخدَم لذات الغرض، ومع أنه كان مُهَلهلًا إلى حدٍّ ما إلا أنه صالحٌ تمامًا للسكن.

كانت السيدة سلوتيرِنـگ قد طلبت من المقيم، أن يتحدث إلى خليفة زوجها نيابةً عنها ليحصل لها على إذنٍ منه كي تعيش في المنزل القديم، إلى أن تنتهي من عُدَّتها بعد بضعة أشهر. كان هذا هو الطلب الذي وافق عليه هافلار وزوجته بلا تردد، كدأبهما في مثل هذه الأحوال، إذ كانا مضيافَين وخدومَين إلى أبعد درجة.

لقد سمعنا المقيم يقول إن السيدة سلوتيرِنـگ «امرأة من أهل البلاد.» وهذه العبارة بحاجة إلى شيء من التوضيح، لأجل القارئ، من خارج الهند الشرقية، الذي قد يتوهم أن السيدة المعنية جاوية أصيلة.

ينقسم المجتمع الأوربي في الهند الشرقية الهولندية انقسامًا حادًا إلى قسمين: الأوربيين الحقيقيين، وأولئك الذين – رغم أنهم من الناحية القانونية يتمتعون بذات الحقوق بالضبط – لم يولَدوا في أوربا، وتجري في عروقهم دماء «محلية» إلى حدٍّ ما. وإنصافًا لتصورات الإنسانية في الهند الشرقية، عليَّ أن أسارع إلى القول: إن هذا التمييز، مهما بلغت حدة الفاصل الذي يُرسَم في الحياة الاجتماعية بين طبقتي الأفراد، الذين يحملون في نظر الأهالي الحقيقيين لقب «هولندي،» [48] ليس له تلك السمة البربرية السائدة في نظام التمييز الطبقي الأمريكي. ومع ذلك، لا يمكنني أن أنكر أن هذه العلاقة المتبادلة يشوبها الكثير من الظلم، وما تشمئز منه النفوس، وأن تسمية لِپـلاپ (هجين) خدشت سمعي كثيرًا لِما تحمله

من برهان على المسافة التي تفصل الكثير من غير المُهَجَّنين البيض عن الحضارة الحقيقية. صحيحٌ أنه لا يُسمح للهجين بالاختلاط في المجتمع الأوربي إلا في حالات استثنائية، وأنه عمومًا لا يُعَدّ «مئة بالمئة،» إن جاز لي أن أستخدم تعبيرًا عاميًا جدًّا. لكن قلةً من الناس تطرح هذا الإقصاء أو الانتقاص، أو تدافع عنه بوصفه مبدأً عادلًا. لكل شخص، بلا شك، حرية اختيار بيئته ورفاقه، ولا يحق للمرء أن يلوم الأوربي القُح إذا فضَّل الاختلاط مع بني جنسه على الاختلاط مع أشخاصٍ - بغض النظر عن قيمتهم الأخلاقية أو الفكرية، عظُمت أم قلَّت - لا يشاطرونه انطباعاته وأفكاره، أو اتخذت تصوراتهم المسبقة منحىً مختلفًا عن تصوراته - ولعل هذا، في فارقٍ حضاري مزعوم، هو الأمر الأساسي في غالب الأحيان.

قد يكون عند اللِـپـلاپ خصالٌ حميدةٌ كثيرةٌ - إنْ أردتُ أن أستخدم التعبير الرسمي الأكثر لباقةً، فعليَّ أن أقول «ابن البلاد المزعوم،» ولكني أستأذنكم في استخدام مصطلحٍ يبدو أنه نشأ من جِناسٍ استهلالي، وأنا لا أقصد إساءةً باستخدامه، وماذا تعني هذه اللفظة في كل حال؟ وقد تكون عند الأوربي خصالٌ حميدةٌ كثيرةٌ أيضًا. وكلاهما عنده مثالب كثيرة، وفي هذه أيضًا يتشابهان. لكن المناقب والمثالب المتأصلة في كليهما تختلف اختلافًا شديدًا لا يسمح بأن تكون العلاقة بينهما، من حيث المبدأ، مُرْضيةً للطرفين. أضف إلى ذلك أن اللِـپـلاپ قليلُ الثقافة في أغلب الأحيان، وهنا تتحمل الحكومة معظم المسؤولية. لا يهمنا في هذا المقام كيف سيكون الأوربي لو أُعيق نموُّه الفكري على هذه الشاكلة منذ شبابه؛ لكن المؤكد عمومًا هو أن التعليم الضعيف الذي يتلقاه اللِـپـلاپ، يحول دون مساواته مع الأوربي، حتى إذا استحق فردٌ من اللِـپـلاپ أن يوضع في مرتبةٍ أعلى من مرتبة فرد أوربي، فيما يتعلق بالثقافة أو

التحصيل العلمي أو الفني.

وهذا أيضًا لا جديد فيه. فقد كانت سياسة وِلْيَم الفاتح، على سبيل المثال، أن يرفع أنفه نورمَنْدي فوق أبرع ساكسوني، وكان كل نورمَنْدي يحتكم إلى تفوق النورمَنْديين عمومًا، لكي يثبت ذاته هو خصوصًا، حيث كان يمكن أن يكون هو الأدنى لولا هيمنة أبناء بلده.

من الطبيعي أن تخلق هذه الظروف ارتباكًا مؤكدًا في التعامل الاجتماعي، وهذا الارتباك لا يمكن القضاء عليه إلا من خلال رؤى فلسفية منفتحة، وإجراءات تتخذها الحكومة.

لا مراء أن الأوربي، وهو الرابح من هذه العلاقة، يشعر براحة تامة في تفوقه المصطنع. لكن المضحك في أغلب الأحيان هو أن تسمع شخصًا اكتسب معظم ثقافته وقواعد لغته في زاند سترات في روتردام يهزأ من اللِيپلاپ الذي حين يتحدث الهولندية يُذكِّر الكأس أو الحكومة، أو يُحيل الشمس والقمر إلى الجنس المحايد [*لا مذكر ولا مؤنث*].

قد يكون اللِيپلاپ مهذبًا، مثقفًا، بل عالمًا - فهناك أشخاص كهؤلاء! لكن ما إن يلاحظ الأوربي أن أكْيَسَ لِپلاپ يجد صعوبةً في التمييز بين حرفي الهاء h والخاء g، حتى يضحك من غباء الرجل الذي، لا يعرف الفرق بين كلمتي «هام» و«خام.» هذا الأوربي الذي تمارض لكي ينأى بنفسه عن السفينة التي كان يغسل على متنها الصحون، والذي لا يعرف من الأخلاق الحميدة إلا عبارات مثل «كيف حالك؟» أو «المعذرة،» أصبح الآن رئيس المشروع التجاري الذي درَّ أرباحًا هائلةً من صبغة النيلة سنة 1800 وكم سنة ... بل، قبل أن يصبح صاحب التوكو، المخزن العام الذي يبيع فيه لحم الخنزير وبنادق الصيد، بزمن طويل.

لكن، لكي نمسح الابتسامة عن وجه صاحبنا الأوربي، فلا بد له أن يعلم أن هذين الصوتين الساكنين في العربية [*غير صحيح*] والملاوية يُكتبان بحرف واحد، وأن كلمة Hieronymus قد أصبحت Geronimo ثم Jerôme، وأننا نشتق كلمة huano من كلمة guano، وأن كلمتنا hand تناسب الكلمة الفرنسية gant، وأن كلمة kous الهولندية هي ذاتها hose الإنـگـليزية، وأننا في الهولندية نقول Huillem أو Willem بديلًا لعبارة Guild Heaum. لا يجوز أن تطلب سعة اطلاع كهذه من شخصٍ كوَّن ثروته من تجارة النيلة، واكتسب تعليمه من نجاحه في رمي حجر النرد... أو مما هو أسوأ!

وبالتأكيد لا يمكنكم أن تتوقعوا من أوربيين أصليين أن يُخالطوا أحدًا من اللِـپـلاپ.

أنا أفهم كيف اشتُق اسم Willem من اسم Guillaume، وعليَّ أن أضيف أنني قابلت أناسًا من اللِـپـلاپ، ولاسيما في جزر الملوك، أدهشوني بسعة معرفتهم، وأقنعوني أننا نحن الأوربيين، بالرغم من الموارد المتوفرة لدينا، متخلفون جدًّا - وليس فقط نسبيًّا - عن هؤلاء المنبوذين المساكين الذين عليهم، منذ المهد، أن يكافحوا الدونيةَ المصطنعة الظالمة المدروسة.والتحاملَ السخيف بسبب لون بشرتهم.

لكن السيدة سلوتيرنـگ حُفِظت بشكل قاطع من ارتكاب أي خطأ في الهولندية، لأنها لا تتكلم أي شيء سوى الملاوية. سنلتقي بها لاحقًا حين نتناول الشاي مع هافلار وتينا وماكس الصغير، على الشُّرفة الأمامية في منزل مساعد المقيم في رانْكَس بيتون، الذي وصله مسافرونا أخيرًا بعد الكثير من الخضِّ والارتجاج.

أعرب المقيم، الذي لم يأتِ إلا لتنصيب مساعد المقيم الجديد في منصبه، عن

رغبته في العودة إلى سيران في اليوم ذاته:

«لأنني ...»

وكذلك أعرب هافلار عن عدم استعداده لهدر الوقت ...

«مشغولٌ. جدًّا.»

... فاتفقوا على أن يلتقوا من أجل احتفال التدشين على الشرفة الأمامية الفسيحة، في منزل المتصرف خلال نصف ساعة. كان فيربروخه مستعدًا لهذا؛ فقبل أيام كان قد أصدر أوامره إلى مديري النواحي، والپـاته، والكْليوُن، والجَكسا،[49] وجابي الضرائب، وبعض المانتري، في الحقيقة كل المسؤولين من الأهالي الذين يتوجب عليهم حضور الحفل، للاجتماع في «العاصمة» الإقليمية.

استأذن الأديـپـاتّي وغادر إلى دياره. جالت السيدة هافلار في منزلها الجديد تنظر إليه، فسرَّها جدًّا، ولاسيما لأن فيه حديقةً كبيرةً تصلح لماكس الصغير، الذي يحتاج إلى الكثير من الهواء الطلق. دخل كل من المقيم وهافلار إلى غرفته لتبديل ملابسه، لأنهما ملزمان بارتداء الزي الرسمي في الحفل التالي. كان المنزل محاطًا بمئات الناس الذين جاؤوا، إما لمرافقة عربة المقيم على ظهور الخيل، أو كانوا من حاشية الزعماء المجتمعين. كان حُجّاب الشرطة والمكاتب دائبي الحركة؛ باختصار، أظهر كل شيء أن رتابة الوجود في هذا الركن المنسي من المعمورة قد كسرها شيءٌ من الحياة مؤقتًا.

ثم ما لبثت أن جاءت عربة الأديـپـاتّي الجميلة عبر الفضاء الفسيح أمام المنزل، وتوقفت عند الباب. صعد إليها المقيم وهافلار، وكل منهما يتألق بألوانه الذهبية والفضية، لكنه عرضةٌ للتعثر بسيفه، ونُقلا إلى منزل المتصرف، حيث استُقبلوا بأنغام الـگـون والـگَـميلان.[50] كان فيربروخه، الذي خلع ملابسه الموحلة أيضًا، قد سبقهم إلى هناك. كان الزعماء الأدنى مرتبةً يفترشون حصائرَ

مصفوفةً على هيئة دائرة واسعة على الأرض، كعادة الشرقيين؛ وعلى طرف الشرفة الطويلة كانت تنتصب طاولة اتخذ أماكنهم عندها المقيم، والأديپاتي، ومساعد المقيم، والمراقب، واثنان أو ثلاثة من الزعماء. قُدِّم الشاي والكيك، وبدأ الاحتفال البسيط.

نهض المقيم وقرأ أمر الحاكم العام الذي تم بموجبه تعيين ماكس هافلار مساعدَ مقيم لمقاطعة بانتان كيدول (بانتام الجنوبية)، كما تُسمى ليباك من قبل الأهالي. ثم تَناول الصحيفة الرسمية التي تحتوي على نص القَسَم المُعَدِّ لاستلام المناصب عمومًا، والذي يقول، «وإنه لكي يُعيَّن أو يُرقّى إلى منصب ...، تعهد [الشخص المعني] ألا يعطي شيئًا لأحد، ولن يَعِد بشيء أو يعطيه؛ وأنه سيكون وفيًا ومخلصًا لصاحب الجلالة ملك هولندا في مستعمرات الهند الشرقية؛ وأنه سيلتزم هو، كما يُلزم غيره، بالقوانين والأنظمة الصادرة، أو التي ستصدر بحذافيرها، وأنه في كل شيء سيتصرف بما يليق بمنصب (في هذه الحال: مساعد مقيم) جيد.»

وقد أُتبِع هذا القول بالعبارة المقدسة، «فَعلى هذا أعِنّي، يا عَليُّ يا قدير.»

كرر هافلار الكلمات كما قُرئت له. إن شئنا الدقة، يجب اعتبار أن وعد حماية الأهالي من الاستغلال والظلم مُتضمَّنًا في هذا القَسَم. لأنه عند القَسَم على الالتزام بالقوانين والأنظمة القائمة، ليس على المرء إلا أن يلقي نظرةً على فحوى البنود العديدة التي تتضمنها، لكي يدرك أنه من نافلة القول بالفعل أن يكون هناك قَسَمٌ خاصٌّ لهذا الغرض. لكن يبدو أن المُشرِّع ارتأى أن زيادة الخير خيرٌ؛ على أية حال، يُطلَب من مساعدي المقيمين أن يُقسموا قَسَمًا منفصلًا، ينص على الالتزام بالواجب تجاه الوُضَعاء مرةً أخرى صراحةً. لذلك كان على هافلار أن يتخذ «العليَّ القدير» شاهدًا عليه، وأن يتعهد أنه «سيحمي الأهالي من الظلم

وسوء المعاملة والابتزاز.»

لا بد للملاحظ الدقيق أن يثير اهتمامه الفرق بين موقف ولهجة المقيم، وهافلار في هذه المناسبة. كان كلاهما قد حضر مثل هذه الاحتفالات من قبل، ولذلك لم يكن الفرق الذي أشرتُ إليه ناشئًا من تأثر أحدهما بطرافة المشهد أو سمته الاستثنائية، بل من اختلاف طبيعة الرجلين. صحيحٌ أن المقيم تكلم بصورةٍ أسرع قليلًا من المعتاد، حيث لم يكن عليه سوى أن يقرأ أمر [*الحاكم العام*] والقَسَمين، وهذا وفَّر عليه عناء البحث عن كلماته الأخيرة. لكنه مع ذلك قام بكل شيء بفخامةٍ ورزانةٍ، توحي للمشاهد السطحي بفكرة عظيمة جدًا عن الأهمية التي يوليها للمسألة. بينما حين كان هافلار يرفع إصبعه ويردد القَسَم، كان في وجهه وصوته وسلوكه شيءٌ كأنه يقول، «هذا أمرٌ بدهي؛ عليَّ أن أقوم بهذا، حتى من غير أن أُقسم بالعليٍّ القدير.» وكل من لديه معرفة بالطبيعة البشرية لا بد أن يشعر بثقةٍ أكبر في طريقته العفوية ولامبالاته الظاهرة، مما يشعر برزانة المقيم الرسمية. أليس من السخف أن تعتقد أن رجلًا يُدعى لتطبيق العدالة، رجلًا موكَّلًا بسعادة الآلاف أو تعاستهم، يحسب نفسه ملزمًا ببضع كلمات منطوقة، ما لم يدفعه قلبه لعمل الصواب حتى من دون تلك الكلمات؟

نحن نعتقد أن هافلار مستعد لحماية الفقراء والمظلومين أنّى وجدهم، حتى لو أقسم عكسَ ذلك بالعليٍّ القدير.

ثم تلا ذلك خطابٌ ألقاه على المديرين المقيمُ الذي قدَّم لهم مساعدَ المقيم بوصفه رئيس المقاطعة، وطلب منهم أن يطيعوه، وأن ينفذوا التزاماتهم بما يمليه عليهم ضميرهم، وغير ذلك من سفاسف القول. وبعد ذلك قدَّم الزعماء الواحد تلو الآخر لهافلار. صافح كلَّ واحد منهم، وانتهى حفل «التنصيب.»

تناول الحضورُ الغداءَ في منزل الأديپاتّي الذي دُعي إليه الكومندانت

دوكلاري. وبعد الطعام مباشرةً دخل المقيم الذي أراد أن يعود إلى سيران في ذلك المساء

لأنه. كان. مشغولًا. جدًّا. إلى. أبعد. الحدود.

... إلى عربة سفره، وسرعان ما عادت رانْكَس بيتون إلى الهدوء المتوقَّع في مركز حكومي في قلب جاوا حيث لا يعيش فيه إلا بضعة أوربيين، والأنكى من ذلك أنه لا يقع على الطريق الرئيس.

وما لبث دوكلاري وهافلار أن بدأ يشعر أحدهما بالراحة مع الآخر. أبدى الأديـپـاتِي أيضًا سروره «بأخيه الأكبر الجديد،» وبُعيد ذلك مباشرةً ذكر فيربروخه أن المقيم، الذي كان قد رافقه مسافةً في رحلة عودته إلى سيران، قد تكلَّم بإيجابية شديدة عن أسرة هافلار التي أمضت أيامًا في منزله، وهي في طريقها إلى ليباك. وكان قد قال أيضًا إن هافلار، نظرًا لمكانته الرفيعة في نظر الحكومة، قد يُرقّى إلى منصبٍ أعلى عما قريب، أو على الأقل سيُنقل إلى مقاطعة أكثر «جاذبية.»

كان ماكس وزوجته تينا قد عادا مؤخرًا من رحلة بحرية إلى أوربا، وقد سئما من «العيش في الصناديق،» وفقًا لتلك التسمية العجيبة التي أطلقاها ذات يوم. وبعد كل هذا التجوال الطويل، كان من حسن حظهما أنهما وجدا نفسيهما أخيرًا في مكانٍ يمكن أن يسمياه بيتًا. كان هافلار قبل رحلتهما إلى أوربا مساعدَ مقيم في أمْبُويْنا، حيث واجهته صعوباتٌ عديدةٌ، لأن سكان تلك الجزيرة كانوا في حالة اهتياج وتمرد، بسبب الإجراءات الخاطئة التي اتُّخِذت مؤخرًا هناك. وقد نجح بجهوده الجبارة أن يقمع روح التمرد تلك، لكن ما حزَّ في نفسه قلةُ المساعدة التي تلقاها من السلطات، كما أزعجه سوء الحكم الذي أدى على مدى قرون، إلى إفراغ منطقة جزر الملوك الرائعة من سكانها وتخريبها.

إن كان القارئ مهتمًا بهذا الموضوع، فعليه أن يطّلع على ما كتبه البارون فان دير كاپيلين منذ سنة 1825. بإمكان القارئ أن يجد مقالات صديق الإنسانية هذا في «صحيفة الهند الشرقية» لتلك السنة، والوضع لم يتحسن منذ ذلك الحين.

... على أية حال، قام هافلار بما يستطيعه في أمبوينا، لكنه مرض بسبب حنقه من قلة المساعدة التي تلقاها، ممن كان واجبهم الأول أن يساعدوه، وهذا جعله يأخذ إجازة، ويسافر إلى أوربا. وإذا شئنا الدقة، استحق بعد إعادة إرساله مكانًا أفضل من مقاطعة ليباك الفقيرة البائسة، لأن منصبه في أمبوينا كان أعظم أهميةً وكان يتمتع باستقلال تام، حيث لا يخضع لسلطة مقيم فوقه. علاوةً على ذلك، قبل أن يغادر إلى أمبوينا كانت ترقيته إلى منصب مقيمٍ قد أثارت جدالًا، وقد فوجئ بعضهم من تكليفه إدارةَ مقاطعةٍ، لا تدر الكثيرَ من العائدات الزراعية، لأن كثيرًا من الناس يقيسون أهمية المنصب بالدخل المرتبط به. لكنه لم يتذمر من هذا على الإطلاق، لأن طموحه لم يكن من النوع الذي يجعله يتوسل منصبًا أعلى أو مزيدًا من المال.

لكن لو حصل على مالٍ أكثر لانتفع به، لأنه كان قد أنفق القليل الذي ادخره على مدى سنوات على أسفاره في أوربا. بل إنه ترك ديونًا هناك، وهو، باختصارٍ، فقير. لكنه لم ينظر قط إلى مهنته على أنها مسألة لكسب المال، ولدى تعيينه في ليباك كان قد عزم عن طيبِ خاطرٍ أن يمسح ديونه المتأخرة من خلال الاقتصاد في النفقات، وكان يعلم أن زوجته، البسيطة في ذوقها وحاجاتها، ستؤازره بمحض إرادتها.

إلا أن الاقتصاد لم يكن سهلًا على هافلار. ففيما يخصه هو، كان قادرًا على تقليص متطلباته إلى ما هو ضروري فقط. في الحقيقة كان بإمكانه أن يقيد نفسه بهذه الطريقة من دون أدنى مجهود. لكن حين كان غيره بحاجة إلى مساعدة، كان

يجد شغفًا حقيقيًا في المساعدة والعطاء. كان يعلم تمامًا أن هذا ضعفٌ، وكان يدرك بالفطرة أنه يظلم نفسه حين ينجد شخصًا آخر، بينما هو أحقُّ بهذه النجدة ... وكان شعوره بهذا الإجحاف أكبر حين تعاني زوجته تينا وابنه ماكس، اللذين يحبهما حبًا جمًّا، من عواقب سخائه ... كان يلوم نفسه، فيرى في طبيعته الخيرة ضعفًا ورياءً ورغبةً في الظهور بمظهر الأمير المتنكر ... كان يأخذ على نفسه عهدًا أن يُصلِح سبيله، لكنه كلما أقنعه أحدهم أنه ضحية حظٍّ عاثرٍ، نسي كل مقاصده الخيّرة بسبب توقه للمساعدة، وأن الإفراط يحول هذه الفضيلة إلى رذيلة؛ لما يترتب عليها من عواقب وتجربة مرة. قبل ولادة ماكس الصغير بأسبوع لم يكن لديه مالٌ لشراء السرير الحديدي الذي سيضم حبيبه، لكنه قبل فترة وجيزة من ذلك ضحّى بجواهر زوجته القليلة، لينجد شخصًا أفضل حالًا منه بلا شك.

ولكن كل هذا صار وراءهم حين وصلا إلى ليباك! ففي راحة بالٍ وانشراحٍ انتقلا إلى المنزل «حيث كانا يأملان أن يمكثا فيه مدةً من الزمن.» وقد استمتعا أيما استمتاع في طلب الأثاث من بَتافيا بحيث سيكون كل شيءٍ مريحًا (هكذا) وحميميًا. كان كل منهما يُري الآخر أين سيتناولون الإفطار، وأين سيلعب ماكس الصغير، وأين سيضعان كتبهما، وأين سيقرأ هافلار لتينا في الأماسي ما كتبه في النهار، إذ كان دائمًا يضع أفكارًا على الورق ... وقد خطر لتينا هذا الخاطر، «سيأتي يومٌ تُطبَع فيه تلك الأفكار، وسيرى الناس أي نوع من الرجال زوجها ماكس!» لكنه إلى الآن لم يرسل إلى المطبعة أيًا من خواطره، إذ كان مأخوذًا بنوعٍ من الحياء الذي لم يكن يختلف عن العِفَّة. على أية حالٍ، ليس أدلُّ على عجزه شخصيًا عن وصف هذا الحياء، خيرًا من سؤال من يحضه على النشر، «هل ترغب أنت في إرسال ابنتك عاريةً تمامًا إلى الشارع؟»

وهذه أيضًا واحدة من الهجمات العديدة التي جعلت الناس حوله يقولون، «بالفعل، إن هافلار هذا شخصٌ غريب الأطوار.» وأنا لا أقول إنهم كانوا مخطئين. لكن لو تجشَّمتَ عناء ترجمة طريقة تعبيره الغريبة، لوجدتَ على الأرجح في سؤاله الغريب، عن ملابس فتاةِ النصَّ لأطروحة عن عفَّة الروح، التي تنكمش على نفسها من تَفَرُّسِ العابرين الأجلاف، وتتلفَّع مسرورةً برداء الحشمة الأنثوية.

أجل، سيكون هافلار وتينا سعيدين في رانْكَس بيتون! ولم يتبق لديهما من هموم تُثقل عليهما سوى الديون التي خلَّفاها في أوربا، مع تكلفة رحلة العودة إلى الهند الشرقية التي لم يدفعاها حتى الآن، وتكلفة تأثيث بيتهما الجديد. لكنهم سيعيشون على نصف، بل على ثلث، دخله، أليس كذلك؟ ربما، بل من الأرجح في الحقيقة أنه سيصبح مقيمًا في القريب العاجل، وحينها سيصبح كل شيءٍ على ما يُرام بلمح البصر ...

«يؤسفني جدًا لو غادرنا ليباك، يا تينا، لأن هناك الكثير من العمل الذي يجب أن أقوم به هنا. عليك أن تقتصدي كثيرًا، يا حبيبتي، لعلَّنا حينها نتمكن من تسديد كل شيء، حتى لو لم أحصل على ترقية ... وإن تمكنا من ذلك، سيكون عندي أملٌ في البقاء في ليباك وقتًا طويلًا، طويلًا جدًّا.»

لكن الحضَّ على الاقتصاد ما كان يجب أن يوجَّه إليها هي. فإن كان عليهما أن يكونا حريصَيْن، فمن المؤكد أن الخطأ ليس خطأها. لكنها تماهت مع زوجها تمامًا، إلى درجة أنها لا ترى النصيحة توبيخًا. كما أنه لم يكن مقصودًا كذلك، لأن هافلار كان يعلم علمَ اليقين أنه هو الذي فشل من خلال كرمه المفرط، وأن خطأها الوحيد - إن كان لديها خطأ - هو حبها له، وهذا ما جعلها دائمًا تستحسن كل ما يفعله.

أجل، لقد استحسنت أخذه امرأتين فقيرتين تعيشان في نيو سترات، ولم تغادرا أمستردام قط، ولم تخرجا قط في «جولة» في معرض هارلم، بحجة أن الملك كلّفه «تسلية السيدات المسنات، اللاتي يعشن حياةً تصلح أن تكون قدوةً لغيرهن.» واستحسنت دعوته للأيتام في جميع مآتم أمستردام، لتناول الكيك وحليب اللوز على حسابه وتحميلهم بالألعاب. ولم تمانع إطلاقًا في دفع فاتورة الفندق، نيابةً عن أسرة مطربين فقراء كانوا يريدون العودة إلى بلادهم، لكنهم لم يكونوا يريدون ترك أمتعتهم، بما في ذلك القيثارة والكمان والكمان الكبير، وهي أدواتٌ لا غنى لهم عنها في مهنتهم البائسة. ولم تر بأسًا في إحضاره إليها فتاةً راودته ذات مساء ... ولا في إطعامها وإيوائها، ولا في عدم توجيهه لها تلك النصيحة الرخيصة جدًّا، «هيّا اذهبي ولا تأثمي!» قبل أن يمكّنها من وسيلة تمنعها من «الخطيئة.» كانت معجبةً جدًّا بزوجها ماكس، لأنه أعاد البيانو إلى منزل أبٍ سمعه يتألم، لأن بناته حُرمن من الموسيقى بسبب إفلاسه. وفهمت تمامًا أن زوجها ماكس اضطر لعِتق أسرةٍ من العبيد في مينادو، وهي تصعد بقلوب مفطورة على منصة دلّال المزاد العلني. ولم تر غرابةً في إعطاء ماكس أحصنةً أخرى للألفورس في مِناهاسّا، لأن ضباط البايونيز[51] أنهكوا خيولهم حتى الموت. لم تعترض حين جمع، في مينادوا وأمبوينا، كل المنبوذين من سفن صيد الحيتان الأمريكية واعتنى بهم، وعاب على نفسه، وهو السيد المحترم، أن يقدم للحكومة الأمريكية «حسابًا فندقيًا.» لم تر غرابةً إطلاقًا أن جميع ضباط السفن الحربية التي تصل، كانوا يقيمون تقريبًا عند ماكس، وأن منزله كان بالنسبة إليهم مسكنهم المؤقت المفضل.

ألم يكن هو حبيبها ماكس؟ أليس من الصَّغار والتفاهة والسخف أن تقيده، وهو الذي يفكر مثل أميرٍ، بقواعد الاقتصاد والتقشف التي تنطبق على

الآخرين؟ علاوةً على ذلك، حتى وإن كان هناك أحيانًا تفاوتٌ بين دخلهما وإنفاقهما، ألم يكن ماكس، حبيبها هي، منذورًا لمسيرة مهنية باهرة؟ ألن يكون عما قريبٍ في ظروفٍ تمكنه من إطلاق العنان لميوله السخية من غير أن يتجاوز دخله؟ ألن يكون ماكس الحاكمَ العامَ لمحبوبتها الهند الشرقية ذات يومٍ، بل ... ملكًا؟ في الحقيقة، أليس غريبًا أنه لم يُتَوَّج مَلِكًا بعد؟

إن كان فيها من عيوبٍ، فمردُّها إلى كونها متيَّمةً بهافلار، وإن كان قد صحَّ في يوم من الأيام قولهم: إنّ جميع ذنوب المحبين مغفورة، فهو صحيحٌ في حالتها!

لكن ليس عليها ذنبٌ لِيُغْفَرَ. ويمكن للمرء، من غير أن يشاطرها المبالغة في تصوراتها عن حبيبها ماكس، أن يفترض أن أمامه مستقبلًا مهنيًا واعدًا؛ ولو تحققت هذه الآمال الواقعية، لكان بالإمكان إصلاح العواقب غير السارة لسخائه. لكنْ هناك سببٌ آخر ذو طبيعةٍ مختلفة تمامًا، يوفر عذرًا لإهمال ماكس هافلار وزوجته الظاهر.

كانت تينا قد فقدت والديها حين كانت صغيرة جدًّا، فنشأت عند أقربائها. وحين تزوجت قالوا لها: إنها تملك قليلًا من المال، وأعطوها إياه. لكن من خلال رسائل ذات تاريخٍ أبكر، ومن ملاحظات ومدوَّنات متفرقة كانت تحتفظ بها في علبة مجوهراتٍ لأمها، اكتشف ماكس أن أسرتها كانت ثرية جدًّا، من جهة الأب والأم؛ لكنه لم يتبين أين أو متى أو كيف اختفت تلك الثروة. لم تكترث تينا شخصيًا بمسائل المال قط، ولم يكن بوسعها أن تقول له إلا القليل، أو لا شيء حين كان يلح عليها من أجل تفاصيل عن ممتلكات أقربائها السابقة. كان جدها، البارون فان و.، وقد تبع الأمير وِلْيَم الخامس إلى المنفى في إنجلترا، وكان نقيبًا في سلاح الفرسان في جيش دوق يورك. ويبدو أنه عاش عيشةً باذخةً مع أفراد أسرة ستاد هولدر المنفيين، وقال أناس كثيرون: إنه أضاع ثروته بهذه الطريقة.

ثم سقط لاحقًا في معركة واترلو، في هجوم مع فرسان البوريل. كانت قراءة رسائل والد تينا شيئًا مؤثرًا، وهي رسائل إلى أمه يتأسف فيها لأن بحثه عن جثة أبيه في أرض المعركة كان بلا طائل. كان أبوها حينها شابًا في الثامنة عشرة، وكان ملازمًا في الفيلق الذي شارك في ذات الهجوم، فتلقى ضربةَ سيفٍ على رأسه، فمات جرّاءها مجنونًا بعد ثماني سنوات.

فيما يخص أسرة أمها، تذكرت تينا أن جدها كان يعيش عيشةً باذخةً، وكان واضحًا من بعض الأوراق أنه كان يملك مصلحة البريد في سويسرا، بذات الطريقة التي يكون فيها هذا الفرع من الدخل، حتى في هذه الأيام، إقطاعةً لأمراء أسرة تورن وتاكسيز في أجزاء كبيرة من ألمانيا وإيطاليا. وهذا يدل على ثروة كبيرة، لكن لأسباب غير معروفة تمامًا لم يصل أيضًا شيء، أو إلا القليلُ جدًّا منها إلى الجيل الثاني.

لم يعلم هافلار القليلَ الذي يمكن معرفته عن المسألة إلا بعد زواجهما، وفي أثناء تحرياته فوجئ أن يجد أن علبة المجوهرات التي أشرتُ إليها للتو - والتي احتفظت بها تينا مع محتوياتها إكرامًا لذكرى والدتها، من غير أن يخطر ببالها أن فيها وثائق مهمة من ناحية مالية - قد اختفت لأسباب مجهولة. مع أن هافلار، وبطريقة لا علاقة لها بالمنفعة الشخصية على الإطلاق، لم يتمالك نفسه عن تشكيل رأي، من هذا، ومن ظروف أخرى عديدة، أن وراء المسألة قصةً غراميةً، ونظرًا لميوله المُكلفة، لا يمكن للمرء أن يلومه إن تمنى أن تنتهي القصةُ نهايةً سعيدةً. وأيًا كانت حقيقة هذه القصة، وسواء أحصل «نهبٌ» أم لا. لا شك أن خيال هافلار راح يحلم بالملايين.

ولكن الغريب، مرةً أخرى، أنه هو المعروف بدقته وحماسته في تحري حقوق الآخرين والدفاع عنها، مهما كانت مطمورةً تحت ركام الوثائق المغبرَّة،

والألاعيب المُحكمة الحبك، إلا أنه هنا، حيث يتعلق الأمر بمصلحته، فقد فرَّط بلامبالاةٍ باللحظة التي كان من الممكن أن تعالَج فيها المسألة بأفضل فرصة للنجاح. يبدو أنه شعر بشيء من الخجل، لأن مصلحته كانت على المحك. وأنا أعتقد اعتقادًا راسخًا لو أن تينا كانت متزوجةً من شخص آخر، واستنجد به لحل الشِّباك التي عَلِقَت بها ثروة أسرتها، لتمكَّن من إعادة الثروة إلى صاحبة الحق «اليتيمة الظريفة.» لكن هذه «اليتيمة الظريفة» هي الآن زوجته، وثروتها هي ثروته، لذلك لو سأل نيابةً عنها، «هل أنت متأكدٌ أنك لستَ مدينًا لي بشيء؟» لَشَعر أن في سؤاله شيئًا من السوقية والمذلة.

لكنه لم يستطع أن يتخلى عن حلم الملايين هذا، ولو فقط من أجل أن تكون في متناوله حجةٌ للرد على تأنيب الذات المتكرر بسبب إنفاقه المفرط.

لم ينجح في التغلب على كسله أو نفوره، ويتولّى قضية الملايين التي تصور أنها ما زالت من حقه، إلا قُبيل عودتهما إلى جاوا، وبعد أن عانى الأمرَّيْن من قلة المال، واضطر أن يحني رأسه الأبي للدائنين الكثر. فكان الجواب على مساعيه فاتورة قديمة غير مدفوعة ... وهذه حجةٌ لا تُقهَر، كما يعلم الجميع.

لكن، آه، سيكونان حريصين جدًّا في ليباك! ولِمَ لا يكونان كذلك؟ في هذا البلد الهمجي لا تتسكع الفتيات في الشوارع ليلًا، ليبعن شرفهن القليل من أجل قليلٍ من الطعام. فهناك لا تصادف أناسًا ضالين يعتاشون من مهنٍ مريبةٍ. هناك لا تتحطم أسرةٌ فجأةً بسبب تغير صروف الدهر ... ففهي نهايةِ الأمر، كانت هذه عادةً هي الصخور التي تحطمت عليها مقاصد هافلار الخيِّرة. وكان عدد الأوربيين في تلك المقاطعة قليلًا لا يُذكر، وكان الجاويون شديدي الفقر ولا يمكن أن يثيروا الاهتمام لو تعاظم فقرهم، مهما حلَّت بهم من صُروف. لم تتأمل تينا بالضبط في كل هذا - فلو فعلت، لتعمَّقت في الأسباب التي أدت إلى

افتقارهما، على نحو أكثر دقةً مما سمح به حبُّها لماكس. لكن بيئتهما الجديدة كان فيها شيء يوحي بالهدوء الذي يعقب العاصفة وغياب جميع المناسبات - وإن بشيء من البهرج الرومنسي المزيف - التي كانت في الماضي تدفع هافلار للقول:

«تينا، هذا بلا شكٍّ شيءٌ لا يمكنني أن أخرج منه، أليس كذلك؟»

فكانت تينا تجيبه دائمًا:

«لا، بكل تأكيد، يا ماكس، لا يمكنك أن تخرج منه!»

لكن سنرى كيف تكبَّد هافلار في ليباك، هذا المكان البسيط المُمِل في ظاهره، تكاليف فاقت كل تجاوزات قلبه السابقة مجتمعةً. لكنهما لم يكونا يعرفان ذلك! كانا ينظران إلى المستقبل بثقة، وكانا يتنعمان بحبهما وبطفلهما ...

هتفت تينا، «ما أكثرَ الورد في الحديقة! والرامپِه والـچِـمـپـاكا والكثير من الميلاتي، وانظر إلى هذه الزنابق!»

وبما أنهما كانا كالأطفال، فقد استمتعا ببيتهما الجديد. وفي ذلك المساء حين عاد دوكلاري وفيربروخه إلى المنزل الذي يتقاسمانه من زيارة أسرة هافلار، تحدثا كثيرًا عن الفرح الطفولي للقادمَيْن الجديدَيْن.

لكن هافلار ذهب إلى مكتبه، وبقي فيه طوال الليل.

[8]

كان هافلار قد طلب من المراقب، أن يطلب من الزعماء الذين جاؤوا إلى رانْكَس بيتون، أن يبقوا هناك حتى اليوم التالي ويحضروا السَّيبَه، اجتماع المجلس، الذي كان يرغب في عقده. كانت هذه الاجتماعات عادةً تُعقَد مرةً في الشهر، لكنه جعل موعد أول سِيبه في الصباح الذي يلي تنصيبه، إما لأنه أراد أن يوفر على بعض المديرين عناء الذهاب والإياب غير الضروريين، بما أنهم كانوا يعيشون بعيدًا إلى حدٍّ ما من المركز الرئيس، ومقاطعة ليباك مترامية الأطراف، أو لأنه أراد أن يتحدث إليهم حديثًا جديًّا فورًا، من دون انتظار اليوم المحدد.

أمام منزله، إلى اليسار، لكن في ذات الحوش، ومقابل المنزل الذي تعيش فيه السيدة سلوتيرِنـگ، كان هناك مبنى خُصِّص جزءٌ منه لمكاتب مساعد المقيم، بما في ذلك الخزينة المحلية، ويتألف الجزء الآخر من شرفة كبيرة مفتوحة، وهي مناسِبةٌ جدًّا لمثل هذا الاجتماع. وهناك اجتمع الزعماء، في الصباح الباكر.

دخل هافلار، ثم حيّاهم، وجلس. قُدِّمت له التقارير الشهرية المكتوبة عن الزراعة والشرطة والعدل، فنحّاها جانبًا ليتمعَّن فيها أكثر لاحقًا.

بعد هذا توقع الجميع خطابًا كالذي ألقاه المقيم في اليوم السابق. وليس مؤكَّدًا تمامًا أن هافلار نفسه كان ينوي أن يقول شيئًا مغايرًا، لكن عليك أن تسمعه وتراه في مثل هذه المناسبات، لتدرك كيف ينجرف بعيدًا، في خطاباتٍ من هذا النوع، ومن خلال أسلوب خطابته الغريب كان يُسبغ لونًا جديدًا على أكثر الأشياء أُلفةً، وكيف كان يتصلَّب وينهض منتصبًا، وعيناه تقدحان

شررًا، ويتحول صوته من قمة الرِّقة إلى قمة القسوة، وكيف تتطاير من شفتيه استعاراتٌ، كأنه ينظم حوله دُررًا لم تكلفه شيئًا بالرغم من غلائها، وحين يتوقف كيف يحدق الكل فيه فاغرًا فاهُ كأنه يسأله، «يا إلهي، من أنت؟»

لا بد من الاعتراف أنه، وهو الذي يتكلم في هذه المناسبات مثل رسولٍ أو متنبئ، لا يستطيع أن يتذكر لاحقًا ما قاله بالضبط؛ ولهذا فإن فصاحته ترمي إلى الإبهار والإثارة، أكثر مما ترمي إلى الإقناع بالحجة المقتضبة. لو كان في أثينا بعد أن عزم أهلها على محاربة فليب المقدوني، لَأوقد جذوةَ روحهم العسكرية وسَعَّرها؛ لكنه على الأرجح سيكون أقل نجاحًا لو كانت مهمته تقتضي إقناعهم بالحجة والمنطق. كان خطابه إلى زعماء ليباك باللغة الملاوية، بطبيعة الحال، وهذا ما أضفى عليه غرابةً أخرى. بما أن بساطة اللغات الشرقية تضفي على كثير من تعبيراتها قوةً افتقدتها مصطلحاتنا، بسبب التأنُّق الأدبي، كما أن سلاسة اللغة الملاوية يصعب استنساخها في أي لسان آخر. كما يجب أن نتذكر أن معظم مستمعيه كانوا أناسًا بسطاء، لكنهم ليسوا أغبياء بأي شكل من الأشكال، وكانوا أيضًا شرقيين تختلف ردود أفعالهم عن ردود أفعالنا.

لا بد أن هافلار قال شيئًا من هذا القبيل:

«رادِن أديپاتّي، متصرفَ بانتان كيدول، وأنتم أيها الرَّادِنات الديمَن، مديرو النواحي في هذه المقاطعة، وأنتَ يا رادِن جَكسا، مسؤول العدالة، وأنت أيضًا، يا رادِن كليوون، صاحب السلطة في مركز المقاطعة، وأنتم، أيها الرَّادِنات والمانتريّات، وأنتم جميعًا أيها الزعماء في مقاطعة بانتان كيدول، أحييكم!

«وأقول لكم إنني أشعر بالبهجة في قلبي، لرؤيتكم مجتمعين هنا لتستمعوا إلى كلماتي.

«أعرف أن من بينكم من هو متميز في معرفته وفي طيبة قلبه. وآمل أن أنهلَ

من مَعين معارفكم، لأن مخزوني من المعرفة ليس كبيرًا كما أتمنى. ومع أنني أعشق الخير، إلا أنني في كثيرٍ من الأحيان أعي أن بي عيوبًا تُلقي بظلالها على طيبة قلبي وتحجِّم نموها ... أنتم تعلمون جميعًا كيف تَقْتَلِعُ الشجرةُ الكبيرةُ الشجرةَ الصغيرةَ وتقتلها. لذلك سأقتدي بأولئك الذي يتفوقون بالفضيلة من بينكم، لعلّي أصبح أفضل مما أنا.

«ولكم جميعًا تحياتي الحارة.

«حين أمرني الحاكم العام أن آتيكم بصفة مساعدِ مقيم لهذه المقاطعة، طَفِر قلبي مِن الفرح. قد يكون معروفًا لديكم أنني لم أطأ أرضَ بانتان كيدول من قبلُ قطُّ، لذلك طلبت أن أطَّلِع على ما كُتب عن مقاطعتكم، ولقد رأيت أن في بانتان كيدول الكثير من الخير. يمتلك أهلكم حقول الأرز في الوديان، وهناك حقول أرز في الجبال. كما أنكم ترغبون في العيش بسلام، ولا ترغبون في السكن في أماكن يقطنها غيركم. أجل، إني أعلم أن في بانتان كيدول الكثير من الخير!

«لكن ليس من أجل هذا وحده طفر قلبي من الفرح، لأنه بإمكاني أن أجد الكثير من الخير في مناطق أخرى.

«لكني أدركت أن أهلكم فقراء، ولهذا سعدتُ من أعمق أعماق قلبي.

«ولأني أعلم أن الله يحب الفقراء، وأنه يعطي الأموال لمن سيمتحنهم. لكنه يرسل للفقراء من يبلغهم كلامه، كي يرفعوا رؤوسهم وهم غارقون في البؤس.

«ألا يرسل المطرَ للسنابل الذابلة وقطرةَ الندى للزهرة الظمأى؟

«أليس من دواعي الافتخار أن يُرسَل المرءُ، ليبحث عن المرهَقين الذين يتباطؤون بعد عمل يوم شاقٍّ، ويرتمون على جانب الطريق حين لا تعود رُكَبُهم تقوى على حملهم، إلى المكان الذي تُدفع لهم فيه أجرتهم؟ أليس من واجبي أن أفرح حين يُسمح لي بمدّ يد العون لمن يتردّى في الحفرة، أو بإعطاء عصًا لمن

يصعد الجبل؟ أليس من الواجب على قلبي أن يثب وهو يرى نفسه يُصطفى من بين الكثيرين، ليحوِّل التفجُّعَ إلى صلاةٍ والبكاءَ إلى شكرٍ؟

«أجل، أنا سعيدٌ جدًّا بأن أُدعى إلى بانتان كيدول!

«لقد قلتُ للمرأة التي تُقاسمني همومي وتُضاعف سعادتي، 'افرحي، لأني أرى الله يُنعِم على طفلنا ببركاتٍ تَتْرى! لقد أرسلني إلى مكانٍ لم تُنجَز فيه كل الأعمال، وقد اصطفاني لهذا الأمر قبل أوان الحصاد، لأن المتعة ليست في حصاد الـپـادي؛ بل في حصاد الـپـادي الذي زرعه المرءُ بيديه. ونفسُ الإنسان لا تكبر من الأجرة، بل من العمل الذي يستحق الأجرة'. وقلت لها، 'لقد وهبنا الله طفلًا سيقول يومًا ما، «هل تعلم أنني ابنه؟» عندئذ سيكون في البلاد من سيرحبون به بكل مودة، وسيضعون أيديهم على رأسه ويقولون: «مرحبًا بك إلى مائدتنا، وتفضل بالسكن في منزلنا، وشارِكنا في كل ما نملك، لأننا كنا نعرف أباك.»'

«يا زعماء ليباك، في منطقتكم الكثير من العمل الواجب إنجازُه!

«أليس الفلاح فقيرًا؟ ألا ينضج الـپـادي في كثير من الأحيان ليُطعِم من لم يزرعوه؟ ألا توجد في بلادكم مظالم كثيرة؟ أليس عدد أطفالكم قليلًا؟

«ألا تشعرون بالعار حين يزور أرضَكم ساكنُ باندون، الواقعة إلى الشرق من هنا، ويسألكم، «أين القرى وأين الفلاحون؟ ولماذا لا أسمع الـگـامِيلان، والسعادةُ تنطق من فمه النحاسي، ولا طحنَ بناتكم للـپـادي؟»

«ألا تشعرون بالمرارة وأنتم تسيرون من هنا إلى الساحل الجنوبي، وترون الجبال التي لا ينحدر على سفوحها الماء؟ أو السهول التي لا تجرّ فيها الجواميس محراثًا؟

«أجل، أجل ... أقول لكم إن نفسي وأنفسكم حزينة بسبب هذه الأشياء! ولهذا السبب بالذات، نحمد الله الذي سخرنا لهذا العمل.

«لأننا في هذه الأرض لدينا فدادين كثيرة، والسكان قليلون. ما ينقصنا ليس المطر، لأن ذرى الجبال تمتص السحب من السماء إلى الأرض. وليس في كل مكان ترفض الصخور أن تفسح المجال للجذور، لأن التربة في كثير من الأماكن طرية وخصبة، وهي تصرخ تريد الحبوب التي تتمنى أن تعيدها إلينا في السنبلة المحنية. وليس في البلاد حربٌ تهشِّم الـپـادي وهو غضٌّ طري، ولا مَرضٌ يجعل الـپـاچـول[52] غير ذي نفع. كما أن أشعة الشمس ليست أشد حرارة من اللازم، لإنضاج المحاصيل التي تُطعِمكم وتطعم أطفالكم، ولا بانجِرات[53] تجعلكم تتساءلون بحسرة، 'في أي بقعة زرعتُ؟'

«حيث يرسل الله الفيضانات لتجرف الحقول ... حيث يجعل شمسه حاميةً إلى حد الحريق ... حيث يرسل الحروب لتدمير البلاد ... حيث يبتلي بالأمراض التي تشل حركة الأيدي، أو يرسل القحط ليُهلك الأرز في سنبله ...، هناك، يا زعماء ليباك، نحني له رقابنا خاضعين ونقول، 'لتكن مشيئتُك'.

«لكن الأمر ليس كذلك في بانتان كيدول!

«لقد أُرسلت إلى هنا، لأكون صديقكم وأخاكم الأكبر. أليس من الواجب تنبيه أخيك الأصغر إن رأيت نمرًا في طريقه؟

«يا زعماء ليباك، لقد ارتكبنا أخطاءَ كثيرةً، وأرضنا فقيرة لأننا ارتكبنا أخطاءً كثيرةً جدًا.

«لأنه في چـيكاندي وبولان، وفي كراوان، وفي المناطق المحيطة بِپَافيا، هناك الكثيرون ممن وُلِدوا في أرضنا، ولكنهم تركوا أرضنا.

«لماذا يبحثون عن عمل بعيدًا من المكان الذي دفنوا فيه والديهم؟ لماذا هربوا من الدِّسّه التي خُتِنوا فيها؟ لماذا فضّلوا البرودة تحت الشجرة التي تنمو هناك على ظل غاباتنا؟

«وحتى هناك، في الشمال الغربي، على ضفة البحر الأخرى، هناك الكثيرون ممن يُفترض أن يكونوا أبناءنا، لكنهم غادروا ليباك ليتجوَّلوا في مناطق غريبة يحملون الكْرِس[54] والطليوان والبندقية، فيموتون ميتة البؤساء، لأن سلطة الحكومة هناك تقضي على المتمردين.

«يا زعماء ليباك، أريد أن أسألكم: لماذا يذهب الكثيرون ليُدفَنوا في غير الأماكن التي وُلِدوا فيها؟ لماذا تسأل الشجرة، 'أين الرجل الذي رأيته يلعب تحت ظلي حين كان طفلًا؟'»

توقف هافلار. لكي يُدركَ الانطباع الذي تركته كلماته، كان يجب أن تسمعه وتراه. فحين تكلم عن طفله، كان في صوته شيء رقيق ومؤثر إلى درجة لا تُصدَّق يجعلك تسأل، «أين هذا الصغير؟ إني أتحرَّق شوقًا لتقبيل الطفل الذي يجعل أباه يتكلم على هذا النحو!» لكن حين انتقل بُعيد ذلك، بقليلٍ من الانتقال الظاهر، ليسأل لماذا كانت ليباك فقيرة، ولماذا هاجر كثيرٌ من سكانها إلى أماكن أخرى، تذكِّرك نبرته بصوت مِثقَبٍ وهو يثقبُ خشبًا قاسيًا بقوة. لكنه لم يتكلم بصوتٍ عالٍ، ولم يشدد على كلمات معينة، بل كان في صوته شيءٌ من الرتابة، لكن سواءٌ أكانت هذه الرتابة عينها مدروسةً أم تلقائيةً، فقد طَبَعت كلماتِه في أعماقِ قلوبٍ تلقَّفت هذه اللغة على نحوٍ غريب.

فاستعاراته وصوره، التي دائمًا ما يستقيها من محيطه، كانت في الحقيقة بالنسبة إليه أدواتٍ توضح معانيه بدقة، وليس، كما هي الحال في كثير من الأحيان، كتلك الزوائد المُضجِرة التي تُثقِل جُمَل الخطباء من غير أن تساعد في إيضاح المسألة التي يدّعون أنهم يشرحونها. فنحن اليوم معتادون تمامًا على التعبير السخيف «قوي كالأسد.» لكن أول من استخدم هذا التشبيه في أوربا أثبت أنه لم يستمدها من الإحساس الشعري في نفسه التي تُحاجج بالصور، ولا تستطيع

الحديث بسواها، بل نسخها من كتابٍ أو سِواه - لعلّه الكتاب المقدس - يرد فيه ذِكْرٌ للأسد. لأنه لم يجرب أحدٌ من سامعيه قوة الأسد، ولذلك كان من الأجدى لو أنه جعلهم يدركون تلك القوة من خلال مقارنة الأسد بشيءٍ معروفةٍ قُوَّتُه لهم من التجربة، وليس العكس.

لا بد للمرء أن يعترف أن هافلار كان شاعرًا حقيقيًا. ولا يمكنه إلا أن يشعر أنه، حين كان يتحدث عن حقول الأرز على الجبال، ويرفع عينيه نحوها عبر جانب الصالة المفتوح، كان بالفعل يراها. لا يمكنه إلا أن يدرك، حين جعل الشجرة تسأل الرجل الذي كان يلعب تحت ظلها في طفولته، أن تلك الشجرة كانت تنتصب بالفعل هناك، بل كانت، في خيال مستمعي هافلار، كأنها بالفعل تحدق حولها بحثًا عن سكان ليباك الراحلين. لم يخترع شيئًا: لقد سمع الشجرة تتكلم، واعتقدَ أنه كان يردد فقط ما سمعه بوضوح في إلهامه الشعري.

لو قال أحدهم إن أصالة أسلوب هافلار في الخطابة مشكوكٌ فيها، حيث إن لغته تذكِّرنا بلغة أنبياء العهد القديم، فعليَّ أن أذكِّره أنني قلت: إنه في لحظاتٍ من الانتشاء كان بالفعل يشعر وكأنه متنبّئ. لقد تغذى على الانطباعات التي استقاها من حياته في الغابات والجبال، ومن أجواء الشرق الناطقة بالشعر، فأنّى له أن يتحدث غيرَ ذلك؛ حتى لو لم يقرأ قصائد العهد القديم السامِيّة قطُّ؟

في أشعارٍ تعود إلى عهد شبابه، ألا نجد أبياتًا كالتالي (وقد كتبها على قمة جبل سَلَك، وهو واحد من عمالقة الجبال، وليس أعظمها، في متصرفيات پـريانـگـر)، حيث يُصوِّر مطلعُها رقة مشاعره، لكنه فجأةً ينتقل بنا ليردد صدى الرعد الذي يسمعه في الأسفل؟

هنا يحلو للمرء أكثر أن يسبِّح بحمد خالقه جهرًا ...
فالدعاء له نغمةٌ أجمل على سفوح الجبال والروابي ...
والقلبُ يسمو هنا أكثر مما يسمو هناك -
على الجبال يكون المرء أقربَ إلى إرادة الله!
فهنا قد خلق اللهُ جوقةً للمنشدين ومذبحًا للمعبد
الذي لا تدنسه قدمٌ بشرية.
هنا يصنع لنفسه عاصفة مزاميره ...
فيجَلجِل الرعدُ باسم الجلالة!

ألا نشعر أن الأبيات الأخيرة ما كان لها أن تكون على هذه الشاكلة، لو لم يسمع بالفعل رعدَ الله يُمليها عليه في جُمَلٍ يتردد صداها من جُدران الجبال؟

لكنه في الحقيقة لم يكن يحب كتابة الشعر. كان يقول عنه، «إنه كَمِشَدٍّ الخصر الكَريه.» وإنِ استماله أحدٌ لقراءة أي شيء «اقترفه،» حسب وصفه، كان يتلذذ بإفساد عمله، إما من خلال قراءته بنبرةٍ يُقصد منها أن تجعله سخيفًا، أو من خلال التوقف فجأةً، ولاسيما في نصٍّ شديدِ الجِدِّية، وإلقاءِ قولٍ مؤلمٍ لجمهوره، لكنه بالنسبة إليه ليس أكثر من تعليقٍ ساخرٍ، مُنتزعٍ من القلب، على التَفاوت بين ذلك المِشدِّ، أو سترة المجانين الضيقة، وروحه المحشورة فيها حشرًا.

تناول بضعةٌ من الزعماء شيئًا من المرطبات المقدَّمة حين أمر هافلار، بإشارةٍ منه، أن يُؤتى بالشاي مع المانيسان[55]، وهي الرفيق المحتوم في هذه المناسبات. بدا كأنه تعمَّد أن يتوقف قليلًا بعد جملته الأخيرة. وكان لديه سببٌ وجيهٌ لذلك. كان يُفترَض أن يخطر للزعماء هذا الخاطر، «إنه يعلم سلفًا أن كثيرًا جدًّا هجروا مقاطعتنا من شعورهم بالمرارة في قلوبهم! إنه يعلم سلفًا كم من الأُسَر هاجرت إلى المناطق المجاورة للهرب من الفقر السائد هنا! بل إنه يعلم أن كثيرًا من

البانتاميين انضموا إلى العصابات التي رفعت راية التمرد على السلطة الهولندية في مناطق اللامـپـون! ماذا يريد؟ ما الذي يرمي إليه؟ من الذي يعنيه بأسئلته؟»

نظر بعضهم إلى رادِن ...، مدير منطقة پـاران كوجان. لكن معظمهم نظروا إلى الأرض.

لاحظ هافلار ابنه يلعب في حوش المنزل، فناداه، «تعال، يا ماكس!» رفع المتصرف الطفل إلى حضنه، ولكن الطفل كان كثير الحركة فلم يمكث طويلًا. قفز نازلًا من حضن المتصرف وراح يركض حول الدائرة الواسعة، وهو يُسلّي الزعماء بثرثرته، ويلعب بمقابض خناجرهم. وحين جاء إلى الجَكسا - الذي يبدو أنه استرعى اهتمام الطفل بملابسه المميزة عن الآخرين - بدا ذلك المدير أنه يلفت نظر الكليوون إلى شيءٍ على رأس ماكس الصغير؛ وقد كان الكليوون يجلس بجانبه، ويبدي موافقته على الملاحظة المهموسة عن الموضوع.

قال هافلار، «اذهب، يا ماكس، فلدى بابا ما يقوله لهؤلاء السادة.»

انطلق الطفل راكضًا، وهو يودِّع الحاضرين بقُبَلٍ يرميها بيديه.

عندئذٍ تابع هافلار:

«يا زعماء ليباك، نحن في خدمة ملك هولندا. ومع أنه ملك عادلٌ ويريدنا أن نقوم بواجبنا، إلا أنه بعيدٌ من هنا. وهناك ثلاثون مليون نسمة، بل أكثر من هذا، مُلزَمون بإطاعة أوامره؛ لكنه لا يستطيع أن يكون قريبًا من كل أولئك الذين يعتمدون على إرادته.

«إن السيد الأعظم في باوتِنزورخ رجلٌ عادلٌ، ويريد من الجميع أن يقوموا بواجباتهم. ولكنه هو أيضًا، بالرغم من جبروته وسلطته التي يبسطها على كل أصحاب النفوذ في المدن والمشايخ في القرى، وعلى الرغم من سيطرته على قوى الجيش والسفن التي تُبحِر في البحار - إلا أنه أيضًا لا يستطيع أن يرى أين

يُرتكب الظلم، لأنه يظل في منأى عنه.

«والمقيم في سيران، الذي هو حاكم منطقة بانتام، التي يقطنها خمس مئة ألف نسمة، يريد أن تسود العدالة في منطقته والاستقامة في الأراضي التي تخضع له. لكن حين يُقتَرَفُ ظلمٌ، فهو يُقتَرَف بعيدًا من إقامته. وكل من ارتكب شرًا توارى عن أنظاره، خوفًا من العقاب.

«والسيد الأديپاتّي، متصرف بانتام الجنوبية، يريد من كل الأحياء أن يفعلوا الخير، وألا يلحق العارُ بمتصرفيته.

«وأنا الذي دعوتُ الله العليَّ القدير يومَ أمس أن يشهد عليَّ كي أكون عادلًا ورحيمًا، وكي أطبق العدالة من غير خوفٍ ولا ضغينةٍ، وكي أكون 'مساعدَ مقيمٍ صالحًا' ... أيضًا أريد أن أقوم بواجبي.

«يا زعماء ليباك، إننا جميعًا نريد أن نقوم بواجبنا!

«لكن إن كان بيننا من يهمل واجبه لمنفعةٍ، أو يبيع العدالةَ من أجل المال، أو يأخذ جواميس الفقراء أو يأخذ حق الجائعين من الفاكهة ... فمن سيعاقبهم؟

«فإن عَلِم هذه الأشياء أحدٌ منكم، فعليه أن يمنعها. والمتصرف لن يسمح بهذه الأشياء في متصرفيته. وأنا أيضًا سأمنعها حيث أستطيع. لكن إن لم يعلم بها أحد منكم أو الأديپاتّي أو أنا ...

«يا زعماء ليباك، فمن إذن سيطبق العدالة في بانتان كيدول؟

«استمعوا إلي، وسأقول لكم كيف تُطبَّق العدالة حينها.

«سيأتي زمنٌ تبكي فيه نساؤنا وأبناؤنا وهم يُعِدّون أكفانَنا، وسيقول عابرُ سبيلٍ، 'لقد مات في ذلك المنزل شخصٌ'. عندئذٍ سيحمل كلُ قادمٍ إلى القرى أنباءَ موت الفقيد، وسيسأل كلُّ من يستضيفه، 'من ذلك الرجل الذي مات؟' وسيُقال:

«'لقد كان رجلًا صالحًا مستقيمًا. لقد أقام العدل ولم يطرد المظلومين من بابه. لقد كان يستمع بأناةٍ لكل من جاؤوا إليه، وردَّ إليهم ما أُخِذ منهم. وإن عجز رجلٌ عن حراثة الأرض لأن ثور جاموسه سُرق منه، ساعده للعثور على ثوره. وإن اختُطِفت ابنةٌ من بيت أمها، وجد الخاطفَ وأعاد البنتَ. وإن عملَ عاملٌ، لم يمنعه أجرتَه، ولم يأخذ الثمار ممن زرعوا الأشجار. ولم يلبس الرداء الذي يستحقه غيره، ولم يطعم نفسه من الطعام الذي يستحقه الفقراء'.

«عندئذٍ سيقولون في القرى، 'الله أكبر، لله ما أخذ ولله ما أعطى. لقد مات رجلٌ صالحٌ'.

«وسيقف عابرُ سبيلٍ مرةً أخرى أمام منزلٍ ويقول، 'لماذا لا أسمع صوتَ الـگـاميلان وغناءَ الصبايا؟' وسيقولون له أيضًا: 'لقد مات رجلٌ'.

«ومن يرتحل في القرى سيجلس مع مضيفه في المساء يحيط به أبناء المنازل وبناتهم، وأبناء سكان القرية، وسيقول:

«'لقد ماتَ رجلٌ أقسم على أن يكون عادلًا، وباع العدلَ لكل من دفع له مالًا. لقد زرع حقله بعرق العامل الذي انتزعه من حقله هو. لقد أكل أجرةَ العمال وطعامَ الفقراء. واغتنى من فقر غيره. لقد كَنَز الكثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، لكن الفلاح الذي يعيش في حيِّه لم يكن يعرف كيف يسد جوعَ طفله. كان يبتسم مثل رجلٍ سعيدٍ، ولكنك لا تسمع من المُدّعي عليه الذي يطالب بحقه إلا صريرَ أسنانه. على وجهه أمارات الرضا، لكن لا حليبَ في صدورِ الأمهات المرضعات'.

«عندئذٍ سيقول سكان القرى: 'الله أكبر ... نحن لا نلعنُ أحدًا'.

«يا زعماء ليباك، الموتُ مصيرُنا جميعًا!

«ماذا سيُقال في القرى التي كان لنا فيها سلطة؟ وماذا سيقول عابرو السبيل

وهم ينظرون إلى مدافننا؟

«وماذا سنقول حين يكلم أرواحَنا صوتٌ بعد مماتنا ويسأل، 'لماذا في الحقول عويلٌ، ولماذا يتوارى الشبابُ عن الأنظار؟ من أخذ الغِلال من المخازن، ومن أخذ من الإسطبل ثورَ الجاموس الذي سيحرث الحقل؟ ماذا فعلتَ بالأخ الذي منحتُك لتكون له حارسًا؟ لماذا يحزن الفقير، ولماذا يلعن عقمَ زوجته؟'»

وهنا توقف هافلار مرةً أخرى، وبعد أن صمت لبضع لحظاتٍ استأنف حديثه بأبسط طريقة ممكنة، كأنه لم يقل شيئًا يرمي إلى ترك انطباعٍ معينٍ لديهم:

«أود أن أعيش في وفاقٍ معكم جميعًا، لذلك أطلب منكم أن تحسبوني صديقًا لكم. إن أخطأ أحدٌ منكم، فَلْيُبْشِر بحُكْم متساهلٍ مني، فلأنني أنا شخصيًا أُخطئ كثيرًا، لن أكونَ قاسيًا ... أي، ليس في المسائل التي تتعلق بالجُنح المرتكبة أو التقصير في أثناء الخدمة. ما لم يصبح التقصير في أداء الواجب عادةً، فلن أسعى لمكافحته. لن أتحدث عن مخالفاتٍ أكثرَ فداحةً ... كالابتزاز والظلم. لا شيء من ذاك القبيل يحدث هنا، أليس كذلك، أيها الأديپاتي؟»

«لا، يا سيدي، لا شيء من ذاك القبيل يحدث في ليباك.»

«حسنًا، إذن، أيها السادةُ زعماءَ بانتان كيدول، لِنهنِّئ أنفسنا لأن مقاطعتنا متخلفة جدًّا وفقيرةٌ جدًّا. لدينا عملٌ نبيلٌ علينا القيام به. إن أمدَّ الله في أعمارنا، سنرى تباشير الخير. الأرض خصبة، والناس راغبون. لو تُرِك كلُّ واحد ليتمتع بثمرة جهده، فلا شك أن الناس سيزدادون عددًا وثراءً وثقافةً في فترة وجيزة، لأن هذه الأشياء متلازمةٌ عمومًا. مرةً أخرى أدعوكم لتحسبوني صديقًا مستعدًا لمساعدتكم حيثما أمكن، ولاسيما في مكافحة الظلم. وفي هذا سأغدو شاكرًا جدًّا لتعاونكم.»

«سأعيد إليكم في الوقت المناسب التقارير عن الزراعة وتربية القطعان

والشرطة والعدالة، مرفوقةً بقراراتي.

«يا زعماء بانتان كيدول، لقد قلتُ كلمتي! بإمكانكم إن تعودوا جميعًا إلى منازلكم. مع أطيب أمنياتي لكم جميعًا!»

ثم انحنى ومدَّ ذراعه إلى المتصرف العجوز، وقاده إلى الطرف الآخر من الحوش حيث كانت تينا تنتظر على الشُرفة الأمامية.

«تعالَ، يا فيربروخه، لم يَحِن أوانُ انصرافِك! تعال ... ما رأيك بكأس من الماديرا؟ أوه ... وهناك شيءٌ يجب أن أعرفه. رادِن جَكسا، لحظة من فضلك.»

قال هافلار هذا بينما كان جميع الزعماء يستعدون للانصراف إلى أهاليهم، وهم ينحنون احترامًا. كان فيربروخه على وشك المغادرة أيضًا، لكنه الآن عاد مع الجَكسا.

«تينا، أريد كأسًا من الماديرا لي، وأخرى لفيربروخه. أخبِرْني، يا جَكسا، ما الذي قلته للكليوُون عن ماكس؟»

«مِنتَه أمـپـون[56]، سيدي، نظرتُ إلى رأسه لأنك كنتَ قد تكلمت.»

«قُل لي بحق الشيطان، ما علاقة هذا الأمر برأسه؟»

«سيدي، قلت للكليوُون ...»

اقتربت تينا أكثر؛ كانوا يتحدثون عن ماكس الصغير!

«سيدي، لقد قلتُ للكليوُون إن السِّينيو[57] من أطفال الملوك.»

سُرَّت تينا لهذا القول، فهذا هو رأيها أيضًا!

تفحَّص الأديـپـاتّي رأس الصبي الصغير، وبالفعل رأى الأُوسير أُوسيران، تاجَ الشَّعرِ المزدوجَ الذي يعني، وفقًا للخُرافة الجاوية، أن صاحبه سيلبس تاج الملوك ذات يوم.

وبما أن قواعد التشريفات لا تسمح بإجلاس الجَكسا بحضور المتصرف،

استأذن الأول بالمغادرة، وظل الجميع مدةً يتحدثون من دون التطرق إلى أي شيء يَمُتُّ إلى «الخدمة» بِصِلة. لكن فجأةً - وكذلك بخلاف العُرف الجاوي الأصيل الشديد اللباقة - سأل المتصرف إن كان بالإمكان صرف بعض الأموال التي رُصِدت لحساب جابي الضرائب.

قال فيربروخه مستغربًا، «بالطبع لا. أيها الأديپاتّي، أنت تعلم أن هذا غير مسموحٍ به قبل المصادقة على حسابات الجابي.»

كانَ هافلار يلعب مع ماكس. لكن ذلك لم يمنعه من أن يدرك من ملامح وجه المتصرف أن ردَّ فيربروخه لم يُعجبه.

قال له، «هيا يا فيربروخه، لا تُعسِّر الأمور.» ثم استدعى موظفًا من المكتب. «يجدر بنا أن ندفع هذا ... لا شك أن الحسابات سيُصادَق عليها.»

وبعد انصراف الأديپاتّي، قال فيربروخه المتشدد في تطبيق الأنظمة:

«لكن يا سيد هافلار، هذا غير مسموحٍ به! ما زالت حسابات الجابي في سيران للتدقيق ... ولنفترض أن هناك نقصًا؟»

قال هافلار، «إذن، سأعوِّضه أنا.»

ببساطة، لم يرَ فيربروخه مسوِّغًا لهذا الاستعداد المفرط لإقراض جابي الضرائب. وما لبث أن عاد الموظف مع بعض الأوراق. وقَّع هافلار، وأمر أن يتم الدفع من غير إبطاء.

«سأقول لك، يا فيربروخه، لِمَ فعلتُ هذا! لا يملك المتصرف فلسًا في بيته، كما أعلمني موظفه، ... وعلاوةً على ذلك، ألم تلحظ الرعونة في طلبه؟ لقد كانت واضحةً وضح النهار. إنه يريد المال لنفسه، والجابي مستعد لإقراضه. وأنا أفضِّل أن أخرق النظام من تلقاء نفسي على أن أترك رجلًا في مقامه وسنه في ضائقة. كما أن هناك استخدامًا فاضحًا للسلطة في ليباك، يا فيربروخه. ولا بد

أنك تعرف ذلك. ألا تعرف أنت ذلك؟»

ظل فيربروخه صامتًا.

واصل هافلار قائلًا: «أنا أعرف ذلك. أنا أعرف ذلك. لقد مات السيد سلوتيرِنـگ في شهر تشرين الثاني، أليس كذلك؟ حسنٌ، بعد يوم من موته، استدعى المتصرفُ الناسَ للعمل في سَواهِيه ... بلا أجر! لا بد أنك عرفت ذلك. هل كنت تعرف؟»

لم يكن فيربروخه يعرف.

واصل هافلار، «بما أنك المراقب، فكان يجب أن تعرف ذلك! أنا أعرف ذلك. هاكَ العائدات الشهرية من النواحي» - ثم أراه حزمة الأوراق التي استلمها في الاجتماع - «كما ترى، لم أفتح شيئًا. لكنك ستجد في تلك الحزمة أرقام العمال الذين أُرسِلوا إلى مركز المقاطعة للقيام بعمل السُّخرة. على أية حال، هل تلك الأرقام صحيحة؟»

«لم أرها بعد ...»

«ولا أنا! لكني ما زلت أسألك إن كانت صحيحة؟ هل كانت أرقام الشهر الماضي صحيحة؟»

ظل فيربروخه صامتًا.

«أنا أقول لك: إنها غير صحيحة! لأنه استُدعِي ثلاثةُ أضعافِ الناسِ المسموح بهم، بموجب الأنظمة ليعملوا لمصلحة المتصرف، وبطبيعة الحال لم يجرؤوا أن يضعوا ذلك في العائدات. هل ما أقوله صحيح، يا فيربروخه؟»

ظل فيربروخه صامتًا.

تابع هافلار حديثه، «كما أن العائدات التي استلمتُها اليوم مزيفة. المتصرف فقير. متصرفا باندون وچيانجور من أفراد العائلة التي هو كبيرها. ومرتبته هي

مرتبة أديـپـاتي، بينما متصرف چـيانجور ليس إلا ثُمونـگـون، لكن لأن ليباك لا تصلح لزراعة القهوة، وكذلك لا تعود عليه بدخلٍ إضافيٍّ، وفي مظاهر الأُبَّهة والعظمة لا يسمح له دخله في متصرفيات پـريانـگـر بمنافسة ديمَنٍ وضيعٍ واجبٍ عليه إمساك الرِّكاب حين يمتطي أبناء عمومة المتصرف خيولهم. أليس هذا صحيحًا؟»

«أجل.»

«ليس لديه إلا راتبه، وهذا قد انخفض بسبب ما يُحسَم لتسديد سُلْفةٍ قدمتها له الحكومة لَـمّا أراد ... هل تعلم؟»

«نعم، أعلم.»

« ــــ لَـمّا أراد أن يبني مسجدًا جديدًا، وهذا تطلب مالًا كثيرًا. علاوةً على ذلك، كثيرٌ من أسرته ... هل تعلم؟»

«نعم، أعلم.»

«كثيرٌ من أفراد أسرته - الذين لا ينتمون في الحقيقة إلى ليباك، ولهذا لا يحترمهم الناس - يَلْتَمُّون حوله كأنهم عصابة لصوص، وينتزعون منه المال. هل هذا صحيح؟ أم أنني مخطئ؟»

قال فيربروخه: هذه هي الحقيقة.

وحين تفرغ خزائنه، وهي فارغةٌ في أغلب الأحيان، يسرقون باسمه من الناس كل ما يحلو لهم. هل هذا صحيح؟»

«نعم.»

«إذن، معلوماتي صحيحة، لكني سأتحدث أكثر عن هذا الأمر لاحقًا. المتصرف يتقدم به العمر ويخشى الموت، وهو مهووسٌ بكسب الثناء من خلال عطاياه للأئمّة. وينفق الكثير من الأموال لدفع نفقة سفر الحُجّاج إلى

مكة، وهؤلاء يجلبون له كل أنواع سقط المتاع، كالآثار القديمة والتعويذات والجيهات[58]. أليس كذلك؟»

«نعم، هو كذلك.»

«حسنٌ، لهذه الأسباب مجتمعةً هو فقيرٌ جدًّا. الديمَن في پـاران كوجان هو صهره. لا يجرؤ المتصرف أن يستولي على أملاك الآخرين، مخافةَ أن يجلب العار لمقامه، لكن هذا الديمَن يقوم بهذا نيابةً عنه - مع أنه ليس الوحيد. فهو يتملق إلى الأديـپـاتي بابتزاز الأموال والحاجيات من البؤساء الفقراء، وإحضارهم من حقول أرزِّهم وسَوْقِهم للعمل في سَواهِ المتصرف، والمتصرف ... انظر، أنا مستعدٌ لتصديق أنه يتمنى لو كانت الأمور غير ذلك، ولكن الضرورات تبيح المحظورات. أليس هذا كله صحيحًا، يا فيربروخه؟»

قال فيربروخه، «نعم، صحيح.» وبدأ يدرك أكثر فأكثر أن هافلار ثاقبُ النظر.

تابع الآخر قائلًا، «كنت أعرف أنه لا يملك مالًا في بيته، ولقد سمعتَ في هذا الصباح أنني أنوي القيام بواجبي. لن أتهاون مع الظلم، والله - لن أتهاون مع الظلم!»

ثم هبَّ واقفًا على قدميه، فكانت نبرته مختلفةً جدًّا عن نبرته في اليوم السابق حين أقسم اليمين القانونية.

استأنف قوله، «لكني أريد أن أقوم بواجبي بلطفٍ. لا أريد أن أعرف الكثير عما حدث في الماضي، لكن كل ما يحدث منذ اليوم فهو مسؤوليتي أنا، وأنا الذي أُحاسَب عليه، وآمل أن أبقى هنا مدةً طويلةً. هل تدرك، يا فيربروخه، أن مهمتنا مهمة جليلة؟ لكن هل تدرك أيضًا أن كل شيء قلتُه لك الآن كان يجب أن أسمعه منك أنت؟ أنا أعرفك وأعرف أيضًا مَنْ مِن الناس يصنعون

گـارِم گـلاپ[59] على الساحل الجنوبي. أنت رجلٌ نزيه ... أنا أعلم هذا أيضًا. لكن لماذا لم تخبرني عن المظالم الكثيرة هنا؟ أنت القائم بأعمال مساعد المقيم منذ شهرين، والمراقب هنا لمدة أطول بكثير ... لذلك لا بد أن تكون قد علمت هذه الأشياء، أليس كذلك؟»

«يا سيد هافلار، لم أعمل قطُّ تحت إمرةِ شخصٍ مثلك. أنت شيء غير مألوف، إن سمحت لي بهذا التعبير.»

«طبعًا! أنا أعي جيدًا أنني لستُ كأيِّ شخصٍ آخر ... لكن ما علاقة هذا بالأمر؟»

«له كل العلاقة. أنت تعبر عن مفهومات وأفكار لم توجَد من قبلُ قطُّ.»

«بل هي موجودة! لكن أنامَها الروتين الرسمي اللعين الذي يجد أسلوبَه في قولِ 'يشرفني أن أكون'، وراحةَ باله في 'رضا الحكومة التام'. لا، يا فيربروخه! لا تُشهِّر بنفسك! ليس هناك ما تتعلمه مني. على سبيل المثال، هل أخبرتُك بأي جديدٍ هذا الصباح في السيباه؟»

«لا، ليس جديدًا بالضبط، ولكنك تكلمت بطريقة مختلفة عن الآخرين ...»

«تمامًا، ... وهذا راجعٌ إلى سوءٍ في تربيتي: فأنا أقول كل ما يخطر ببالي. لكن عليك أنت أن تخبرني لماذا انبطحتَ أمام كل هذا الظلم في ليباك.»

«حتى هذا اليوم لم أسمع عن أي مبادرة تُتَّخَذ. أضف إلى ذلك أن الأمور تسير على هذا النحو دومًا في هذه النواحي.»

«نعم، نعم، أعرف ذلك! ليس بإمكان كل شخص أن يكون نبيًا أو رسولًا ... يا إلهي، لو كان الأمر غير ذلك لصار الخشب غاليًا من كثرة الصَّلْب! لكني متأكد أنك ستساعدني على إعادة الأمور إلى نصابها؟ أنا متأكدٌ أنك ستقوم بواجبك؟»

«بلا شك! ولاسيما تجاهك. لكن ليس الكل يطالب بأداء الواجب بهذه الصرامة، أو يُجِلُّه، أو حتى يحمله على محمل إيجابي، وحينها ينحني المرء بسهولة كمن ينحني أمام طواحين الهواء.»

«لا! هذا ما يقوله من يعشقون الظلم، لأنهم يعتاشون عليه، فيقولون إنه لا يوجد ظلمٌ لكي يحلو لهم تسمية كلٍّ منا، أنا وأنت، دون كيخوته، وفي الوقت نفسه يتركون طواحين هوائهم دائرةً. لكن، يا فيربروخه، ما كان يجب أن تنتظرني أنا لكي تقوم بواجبك. كان السيد سلوتيرِنـگ كفوءًا ونزيهًا: كان يعلم بما يجري، ولم يستحسنه، وكافحه ... انظر!»

أخرج هافلار ورقتين من ملفٍ، وأراهما لفيربروخه، ثم سأله، «هذا خطُّ من؟»

«خطُّ سلوتيرِنـگ ...»

«بالضبط! حسنٌ، هذه فيما يبدو مُسَوَّدة عن موضوعات كان يرغب في مناقشتها مع المقيم. قرأتُ هنا: «1) عن زراعة الأرز؛ 2) عن منازل شيوخ القرى؛ 3) عن جمع ضرائب الأراضي!! إلخ.» بعد البند الثالث هناك علامتا تعجب. ما الذي قصده السيد سلوتيرِنـگ بهاتين العلامتين؟»

أجابه فيربروخه مستعجبًا، «وكيف لي أن أعرف؟»

«أما أنا فأعرف! هذا يعني أن ضرائب الأراضي التي تُدفَع أكثر بكثير مما يصل إلى الخزينة. لكن الآن سأُريك شيئًا بإمكاننا أن نعرفه كلانا، لأنه مكتوبٌ بالأحرف وليس بالرموز. انظر هنا:

12) عن استغلال المتصرفين، ومن هم أدنى منهم من الزعماء للناس. (عن إنفاقهم على عدد من المنازل على حساب السكان، إلخ).

«هل هذا واضح؟ كما ترى، كان السيد سلوتيرِنـگ رجلًا يعرف كيف يأخذ

بزمام المبادرة. كان بإمكانك أن تنضم إليه. استمع أيضًا لما يقوله هنا:

15) إن أسماءَ كثيرٍ من أسر الزعماء المحليين وخَدَمِهم مدرجة على قوائم الرواتب، لكنهم لا يشاركون في زراعة الأرز، وهم يتربحون من ذلك على حساب المشاركين الحقيقيين، كما أنهم يُمنحون ملكية سِوَاه بصورةٍ غير قانونية، وهذه السِّواه، بموجب القانون، لا يمكن أن تُمنَح إلا للمزارعين الفعليين.

«وهنا أجد في مذكِّرةٍ مكتوبةٍ بقلم الرصاص. انظر - لا لَبْسَ في هذه أيضًا: 'إن انخفاض عدد السكان في پـاران كوجان راجعٌ حصرًا إلى استغلال السكان بأبشع الطرق'. ما رأيك بهذا؟ ألا ترى الآن أنني لستُ غريبَ الأطوار في نهاية الأمر حين أحاول أن أُحِقَّ الحقَّ، وهل ترى الآن أن الآخرين حاولوا أيضًا؟»

قال فيربروخه، «هذا صحيح. وكان السيد سلوتيرِنـگ في غالب الأحيان يُحدِّث المقيم بشأن هذا كله.»

«وماذا كانت النتيجة؟»

«عندئذٍ استُدعي المقيمُ إلى مكتب المقيم، ودار بينهما حديثٌ خاصٌّ ...»

«بالضبط! ثم ماذا؟»

«كان من عادة المتصرف أن ينكر كل شيءٍ. عندئذٍ استُدعي الشهود ... ولم يجرؤ أحدٌ على الشهادة ضد المتصرف ... سيد هافلار، هذه الأمور في غاية الصعوبة!»

سيعلم القارئ، قبل أن ينتهي من قراءة كتابي، كما سيعلم فيربروخه، لماذا هذه الأمور في غاية الصعوبة.

تابع المراقب حديثه: «لقد انزعج السيد سلوتيرِنـگ جدًّا، وكتب رسائلَ شديدةَ اللهجة إلى الزعماء ...»

قال هافلار: «لقد قرأتُها ... ليلةَ أمس.»

«لقد سمعتُه كثيرًا ما يقول إنه إن لم يحدث تغيير، وإن لم يتخذ المقيمُ إجراءً صارمًا، فسيفاتح الحاكمَ العامَ مباشرةً. وقد قال ذلك للزعماء أنفسهم في آخر سبَبه له معهم.»

«لو فعل ذلك لأخطأ. فالمقيمُ هو رئيسه ولا يحق له أن يتجاوزه تحت أي ظرفٍ كان. ولماذا عليه أن يفعل؟ بالتأكيد ليس ليُظَنَّ أن مقيم بانتام يَسْتَحْسِن الظلم والاستبداد؟»

«يَسْتَحْسِن؟ لا. لكن لا أحد يرغب في إقامة دعوى ضد زعيم لدى الحاكم.»

«لا أودُّ أن أتهم أحدًا، أيًّا كان، لكن إن كان لا بد من ذلك، فلا فرقَ عندي بين زعيم وغيره. لكن المسألة هنا، والحمد لله، لا تتعلق بإقامة دعوى حتى الآن! سأذهب غدًا لأرى المتصرف، وسأبيِّن له خطأ استخدام السلطة بصورة غير مشروعة، ولاسيما فيما يتعلق بممتلكات الفقراء. لكن، على أمل أن يعود كل شيء إلى نصابه الصحيح، سأبذل قصارى جهدي لمساعدته في ظروفه العصيبة. ألا تدرك الآن لماذا أمرتُ بصرف ذلك المال للجابي؟ كما أنوي أن أطلب من الحكومة أن تعفيه من تسديد ما لها عليه من ديون. وأقترح عليك أنت، يا فيربروخه، أن نقوم معًا بواجبنا على أكمل وجه. وبلطفٍ قَدْرَ الإمكان، لكن إن دعت الضرورة، بلا وَجَلٍ ولا مُحاباة. أنا أعلم أنك رجلٌ نزيهٌ، ولكنك خجولٌ. في المستقبل، سَمِّ الأشياءَ بمسمياتِها، مهما كانت النتيجة. اخلع عن نفسك هذا الفُتور، صديقي العزيز ... والآن، ما رأيك لو تناولت الغداء معنا؟ لدينا قرنبيط هولندي مُعلَّب ... لكن كل شيء بسيط، لأنه يجب عليَّ أن أقتصد جدًّا في النفقات ... وعليَّ ديونٌ متأخرةٌ كثيرةٌ: تلك الرحلة إلى أوربا، كما تعلم! تعال، يا ماكس ... يا إلهي، ما أثقلَ وزنك، أيها الصبي!»

حمل ماكس على ظهره وكتفيه، ودخل الصالة الداخلية، يرافقه فيربروخه.

كانت تينا تنتظرهم على المائدة المعدَّة للغداء، وكان، كما قال هافلار، بسيطًا جدًّا بالفعل. جاء دوكلاري ليسأل فيربروخه إن كان ينوي تناول الغداء في البيت، فدُعي أيضًا ليجلس معهم. وإن كان القارئ يرغب بشيء من التنويع في قصتي، فأُحيلُه إلى الفصل التالي الذي سأروي فيه كل ما قيل على الغداء.

[9]

أيها القارئ، أنا مستعدٌ لدفعِ الكثير لكي أعلم بالضبط طول المدة التي بإمكاني، أن أُبقي فيها بطلةً تسبحَ في الهواء بينها أنا أصف قلعةً، وقبل أن ينفد صبرك، وتضع الكتاب من يدك، من غير أن تنتظر حتى تهبط المخلوقةُ المسكينةُ إلى الأرض. إن كانت حكايتي تستدعي هذه المزحة، فعليَّ من باب الاحتياط أن أختار طابقًا أولًا لتقفز منه، وقلعةً لا يوجد عنها الكثير مما يُقال. لكن لا تقلق: ليس في منزل هافلار طوابق، وبطلةُ كتابي - يا إلهي، البطلة تينا العزيزة الصادقة الآنشپروخلوزه[60] - لم تقفز من نافذة قط.

حين اختتمتُ الفصل الأخير بتلميح إلى شيءٍ من التنوع في الفصل الذي يليه، كان ذلك في الحقيقة حيلةً بلاغيةً، بهدف إنهاء الفصل نهايةً مناسبةً، وليس لأنني أردت فعلًا أن أدس الفصل التالي «من أجل التنويع» من غير أن تكون له أيُّ قيمةٍ أخرى.

الكاتبُ مغرورٌ مثل أي ... رجلٍ. تحدّث بسوءٍ عن أمه أو لون شعره، قُل إنّ له لكنةً أمستردامية - وهذا ما لن يعترفَ به أمستردامي قط - فربما يغفر لك هذه الأشياء. لكن ... إن لامستَ السطح الخارجي لأصغرِ جزءٍ في عنصرٍ ثانوي لشيءٍ ملقىً في مكانٍ ما قريبٍ من كتابته ... فلن يغفر لك ذلك! لذلك إن كنت لا تعتقد أن كتابي رائع، فأرجوك، إن التقيتني مصادفةً، أن تمر كأننا لا يعرف أحدنا الآخر.

لذلك يبدو لي، من خلال العدسة المكبِّرة لغروري الأدبي، أن فصلًا كهذا

مكرسًا «من أجل التنويع» فقط هو فصلٌ شديدُ الأهمية، بل لا غنى عنه. وإن تخطيته ومن ثم لم تجد في كتابي ما يعجبك كما يجب، فلن أتردد في قولي لك إن تخطيك ذاك قد جعلك غيرَ مؤهل لإطلاق أي حكم عليه، حيث إن الجزء الأساسي من الكتاب هو بالضبط ذلك الجزء الذي لم تقرأه. وبهذه الطريقة، يجب أن أحسَب - بما أنني رجلٌ وكاتبٌ في آنٍ معًا - أن أي فصلٍ تخطيتَه بلامبالاة القارئ التي لا تُغتَفَر هو فصلٌ أساسيٌّ.

بإمكاني أن أتخيل زوجتك وهي تسألك، «هل يوجد شيءٌ في ذلك الكتاب؟» وستجيبها، على سبيل المثال - وهو ما له وقعٌ فظيعٌ على أذنيَّ - بتلك الطلاقة التي يتسم بها الرجال المتزوجون:

«هممم ...، حسنٌ، إلى حدٍّ ما ... لا أعرف بعد.»

حسنٌ، أيها الهمجي، تابع القراءة! فالشيء المهم جدًّا في متناولك! وأنا أحدِّق فيك بشفتين مرتعشتين، وأقيسُ سماكة الأوراق التي قلبتَها ... وعلى صفحة وجهك أبحث عن انعكاس الفصل «الجميل جدًّا.»

أما أنا فأقول إنه لم يصل إليه بعد. سيقفز عما قريب منتشيًا، وسيعانق شيئًا ... ربما زوجته ...

لكنك تتابع القراءة. لا بد أنك تجاوزت «الفصل الجميل،» على ما أظن. لم تقفز إطلاقًا، ولم تعانق ...

وتتناقص سماكة الأوراق تحت إبهامك الأيمن بالتدريج، ومعها يتناقص أملي في تلك المعانقة ...، بل إني كنت بصراحةٍ أُعوِّل على ذرف دمعةٍ!

وأنت قرأت الروايةَ كالبرق إلى حيث «ينال أحدهم الآخر،» وتقول متثائبًا (وهذه أمارةٌ أخرى من أمارات الفصاحة الخاصة بحالة الزواج):

«يا إلهي ... حسنًا! إنه ذلك النوع من الكتب الذي ... همم! أوه، إنهم

يكتبون من أمثال هذه الكتب كثيرًا هذه الأيام!»

لكن ألا تعلم إذن أيها القارئ الأوربي الوحش النمر - ألا تعلم أنك قضيتَ للتو ساعةً، وأنت تنخر في روحي كأنك عود أسنان؟ تنخر وتطحن لحمَ وعظمَ واحدٍ من أبناء جنسك؟ أيها الآكل للحوم البشر، لقد كانت تلك روحي التي كنت تحوم حولها للمرة الثانية، كما الأبقار تأكل العشب! وتلك القضمة الشهية التي ابتلعتَها للتو هي قلبي! لأنني سكبتُ قلبي وروحي في ذلك الكتاب، وعلى مخطوطته تساقطت دموعٌ كثيرة، وانحسر الدم في عروقي وأنا أكتب، وها أنا قد أعطيتك كل هذا، واشتريته بثمنٍ بخسٍ، وكل ما تستطيع أن تقوله هو «همم!»

لكن القارئ سيدرك أنني لا أتحدث هنا عن كتابي.

كل ما أريد قوله، بكلمات أبراهام بلانكارت[61] ...

سألتْ لويز روزماير، «من هذا أبراهام بلانكارت؟» أخبرها فِرتْس - وهذا سرَّني سرورًا عظيمًا، لأنه منحني فرصةً للنهوض ووقف القراءة، لذلك المساء على الأقل. كما تعلمون، أنا سمسار قهوة - 37 لاورير خراخت - ومهنتي هي حياتي. وبإمكان أي شخص أن يدرك أنني لستُ راضيًا عن عمل شتيرن. كنت أرجو منه القهوة، فأعطانا ... ما لا يعلمه إلا الله!

لقد استهلك وقتنا بكتابته على مدى ثلاث أو أربع من أمسياتنا الاجتماعية، والأنكى من ذلك أن آل روزماير يظنون ذلك جميلًا. وكلما انتقدتُه، التجأ إلى لويز. فاستحسانها، برأيه، يساوي لديه كل القهوة في الدنيا، وعلاوةً على ذلك، «حين يتوهَّج صدري» ... إلخ، - انظر ما جادت به قريحته في صفحة كذا وكذا؛ أو بالأحرى، دعك من ذلك - حسنٌ، ها أنذا هنا، ولا أعرف ماذا أفعل! إن كان هناك حصان طروادة أبدًا، فهي رُزمة شالمان. إنها تُفسِد فرتس. وأنا ألاحظ أنه يساعد شتيرن - حيث إن «أبراهام بلانكارت» ذاك هولنديٌّ جدًّا بالنسبة

إلى ألماني [*مثل شتيرن*]. إنهما متعالمان متعجرفان إلى درجة تقلقني بالفعل. والأنكى من ذلك أنني وقّعت اتفاقًا مع خافزاوْخَر لنشر كتابٍ عن مزادات القهوة - وكل هولندا تنتظره! - والآن ذلك المغضوب شتيرن ينحو منحىً مختلفًا تمامًا! قال لي أمس، «لا تقلق، كل الطرق تؤدي إلى روما. فقط انتظر إلى نهاية المقدمة» - كل هذا وما زلنا في المقدمة؟ - «أعدكَ» - في الحقيقة، هو قال «أُبشِّرُك» بأسلوبه الألماني - «أن القضية ستكون في المحصلة عن القهوة والقهوة ولا شيء سوى القهوة!» ثم تابع قائلًا، «فكِّر في هورَس. ألم يقُل Omni tulit punctum qui miscuit [62] [*أفلح مَن مزج النافع بالممتع*] ... القهوة بشيءٍ آخر؟ ألا تتصرف أنتَ بذات الطريقة حين تمزج السكر والحليب في فنجانك؟»

ومن ثم عليَّ أن أسكت. ليس لأنه على حق، بل لأنني مُلْزَمٌ تجاه شركة لاست وشريكه ألا أدع الشيخ شتيرن يقع في أيدي بوسَلِنك وواترمَن، الذين لن يفيدوه بشيء لأنهم نصّابون.

إليك، أيها القارئ، أسكبُ قلبي، ولكي لا تصب جام غضبك على رأسٍ بريءٍ بعد انتهائك من قراءة خربشات شتيرن - هل قرأتها بالفعل؟ - لأنني، أسألك من يتعامل مع سمسارٍ يدعوه بآكل لحوم البشر؟ - أُصر على إقناعك ببراءتي. ولأنه يتضح أنني لا أستطيع أن أطرد شتيرن من «شركة» كتابي، ولاسيما بعد أن تطورت الأمور إلى حد أن لويز روزماير، حين تخرج من الكنيسة - يبدو أن الصبيان ينتظرونها - تسأل إن كان سيبكِّر قليلًا ذلك المساء، ليقرأ لهم الكثير عن ماكس وتينا.

لكن بما أنك اشتريت الكتاب أو استعرته من المكتبة، معتمدًا على عنوانه المحترم الذي يبشر بشيء متماسك رائع، فها أنا أُقِرُّ بحقِّك في القيمة مقابل المال، ولهذا سأعود شخصيًا إلى كتابة فصلين. أيها القارئ، أنت لا تذهب إلى حفلات

الشاي التي يقيمها آل روزماير، ولذلك فأنت أفضل مني حالًا لأنكَ لستَ ملزمًا بسماع كل ما يدور هناك. لك مطلق الحرية في تجاوز الفصول التي تفوح منها رائحة الهستيريا الألمانية، وأن تُصغي فقط إلى ما كتبتُه أنا، صاحبَ المكانة وسمسارَ القهوة.

لقد فوجئت بأن أعلم من خربشات شتيرن - وقد أثبت لي ذلك من خلال رزمة شالمان - أن القهوة لا تُزرَع في مقاطعة ليباك. هذا خطأٌ عظيمٌ، وسأحسب أنني كوفئت على عنائي مكافأةً مجزيةً لو أن كتابي نجح في لفت انتباه الحكومة لذلك الخطأ. ويبدو أن أوراق شالمان تثبت أن التربة في تلك النواحي لا تصلح لزراعة القهوة. ولكن هذه ليست حجة مقبولة على الإطلاق، وأنا أصر على أن الحكومة مُقصِّرة في واجبها تقصيرًا لا يُغتَفر تجاه هولندا عمومًا وسماسرة القهوة خصوصًا، أي نعم، بل تجاه الجاويين أنفسهم، إما لأنهم لم يغيروا تلك التربة - ففي نهاية الأمر، ليس لدى الجاويين ما يفعلونه في كل الأحوال - أو، إن كان ذلك غير عملي، لأنهم لم يرسلوا السكان هناك إلى أماكن أخرى تصلح لزراعة القهوة.

أنا لا أتفوه قط بأي شيء لم أدرسه دراسةً متأنيةً، وبإمكاني أن أُقسِم في هذه الحال أنني أتحدث عن ثقةٍ، حيث إنني تأملت الأمر مليًّا، ولاسيما منذ سماعي لموعظة المبجل ڤـاوِلار في القُدّاس الخاص الذي أُقيم لأجل هداية الوثنيين.

كان ذلك ليلة الأربعاء الماضي. وعليك أن تعلم، أيها القارئ، أنني صارمٌ في تنفيذ واجباتي الأبوية، وأنني لا أتهاون في تنشئة أبنائي الأخلاقية. لقد لاحظت منذ مدة أن في حديث فرتس وسلوكه شيئًا لا يسر بالي - وكل ذلك بسبب رزمة شالمان اللعينة! لذلك أعطيته درسًا جيدًا وقلت له:

«أنا لستُ مسرورًا منك، يا فرتس! لقد بيَّنتُ لك دومًا الطريقَ القويمَ، وما زلت تنحرف عنه. أنت صَلِفٌ ومُرهِقٌ، وتكتب الأشعار، وقد قبَّلتَ بِتسي روزماير. رأسُ الحكمة مخافةُ الله، لذلك يجب ألا تقبِّل أحدًا من آل روزماير، ولا تكن صَلِفًا. إن سوء الأخلاق يؤدي إلى الهلاك، يا ولدي. اقرأ الأناجيل، وانظر إلى حال شالمان! لقد هجر سُنَّة الله، وها هو فقيرٌ، ويعيش في عِلِّية ...، فانظر عاقبةَ سوء الأخلاق والسلوك! كان يكتب مقالاتٍ غير لائقة في صحيفة إندپندانس، وترك أگلاياس. وهذه عاقبة من يغترُّ بنفسه. وها هو الآن لا يعرف حتى الوقت، وابنه الصغير لا يملك إلا نصف بنطال. تذكَّر أن جسدك هو معبد الروح القدس، وأن أباك شَقِيَ دومًا لكسب رزقه - هذه هي الحقيقة - فارفع عينيك إلى السماء، وجاهد لكي تكون سمسارًا محترمًا حين أتقاعد إلى دْريبيرخِن. وانظر إلى كل أولئك الذين لا يستمعون إلى النصح السديد، والذين يدوسون على الدين والأخلاق بأقدامهم، واتَّعِظ بما آلوا إليه. لا تحاول مجاراة شتيرن، فأبوه ثري، وسيكون لديه ما يكفي من المال في كل الأحوال، حتى لو لم يُرِد أن يكون سمسارًا وحتى لو ارتكب بعض الأخطاء بين الحين والآخر. تذكَّر أنه لا ينجو من العقاب أي شرٍّ؛ انظر مرةً أخرى إلى شالمان الذي لا يملك معطفًا ويبدو مثل ممثلٍ محطَّم. كن يقظًا في الكنيسة، ولا تجلس فيها وأنت تتلوى على مقعدك في كل الاتجاهات كأنك ضجرتَ، يا ولدي. ماذا سيقول الله عنك؟ ألا ترى أن الكنيسة هي بيته المقدس؟ ولا تنتظر الفتيات حين تنتهي الصلاة، لأن هذا يُذهِب الأجر كله. ولا تجعل ماري تضحك حين أقرأ الإنجيل عند الإفطار. كل هذا مُنكَرٌ في أي أسرة محترمة؛ كما أنك أيضًا رسمت رسومًا مضحكةً على سِجِل باستيان للمبيعات، حين تغيَّب مرةً أخرى - لأنه دومًا مصابٌ بالروماتيزم - وهذا يُلهي الموظفين عن شغلهم، والكتاب المقدس يقول إن هذه الحماقات تؤدي إلى التهلكة. وصاحبنا شالمان هذا

ارتكب بعض الأخطاء أيضًا في شبابه؛ وحين كان طفلًا ضرب يونانيًا في ڤِسْتَر ماركت ... وهو الآن خاملٌ ومغرورٌ ومريضٌ، كما ترى! لذلك لا تشترك دائمًا في ممازحات شتيرن، فأبوه ثري. تظاهر بأنك لا ترى حين يسخر من المحاسب. وخارج أوقات الدوام، حين ينشغل بكتابة الأشعار، قل له عَرَضًا إنه من الأجدى له أن يكتب لوالده ويخبره أنه مرتاح جدًّا معنا، وأن ماري قد طرَّزت له خُفَّين بخيوط الحرير الحقيقي. اسأله - بعفوية تامة، كما تعلم - إن كان من المحتمل أن يتحول أبوه إلى بوسَلِنك وواترمَن، وقل له إنهم نصابون. وبهذه الطريقة، كما ترى، تضعه على جادة الصواب ... والمرءُ مدين بهذا لجاره، وكل ذلك النَّظْم هراء. كن صالحًا ومطيعًا، يا فرتس، ولا تسحب الخادمة من تنورتها حيت تُحضِر الشاي إلى المكتب وتُحرجني، لأنها حينئذ ينسفح منها الشاي، والقديس بولص يقول إن على الابن ألا يُكَدِّر أباه. أنا أعمل في البورصة منذ عشرين عامًا، وأعتقد أنه يحق لي أن أقول إنني محترَم في مكانتي هناك. لذلك عليك أن تستمع إلى تحذيري، يا فرتس، وهاتِ قبعتك، والبس معطفك، وهيا معي إلى القُداس، فإنه سيُصْلِح حالك!»

هكذا تحدثت إليه، وأنا مقتنعٌ أنني أثَّرت فيه، ولاسيما أن الكاهن ڤـاولار قد اختار لخطبته موضوعًا بعنوان «محبة الله كما تظهر من خلال غضبه على الكُفّار،» في إشارة إلى توبيخ صموئيل لشاوُل: سِفْر صموئيل الأول 33:15.

وأنا أُصغي إلى تلك الموعظة، كنت أفكر في البون الشاسع بين الحكمة البشرية والإلهية. لقد قلتُ من قبل إن رزمة شالمان تحتوي، من بين ركام السخافات، على بندٍ أو بندين يمتازان بمنطقهما السليم. لكن ما أسخف هذه الأشياء حين تُقارَن بلغةٍ مثل لغةِ الكاهن ڤـاوِلار! وهو لا يتحدث هكذا بقوةٍ منه - أنا أعرف ڤـاوِلار، وصدِّقوني، لا يمكنه أبدًا أن يأتي بالعجائب - إنها

القوة الآتية من السماء! وما جعل الفرق واضحًا أكثر هو أنه تطرق إلى مسائل تطرق إليها أيضًا شالمان - ولقد رأيتم أن رزمته كان فيها شيءٌ كثير عن الجاويين وغيرهم من الوثنيين. (يقول: فرتس إن الجاويين ليسوا وثنيين، أما أنا فأرى أن الوثني هو كل من يتبع الدين الخطأ. لأنني أُؤمن بعيسى المسيح وبأنه صُلِب، وليس عندي شك أن كل قارئ محترم يفعل مثلي).

ومن موعظة ڤـاوِلار استنتجتُ أن ترك زراعة القهوة في ليباك كان خطأً، وهو ما سأعود إليه عما قريب. ولأنني رجلٌ نزيهٌ أيضًا، لا أريد القارئ ألا يحصل على شيء إطلاقًا مقابل ماله. لذلك سأقتطف له فيما يأتي بعض النصوص اللافتة من الموعظة.

بإيجازٍ أثبت ڤـاوِلار محبة الله من كلمات النص، فما لبث أن انتقل إلى صلب الموضوع، ألا وهو هداية الجاويين والملاويين، وأيًا ما كان أولئك القوم يسمون أنفسهم. وإليكم ما قال:

> «هذه، أيها الأحبة، هي مهمة بني إسرائيل المجيدة!» - يقصد إبادة أهل كنعان - «وهذه هي أيضًا مهمة هولندا! لا، لن يُقال إن السراج الذي نوقِد به سيُخبَأ تحت المكيال، ولا أننا بَخِلْنا فلم نُطعم غيرنا خبز الحياة الأبدية! انظروا إلى جزر المحيط الهندي التي يسكنها الملايين والملايين من أبناء الابن اللعين - الابن الذي استحق اللعنة - من آل نوحٍ الكريم، نوحِ الذي أنعم الله عليه. هاهم يزحفون هنا وهناك في أوكارِ الثعابين الكريهة للجهل الوثني - يحنون رؤوسهم السوداء الجعداء أمام كهنةٍ لا يخدمون إلا مصالحهم! هناك يصلون لله، ويبتهلون إلى نبيٍّ مزيَّفٍ، وكَبُرَ ذلك عند الله مَقْتًا! أيها الأحبة، وكأنه لا يكفي هؤلاء أن يطيعوا نبيًا مزيفًا، بل إن من بينهم من يعبدون إلهًا آخر، بل آلهةً أخرى، آلهةً

صنعوها هم أنفسهم من الخشب والحجر على شاكلتهم، سوداءَ، كريهةً، ذاتَ أنوفٍ فطساءَ، شيطانيةً! أجل، أيها الأحبة ... تكاد الدموع تمنعني من المواصلة؛ بل الأنكى من هذا هو فسوق بني حام! فمن بينهم من لا يعرفون إلهًا بأي مسمى كان، ويعتقدون أنه يكفيهم أن يطيعوا قوانين المجتمع المدني، ويعتقدون أن أغاني الحصاد التي يعبّرون فيها عن فرحهم بنجاح عملهم شكرًا كافيًا للكائن الأسمى الذي سمح بإنضاج ذلك الحصاد! هناك، أيها الأحبة، يعيش أناس ضالّون، خرافٌ ضائعة، يزعمون أنه يكفي أن تحب زوجتك وأبناءك، وألا تأخذ من جارك ما ليس لك لكي تستطيع أن تنام ليلًا هادئَ البال، مرتاحَ الضمير. ألا ترتعدون لتلك الصورة؟ ألا تنقبض قلوبكم رعبًا لمصيرِ كل أولئك الحمقى، حين يُنفَخ في الصُّور، ويُبعَث الأمواتُ، ويُعزَل أهل العدل من أهل الظلم؟ ألا تسمعون؟ أجل، إنكم تسمعون، لأنكم رأيتم من النص الذي قرأتُ لكم للتوّ أن الله ربكم إله جبار ذو انتقامٍ - أجل، إنكم تسمعون طقطقة العظام وفرقعة لهب جهنم التي سيُخلَّدون فيها ولهم فيهم صريخٌ وصريرٌ. هناك، هناك، يحترقون ولا يموتون، لأن عذابهم أزلي! هناك تلعق النارُ أهلَ الكفرِ بألسنةٍ لا تشبع، وهم فيها يصرخون! هناك لا يموت الدود الذي ينخر قلوبهم فلا يفنيها كي تظل تلك القلوب تُنخَر إلى الأبد في صدور الكافرين! انظروا كيف يُسلَخ الجلد الأسود من الطفل غير المُعمَّد الذي ما إن وُلِد، حتى انتُزع من صدرِ أمه، وقُذِف في هاوية اللعنة الأبدية ...»
وهنا أُغمي على امرأة.

تابع الكاهن ڤـاوِلار حديثه، «لكن الله، أيها الأحبة، إله محبة! فهو لا يريد أن يضيع ذلك الآثم، بل أن ينال الخلاص بنعمته، بالمسيح، بالإيمان! ولذلك اجتُبيت هولندا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أولئك البؤساء! ولهذا منح الله،

بحكمته التي في علم الغيب، سلطانًا لبلادٍ صغيرةٍ في مساحتها لكنها عظيمةٌ وقويةٌ بمعرفتها به، منحها سلطانًا على سكان تلك المناطق لعله ينقذهم من عذاب جهنم بالإنجيل المقدس الأزلي القيمة! إن سفن مملكتنا الهولندية تبحر في البحار العظيمة لتجلب الحضارة والدين والمسيحية إلى أهل الضلالة الجاويين! إن وطننا الأم لا يريد احتكار النعمة الأبدية وحده فحسب: إننا نريد أن نُشرك معنا أيضًا تلك المخلوقات البائسة التي تجثم عند تلك الشطآن البعيدة مقيدةً في أصفاد الكفر والخرافة والانحلال الأخلاقي! إن النظر في الواجبات الملقاة على عاتقنا لهذه الغاية سيشكل الجزء السابع من حديثي.»

(لأن ما قرأتموه الآن كان الجزء السادس). فالواجبات التي يجب أن نقوم بها نيابةً عن أولئك المساكين اشتملت على ما يأتي:

1) تقديم تبرعات مالية سخية للجمعية التبشيرية.
2) تقديم الدعم للجمعيات الإنجيلية لتمكينها من توزيع كتب الإنجيل في جاوا.
3) تسهيل إقامة الصلوات الجماعية في هاردَرڤايك لمصلحة مركز تجنيد الجيش الاستعماري.
4) كتابة المواعظ والتراتيل المناسبة لكي يقرأها ويرتلها جنودنا وبحارونا للجاويين.
5) تشكيل جمعية من أهل النفوذ مهمتها تقديم التماس لملكنا الكريم الرؤوف لكي:

أ. لا يُعيَّن من المحافظين والضباط والمسؤولين إلا من كانوا محافظين على دينهم الحق؛

ب. يُسمح بزيارة الجاويين إلى الثكنات وأيضًا السفن الحربية والتجارية الراسية في الموانئ لعلَّهم من خلال الاختلاط مع الجنود والبحارة الهولنديين يصبحون مهيئين لمملكة الرب؛

ت. لا يُقبل تسديد قيمة المشروبات في الحانات بالأناجيل أو المنشورات الدينية؛

ث. يُشترط في منح رُخَص الأفيون في جاوا أن تُخَزَّن في كل بيت من بيوت الأفيون كميةٌ من الأناجيل تتناسب وعدد الزوار المحتملين إلى تلك المؤسسة، وأن يتعهد المرخَّص له ألا يبيع الأفيون إلا لمن يأخذ منشورًا دينيًا في الوقت نفسه؛

ج .يأمر بإرغام الجاويين إلى اتباع سبيل الله بالعمل الشاق.

6) تقديم تبرعات مالية سخية للجمعية التبشيرية.

أنا أعلم أنني ذكرت هذا البند الأخير في أول بندٍ أيضًا؛ ولكنه هو كرره، وفي فورة خطبته الحماسية تبدو لي هذه النافلةُ مفهومةً تمامًا.

لكن، أيها القارئ، هل لاحظت البند 5/ ج؟ ذكَّرني ذلك المقترح كثيرًا بمزادات القهوة، وبعدم مناسبة تربة ليباك المزعوم، إلى درجة أنكم لن تستغربوا حين أؤكد لكم، أنه منذ ليلة الأربعاء لم تفارق النقطة 5/ ج فكري ولو للحظة. لقد قرأ الكاهن ڤاوِلار تقارير المبشرين، لذلك لا يمكن أن يُنكر أحدٌ أن لديه معرفةً دقيقةً بهذه المسائل. فإن كان هو، وتلك التقارير أمامه وعينه على ربِّ القدرة، يزعم أن العمل الكثير سيؤثر بشكل إيجابي في فتح نفوس الجاويين لمملكة الرب، فيمكنني إذن أن أستنتج أنني لا أجانب الصواب تمامًا إن قلت إن القهوة يمكن زراعتها بلا عوائق في ليباك، بل إن من الممكن أن الكائن الأسمى

قد جعل التربة هناك غير مناسبة لزراعة القهوة لا لغرض آخر سوى تهيئة سكان تلك النواحي للجَنَّة من خلال العمل الشاق الضروري لنقل تربةٍ مختلفةٍ إليهم؟

أتمنى أن تقع عين الملك على كتابي، وأنه عما قريب ستثبت المزاداتُ الكبرى العلاقةَ الوثيقةَ بين معرفة الله والمصالح المشروعة لجميع المواطنين المحترمين! فقط انظروا كيف هذا الرجل البسيط المتواضع ڤاوِلار الذي لا يعرف شيئًا عن الدنيا - فالرجل لم يزر البورصة بحياته - والذي أنار الإنجيلُ بصيرتَه كأنه سِراجٌ يسعى بين يديه، فجأةً أوحى إليَّ، أنا سمسار القهوة، فكرةً لا تهم هولندا فحسب، بل ستمكنني، إن أحسن فرتس سلوكه - لقد جلس في الكنيسة بهدوءٍ معقولٍ - من التقاعد إلى دْريبيرخِن قبل خمس سنوات مما توقعتُ. نعم، العمل الشاق، العمل الشاق، هذه هي كلمة السر عندي! عمل الجاويين الشاق، هذا هو مبدئي! ومبادئي مقدسة لدي.

أليس الإنجيل هو نِعمتُنا الأسمى؟ هل هناك شيءٌ أهم من الخلاص؟ أليس من واجبنا أن نأتي بالخلاص لأولئك الناس؟ وحين يكون العمل ضروريًا ووسيلةً لتلك الغاية - أنا شخصيًا عملتُ في البورصة مدة عشرين عامًا - هل يمكننا أن نحرم الجاوي من العمل الشاق، ونحن نعلم أن نفسه بحاجة ماسة إلى هذا العمل لكي تنجو من نار الآخرة الأبدية؟ سنكون أنانيين وأنانيين مقيتين إن لم نبذل كل جهد لحماية تلك الخراف الضائعة المسكينة من المستقبل الفظيع الذي أجاد الكاهن ڤاوِلار في وصفه. لقد أُغمي على سيدةٍ حين تحدث عن ذلك الطفل الأسود ... لعلها كان لها صبيٌّ صغيرٌ ذو بشرةٍ داكنةٍ إلى حدٍّ ما. هكذا هي النساء!

ولماذا لا أصر على العمل، أنا الذي لا شُغْلَ له سوى التفكير في التجارة من الصباح حتى الليل؟ أليس هذا الكتاب - الذي جعله شتيرن مصدرَ صداعٍ لي

- برهانًا على سمو مقاصدي لخير وطننا الأم، وبرهانًا على استعدادي للتضحية بكل شيءٍ من أجل ذلك؟ وعندما أضطر أنا للعمل عملًا شاقًا، أنا المُعَمَّد - في أُمستُلكيرك - ألا يحق لي إذن أن أطالب الجاوي الذي ما زال عليه أن يكسب خلاصه أن يضع يده على المحراث؟

إن تشكلت تلك الجمعية - أقصد المذكورة في البند 5/ ج - فإني سأنضمُّ إليها. وسأحاول أن أجعل آل روزماير ينضمون إليها أيضًا، لأن مصالح مُكَرِّري السكر معنية بالأمر أيضًا، مع أني لا أظن أنهم مستقيمون جدًّا في مبادئهم - أقصد آل روزماير - حيث يُشَغِّلون عندهم خادمةً من الروم الكاثوليك.

على أية حال، أنوي أن أقوم بواجبي. وعدتُ نفسي بهذا حين خرجتُ مع فرتس من الكنيسة وتوجهنا إلى البيت. سأحرص على أن يُعبَد الله في منزلي. وبكل الحماسة الممكنة لأنني الآن أدرك أكثر فأكثر كيف كلُّ شيءٍ منظمٌ بحكمةٍ، وكيف يد الله الحانية تقود خطانا، وكيف يريد خلاصَنا في الدنيا والآخرة، لأن تلك التربة في ليباك يمكن أن تكون صالحةً للقهوة بكل سهولة.

[10]

مع أنني لا أرحم أحدًا حين يتعلق الأمر بالمبادئ، إلا أنني أرى أن عليَّ أن أحاول تكتيكًا مختلفًا مع شتيرن عن ذاك الذي اتبعته مع فرتس. وبما أنني أخشى أن يرتبط اسمي - الشركة اسمها لاست وشريكه، أما أنا فاسمي هو دروخستوپل، بَتافوس دروخستوپل - بكتابٍ يحتوي على مسائل لا تنسجم مع الاحترام الواجب لكل رجلٍ وسمسارٍ محترمٍ، فأرى أن من واجبي أن أخبركم كيف حاولتُ هدايةَ الشاب شتيرن إلى جادة الصواب أيضًا.

لم أتحدث إليه عن الرب، لأنه من أتباع المذهب اللُّوثَري، لكنني خاطبت قلبَه وشرفَه. ما عليكم إلا أن تنظروا كيف تصرفتُ، وتلاحظوا ماذا يمكن للمرء أن يفعله حين يعرف الرجال.

كنت قد سمعتُه يقول، «قسمًا بشرفي» فسألته ماذا يقصد بذلك.

فقال لي، «أقصد أنني أتعهد بشرفي على صدق ما أقول.»

قلت له، «لا فُضَّ فوك! هل أنت متأكد أنك دومًا تقول الصدق؟»

فقال، «نعم، أنا أقول الصدق دومًا. فحين يتوهَّج صدري ...»

والقارئ يعرف البقية.

قلتُ له، «هذا بالتأكيد شيءٌ رائعٌ إلى أبعد الحدود.» وتظاهرت أنني بريء جدًّا كأنني صدَّقت الأمر.

لكن لم يكن ذلك إلا جزءًا من الفخ الذكي الذي نصبتُه له بغيةَ وضع هذا الدَّعي الصغير في مكانه - من دون المخاطرة طبعًا برؤية الشيخ شتيرن يسقط

في أيدي بوسَلِنك وواترمَن - وإشعارِه بالبون الشاسع بين غِرٍّ مبتدئ - حتى وإن كان أبوه رجلَ أعمالٍ من الوزن الثقيل - وبين سمسارٍ قضى عشرين عامًا في البورصة.

يجب أن أخبركم أنني علمتُ أنه كان قد حفظ عن ظهرِ قلبٍ - هو يقول «ظاهريًا» كعادة الألمان - كل ما هبَّ ودبَّ من الأشعار التافهة، وبما أن الأشعار دائمًا تحتوي على أكاذيب، فكنت متأكدًا أنني سأضبطه متلبِّسًا بالكذب، طال الزمان أو قصر. ولم يطل الزمن قبل أن أضبطه. حيث كنتُ أجلس في الغرفة التي بابُها من غرفة الاستقبال، وكان في غرفة الاستقبال ... وكان عندنا جناح[63]. كانت ماري تحيك، وكان على وشك أن يقول لها شيئًا. كنت أُنْصِتُ بعنايةٍ، وحين انتهى سألتُه إن كان لديه الكتاب الذي كان يهرف منه. فقال نعم إن الكتاب موجود لديه وأحضره إليَّ. وكان عبارةً عن مجلدٍ لأعمالِ نكرةٍ اسمه هاينَه. وفي صباح اليوم التالي، أعطيتُه - أقصد شتيرن - ما يلي:

> تأملات في محبة الصِّدق عند شخص يهرف هُراءً إلى فتاةٍ صغيرةٍ تجلس في الجناح وهي تحيك.
>
> في تطوافها ستحملكُ أُغنيتي المُجَنَّحة،
> يا عزيزتي، إلى بلادٍ بعيدة،

عزيزتي؟ ماري عزيزتك؟ هل يعرف أبوك وأمك أو لويز روزماير هذا؟ هل من اللائق أن يُقال هذا لطفلةٍ من المرجَّح جدًّا أنها ستبدأ بعصيان أمها بسبب ذلك، لأنها قد تتوهم أنها بالغة، لأن أحدهم قال لها «عزيزتي؟» وما معنى أن تحملها على جناحيك؟ فلا أنت لديك أجنحة، ولا أغنيتك. ما عليك إلا أن تحاول عبور قناة لاورير خراخت، وهي ليست عريضةً جدًّا. لكن حتى لو

كان لك أجنحة، هل يحق لك أن تعرض مثل هذه الأشياء على فتاةٍ لم تبلغ بعد سن تثبيت العِماد؟ وحتى لو أصبحتْ عضوًا كاملًا في الكنيسة، ما معنى ذلك الاقتراح أن تطيرا معًا؟ عيبٌ عليك!

إلى سهول نهر الغانج،
إلى أروعِ مكانٍ سطعت عليه الشمس.

إذن، اذهب لوحدك، واستأجِر بَنْگـلو. لكن لا تأخذ معك فتاةً صغيرةً واجبها هو أن تساعد أمها في المنزل. مع أنك لا تقصد ذلك! فبادئ ذي بدء، أنت لم تر نهر الغانج، لذلك أنت لا تعرف إن كان العيش هناك جميلًا أم لا. هل أُخبرك أنا بحقيقة الأمر؟ المسألة برمتها أكاذيب، وأنت لا تحكي هذه الأكاذيب، إلا لأنك في هذا القريض الذي تنظمه عبدٌ للوزن والقافية. لو أن البيت الأول انتهى بكلمة «بيوت» أو «عُمّال» أو «فانوس،» لَطلبتَ من ماري أن تذهب معك إلى «بيروت» أو «البرتغال» أو «باريس.» أنت ترى أنك لم تكن صادقًا في مسار رحلتك المقترح، بل كل ما في الأمر هو أنه عائدٌ إلى جَرْسِ الكلمات التافه الذي لا رأسَ له ولا ذيل. لنفترض أن ماري رغبت في القيام بتلك الرحلة المجنونة؟ وأنا هنا لا أتحدث حتى عن وسيلة السفر غير المريحة التي تقترحها! لكن، الحمد لله إنها أعقل من أن تتوق إلى بلاد تقول عنها:

تحت القمر الصامت استلقت
حديقةٌ حمراءُ الزهور؛
واللوتس في شوقٍ وحبور
إلى أختٍ عما قريب قد وُعِدت؛
وبنفسجاتٌ نَمّامةٌ ضاحكة
تحدق في النجوم من وديانها؛

وكل وردةٍ تهمسُ لأختها
حكاياتٍ خياليةً عاطرة.

بالله عليك، قل لي ما الذي تنوي فعله مع ماري في تلك الحديقة تحت ضوء القمر؟ هل هذا سلوكٌ أخلاقي، هل هذا شيءٌ لائق، هل هذا شيءٌ محترم، يا شتيرن؟ هل تنوي أن تُلحق بي العار، مثل بوسَلِنك وواترمَن الذين ترفض أي شركة ذات سمعةٍ حميدةٍ أن تتعامل معهم، لأن ابنتهم هربت، ولأنهم يبيعون بسعر أقل؟ بمَ سأجيبهم إن سألوني في البورصة لماذا مكثت ابنتي كل تلك المدة في تلك الحديقة الحمراء؟ لا بد أنك تدرك أنه لن يصدقني أحدٌ إن قلت إنها كانت في زيارة لأزهار اللوتس التي كانت، كما تزعم أنت، تبحث عنها؟ وبالمثل، سيسخر مني كل شخصٍ عاقلٍ إن بلغ بي السخف مبلغًا يدفعني إلى إخبارهم: نعم، ماري في تلك الحديقة الحمراء هناك - بالمناسبة، لماذا حمراء وليست صفراء أو بنفسجية؟ - تصغي إلى زهرات البنفسج وهي تثرثر وتضحك، أو إلى الحكايات الخيالية التي تهمسها سِرًّا كل وردةٍ في أذن أختها. حتى لو كان هذا صحيحًا، فما هو نفعه لماري، ما دام كل شيء يُهمَس همسًا لا تستطيع أن تلتقط منه كلمةً واحدةً؟ لكن كل هذه أكاذيب، أكاذيب سخيفة! وهي ليست أكاذيب جميلة ... ما عليك إلا أن تأخذ قلم رصاص وترسم وردةً ولها أذن، وانظر كيف سيكون شكلها! وماذا يعني أن تلك الحكايات الخيالية عاطرة جدًّا؟ هل تريدني أن أقول لك بلغة صريحةٍ لا مواربةَ فيها؟ هذا يعني أن حكاياتك الخيالية البلهاء فيها شيءٌ مريب ... هذا ما تعنيه!

تقترب لتُصغي متقافزةً
غِزلانٌ تقية ذكية،
وفي البعيد للأبد

يتردد للنهر المقدس ذاك الصدى ...
وهناك، ونحن نرتمي بتُؤَدةٍ
تحت نخلةٍ تحمينا
ونرشف ملذات الراحة والهوى
نتلقى بلسم الحلم الهنيء.

ألا تستطيع أن تذهب إلى نادي آرتِس - أنت تعلم أنني عضو فيه - إن كان لا بد أن ترى تلك الحيوانات الغريبة؟ هل لا بد من تلك الغزلان على نهر الغانج - حيث إنه ليس من السهل إطلاقًا مشاهدتها في البرية كمشاهدتها في قفصٍ أنيقٍ من الحديد المطلي بالقطران؟ ولماذا تنعت تلك الحيوانات بالتقى والذكاء؟ «ذكية،» لا بأس - فهي على الأقل لا تكتب الشعر - لكن «تقية؟» ماذا يعني ذلك؟ أليس هذا استعمالًا خاطئًا لكلمةٍ مقدسةٍ لا تقال إلا عن أهل الإيمان الصحيح؟ ثم، ما قصة ذلك «النهر المقدس؟» هل يحق لك أن تقول لماري أشياء تجعلها وثنية؟ هل يحق لك أن تزعزع إيمانها بأنه لا يوجد ماء مقدس إلا ماء المعمودية، ولا نهر مقدس إلا نهر الأردن؟ أليس في هذا ضعضعةٌ لأسس الأخلاق والفضيلة والدين والمسيحية والاحترام؟

أرجوك، يا شتيرن، أن تعيد النظر في كل هذا! والِدُك شركةٌ ذات سمعة طيبة، وأنا واثقٌ أنه سيستحسن مناشدتي لطبيعتك الخيرة بهذه الطريقة، وأنه يفضل أن يتعامل مع رجل يدافع عن الفضيلة والدين. أجل، إن المبادئ مقدسة عندي، ولا أتردد في التصريح بما يدور في بالي. لذلك لا داعي لإخفاء ما قلتُه لك، وحبّذا لو كتبتَ إلى أبيك لتخبره أنك تعيش هنا في كنف أسرة مستقيمة محترمة، وأن هذه هي طريقتي في تبيان الطريق القويم لك. وما عليك إلا أن تسأل نفسك عن مصيرك لو وقعتَ في أيدي بوسَلِنك وواترمَن! وهناك أيضًا كنت

ستُلقي مثل هذه الأشعار، لكن لن يناشدَ أحدٌ طبيعتك الخيرة لأنهم نصّابون. ولا بأس إن كتبت لأبيك عن هذا الأمر أيضًا، لأني لا أخشى في المبادئ لومةَ لائم. هناك ستذهب الفتيات معك إلى نهر الغانج، وربما تكون الآن مستلقيًا تحت تلك الشجرة على العشب الرطب، بينما الآن، لأنني حذّرتك هذا التحذير الأبوي، بإمكانك أن تبقى معنا في بيت لائق. اكتب كل هذا لأبيك، وقل له إنك راضٍ جدًّا لأنك أتيتَ إلينا، وأنني أعتني بك خيرَ عنايةٍ، وأن ابنة بوسَلِنك وواترمَن قد هربت، وبَلِّغه تحياتي الحارّة، وأخبره أنني سأخفض العمولة بنسبة 1/16 أخرى مما يطلبون، لأنني لا أطيق مخفضي الأسعار هؤلاء، الذين يخطفون اللقمة من فمِ منافسٍ، من خلال تقديم شروط أفضل.

وأرجوكَ، يا شتيرن، حين تقرأ في بيت آل روزماير أن تنتقي شيئًا أكثر جدارةً! في رزمة شالمان رأيتُ أرقامًا عن إنتاج القهوة خلال العشرين سنة الماضية من كل المناطق في جاوا. حبَّذا لو حدثتنا عن ذلك، من باب التغيير. وكُفَّ عن الفتيات، وعنا نحن البقية، وارحمنا من نعتك إيانا بأكلة لحوم البشر الذين ابتلعوا شيئًا منك ... هذا غير لائق، يا بُنيَّ العزيز. خذها من رجلٍ يعرف العالم! لقد خدمتُ والدك قبل أن يولَد - أقصد شركته ... لا، أقصد شركتنا: لاست وشريكه التي كان اسمها لاست وماير، ولكن آل ماير خرجوا منها منذ زمن بعيد. لذلك عليك أن تعي أنني لا أقصد لك إلا الخير. وأرجوك أن تحض فرتس على السلوك الحسن، ولا تعلِّمه الشعر، وإن سخر من المحاسب أو سوى ذلك، فتظاهر بأنك لا تراه. كن له قدوةً حسنةً، لأنك أكبر منه سِنًّا بكثير، وعلِّمه الرصانة والرزانة، لأن عليه أن يصبح سمسارًا.

المخلص لك، صديقك الأبوي بَتافوس دروخستوپل

شركة لاست وشريكه، سماسرة قهوة، 37 لاورير خراخت

[11]

لا أريد إلا أن أقول، بكلمات أبراهام بلانكارت، إنني أحسب هذا الفصل «أساسيًا» لأنه يعطي القارئ فكرةً أفضل عن هافلار، فهو بطل القصة، على ما يبدو، ولا مناص من هذا.

«تينا، ماذا تسمين هذا النوع من الكِتيمون؟[64] يا فتاتي العزيزة، لا تضيفي حمض الخُضار إلى الفاكهة أبدًا! أنت تضيفين الملح إلى الخيار، والملح إلى الأناناس، والملح إلى الليمون الهندي، والملح إلى كل شيء ينبت في الأرض. أما إضافة الخَلِّ إلى السمك واللحم ... ففي ذلك شيءٌ منه في ليبيخ ...»

استفهمت تينا ضاحكةً، «عزيزي ماكس، برأيك، كم مضى على وصولنا إلى هنا؟ ذلك الكِتيمون من السيدة سلوتيرِنـگ.»

فكان على هافلار أن يجاهد لكي يتذكر أنه لم يصل إلا البارحة وأن تينا، مهما حاولت، لا يمكنها أن تكون قد رتبت أي شيء في المطبخ أو المنزل. أما هو فقد أمضى مدةً طويلةً في رانْكَس بيتون! ألم يقضِ الليلة بطولها وهو يقرأ أرشيف المقاطعة، ألم يخطر بباله الشيء الكثير بخصوص ليباك، لكي يدرك على الفور أنه بالكاد مرت عليه أربع وعشرون ساعة هنا؟ تينا فهمت ذلك: وهي دائمًا تفهم زوجها!

قال لها، «لا شك، أنتِ على حقٍّ تمامًا. لكن على أية حال، عليك أن تقرئي شيئًا لليبيخ يومًا ما. فيربروخه، هل قرأت الكثير لليبيخ؟»

سأله فيربروخه، «من هو؟»

«إنه رجلٌ كتب الكثير عن تحليل الخيار الصغير. كما أنه اكتشف كيف يمكن أن تُحوِّل العشب إلى صوف ... أنت تفهم ذلك، أليس كذلك؟»

«لا، لا نفهم،» قال فيربروخه ودوكلاري في آنٍ معًا.

«حسنٌ، الأمر بلا شك معروفٌ منذ القِدم: أرسِلْ نعجةً إلى حقلٍ، وسترى ما يحصل! لكن ليبيخ درس الكيفية التي يحدث بها هذا الأمر. مع أن هناك آخرين يقولون إنه لا يعلم الكثير عنه. والآن يحاولون اكتشاف طرقٍ لإسقاط النعجة من العملية برمتها ... أوه، يا لهؤلاء العلماء! كان موليير يعلم عنهم كل شيء ... وأنا مُغرَم بموليير. إن شئتم، بإمكاننا أن نرتب لدورة من الدراسة المسائية، وستنضم إلينا تينا بعد أن ينام ماكس.»

رحب دوكلاري وفيربروخه بالفكرة. قال هافلار إنه لا يملك الكثير من الكتب، لكن من بين ما يملك لديه كتب لشيلَر وگوته وهاينَه وفونديل ولامارتين وتيير وساي ومالتوس وشالويا وآدم سمِث وشكسپير وبايرُن ...

قال فيربروخه إنه لا يقرأ الإنگليزية.

«ويحك! لقد تجاوزتَ الثلاثين من عمرك، أليس كذلك؟ ماذا كنت تفعل في حياتك؟ لا بد أن ذلك عسَّر عليك الأمور في پادَن حيث تُحكى الإنگليزية كثيرًا؟ هل كنت تعرف الآنسة ماتا آپي؟[65]

«لا، لا أتذكر هذا الاسم.»

«لم يكن ذلك اسمها، على أية حال. كنا نناديها بذلك الاسم سنة 43 لأن لها عينين متلألئتين. لا بد أنها تزوجت الآن ... كان هذا منذ زمن بعيد! لم أر شيئًا يشبهها قط ... بل رأيتُ في آرل ... عليك أن تذهب إلى هناك يومًا ما! كان ذلك أجمل شيءٍ وجدته في كل أسفاري. أعتقد أنه لا يوجد شيء يُريك الجَمالَ المجردَ بوضوحٍ مثل المرأة الجميلة ... صدقوني، ما عليكم إلا أن تذهبوا إلى آرل أو نيم ...»

لم يتمالك دوكلاري وفيربروخه، وحتى تينا أيضًا - عليَّ أن أعترف - أنفسهم من الضحك بصوتٍ عالٍ من فكرة الانتقال فورًا من أقصى طرف في غربي جاوا إلى آرل أو نيم في جنوبي فرنسا. أما هافلار، الذي كان يتخيل أنه يقف على البرج الذي بناه العرب المسلمون على السَّرَب المحيط بالميدان في آرل، فقد وجد صعوبةً في فهم سبب ضحكهم، لكنه تابع قائلًا:

«حسنٌ، أنتم تعلمون ما أقصد ... لو أُتيح لكم أن تكونوا قرب ذلك المكان في يوم من الأيام. أنا لم أشهد لذلك مثيلًا قط، لقد اعتدت على أن يخيب ظني من كل الأشياء المعطوبة كثيرًا. خذوا، على سبيل المثال، الشلالات التي لا يتوقف الناس عن الحديث أو الكتابة عنها. أنا شخصيًا لم أشعر إلا بقليلٍ أو لا شيءٍ عند توندانو، ماروس، شافهاوزِن، أو نياگـرا. عليك أن تراجع كُتيِّبك الإرشادي لكي تحصل على القدر المناسب من الإعجاب بالارتفاعات المقدرة بعدد كبير من الأقدام أو للأمتار المكعبة من الماء في الدقيقة، وإن كانت الأرقام كبيرةً، عليك أن تقول «أووه!» أنا لا أريد أبدًا أن أرى شلالاتٍ بعد اليوم - على الأقل، ليس إن كان في ذلك مشقة. تلك الأشياء لا تقول لي شيئًا! أما المباني فهي تتحدث بصوت أعلى نسبيًا، ولاسيما حين تكون صفحاتٍ من التاريخ. لكنها تستهوي مشاعرَ من نوع مختلف جدًا! هناك تستدعي الماضي، وتسترجع ظلال الأيام الخوالي. بعضها مرعبٌ جدًّا، ولذلك مهما كانت التجارب راقيةً أحيانًا، فإن المشاعر التي تستدعيها لا تُشبع دومًا إحساسك بالجمال ... إطلاقًا، على الأقل، ليس من دون مزج! ومن دون جاذبية التاريخ قد يكون هناك الكثير من الجمال في بعض المباني، لكن ما يفسده هو الدليل - سيان بين دليلٍ من ورق أو دليلٍ من لحمٍ ودمٍ - الذي يسرق منك انطباعاتك بصوته الرخيم، «هذه الكنيسةَ بناها أُسقفُ مونستر سنة 1423 ... يبلغ طول الأعمدة 63 قدمًا، وترتكز

على» ... لا أعرف على ماذا، ولا يهمني أيضًا. هذه الثرثرة مملة، لأن المرء يشعر أن عليه أن يرتقي بالضبط 63 قدمًا من الإعجاب لكي لا يُظَن أنه من الوَنْدال أو بائعٌ متجولٌ ... حسنٌ، يمكنك أن تقول، احتفظ بدليلك في جيبك إن كان مطبوعًا، واتركه في الخارج، أو اجعله يخرس في الحالة الأخرى. لكن في أغلب الأحيان يحتاج المرء بالفعل إلى المعلومات لكي يتوصل إلى حكم صحيح نسبيًا؛ وحتى لو استغنى المرء عن المعلومات، فهو، في كل الأحوال، سيبحث بلا طائل في أي مبنى عن أي شيءٍ يُشبع نَهَمَه إلى الجمال أكثر من لحظة قصيرة جدًّا، لأن المبنى لا يتحرك. أعتقد أن هذا ينطبق أيضًا على النحت والرسم. الطبيعة حركة. النمو، الجوع، التفكير، الشعور، كلها حركة ... والسُّكون هو الموت! بلا حركة - لا ألم، لا لذة، لا شعور! ما عليك إلا أن تحاول أن تجلس بلا حراكٍ، وستجد سريعًا أي انطباع غريب تتركه لدى الآخرين، بل حتى لدى نفسك. حين يرى المرء أجمل لوحةٍ حيةٍ فهو ما يلبث أن يتوق إلى العدد التالي، مهما كان الانطباع الأول باهرًا. وبما أن تعطشنا للجمال لا يرتوي بنظرةٍ واحدةٍ إلى شيءٍ جميلٍ، بل يتطلب عددًا من النظرات المتلاحقة التي نلقيها على الجمال المتحرك، فإننا نعاني من إحساس بالنقص وعدم الرضا، ونحن نتأمل تلك الفئة من الأعمال الفنية. ولهذا السبب أقول: إن المرأة الجميلة - ما لم تكن من نمط اللوحة الزيتية التي لا تتحرك بالفعل - تقترب من المثل الأعلى للإلهي المقدس. بإمكانكم أن تروا، إلى حدٍّ ما، عِظَم الحاجة للحركة التي أعنيها حين تقف راقصةٌ، حتى لو كانت [*فاني*] إلسْلَر أو [*ماري*] تاگـليوني، على رجلها اليسرى بعد الرقص وتبتسم للجمهور.»

قال فيربروخه، «هذا لا يعني شيئًا لأنه قبيحٌ إلى أبعد الحدود.»

«أتفق معك. لكنها هي تفعل هذا ظنًّا منها أنه شيءٌ جميلٌ وأنه تتويجٌ لكل

ما سبقه، وكل ما سبقه قد يكون فيه جمالٌ كثير. إنها تقدمه بمثابة «المغزى» من القصيدة الساخرة، بمثابة الدعوة «إلى السلاح» في نشيد المارسييز الذي غنَّته بقدميها، بمثابة همسات أشجار الصفصاف على قبر الحبيب التي صورتها للتو في رقصها. والدليل على أن المشاهدين، الذين يقوم ذوقهم عادةً على العادة والتقليد (مثلنا جميعًا، تقريبًا)، يحسبون أن تلك اللحظة هي الأكثر إثارةً وإدهاشًا هو أنهم لا يصفقون إلا حينها، كأنهم يريدون أن يقولوا، «ما سبق كان بالفعل جميلًا جدًّا، أما الآن فلم يعد بإمكاني أن أكبح إعجابي!» أنت تعتقد أن تلك الوقفة الأخيرة قبيحة إلى أبعد الحدود. هذا هو رأيي أيضًا. لكن لماذا تظن ذلك؟ أنا أقول لك ... لأن الحركة توقفت، وبذلك توقفت القصة التي قصَّتها الراقصة! صدقني، السكون هو الموت!»

قال دوكلاري معترضًا، «ولكنك أنت ترفض أن تعترف أن في الشلالات تعبيرًا عن الجمال. والشلالات تتحرك، أليس كذلك؟»

«نعم، صحيح ... لكنها تحكي قصة! هي تتحرك، لكنها لا تبتعد من المكان. إنها تتحرك مثل الحصان الهزّاز، بل حتى من دون حركة الذهاب والإياب. إنها تصدر أصواتًا، لكنها لا تتكلم. إنها تصرخ: خِرررر .... خِرررر .... خِرررر .... ولا شيء سوى ذلك. قل أنت خِرررر .... خِرررر .... مدة ستة آلاف سنة أو أكثر، وانظر كم من الناس يحسبون ذلك مُسَلِّيًا.»

قال دوكلاري، «لن أغامر. لكني ما زلتُ غيرَ مقتنع بأن الحركة التي تطالب بها ضرورية جدًّا. سأجاريك في مسألة الشلالات، لكني أعتقد أن بإمكان اللوحة الجيدة أن تعبر عن الكثير؟»

«بلا شك، لكن مؤقتًا فقط. سأحاول أن أشرح ما أعنيه بمثالٍ. اليوم هو الثامن عشر من شباط ...»

قال فيربروخه، «لا، لا، غير صحيح. ما زلنا في شهر كانون الثاني ...»

«لا، لا، اليوم هو الثامن عشر من شباط، 1587، وأنت محبوسٌ في قلعة فوذَرِنـگـهاي ...»

قال دوكلاري وهو لا يصدِّق أذنيه، «أنا؟»

«نعم، أنت. أنت مصابٌ بالضجر، وتبحث عن التسلية. وهناك فتحة في الجدار، وتريد أن تنظر من خلالها، لكنها عالية لا تمكِّنك من ذلك. تضع منضدتك تحتها، وعلى هذه تضع كرسيًا ليس له إلا ثلاثة أرجل، وإحدى هذه الأرجل متهالكة إلى حدٍّ ما. كنت قد رأيت ذات يوم بهلوانًا في مهرجانٍ يضع سبعةَ كراسيّ بعضها فوق بعض، ثم وقف عليها هو بنفسه، على رأسه. الغرور والملل يدفعانك للقيام بشيء مشابه. تصعد ذلك الكرسي وأنت تتمايل ... تُحَقِّق هدفَك ... تلقي نظرةً من خلال الفتحة وتصيح، 'يا إلهي!' ثم تسقط! والآن، هل لك أن تخبرني لماذا قلت 'يا إلهي!' ولماذا سقطت؟»

قال فيربروخه بلهجة وعظية، «أظن لأن رجل الكرسي الثالثة قد انكسرت.»

«نعم، لقد انكسرت بلا شك، ولكن ليس هذا هو سبب سقوطك. الرِّجْل انكسرت لأنك سقطت. كان بإمكانك أن تصمد سنةً كاملةً على ذلك الكرسي أمام أيِّ فتحةٍ أخرى، لكن الآن كان عليك أن تسقط، حتى لو كان للكرسي ثلاث عشرة رِجلًا، بل حتى لو كنت تقف على الأرض!»

قال دوكلاري، «أنا أستسلم. فأنا أرى أنك قد عزمتَ على إسقاطي بأي ثمن. لا بأس، إذن ... أنا الآن منبطحٌ على الأرض ... ولكني لا أستطيع إطلاقًا أن أقول لك السبب!»

«حسن، إن الأمر في الحقيقة في غاية البساطة! لقد رأيتَ فجأةً امرأةً لابسةً السواد، وراكعةً أمام كتلةٍ من خشب. كانت تحني رأسها، وكانت رقبتُها في

وسط ذلك المخمل الأسود تلمع كالفضة. وكان هناك رجلٌ يقف حاملًا سيفًا ضخمًا، وكان يُشهِره عاليًا، وكانت عينه تُحدِّق في تلك الرقبة البيضاء، وفي ذهنه يقيس المنحنى الذي يجب على سيفه أن يرسمه لكي ... يَغْمِدَه هناك ... هناك بين تلك الفقرات بدقةٍ وقوةٍ ... ثم سقطتَ حينها، يا دوكلاري! لقد سقطتَ لأنك رأيت كل ذلك، ولهذا السبب صرخت 'يا إلهي!' وبالتأكيد ليس لأنه لم تكن لكرسيِّك إلا ثلاث أرجل. وبعد مدةٍ طويلةٍ من خروجك من فوذَرنـگـهاي - بمساعٍ حميدةٍ من ابن عمك، على ما أظن، أو لأن الناس سئموا من إطعامك وإيوائك مجانًا مثل طائر كناري، من غير أن يكونوا ملزَمين بذلك - بعد ذلك بمدةٍ طويلةٍ، وإلى يومنا هذا، ما زلت تحلم أحلام يقظة عن تلك المرأة، بل تجفِل في نومك، وتسقط على أريكتك بكامل ثقلك من جديد، لأنك تحاول أن تُمْسِك يد السيّاف ... أليس كذلك؟»

«أنا مستعدٌ لتصديق هذا، لكن لا يمكنني أن أكون متأكدًا بشكل مطلق، لأنني لم أنظر قط من فتحةٍ في جدارٍ في فوذَرنـگـهاي .»

«لا بأس، لا بأس. ولا أنا. ولكني الآن آخذ لوحةً عن إعدام ماري، ملكة اسكوتلندا. لنفترض أن الصورة كانت بالغةً حدَّ الكمال. فها هي تتدلى، في إطار مُذَهَّب، من حبلٍ أحمرَ إن شئت ... أوه، أنا أعرف ما ستقوله! لا، لا، أنت لا ترى الإطار، بل لقد نسيتَ أنك تخليتَ عن عصاك التي تعينك على المشي عند مدخل صالة الصور ... أنت تنسى اسمك وطفلك وقبعتك العسكرية من أحدث طراز، تنسى كل شيءٍ حين ترى، لا مجرد صورةٍ، بل ماري، ملكة اسكوتلندا، بلحمها ودمها، تمامًا كما كانت في فوذَرنـگـهاي . يقف السيّاف هناك تمامًا كما وقف في الواقع، بل إني سأتمادى إلى حدِّ قول إنك قذفتَ ذراعَك لصدِّ الضربة! بل سأقول إنكَ هتفت قائلًا، 'دع تلك المرأة تَعِش، فلعلَّها تابت

وأصلحت!' أنت ترى أنني أُنصفك فيما يتعلق بتنفيذ الصورة ...»

«أجل، لكن ثم ماذا؟ أليس الانطباعُ مدهشًا كانطباعي يومَ شهدتُ الأمرَ الفعلي في فوذَرنـگـهاي ؟»

«لا، بالتأكيد ليس كذلك، وما هذا إلا لأنك هذه المرة لم تصعد على كرسيٍّ له ثلاثُ أرجل. خذ كرسيًّا آخر - وبهذه المناسبة ليكن ذا أربع أرجل، ومُنَجَّدًا تنجيدًا متقنًا - واجلس أمام الصورة، لكي تستمتع بها طويلًا حتى تشبع - لا تستغرب، فنحن نستمتع بمنظر الفظائع - فما هو الانطباع الذي ستتركه فيك، برأيك؟»

«حسنٌ، الرعب، الخوف، الشفقة، العطف ... تمامًا كشعوري حين نظرتُ من خلال تلك الفتحة في الجدار. لقد افترضنا أن اللوحة متقَنة، لذلك يجب أن تترك فيَّ ذات الانطباع الذي يتركه الفعل ذاته.»

«أوه، لا، هذا غير صحيح! خلال دقيقتين ستشعر بألمٍ في ذراعك اليمنى، من باب التعاطف مع السيّاف الذي عليه أن يحمل تلك الكُتلة الفولاذية الثقيلة كل هذه المدة من غير حراك ...»

«أنا أتعاطف مع السياف؟»

«نعم، من باب الإشفاق والعطف على أخيك في البشرية، كما تعلم! وأيضًا مع المرأة التي عليها أن تظل راكعةً أمام تلك الكتلة الخشبية كل هذه المدة في وضعية غير مريحة، وربما تكون في مزاج غير مريح، أيضًا. ما زلت تتأسَّف عليها، لكن ليس لأنها ستُعدَم، بل لأنها تُتْرَك تنتظر كل هذه المدة قبل أن يُقطَع رأسها، وفي النهاية - هذا إن كنت ما زلت تريد أن تتدخل - إن أردتَ أن تقول شيئًا فلن يكون أكثر من، 'أستحلفُك بالله، يا رجل، أن تضرب عنقها وتنتهي من الأمر، فالمرأة تنتظر!' ولو قُيِّض لك أن ترى تلك الصورة مراتٍ ومراتٍ،

حتى انطباعك الأول سيكون، ’ألم ينتهِ هذا الأمر بعد؟ هل ما زال هو واقفًا هناك، وهي ما زالت راكعةً هناك؟‘»

سأله فيربروخه، «لكن ما نوع الحركة الموجودة في جمال النساء في آرل، إذن؟»

«أوه، ذاك أمرٌ مختلفٌ تمامًا! ففي قسماتهن يتجسد تاريخٌ كاملٌ. تزدهر قرطاجة من جديد وتبني سفنًا على جباههن ... أَنصِتْ إلى قَسَم هانيبعل ضد روما ... إنهن يَجْدِلن الأوتار للأقواس هناك ... وهنا تحترق المدينة ...»

قالت له تينا مُماحِكةً، «ماكس، ماكس، أعتقد أنك بالفعل قد تركتَ قلبَك في آرل.»

«نعم، مؤقتًا ... ولكني استعدتُه، كما ستسمعين. ما عليكم إلا أن تتخيلوا ... أنا لا أقول: هناك رأيتُ امرأةً جميلةً مثل هذه أو تلك. لا، هناك كلهن كن جميلات، لذلك لم يكن من الممكن أن تقع في الغرام مرةً إلى الأبد، لأن المرأة التي تليها مباشرةً تنزع التي سبقتها من فكرك، وبصراحة فكرتُ في الوقت ذاته بكاليـگـولا أو تيبيريوس - مَن الذي يروون عنه القصص هذه الأيام؟ - الذي تمنى لو أن للجنس البشري برمته رأسًا واحدًا فقط، لأنه بهذه الطريقة لم أستطع إلا أن أتمنى أن يكون لنساء آرل ...»

«رأسٌ واحدٌ فقط؟»

«نعم ...»

«ليُقطَع؟»

«حقًا لا! بل كنت سأقول ... لأقبِّلَه على جبينه، لكن هذا أيضًا ليس هو ما أردته! لا، بل لأحدِّقَ فيه، لأحلم به ... ولأكون جديرًا به!»

لا شك أن دوكلاري وفيربروخه وجدا هذا الاستنتاج، كسابقه، غريبًا جدًّا. لكن ماكس لم يلحظ استغرابهم، فتابع قائلًا:

«ولأن تلك القسمات كانت نبيلةً جدًّا شعرتُ بشيء يشبه العار لأنني لم أكن إلا بشرًا، وليس شرارةً أو شُعاعًا - لا، كلا هذان مادة - بل فكرة! لكن فجأةً يأتي أخٌ أو أبٌ ويجلس بجانب أولئك النسوة، ... ثم رأيتُ إحداهن، والعياذُ بالله، تَتَمَخَّط!»

قالت تينا بنبرة حزنٍ، «لقد كنت أعلم أنك ستشوِّه الصورة من جديد.»

«وهل هذا ذنبي أنا؟ ليتها ماتت! هل يحق لامرأةٍ كهذه أن تُدَنِّس نفسها؟»

قال فيربروخه، «لكن يا سيد هافلار، هَبْ أنها كانت مصابةً بالزكام!»

«حسنٌ، مَن لها مثل ذلك الأنف يجب ألا تُصابَ بالزكام!»

«صحيح، لكن ...»

في تلك اللحظة بالذات، شاء الحظ العاثر أن تشعر تينا بالحاجة إلى العطاس ... وقبل أن تتمكن من كبح ذلك، عطست، فَسالَ مُخاطُها!

فقالت له متوسلةً، وهي تكبح ضحكتها، «ماكس، عزيزي ماكس، أرجوك لا تغضب مني!»

لم يُجِبها. ومهما بدا أو كان الأمر سخيفًا، إلا أنه غضب! لكن المستغرَب أن تينا سُرَّت لأنه غضب، ولأنه توقع منها أكثر مما توقع من نساء آرل الفوكيّات،[66] حتى لو لم يكن لديها ما يستوجب الفخر بأنفها.

إن كان دوكلاري ما زال يظن أن مساعد المقيم الجديد «مخبول» فلا يُلام إن شعر أن رأيه قد تأكد حين لاحظ الانزعاج المؤقت الذي ارتسم على مُحَيّا هافلار بعد أن تمخطت تينا ولأنها تمخطت. لكن الأول كان قد عاد من قرطاج، وها هو الآن قد قرأ على مُحَيّا ضيفيه - بالسرعة التي يستطيع أن يقرأ بها حين لا يكون باله بعيدًا جدًّا - أنه يجول في خاطرهما الافتراضان التاليان:

1) مجنونٌ مَن لا يرغب في رؤية زوجته تتمخط.

2) مَن يعتقد أن الأنف الجميل يجب ألا يتمخط فهو مخطئٌ في تطبيق هذا الاعتقاد على السيدة هافلار التي يشبه أنفها البطاطس إلى حدٍّ ما.

ترك هافلار الافتراض الأول بلا منازعة، لكن ... الثاني!

«أوه! سأشرح لكما،» هتف قائلًا، كأن عليه أن يجيب، مع أن ضيفيه لم يُصرحا بافتراضيهما، أدبًا. «تينا ...»

قالت تينا مستنكرةً، «عزيزي ماكس!»

وكان هذا معناه، «لوجه الله، لا تخبر هذين السيدين لماذا تحسب أنني ينبغي أن أكون فوق الزكام!»

ويبدو أن هافلار فهم مقصد تينا، إذ قال:

«لا بأس، يا عزيزتي! لكن، أيها السيدان، هل تعلمان أن المرء في غالب الأحيان يخطئ في منازعة بعض الناسِ في حقوقهم في العيوب الجسدية؟»

أنا متأكدٌ أن الضيفين لم يسمعا قطُّ بهذه الحقوق.

تابع قائلًا، «كنت أعرف فتاةً في سومطرة، وهي ابنة أحد الداتو.[67] أنا الآن أعتقد أنه لم يكن لها حق في هذه العيوب. ومع ذلك رأيتها تسقط في الماء حين غرق المركب ... مثل أي شخصٍ آخر تمامًا. وكان عليَّ، أنا البشر الفاني، أن أُنقذها إلى بر الأمان.»

«وهل كان ينبغي لها أن تطير مثل نورس بحري، إذن؟»

«بلا شك، أو ... لا، ما كان ينبغي أن يكون لها جسدٌ إطلاقًا. هل أخبركم كيف التقيتها؟ كان ذلك سنة 42. كنت المراقب في ناتال[68] ... هل ذهبت إلى هناك، يا فيربروخه؟»

«حسنٌ، إذن أنت تعلم أنهم يزرعون الفلفل هناك. تقع مزارع الفلفل على الساحل عند تالوه بالِه، شمالَ مدينة ناتال. وكان عليَّ أن أقوم بالتفتيش عليها، وبما أنني لا أعرف شيئًا عن الفلفل أخذت معي في القارب واحدًا من الداتو، وكان أعلم مني بهذا الأمر. وجاءت ابنته معنا، وكانت طفلةً في الثالثة عشرة من عمرها. كنا نُبحر بمحاذاة الشاطئ، وقد أصابنا الملل ...»

«وتحطَّم قاربكم حينها؟»

«لا، لقد كان الطقس جميلًا، جميلًا جدًّا. تحطم القارب بعد ذلك بوقت طويل؛ وإلا لَمَا شعرتُ بالملل. على أية حال، أبحرنا بمحاذاة الساحل، وكان الجو خانقًا من شدة الحرارة. والقارب لا مجال فيه للتسلية، وعلاوةً على ذلك، كنت في مزاجٍ كئيب، لعدة أسباب. أولًا، كنتُ عالقًا في علاقة غرامية تعيسة - وكان هذا حدثًا يوميًا لديَّ في تلك الأيام - ناهيك بكوني واقعًا في نقطة ميتةٍ بين نوبتين من الطموح. كنت قد نصَّبت نفسي ملكًا، وخُلِعت عن عرشي من جديد. كنت قد تسلقت برجًا، ثم وقعت على الأرض ... أوه، لا بأس، لن أقول لكم كيف حدث كل ذلك! هذا يكفي ... كنت أجلس في ذلك القارب بوجهٍ عبوسٍ ومزاجٍ سيئٍ. كنت نَكَديًّا، كما يقول الألمان. فمن بين أسبابٍ أخرى، كنت أعتقد أنها إهانة لكرامتي أن أُضطرَّ للتفتيش على مزارع الفلفل، وأنه كان يجب أن أُعيَّن حاكمًا لمجموعةٍ شمسية منذ زمن بعيد. كما أنه بدا لي أن وضعَ عقلٍ مثلي في قارب واحد، مع ذلك الداتو الغبي وطفلته نوعٌ من الاغتيال الأخلاقي.

«لكن عليَّ أن أُضيف أنني في ظروفٍ مختلفةٍ أعجبني الزعماء الملاويون، وانسجمت معهم تمام الانسجام. لديهم الكثير من الصفات التي تجعلني أفضِّلهم على وجهاء جاوا. نعم، يا فيربروخه، أنا أعلم أنك لا توافقني في هذا، ولا يوافقني إلا قلةٌ قليلةٌ من الناس ... لكننا لن نناقش هذا الأمر الآن.

«لو أنني قمت بتلك الرحلة في يوم آخر - أقصد، بتعقيداتٍ أقل في ذهني - فمن المرجح أنني كنت سأدخل على الفور في حوار مع الداتو، ولربما وجدت أن الأمر يستحق العناء. وربما لن ألبث طويلًا قبل أن أستدرج الطفلة إلى الحديث، وربما كنت سأستمتع بحديثها، لأن الأطفال عادةً شيءٌ بديع ... مع أنه يجب أن أعترف أنني في تلك الأيام كنت أنا مثل طفل لأهتم بالإبداع. الآن اختلفت الأمور. الآن أصبحت أرى في كل طفلةٍ في الثالثة عشرة من عمرها مخطوطةً لم يُشطب فيها إلا القليل أو لا شيء. والمرء يفاجئ المؤلفة وهي لم تشبَّ عن الطوق بعد، وهذا في غالب الأحيان جميلٌ جدًّا.

«كانت الطفلة تنظم خرزاتٍ في خيطٍ، وبدت منهمكةً تمامًا في ذلك. ثلاث خرزات حمراء، وواحدة سوداء ... ثلاث خرزات حمراء، وواحدة سوداء: كان ذلك جميلًا!

«كان اسمها سي أوپـي كيتيه. في سومطرة، هذا يعني شيئًا مثل 'الآنسة الصغيرة' ... نعم، يا فيربروخه، أنا أعلم أنك تعلم ذلك، ولكن دوكلاري كانت خدمته دومًا في جاوا. كان اسمها سي أوپـي كيتيه، لكني في ذهني سمَّيتُها 'المخلوقة المسكينة' أو شيئًا من هذا القبيل، لأنني في تقديري كنتُ أعلى منها شأنًا بكثيرٍ جدًا.

«جاء العصر ... واقترب المساء، ووُضِعت الخرزات جانبًا. كانت اليابسة تَنْسَلُّ مبتعدةً رويدًا رويدًا، وجبل أوفير يتضاءل خلفنا. إلى اليسار غربًا، فوق البحر المترامي الأطراف الذي لا يعرف الحدود إلى أن يبلغ مدغشقر وإفريقيا خلفها ... كانت الشمس التي تنشر أشعتها فوق الأمواج تغيب في زاوية راحت تنفرج أكثر فأكثر. كانت الشمس تبحث عن البرودة في البحر. ليت شعري كيف بدأ ذلك الشيء؟»

«أي شيء ... الشمس؟»

«لا، لا ... كنت أكتب الأشعار في تلك الأيام! كانت أشعارًا لذيذةً ... استمعوا:

أَتَعْجَبُ لماذا موجُ المحيط
الذي يغسل شطآن ناتال،
الرائقُ اللطيفُ في كل مكان سواها،
هنا لا يكفُّ عن الخبط والزئير،
وهو يُخْرِجُ كل ما لديه من طاقةٍ على الأذى؟

تسألُ وصبيٌّ صيادٌ فقير
يسمع طلبك في الحال،
فيلقي نظرةً من الأسى القاتم
نحو المحيط المترامي الحدود
إلى الغرب البعيد.

يجول بنظره القاتم الكئيب
محدِّقًا في الغرب
فلا يُريك، وأنت تتلفَّت حولك،
سوى ماء بلا نهاية أو حدود -
البحرِ ولا شيء سوى البحر!

ولهذا يُمشِّط المحيطُ
رمالَ ناتال بشراسةٍ:
أنّى نظرتَ لا شيء سوى البحر.

ماءٌ ماءٌ إلى ما لا نهاية
إلى ساحل مدغشقر.

وكم من أُضحيةٍ قُدِّمت
لاستعطاف المحيط!
وكم من صرخةٍ اختنقت في الزَّبَد
فما سمعتها في الوطن زوجةٌ أو قريبٌ أو ولد،
بل سُمعت عند بوابة السماء!

وكم من يدٍ امتدت لآخر مرةٍ،
مقذوفةٍ للأعلى نحو طِلْبَتها،
تتلمسُ، تحاول التعلق بشيء، تخبط الماء بيأسٍ،
تبحث عن عِمادٍ في مكان ما،
تهاجمها الأمواج المتوحشة!

ونسيتُ البقية ...

قال فيربروخه، «بإمكانك أن تُكملها إن كتبتَ إلى كريخِسمان الذي كان موظفًا لديك في ناتال. هي عنده.»

سأله ماكس، «وأين حصل عليها؟»

«ربما من سلة مهملاتك. لكنها قطعًا لديه. أليست البقية عن أسطورة الخطيئة الأولى التي أغرقت الجزيرة التي كانت في يوم من الأيام تحمي مَكلأ السفن في ناتال؟ قصة ييـڤـا والأخوين؟»

«نعم، هذا صحيح. الأسطورة ... لم تكن أسطورة. إنها أمثولة من تلفيقي،

لكنها ستصبح أسطورةً بعد بضعة قرون ... لو أن كريخِسمان طاف البلاد وهو يترنم بها. هكذا بدأت جميع الأساطير. يبـقـا نَفْسٌ، كما تعلمون، نَفْسٌ، روحٌ، أو شيءٌ من هذا القبيل. أنا جعلتها امرأةً، حواءَ الشقيةَ التي لا غنى عنها ...»

سألته تينا، «لكن يا ماكس، ماذا حدث لآنستنا الصغيرة وخرزاتها؟»

«وُضِعت الخرزات جانبًا. كانت الساعة السادسة، وهناك على خط الاستواء - تقع ناتال شمالَه بثمان دقائق، وكلما سلكتُ طريق البر إلى آيَر باني، جعلتُ حصاني يتخطاه، تقريبًا ... وإلا فإنه من الممكن بسهولة أن تصادفه، قسمًا بشرفي! على أية حال، الساعة السادسة على خط الاستواء إيذانٌ ببدء تأملات المساء. يبدو لي الآن أن المرء دائمًا يتحسن مزاجُه قليلًا في الليل، أو على الأقل يُمسي أقل أذىً مما كان في الصباح، وهذا طبيعي. في الصباح يضبط المرء نفسه - أنا أعلم أن هذا تعبير إنـگـليزي، لكن كيف لي أن أقوله بالهولندية؟ - المرء ... إما مساعد مأمور ... أو مراقب ... أو ... لا، هذا يكفي! يضبط مساعد المأمور نفسه ليقوم بواجبه بهمة ونشاط في ذلك اليوم ... يا إلهي، ويا له من واجب! وكيف يكون شكل ذلك القلب إذ ضُبط! المراقب - وأنا لا أقصدك، يا فيربروخه! - يفرك المراقب عينيه، ويدرك بقرفٍ أن عليه أن يقابل مساعد المقيم الجديد الذي سيتصنَّع مظهرًا مضحكًا من التعالي بسبب بضع سنين من الخدمة الإضافية، والذي سمع عنه الكثير من الأشياء الغريبة ... في سومطرة. أو يتوجب عليه في ذلك اليوم أن يقيس الحقول، فيتردد بين نزاهته - قد لا تعلم هذا الأمر، يا دوكلاري، لأنك جندي، لكن هناك بالفعل مراقبون نزيهون! - يقف مترددًا بين نزاهته وخشيته من أن يطلب منه الرّادِن ديمَن فلان الفلاني أن يعيد الحصان الأبيض الذي يُحْسِن الحسابَ جيدًا. أو يجب عليه في ذلك اليوم أن يرد ردًّا حاسمًا، بالنفي أو الإيجاب، على المذكِّرة رقم كذا وكذا. باختصار، حين

تستيقظ صباحًا ينهار العالم برمته على رأسك، وهذا أثقل من أن يتحمله أي رأس، مهما كان قويًا. لكن في الليل لديك مُهلة. لديك عشرُ ساعاتٍ كاملةٍ منذ ذلك الحين حتى اللحظة التي تواجه فيها سُترةَ زيِّك من جديد. عشر ساعات: ستٌّ وثلاثون ألف ثانية تكون فيها إنسانًا. وهذا مشهدٌ ورديٌّ بما يكفي لأي شخص. تلك هي اللحظة التي أتمنى أن أموت فيها، لكي أصل إلى هناك بلا ملامح رسمية. تلك هي اللحظة التي تجد فيها زوجتُك في وجهك من جديد شيئًا مما أسَرَها حين سمحت لك بأن تحتفظ بذلك المنديل الذي في زاويته حرفُ E مُتَوَّجٌ ...»

قالت تينا، «وحين لا تكون قد اكتسبت الحقَّ بعد لتُصاب بالزكام.»

«أوه، لا تُماحِكيني! كل ما أريد أن أقوله هو أن المرء في الليل يشعر أكثر gemütlich.[69]

تابع هافلار قائلًا، «وكما قلت، حين تلاشت الشمس رويدًا رويدًا، أصبحتُ إنسانًا أفضل. ويمكنكم أن تحسبوا أول دلالة على ذلك التحسن أنني قلت للآنسة الصغيرة:

«قريبًا سيصبح الجو ألطف.»

«فأجابت، 'نعم، يا توان!'»

«لكنني تواضعت بجلالتي أكثر من هذا مع تلك 'المخلوقة المسكينة' وبدأت أحادثها. وكان فضلي عليها أكبر لأنها لم يكن لديها من الإجابات إلا القليل. وجدتُ قبولًا لكل شيءٍ قلتُه ... وهو ما يصبح مملًا أيضًا، مهما كان المرءُ مغرورًا.

«سألتُها، 'هل تودين أن تأتي معنا في المرة القادمة إلى تالوه بالِه أيضًا؟'

«قالت، 'كما يقرر التوان كوماندور'.[70]

«قلت لها، 'لا، أنا أسألكِ أنتِ إن كنتِ ترغبين برحلةٍ أخرى كهذه؟'

«أجابت، 'إن شاء أبي'.

«أسألكم، أيها السادة، ألا يكفي هذا لِتُجَنَّ؟ على أية حال، لم أُجَن. غابت الشمس، وشعرت أنني gemütlich بما يكفي بحيث لا يستطيع كل هذا الغباء أن يُكَدِّرَ خاطري. أو بالأحرى، أعتقد أنني بدأت أستمتع بسماع صوتي - هناك قلةٌ من بيننا ليست مولعةً بالاستماع لأنفسها. لكن بعد تَمَنُّعي عن الحديث طوال اليوم، خطر لي أنني، بعد أن انحلّت عقدة لساني أخيرًا، أستحق شيئًا أفضل من إجابات سي أوپي كيتيه السخيفة تمامًا.

«خطر لي أن أحكي لها حكايةً خياليةً، ثم سأسمعها أنا في الوقت ذاته، وهي ليست بحاجة للردِّ عليَّ. أنتم تعلمون أنه لدى تفريغ السفن من حمولتها فإن أول ما يُنزَل هو آخر كرانجان[71] من السكر يُحمَّل، ونحن أيضًا تعوَّدنا أن يكون أول ما نُفرِّغه هو آخر فكرةٍ أو قصةٍ دخلت أذهاننا. وقُبيل ذلك، كنت قد قرأتُ قصةً لجيرونيموس بعنوان 'الحجّار الياباني' نشرها في «مجلة شرق الهند الهولندية» ... وبرأيي، جيرونيموس هذا كتب أشياء جميلة! هل قرأتم له «مزادٌ علني في بيوت الأموات؟» أو «قبور؟» أو أفضلها جميعًا، «پِداتي؟» سأعطيكم إياها.

«على أية حال، كنت قد قرأتُ قصة 'الحجّار الياباني' ... الآن تذكرتُ ما الذي أخذ أفكاري الشاردة إلى تلك القصيدة التي أجعلُ فيها الصبيَّ الصيادَ يتلفَّت 'بعينٍ قاتمةٍ' في اتجاهٍ واحدٍ حتى أُصيب بالحَوَل لا محالة ... شيءٌ سخيفٌ جدًّا! إنه تداعي الأفكار. كان مزاجي السيء في ذلك اليوم بسبب مخاطر مُكَلّا السفن في ناتال ... كما تعلم، يا فيربروخه، لا يُسمح لأي سفينةٍ حربيةٍ بدخوله، ولاسيما في شهر تموز ... كما تعلم، يا دوكلاري، تكون الرياح الموسمية الجنوبية الغربية على أشُدِّها في تموز، على عكس هنا. على أي حال، تكالبت مخاطر تلك المياه على طموحي المحبَط، وكان ذلك الطموح مرتبطًا، مرةً أخرى، بالقصيدة

عن بيـڤـا. كنت قد اقترحت على المقيم في ناتال مرارًا وتكرارًا إقامة كاسرٍ للأمواج أو، على الأقل، مرفأ صناعي عند مصب النهر، وذلك لجلب التجارة إلى مقاطعة ناتال التي تربط أراضي بَتَك ذات الأهمية الحيوية بالبحر. كان هناك مليون ونصف من سكان الداخل لا يعرفون ماذا يفعلون بمنتجاتهم، لأن مُكَلّا السفن في ناتال كان ذا سمعة سيئة - وكانوا على حق! على أية حال، لم تلق مقترحاتي أذنًا صاغية عند المقيم، أو على الأقل كان يزعم أن الحكومة لن توافق عليها، وأنتم تعلمون أن المقيمين لا يعرضون على الحكومة شيئًا إلا ما يحسبون أنه سيروق لها. وبناء مرفأ في ناتال كان مخالفًا لسياسة 'الباب المغلَق،' ولذلك بدلًا من تشجيع السفن على القدوم مُنِعت حتى السفن ذات الأشرعة المربعة من دخول المُكَلّا منعًا باتًّا - إلا في حالات الطوارئ. وإن حدث أن جاءت سفينة، بالرغم من ذلك - وهي في معظمها سفن أمريكية لصيد الحيتان أو سفن فرنسية محملة بالفلفل في الولايات المستقلة الصغيرة عند الرأس الشمالي لسومطرة - كنتُ دائمًا أجعل القبطان يكتب لي رسالةً يستأذن فيها بالتزود بماء الشرب. كان انزعاجي بسبب فشل جهودي لإنجاز شيء لمصلحة ناتال، أو بالأحرى غروري الجريح ... أَلَم يَشُقَّ عليَّ أن أكون بلا قيمةٍ إلى درجةٍ أنني لم أستطع أَن أحملهم على بناء مرفأ حيث أردتُه؟ على أية حال، كل هذا، بخصوص ترشُّحي لحكم مجموعةٍ شمسيةٍ، هو ما جعلني نَزِقًا في ذلك اليوم. وحين شفاني غروب الشمس - لأن النَّكَد مرض - كان ذلك المرض بعينه هو ما ذكّرني بقصة 'الحجار الياباني،' ولعلّي كنت أفكّر بتلك القصة بصوتٍ عالٍ، فدفعتُ نفسي للاعتقاد أنني كنت أرويها للطفلة من باب اللطف البحت، لكي أتناول ضمنًا آخرَ قطرةٍ من الدواء الذي شعرتُ أنني بحاجة إليه. لكنها، أقصد الطفلة، شَفَتْني - ليومٍ أو يومين، على أية حال - خيرًا من قصتي التي كانت على الشكل

التالي، على ما أظن:

«أوپي، كان هناك حجّار يقتطع الأحجار من الصخرة. كان عمله شاقًا جدًا، وكان يعمل كثيرًا، لكن أجره كان ضئيلًا، ولم يكن راضيًا.

«كان يتنهد لأن عمله شاق، فصاح، 'آه، ليتني كنت غنيًا لعلّي أستريح على بالِه بالِه[72] ذات كَلامبو[73] مصنوع من حرير!'

«فجاءه مَلَك من السماء فقال، 'ليكن لك ما تريد'.

«فأصبح غنيًا، واستراح بالفعل على بالِه بالِه، وكان الكَلامبو من حرير أحمر.

«ثم مر مَلِكُ البلاد، وكان الفرسان يسيرون أمام عربته. وكان وراء عربته فرسان أيضًا، وكانت الـپـايون الذهبية تُحَمل فوقَ رأس الملك.

«وحين رأى الرجلُ الغنيُّ هذا، تَكَدَّر لأنه ليس على رأسه پـايون ذهبية. ولم يكن راضيًا.

«تَنَهَّد وقال، 'ليتني كنتُ مِلِكًا!'

«فجاء مَلَكٌ من السماء وقال له، 'ليكن لك ما تريد'.

«فأصبح ملكًا. وسار أمام عربته فرسان كثيرون، وخلف عربته سار فرسانٌ أيضًا، وحُمِلَت فوق رأسه الـپـايون الذهبية.

«ثم سطعت الشمس بأشعتها الحارقة وأحرقتِ الأرضَ، فذَبُلَت أوراق العشب.

«فتذمَّر المَلِك لأن الشمس أحرقت وجهه، وكان لها سلطان أكبر من سلطانه. ولم يكن راضيًا.

«ثم تنهد وقال، 'ليتني كنتُ الشمس!'

«فجاء مَلَكٌ من السماء وقال له، 'ليكن لك ما تريد'.

«فصار الشمسَ، وأرسل أشعته للأعلى وللأسفل، وذات اليمين وذات

الشمال، وفي كل اتجاه.

«ثم أحرق أوراق العشب ووجوه الملوك من أهل الأرض.

«ثم حالت بينه وبين الأرض غيمةٌ، فعكست للشمس أشعتها.

«فغضب لأن قوته لقيت مقاومةً، وتذمَّر لأن تلك الغيمة لها سلطان أكبر من سلطانه. ولم يكن راضيًا.

«تمنى أن يكون غيمةً ذات سلطان.

«فجاء مَلَكٌ من السماء وقال له، 'ليكن لك ما تريد'.

«فصار غيمةً، فحال بين الشمس والأرض، وصد أشعة الشمس وصار العشب أخضر. وانهمر من الغيمة مطرٌ غزيرٌ، ففاضت الأنهار، وجرفت البانجِر القطعانَ معها.

«ودمرت مياهُه الحقول.

«ثم هطل على صخرةٍ أبت أن تستسلم. انقضَّ عليها بوابلٍ عظيمٍ من الماء، فلم تستسلم الصخرة.

«فغضب لأن الصخرة لم تستسلم، ولأن قوة سيوله ذهبت هباءً منثورًا. ولم يكن راضيًا.

«فصاح، 'لقد أُعطيتْ تلك الصخرة سلطانًا أعظم من سلطاني. ليتني كنتُ تلك الصخرة!'

«فجاء مَلَكٌ من السماء وقال له، 'ليكن لك ما تريد'.

«فصار صخرةً، ولم يتزحزح حين أشرقت الشمس ولا حين هطل المطر.

«ثم جاء رجل ومعه مِعْوَلٌ وإزْميلٌ ومطرقةٌ ثقيلةٌ، وراح يقتطع الأحجارَ من الصخرة.

«فقالت الصخرة، 'أنّى يكون لهذا الرجل سلطانٌ عليَّ ليقتطع الأحجار من

صدري؟' ولم يكن راضيًا.

«فصرخ، 'أنا أضعف من هذا ... ليتني كنت هذا الرجل!'

«فجاء مَلَكٌ من السماء وقال له، 'ليكن لك ما تريد'.

«فصار حجّارًا، وراح يقتطع الأحجار من الصخرة بالعمل الشاق، وصار يشقى شقاءً كثيرًا ليحصل على أجرٍ ضئيلٍ، فصار راضيًا.»

هتف دوكلاري، «حكاية ساحرة، لكن ما زال عليك أن تقدم لنا برهانًا على أن أوپـي الصغيرة كانت غير مثيرة للاهتمام.»

«لا، أنا لم أعدكم بهذا قط! كل ما هنالك هو أنني أردت أن أخبركم كيف تعرَّفتُ إليها. وحين انتهت قصتي، سألتها:

«'وأنتِ، يا أوپـي، ماذا ستختارين لو أن ملاكًا جاء من السماء ليسألك عن أكثر شيء تريدينه؟»'

«'كنت سأدعو [*الله*]، يا سيدي، أن يأخذني معه إلى السماء»'.

«أليس هذا غاية الروعة؟» سألت تينا، وهي تلتفت إلى ضيوفها الذين ربما ظنوا أن هذا غاية السخف ...

نهض هافلار ومسح جبينه.

[12]

قالت تينا، «عزيزي ماكس، حَلوانا قليلة جدًا. أليس بإمكانك ... كما تعلم ... المدام جوفران؟»[74]

«ـــ نروي قصصًا أخرى بدلًا من المُهَلَّبية؟ اللعنة، لقد بُحَّ صوتي. حان دور فيربروخه.»

قالت السيدة هافلار متوسلةً، «نعم، يا سيد فيربروخه! أرجوك، تولَّ الأمرَ عن ماكس هُنيهةً.»

فكر فيربروخه للحظةٍ ثم بدأ:

«في سالفِ الأزمان سرق رجلٌ ديكًا روميًّا ...»

هتف هافلار قائلًا، «آه، أيها الوغد! لقد سمعتَ ذلك في پـادَن! وكيف تسير بقية القصة؟»

«هذا كل ما في الأمر. من يعلم نهاية القصة؟»

«حسنُ ... أنا ... لقد أكلتُه، مع ... شخصٍ آخر. هل تعلم لماذا أُوقِفتُ عن العمل في پـادَن؟»

أجابه فيربروخه، «قالوا كان عندك نقصٌ في الخزينة في ناتال.»

«كان هذا صحيحًا وغيرَ صحيحٍ في الآن ذاته. لأسباب عديدة، كنت مهمِلًا في حساباتي، وقد كانت بلا شك تستوجب الكثير من الانتقاد. ولكن هذا الشيء كان كثيرَ الحدوث في تلك الأيام. فَبُعيدَ الاستيلاء على باروس وتاپـوس وسِنْكِل، أصبحت الأوضاع في شمال سومطرة شديدةَ الفوضى، وكان كل شيءٍ

مضطربًا جدًّا إلى درجة أنه لا أحد يمكنه أن يلوم شابًّا يفضِّل أن يمتطي صهوةَ حصانه، على أن يعدَّ المال ويضبط الحسابات، وذلك لأنه لم يكن كل شيءٍ على ما يُرام، كما هو متوقَّع من محاسبٍ أمستردامي متفرغٍ تمامًا لعمله. كانت بلاد البَتَك في حالة غليان، وأنت تعلم، يا فيربروخه، أن كلَّ ما يحدث هناك يرتد دومًا على ناتال. كنت أنام بملابسي كل ليلةٍ، تحسُّبًا لأي طارئ، وكان هذا ضروريًا في أغلب الأحيان، أيضًا. ولاح الخطر من جديد - قبل وصولي اكتُشفت مؤامرةٌ لاغتيال سَلَفي وإثارةِ تمردٍ - حسنٌ، هناك شيءٌ جذابٌ في الخطر، ولاسيما حين تكون في الثانية والعشرين من عمرك فقط. وهذه الجاذبية تجعلك أحيانًا غيرَ صالحٍ للعمل المكتبي، أو للتمحيص الدقيق اللازم لإدارة الشؤون المالية إدارةً مناسبةً. كما كانت في ذهني كل أنواع الحماقات - »

«تراوْسا!»[75] نادت السيدة هافلار على أحد الخدم.

«ما الذي لا تحتاجينه؟»

«قلت لهم أن يُعِدّوا شيئًا آخر في المطبخ ... عِجَة، أو أي شيءٍ من هذا القبيل.»

«لقد فهمت! وهذا لم يعد ضروريًا حين أبدأ بالحديث عن حماقاتي؟ أنت فتاةٌ شقيةٌ، يا تينا! حسنٌ، أنا لا أُمانع، لكن هذين السيدين لهم رأيٌ في القضية، أيضًا. فيربروخه، ماذا تريد - حصتك من العجّة أم القصة؟»

قال فيربروخه، «هذا خيارٌ صعبٌ على رجلٍ مهذبٍ.»

وقال دوكلاري، «وأنا أيضًا أُفضِّل ألا أختارَ، لأنَّ المسألة تتعلق بالاختيار بين الزوج والزوجة، وهنا ... يجدر بالمرء ألا يضع إصبعه بين الخشب ولحائه.»

«سأساعدكم، أيها السادة، العجّة ...»

قال دوكلاري بلطفه المعهود، «سيدة هافلار، لا شك أن قيمة العجة ستكون بقَدْر ...»

«القصة؟ أوه، بلا شك، إن كانت تستحق أي قيمة! لكن هناك صعوبة ...»

قال فيربروخه، «أجزم أنه لا يوجد سُكَّر في البيت. أرجوكِ اطلبي أي شيء تحتاجينه من بيتي.»

«عندنا سكر من السيدة سلوتيرنـگ. لا، ليست هذه هي المشكلة. لو كانت العجّة على ما يرام، لما شَقَّ علينا أمرُ السُّكَّر، لكن ...»

«وهل سقطت في النار، إذن؟»

«يا ليت! لا، لا يمكن أن تسقط في النار، لقد ...»

قال هافلار، «عزيزتي تينا، ماذا جرى للعجة؟»

«المسألة محيِّرة، يا ماكس، مثل نسائك الآرليّات! ليس لديَّ عجة، وليس لديَّ أي شيء آخر!»

قال دوكلاري متنهدًا، وهو يتصنَّع اليأس، «إذن، لنستمع إلى القصة، كُرمى لله!»

صاحت تينا، «ولكن لدينا قهوة.»

قال هافلار، «رائع! سنشرب القهوة على الشرفة الأمامية، ودعينا ننادِ السيدة سلوتيرِنـگ وبناتها للانضمام إلينا.» وهنا خرجت الصُّحبةُ الصغيرة.

«أتوقع أنها ستعتذر، يا ماكس. فهي، كما تعلم، تفضل ألا تتناول وجباتها معنا، وبصراحة أنا لا ألومها!»

قال هافلار، «لا بد أنها سمعت أنني راوي قصص، ولا بد أن هذا أرعبها.»

«لا، يا ماكس، هذا لا يضيرها ... فهي لا تفهم الهولندية. لا، لقد أخبرتني أنها تريد أن تستمر في تدبير شؤون أسرتها بنفسها، وبإمكاني أن أفهم هذا. هل تتذكر كيف ترجمتَ الأحرف الأولى من اسمي ذات يومٍ: E. H. v. W؟»

«نعم، Eigen haard veel waard».[76]

«هذا هو السبب! إنها على حق! كما أنها تبدو خجولةً إلى حدٍّ ما. تخيل عدد الغرباء الذين يأتون إلى حوشها، والذين يطردهم الحُراس ...»

قال دوكلاري، «أريد إما القصة أو العجة.»

صاح فيربروخه، «وأنا كذلك. لن أقبل أي عذر. نحن نستحق مائدةً عامرةً، ولذلك أنا أطالب بحكاية الديك الرومي.»

قال هافلار، «لقد أعطيتُك ذلك سلفًا. لقد سرقتُ الطائرَ من الجنرال فاندام، وأكلتُه ... مع شخصٍ آخر.»

علّقت تينا بخبثٍ، «قبلَ أن ينتقل ذلك 'الشخص الآخر' إلى الرفيق الأعلى.»

صاح دوكلاري، «لا، هذا غِش! يجب أن نعلم لماذا سرقت الديك الرومي.»

«أوه، لأنني كنتُ جائعًا، وكان هذا خطأ الجنرال فاندام الذي أوقفني عن العمل.»

احتج فيربروخه قائلًا، «إن لم أعرف المزيد عن هذا الأمر، فسآتي بعجتي شخصيًا في المرة القادمة.»

«صدِّقني، ليس في الأمر أكثر من هذا. كانت لديه ديوكٌ روميةٌ كثيرة، وأنا كنتُ مُعْدَمًا. كانوا يسوقون تلك المخلوقات من أمام بابي ... فأخذتُ واحدًا وقلتُ للرجل الذي كان يظن أنه يرعاها، 'قُل للجنرال إن ماكس هافلار أخذ ديكًا لأنه يريد أن يأكل'.»

«وماذا عن تلك الأُرجوزة الساخرة؟»

«هل أخبرك فيربروخه عن ذلك؟»

«نعم.»

«لا علاقة لها بالديك الرومي. لقد كتبتُ تلك الأُرجوزة لأنه أوقف عددًا

كبيرًا من المسؤولين عن العمل. في پـادَن كان هناك سبعة أو ثمانية قد أوقفهم عن العمل بذرائع شتى. وكثيرٌ منهم، مثلي تمامًا، لم يستحق ذلك. حتى مساعد المقيم في پـادَن أُوقِف عن العمل، وكان ذلك، برأيي، لسببٍ مختلفٍ تمامًا عن السبب المذكور في الأمر. لا مانع لديَّ أن أخبركم هذا، مع أني لستُ واثقًا تمامًا أنني فهمتُ الأمور فهمًا جيدًا. فأنا أكتفي بترديد الحقيقة التي آمنتْ بها الكنيسة الصينية[77] في پـادَن، وما يمكن أن يكون بالفعل هو الحقيقة، نظرًا لشخصية الجنرال السيء السمعة.

«عليكم أن تعرفوا أنه تزوج زوجته ليكسب رهانًا، ومع الرهان برميلًا من النبيذ. لذلك كان من الطبيعي أن يخرج مساءً في غالب الأحيان ... بحثًا عن المتعة هنا وهناك. وفي إحدى المرات، في زقاقٍ قريبٍ من بيت اليتيمات، كان هناك موظفٌ بلا أجرٍ اسمه فالكِنار، ويُعْتَقَد أنه احترم تنكُّر الجنرال كثيرًا إلى درجة أنه ضربه ضربًا شديدًا كما لو كان أحد الهمج العاديين. وليس بعيدًا من هناك كانت تعيش فتاةٌ إنـكـليزيةٌ هي الآنسة س. راجت إشاعةٌ أن هذه الآنسة ولدت طفلًا ... اختفى. وحيث إن مساعد المقيم هو رئيس الشرطة، فقد كان ملزَمًا بالخوض في المسألة - وكانت هذه نيته أيضًا، ويبدو أنه قال شيئًا عن الأمر خلال لعبة شَدَّة في منزل الجنرال. لكن ماذا تظنون قد حصل؟ في اليومِ التالي تلقى أمرًا بالذهاب إلى مقاطعةٍ معينةٍ، وكان المراقب المسؤول فيها قد أُوقف عن العمل لأسبابٍ تمس النزاهة، للتحقيق في بعض المسائل ميدانيًا 'وتقديم تقريرٍ' عنها. لا شك أن مساعد المقيم قد فوجئ بأن توكَل إليه مهمةٌ لا تمتُّ إلى مقاطعته بأدنى صلة. لكن، إن شئنا الدقة، كان بإمكانه أن يرى المهمةَ دلالةً على تميزه، وحيث إنه كان على علاقةٍ طيبةٍ مع الجنرال فلم يكن لديه ما يدعو إلى الاشتباه بأن هذه المهمة عبارة عن فخ. لذلك قبلها وانطلق إلى ... أُفضِّل

أن أنسى إلى أين ... لتنفيذ ما أُمِر به. وقد عاد بعد حينٍ، وقدَّم تقريرًا لم يكن في غير مصلحة المراقب. لكن الجمهور - أي، كل أحد ولا أحد - كان قد اكتشف في هذه الأثناء أن المراقب قد أُوقِف عن عمله لتهيئة الفرصة لإزاحة مساعد المقيم من الطريق مؤقتًا، وذلك لمنع تحرياته المُزمَعة في اختفاء طفل الآنسة س، أو على الأقل لتأجيلها مدةً طويلةً يجعل استجلاءَ الأمرِ مسألةً صعبةً. وأكرر أنني لا أستطيع شخصيًا أن أجزم بحقيقة الأمر. لكن مما علمته مباشرةً من الجنرال فاندام لاحقًا، تبدو هذه الرواية معقولةً بالنسبة إليَّ. في پـادَن لم يوجد شخصٌ واحدٌ يبرئه من هذه الأفعال، بالنظر إلى الحضيض الذي انحدرت إليه سمعته الأخلاقية. كان معظم الناس لا يُقِرّون له إلا بفضيلةٍ واحدةٍ: الإقدام في مواجهة الخطر. حسنٌ، أنا رأيته في أوقات الخطر، ولو أنني اعتقدت على الأقل أنه رجلٌ شجاعٌ، لكان هذا كافيًا لمنعي من إخباركم هذه القصة الآن. صحيحٌ أنه كان في سومطرة مسؤولًا عن الكثير من 'المبارزات' لكن لو رأيتم الأمر من كثبٍ لَكُنتم ميالين إلى عدم تصديق حكاية شجاعته تلك ... وقد يبدو هذا الأمر غريبًا، لكنني أعتقد أن سمعته الحربية ناشئةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ من حب المغايرة المتأصل في كثيرٍ منا تقريبًا. فنحن نود أن نقول، 'صحيحٌ أن بطرس أو بولس كذا وكذا وكذا، ولكنه أيضًا كذا وكذا، والحقُ يُقال!' ولا يمكن للمرء أن يتيقَّن أبدًا من الثناء عليه إلا إذا كان فيه عيبٌ واضحٌ جدًا. أنت، يا فيربروخه، أنت تَسْكَر كل يوم ...»

«أنا؟» قال فيروبرخه الذي يُضرَب فيه المثل في اعتداله في الشرب.

«نعم، أنا أجعلُك تسكر الآن، كل يوم! أنت تنسى نفسك نسيانًا بعيدًا إلى درجة أن دوكلاري يتعثر بك في الشرفة في الأماسي. لن يعجبه ذلك، لكنه سيتذكر على الفور خصلةً فيك، مع أنه، والحق يُقال، لم يلاحظها فيك

في الماضي. وحين أدخل أنا في المشهد وأجدك أُفقيًا ... جدًّا، سيضع يده على ذراعي ويقول، 'أوه، صدِّقني، إنه فيما سوى ذلك أفْضلُ وأروع وأذكى شخصٍ في الدنيا!'»

قال دوكلاري، «أنا أقول هذا عن فيربروخه في كل الأحوال، حتى ولو كان عموديًا.»

«لكن ليس بهذه الحماسة أو الاقتناع! تخيل كم مرةٍ يسمع فيها المرء هذه العبارة، 'لو أن فُلانًا أحسنَ التصرف فقط، لَكان شخصًا محترمًا! ولكن ..'. ثم تتبع حكاية كيف أنه لا يُحسن التصرف، ولذلك فهو نكرة. أعتقد أنني أعرف سبب هذا. فالمرء دائمًا يتعلم الخصال الحميدة في الأموات أيضًا، تلك التي لم يرها فيهم حين كانوا على قيد الحياة. وهذا لأنهم لم يعودوا موجودين في طريق أحد. فجميع البشر يتنافسون تقريبًا. نود أن نقول للعالم إننا فوق الجميع، كليةً وفي كل شيء. لكن قولنا هذا ليس منافيًا لِلَّباقة فحسب، بل للمصلحة الذاتية أيضًا، لأن الناس ما يلبثون أن يحترسوا جدًّا إلى درجة أنهم لن يصدِّقوا كلمةً مما نقول، حتى لو كانت صحيحة. لكن كان لا بد من إيجاد طريقٍ التفافيٍّ، وهذا ما فعلناه. حين تقول أنت يا دوكلاري، 'الملازم سپاترداش جنديٌّ طيبٌ، جنديٌّ طيبٌ جدًّا، لا أستطيع أن أخبركم بما يكفي عن طيبة الجندي سپاترداش ... لكنه لا يجيد التنظير ..'. ألم تقل هذا، يا دوكلاري؟»

«لم ألتقِ في حياتي بملازمٍ اسمه سپاترداش!»

«لا بأس إذن، اخلقْهُ وقلْ ذلك عنه.»

«حسنٌ، لقد خلقتُه وقلتُ ذلك عنه.»

«إذن، هل تعلم ما قد قلته في الحقيقة؟ لقد قلت إنك أنت، دوكلاري، ممتاز في التنظير! وأنا لستُ أفضلَ منك قيد أنملة. صدِّقني، إننا نظلم الشخص السيء

جدًّا حين نغضب منه غضبًا شديدًا لأن 'السوء متأصلٌ في أفضلنا!' إن افترضنا أن الكمال يساوي الدرجة صفر والسوء يساوي مئة، فما أظلمَنا - نحن الذين نتأرجح بين ثمان وتسعين وتسع وتسعين - حين ننتقد رجلًا أحرز مئةً ودرجة! كما أنني أعتقد أن كثيرًا يفشلون في الوصول إلى الدرجة المئة فقط بسبب الافتقار إلى الخصال الحميدة - كالافتقار، على سبيل المثال، إلى الشجاعة كي يكونوا تمامًا ما هم عليه.»

«في أي درجة أنا، يا ماكس؟»

«أحتاج إلى عدسةٍ مكبرةٍ لحساب الكُسور، يا تينا.»

هتف فيربروخه قائلًا، «أنا أعترض. لا، يا سيدة هافلار، ليس على قُربِك من درجة الصفر! لا، بل هناك مسؤولون أُوقفوا عن العمل، وطفلٌ اختفى، وجنرالٌ مُتَّهَم ... أنا أطالب ببقية المسرحية!»

«تينا، كُرمى لله، في المرة القادمة تأكدي من وجود طعام في البيت! لا، يا فيربروخه، لن تحصل على بقية القصة قبل أن أنتهي من حديثي عن المغايرة. لقد قلتُ إن كل إنسان يرى في أخيه الإنسان منافسًا له. يجب ألا نظل ننتقد دائمًا - فهذا سيلفت الأنظار. لهذا نُثني على الخصلة الحميدة في الشخص الآخر إلى أن نبلغ بها عنان السماء لكي نُبرز مَثْلَبَةً معينةً من غير أن نُظهر عداوتنا. حين يأتيني شخص ويشتكي إليَّ لأنني قلت، 'ابنته جميلةٌ جدًّا، لكنه هو لِصٌّ!' أُجيبه، 'ولِمَ كل هذا الاحتجاج؟ لقد قلتُ إن ابنتك جميلة، أليس كذلك؟' وكما ترى فإنني أفوز في كل الأحوال! كلانا بَقّال: فأنا آخذ زبائنه منه، لأنهم لن يشتروا زبيبًا من سارقٍ ... وفي الوقت نفسه يقول الناس إنني شخصٌ طيبُ القلب لأنني أُثني على بنتِ منافسي.»

قال دوكلاري، «ولكن الأمور ليست بهذا السوء. أنت تبالغ قليلًا!»

«يبدو لك الأمر على هذا النحو فقط لأنني جعلتُ المقارنةَ موجزةً وجلفةً. علينا أن نضع شيئًا من القُطن الذهني حول عبارة 'إنه لص'. لكن الحكاية الرمزية تبقى صحيحةً في جوهرها. حين نضطر للاعتراف بأن شخصًا فيه خصالٌ تؤهّله للاعتبار والاحترام والتبجيل، فإنه يسرُّنا أن نكتشف إلى جانب تلك الخصال شيئًا يُعفينا، جزئيًا أو كليًّا، من تقديم الثناء المستحق. 'لشاعرٍ كهذا أرفع قبعتي ... لكنه يضرب زوجته!' فكما ترون، نحن نستخدم كدمات المرأة بكل سرورٍ لكي لا نرفع قبعاتنا لزوجها، بل في النهاية يسرُّنا أنه يضرب المخلوقة المسكينة ضربًا مبرحًا، مع أن هذا شيءٌ قبيحٌ عادةً. ما إن نضطر للاعتراف بأن شخصًا يمتلك فضائل تؤهله للتربُّع على عرش الإعجاب ... ما إن نعجز عن إنكار مؤهلاته من غير أن نُتَّهَم بالجهل أو البَلادة أو الغيرة، حتى نقول أخيرًا، 'لا بأس، نَصِّبوه!' لكن حتى ونحن نُنَصِّبه، وبينما هو نفسه لا يزال يظن أننا مسحورون بسمو مقامه، فإننا نعمل على عَقْد الأنشوطة في الحبل الذي سنسحبه به في أول فرصةٍ مواتيةٍ. وكلما كان الانقلاب أسرع بين أصحاب العروش، حظي أكبر عدد من الناس بساعةٍ من التربُّع على العرش في الوقت المناسب، وهذا صحيحٌ إلى درجةٍ أننا، بحكم العادة ولأغراض الممارسة - مثل صيّادٍ يطلق النار على غربانٍ لا ينوي التقاطها في كل الأحوال - نعشق أن نهدم حتى تلك النُّصُب التي لن نتمكن أبدًا من التربع عليها. يسعى كاپلمان،[78] الذي يعيش على الملفوف المخلل وقليلٍ من البيرة، إلى شيءٍ من التسامي حين يقول متذمرًا، 'الإسكندر لم يكن عظيمًا ... لقد كان مفرطًا'. مع أن كاپلمان ليس لديه أدنى فرصة لمنافسة الإسكندر في فتح العالم.

«أيًّا كان هذا الأمر، أنا واثقٌ أن كثيرًا من الناس ما كان لهم قط أن يكتشفوا شجاعة الجنرال فاندام لو لم يتخذوا من شجاعته ذريعةً لإتباعها باللازمة

المحتومة ‘ولكن أخلاقه!’ وما كان لكثيرٍ من الناس ممن يُعابون في أخلاقهم أن يعيبوا سوء أخلاقه هذا، لولا أنهم احتاجوا لهذا العيب لموازنة صيته في الشجاعة التي أقضَّت مضاجع بعضهم.

«ولكنه كان بحقٍ يمتلك خصلةً إلى درجة عالية جدًّا: قوة الإرادة. فأي شيءٍ ينوي القيام به، يجبُ أن يُقضى، وعادةً ما يُقضى. لكن - ألا ترون، ها هي ذي المغايرة في متناول يدي؟ - لكنه في اختيار وسائله كان بلا شك متحررًا ... قليلًا، وكما قال فان دير پـالم عن ناپـليون - وقد تجنّى عليه برأيي، ‘لم تردعه العوائق الأخلاقية!’ على أية حال، بالطبع، هكذا يصبح أسهل على المرء أن يصل إلى مراده مما لو تقيَّد بهذه الاعتبارات.

«وهكذا إذن ... أرسل مساعدُ المقيم في پـادَن تقريرًا مُحابيًا للمراقب الموقوف عن العمل والذي اكتسب توقيفُه مَسْحةً من الظلم. استمر القيل والقال في پـادَن: ظل الطفل المفقود حديثَ المدينة. شعر مساعد المقيم بأنه مدعوٌّ لتولي الأمر، لكن ... قبل أن يتمكن من كشف أي شيء تلقّى أمرًا من الجنرال فاندام، حاكم الساحل الغربي لسومطرة، يقضي بوقفه عن العمل بدعوى ‘عدم النزاهة في أداء واجبه’. لقد قيل إنه زيَّف حقيقة قضية ذلك المراقب من باب الصداقة أو التعاطف وبخلاف ما يعرفه.

«لم أقرأ وثائق القضية. لكنني أعلم أن مساعد المقيم لا تربطه بتاتًا أية صلة بالمراقب، وهذا أمرٌ يُستخلص طبعًا من كونه اختير بالذات للتحقيق في المسألة. كما أنني أعلم أيضًا أنه رجلٌ نزيهٌ، وهذا هو رأي الحكومة أيضًا كما ظهر من خلال إلغائها إيقافَه عن العملِ بعد إحالة القضية للتحقيق في مكانٍ آخر غير الساحل الغربي لسومطرة. كما أُعيد المراقب أيضًا إلى منصبه في نهاية المطاف من دون شائبةٍ على شخصه. وقد كان وقفُ هذين عن العمل هو ما ألهمني، لأن

أجمع تلك الأُرجوزة الساخرة التي وضعتُها على مائدة إفطار الجنرال بوساطة رجلٍ يعمل لديه وكان من قبلُ يعمل لدي:

أتانا ماشيًا آمِرُ التوقيف عن العمل،
ولولا أن ضميرَ حاكمِ عَصْرِنا المستذئبِ،
وهو الذي لا يرحم أحدًا من التوقيف،
قد أُوقِف عن العمل منذُ زمنٍ بعيدٍ،
لَخَصَّه أيضًا بشيءٍ من عنايته التوقيفية.

قال دوكلاري، «عليك أن تعذرني، يا سيد هافلار، لكني لا أظن أن تصرفك كان سليمًا.»

«ولا أنا ... لكن كان عليَّ أن أفعل شيئًا! ضع نفسك في مكاني: لم يكن لدي مالٌ، ولم أتلقَّ شيئًا، وكنت أخشى أن أموت من الجوع في أي يوم، وبالفعل كدت أموت. كانت علاقاتي في پادَن قليلةً أو معدومةً، وقد كتبتُ للجنرال، وأخبرته أنه سيكون هو المسؤول لو أنني متُّ من العِوَز، وأنني لن أقبل المساعدة من أيٍّ كان. كان هناك أناسٌ في الداخل سمعوا بظروفي ودَعَوْني للمجيء والمكوث عندهم، لكن الجنرال منع أن أُعطى جوازَ مرورٍ. كما مُنِعت من المغادرة إلى جاوا. في أي مكان آخر كان بإمكاني أن أتدبر الأمر، بل ربما كان بإمكاني أن أتدبَّر الأمر حتى في پادَن لولا خشية الناس من الجنرال المتجبِّر. لقد كان واضحًا بالفعل أنه يريدني أن أجوع. وهذا دام تسعةَ أشهر!»

«وكيف بقيتَ على قيد الحياة كل هذه المدة؟ أم أن الجنرال كانت عنده الكثير من الديوك الرومية؟»

«أجل، الكثير! لكن هذا لم ينفعني ... فأنت لا تستطيع أن تفعل هذا إلا

مرةً واحدةً، ألا تظن كذلك؟ ماذا فعلتُ كل هذه المدة؟ أوه ... كتبتُ أشعارًا ومسرحياتٍ ... وما إلى ذلك.»

«وهل كان بإمكانك أن تشتري أَرُزًّا بتلك الأشياء في پـادَن؟»

«لا، لكني لم أطلب هذا لقاءَ تلك الأشياء. وأفضِّل ... ألا أقول كيف عشتُ.»

ضغطت تينا على يده. فهي من كانت تعلم.

قال فيربروخه، «لقد قرأتُ بضعةَ أسطرٍ يُعتَقَد أنك كتبتَها في تلك الأيام على ظهر فاتورة.»

«أنا أعرف تلك الأسطر التي تقصدها. لقد وصفتْ حالتي. في تلك الأيام كانت هناك مجلة اسمها «الناسخ» وكنتُ مشتركًا فيها. كانت برعاية الحكومة - كان محررُها مسؤولًا في الأمانة العامة في بَتافيا - ولذلك كانت الاشتراكات تُسدَّد للخزينة. جاءتني فاتورةٌ بقيمة عشرين خُلْدنًا. كانت الأمور المالية من اختصاص مكتب الحاكم، ولذلك إذا لم تُدفَع الفاتورة، فلا بد من مرورها عبر ذلك المكتب لتُعاد إلى جاوا. لذلك انتهزتُ الفرصة لأسجل احتجاجي على فقري على ظهر الفاتورة:

عشرون فلورين ... يا لها من ثروة! وداعًا، أيها الأدب،
وداعًا لمجلتي «الناسخ»! قَدَري عاثرٌ جدًّا
وها أنا أموت من الجوع والبرد والعطش، ولا عزاءَ لي.
تلك القطع النقدية العشرون تكفيني طعامًا مدةَ شهرين!
لو كان عندي هذا المبلغ لَكُنْتُ أحسنَ نَعْلًا،
وطعامًا ومأوى، ولَكُنْتُ مثلَ إلهٍ ...
فأولُ شيء هو أن نحيا، حتى لو في تعاسةٍ:

فالجريمةُ مدعاةٌ للعار لا للفقر! [79]

«ولكن حين زرتُ محرر «الناسخ» لاحقًا في بَتافيا لأدفع العشرين خُلْدنًا، وجدتُ أنني لا أدينُ له بشيء. يبدو أن الجنرال شخصيًا دفع الدين عني لكي لا تُعاد الفاتورة المُنَمَّقة إلى بَتافيا!»

«لكن ماذا فعلَ بعد أن ... أخذتَ ذلك الديك؟ لا مجال لإنكار ذلك، ... كانت تلك سرقة! وبعد تلك الأُرجوزة الساخرة؟»

«عاقبني عقابًا مريعًا! كان بإمكانه أن يحاكمني بتهمة عدم احترام حاكم الساحل الغربي لسومطرة، وكان بالإمكان تفسير هذه التهمة في تلك الأيام، بشيءٍ من المبالغة، على أنها 'محاولةٌ لتقويض السلطة الهولندية وتحريضٌ على التمرد' أو 'سرقةٌ على قارعة طريق الملك'. لو فعل ذلك لأبدى أنه رجلٌ طيبُ القلبِ. لكنه عاقبني بطريقة أكثر نجاعةً ... وفظاعةً! لقد أمرَ راعيَ الديوكِ أن يغير مساره في المرة القادمة. أما بخصوص أُرجوزتي ... فقد فعل ما هو أسوأ! لم يقُل شيئًا، ولم يفعل شيئًا! انظروا ... لقد كان ذلك بمنتهى القسوة. لقد حرمني من حمل أدنى أثر لتاج الشهيد، لقد حرمني من إثارة الاهتمام من خلال الاضطهاد، أو التعاسة من فَرْطِ الذكاء. أوه، يا دوكلاري، ... أوه، يا فيربروخه ... كان ذلك يكفيني لأكفُر بالأراجيز والدِّيَكة الرومية كُفرًا لا رجعةَ عنه! فقليلٌ من التشجيع يُطفئ شُعلةَ العبقرية ... حتى آخرِ شرارةٍ! لقد تُبْتُ!»

[13]

سأل دوكلاري، «والآن، هل لنا أن نعرف السبب الحقيقي لإيقافك عن العمل؟»

«أوه، أجل، بكل سرور! بإمكاني أن أجزم بحقيقة كل ما أقوله عن هذا الأمر، وبإمكاني أن أبرهن على ذلك إلى حدٍّ ما، لذلك سترون من قصتي أنه كان لدي ما يوجب عدم تسفيه القيل والقال، في پادَن عن الطفل المفقود كليةً. ستجدون ذلك معقولًا جدًّا، بعد رؤية الدور الذي أداه جنرالنا الباسل في شؤوني الخاصة.

«كما قلتُ آنفًا، لقد كانت هناك بعض الأخطاء والثغرات في حساباتي المالية في ناتال. وأنتم تعلمون جيدًا أن زلَّةً كهذه ليست في مصلحة المرء: لا أحد اغتنى حتى الآن من خلال الإهمال. زعم رئيس فرع الحسابات في پادَن، الذي لم يكن صديقًا لي بمعنى الكلمة، أن عندي نقصًا بقيمة ألف خُلْدن. لكن ... ليكن بعلمكم أنه لم يلفت أحدٌ انتباهي لهذا حين كنت في ناتال.

«وفجأةً، تلقيتُ أمرَ نقلٍ إلى مرتفعات پادَن. وكما تعلم، يا فيربروخه، في سومطرة يُعَدُّ منصبٌ في مرتفعات پادَن أفضلَ وأمتعَ من منصبٍ في المقاطعة الشمالية. وقبل ذلك بوقت قصير، كان الحاكم قد زارني - ستسمعون في الحال لماذا وكيف! وخلال إقامته في مقاطعة ناتال، بل حتى في منزلي شخصيًا، حدثتْ أشياء تصرفتُ فيها بطريقة مناسبة ورجولية جدًّا برأيي. لذلك رأيت أن هذا المنصب علامة حُظْوَة، فغادرت ناتال إلى پادَن بمنتهى السعادة، سافرت على متن سفينة فرنسية اسمها 'باوباب مرسيليا،' وقد حمّلت حمولةً من الفلفل في

آچـيه ... وبالطبع كان 'ينقصها ماء الشرب' في ناتال.

«وصلتُ إلى پـادَن وأنا عازمٌ على المغادرة إلى الداخل فورًا. لكنني كنتُ ملزمًا، بحكم الواجب، بالسلام على الحاكم، وحاولت أن أفعل ذلك. لكنه أرسل إليَّ من يُبلغني أنه لا يستطيع أن يستقبلني، وأنه يتوجب عليَّ أن أُؤجِّل مغادرتي إلى منصبي الجديد حتى تصدر أوامر أخرى. وكما تعلمون، فوجئتُ جدًّا بهذا، وما زاد من عَجَبي هو أن مزاجه حين غادرني في ناتال، جعلني أظن أنه يحترمني جدًّا.

«كنت أعرف أناسًا قليلين في پـادَن، ولكنني سمعتُ من هؤلاء القلة - أو بالأحرى لاحظتُ من موقفهم - أن الجنرال كان منزعجًا جدًّا مني. أقول إنني لاحظتُ الأمرَ لأنه، في مكان بعيد مثل پـادَن في تلك الأيام، يمكنك أن تتخذ من رضا الناس عليك مقياسًا للحظوة التي وجدتَها في نظر الحاكم. شعرت بعاصفةٍ قيد الانفجار، لكني لم أكن أعرف من أي جهة ستهبُّ الريح. وحيث إنني كنت بحاجة إلى المال، كنت أطلب من هذا وذاك أن يعينني، وصُعِقْتُ تمامًا لما وجدتُ الرفضَ أنّى توجهتُ. في پـادَن، كما في غيرها من الأماكن في الهند الشرقية، كانت الاستدانةُ تُقابَل عادةً بشيء من السخاء وأريحية النفس. لو كنتَ في أي حال أخرى، لوجدتَ الناسَ يقدمِّون طواعيةً بضع مئات من الخولدنات، لمراقبٍ عابرِ سبيلٍ عَلِقَ في مكانٍ ما فجأةً. لكني حُرِمت من أي مساعدة. ضغطتُ على بعض ممن حدَّثتُهم ليذكروا أسباب هذا الحرمان، وأخيرًا علمتُ بالتدريج أنهم اكتشفوا أخطاءً وثغراتٍ في حساباتي في ناتال جعلتني محطَّ شُبْهةِ تلاعبٍ في الحسابات. لم يفاجئني وجود أخطاء في حساباتي البتة. بل ما كان سيفاجئني لو أنه لم توجَد أخطاء. لكنني استغربتُ أن الحاكم، الذي كان شاهدًا على مكافحتي الدائمة، وأنا بعيدٌ من مكتبي، لسخط الأهالي ومحاولاتهم الحثيثة للتمرد، والذي

أثنى عليَّ شخصيًّا وعلى ما سمّاه 'شجاعتي،' هو اليوم من يُصنِّف أخطائي في الحسابات تحت مسمى التحايل أو قلة الأمانة. لا شك أنه لا أحد يعلم خيرًا منه أنه في مثل هذه الأحوال، لا يمكن أن تكون المسألة إلا مسألة ظروفٍ قاهرةٍ.

«وحتى لو أنكر الناس هذه الظروف القاهرة - حتى إن أرادوا تحميلي مسؤوليةَ أخطاءٍ ارتُكِبت (في خضم الخطر المميت في غالب الأحيان!) فقد كنتُ بعيدًا من صندوق النقد، أو أي شيء من هذا القبيل، وكان عليَّ أن أوكِّل به أناسًا آخرين - حتى لو طالبوا بذلك حين كنتُ أُنجِز شيئًا، فما كان لي أن أترك الآخر قبل أن أُنجزه - حتى حينها لا جنايةَ عليَّ سوى الإهمال الذي لا علاقة له 'بعدم الأمانة'. علاوةً على ذلك، ولاسيما في تلك الأيام، كانت هناك حالاتٌ عديدةٌ اعترفتْ بشأنها السلطاتُ بوضع المسؤولين الصعب في سومطرة بهذا الخصوص، وأصبح من المبادئ المقبولة، فيما يبدو، أن يُلْتَمس لهم بعضُ العذر. وقد كانت الحكومة تكتفي بمطالبة المسؤول المعني بتسديد النقص، وما كان لأحدٍ أن يتلفظ بكلمة 'عدم الأمانة' أو حتى تدور في خَلَده ما لم يكن الدليلُ قويًا جدًا. وفي الحقيقة كانت هذه هي القاعدة السائدة تمامًا، إلى درجة أنني شخصيًا قلت للحاكم في ناتال: إنني أخشى أن أضطر لدفع الكثير حين تُدقِّق حساباتي في المكتب في پـادَن. فما كان جوابه إلا هزةً من كتفيه وقولَه 'أوه ... تلك القضايا المالية!' وكأنه هو شخصيًا يشعر بأن الأشياء الأقل أهميةً، يجب أن تنزاح من طريق الأشياء الأكثر أهميةً.

«الآن أنا أُقِرُّ أن القضايا المالية يمكن أن تكون مهمةً. لكن مهما كانت أهميتها، إلا أنها في هذه الحال كانت ثانويةً قياسًا لغيرها من الأشياء المهمة. لو أن النقص في حساباتي كان يُقدَّر بعدة آلاف من الخولدنات نتيجةَ اللامبالاة أو الإهمال، لما حسبتُ ذلك بحدٍّ ذاته مسألةً تافهةً. لكن تلك الآلاف نقصت بسبب مساعيَّ

الناجحة لمنع تمردٍ كان يُهدد بإشعال منطقة ماندائلين، وإعادة الآچينيين إلى الأماكن التي طردناهم منها للتوّ بكلفةٍ باهظةٍ من الأموال والأرواح! لذلك فإن أهمية هذا النقص تتلاشى إلى لا شيء؛ وفي الحقيقة يصبح من الإجحاف أن تطالب شخصًا، حافظ على مصالح أكبر بها لا يُعدُّ ولا يُحصى بسدادها.

«ومع ذلك كنت راضيًا بتسديد العجز هذا. لأنه ما لم يُجْبَ هذا المبلغ، فإن بابَ الاختلاس سيُفتَح على مصراعيه.

«وبعد الانتظار عدةَ أيام - وبإمكانكم أن تتخيلوا بسهولةٍ وضعي النفسي - تلقيتُ رسالةً من سكرتاريا الحاكم تُعلمني أنني مشُتبهٌ به بتهمة عدم الأمانة، وأنه يتوجب عليَّ أن أجيب على عدد من الانتقادات بشأن حساباتي.

«تمكنت من التخلص من بعضها فورًا. أما بالنسبة إلى غير ذلك، فقد كنت بحاجةٍ إلى التدقيق في بعض المستندات، وكان من المهم بالنسبة إلي أن أتمكن من استجلاء هذه المسائل في ناتال نفسها. فهناك بإمكاني أن أطلب من موظفيَّ إيضاح هذا الفَرق، ومن المحتمل جدًّا أنني سأتمكن من استجلاء كل شيء. لعل الأخطاء ناجمة، على سبيل المثال، من سهوٍ لشطب المال المرسَل إلى ماندائلين - كما تعلم، يا فيربروخه، تُدفَع رواتبُ الجُند من خزينة ناتال - أو أشياء من هذا القبيل، وكان من المحتمل جدًّا أن أكتشف هذه الأشياء فورًا لو أنني تحريت عن الأمر ميدانيًا. لكن الجنرال رفض أن يسمح لي بالذهاب إلى ناتال. وما جعلني أستغرب هذا الرفض أكثر، هو الطريقة التي أُلصِقت فيها تهمة عدم الأمانة بي. لماذا نُقِلتُ فجأةً من ناتال نقلًا ظاهرُه إحسانٌ إذا كنتُ متهمًا بعدم الأمانة؟ لماذا لم أُخْطَر بهذه التهمة المهينة إلا وأنا بعيدٌ من المكان، الذي يمكنني أن أدافع فيه عن نفسي؟ وعلاوةً على كل شيء، لماذا طُرِحت كل تلك الأمور فورًا، في حالتي أنا، في ظروفٍ غيرِ مواتيةٍ، بخلاف العرف السائد والإنصاف؟

«حتى قبل أن أتمكن من الرد على جميع الانتقادات بقدر استطاعتي من غير سجلات أو معلومات شفوية، علمتُ من مصدر غير مباشر أن الجنرال غاضب جدًّا مني، 'لأنني أغضبتُه كثيرًا في ناتال، وفي هذا كنتُ مخطئًا جدًّا، برأي الناس'.

«عندئذ لاح لي نور الحقيقة. نعم، لقد أغضبتُه، لكنني بسذاجةٍ اعتقدت دومًا أنه سيحترمني لأجل ذلك! لقد أغضبتُه، لكنه حين غادر لم يكن لدي ما يدعوني للارتياب في غضبه مني، وبكل غباءٍ ظننتُ أن نقلي المواتي إلى پاندان دليلٌ على إعجابه بي، لأنني 'أغضبتُه'. وسترون كم كنت أجهله!

«لكن ما إن علمتُ أن هذا هو سبب الإدانة الشديدة لإدارتي المالية حتى شعرتُ بالطمأنينة. رددتُ على الاتهامات واحدةً فواحدةً بكل ما أوتيت من قدرة، وختمتُ رسالتي - ما زلتُ أحتفظ بالمسودة - بهذه الكلمات:

> لقد أجبتُ عن الانتقادات التي وُجِّهت إلى حساباتي بأقصى ما أستطيع من دون الوصول إلى السجلات، أو إمكانية إجراء تحريات ميدانية. أستميح مَعاليكم أن تمتنعوا عن معاملتي بأي تساهل. أنا شابٌّ لا قيمةَ له، بالمقارنة مع قوة التصورات السائدة التي تُجبرني مبادئي على مواجهتها. لكنني مع ذلك فخورٌ باستقلالي الأخلاقي، فخورٌ بشرفي.

«وفي اليوم التالي، أوقِفتُ عن العمل بتهمة 'التلاعب بالحسابات'. وقد أُمِرَ المدّعي العام - في تلك الأيام كنا ما نَزال نسميه المسؤول المالي - لتنفيذ 'واجبه ومسؤوليته' تجاهي.

«وهكذا بقيتُ في پادَن، بالكاد أبلغ الثالثة والعشرين من عمري، أُحدِّق في مستقبلٍ سيحمل لِي الخزي والعار! أشاروا عليَّ بأن أتذرَّع بصغر سني - كنت ما زلتُ قاصرًا حين حدثت تلك الجُنَح المزعومة، لكني أبيتُ. لقد فكرتُ وعانيتُ كثيرًا ... بل وعملتُ كثيرًا، ولا أرغب في الاحتماء بصغَر سني. بإمكانكم أن

تروا من خاتمة الرسالة التي اقتبستُها للتو أنني لم أرغب في أن أُعامَل معاملةَ طفلٍ، حيث إنني أديتُ واجبي تجاه الجنرال في ناتال أداءَ الرجال. ومن تلك الرسالة بإمكانكم أن تروا أيضًا، مدى الجور في تلك التهمة التي وجّهوها إليَّ. المذنب لا يكتب هكذا.

«لم أُوضَع في السجن، مع أن هذا هو الواجب لو كانت السلطات جادَّةً في اتهامها. لكن ربما كان هناك سببٌ لهذا ... 'السهو'. فلا بد للسجين من مأوى وطعام، أليس كذلك؟ وبما أنه لم يُسمَح لي بمغادرة پادَن، فقد كنتُ في الواقع سجينًا، لكني سجينٌ بلا سقفٍ فوق رأسه أو لقمةٍ في فمه. لقد كتبتُ إلى الجنرال مرارًا وتكرارًا، لكن بلا نتيجة، أخبره أنه لا مُسَوِّغَ له في منعي من مغادرة پادَن لأنه، حتى لو كنتُ مُدانًا بأفظع الجرائم، لا جريمةَ تُعاقَب بالتجويع.

«كان من الواضح أن المحكمة لا تعرف كيف تتصرف في هذه المسألة، لكنها وجدت مخرجًا بإعلان عدم الاختصاص؛ لأن مقاضاة الجرائم المرتكَبة في أداء الواجب لا تكون إلا بتفويضٍ من الحكومة في بتافيا. وهكذا احتجزني الجنرال، كما قد أسلفتُ، في پادَن مدة تسعةِ أشهر. وأخيرًا تلقى أوامر عليا تسمح لي بالذهاب إلى بَتافيا.

«وبعد بضع سنوات، حين أصبح لديَّ قليلٌ من المال - أنتِ مَن أعطاني إياه، يا عزيزتي تينا - سدَّدتُ بضعةَ آلافٍ من الخولدنات لتسوية حسابات ناتال النقدية في ناتال عن سنتي 1842 و1843. وقد قال لي شخصٌ يمكننا أن نحسبه ممثلًا لحكومة الهند الشرقية الهولندية، 'لو كنتُ في مكانك، لما فعلتُ ذلك ... كان بإمكانهم أن ينتظروا إلى قيام الساعة!' هكذا هي سُنَّةُ الحياة.»

كان هافلار على وشك أن يبدأ القصة التي كان ضيفاه يتوقعانها منه، وهي التي توضِّح لماذا وكيف «أغضب» الجنرال فاندام في ناتال كثيرًا، حين ظهرت السيدة

سلوتيرِنـگ على شُرْفَتِها الأمامية، وأومأت إلى الشرطيّ الذي يجلس على مقعدٍ على أحد جوانب منزل هافلار. ذهب إليها، ثم قال شيئًا لرجلٍ قد دخل لتوِّه الحوشَ، ربما ليذهب إلى المطبخ في ظهر المنزل. ربما ما كان لمجموعتنا أن تعير أي اهتمام لهذا، لو لا أن تينا قالت على المائدة عصرَ ذلك اليوم إن السيدة سلوتيرِنـگ هيّابةٌ جدًّا، تراقبُ كلَّ من يدخل الحوش. صعد الرجل الذي ناداه المأمور إليها، وبدا كأنها تُحقق معه ولم تكن النتيجة لمصلحة. على أية حالٍ، تراجع وغادر.

قالت تينا، «أنا آسفةٌ في كل الأحوال. لعلّه شخصٌ أتى لبيع الدجاج أو الخضراوات، ليس لدي في المنزل شيء حتى هذه اللحظة.»

أجابها هافِلار، «إذن أَرْسِلي من يأتي بها. أنت تعلمين كم تعشق النساء المحليات أن يمارسن السلطة، ولا تنسَيْ أيضًا أن زوجَها كان أهم شخص هنا، وأنه مهما صَغُرت مكانة مساعد المقيم في الواقع، فهو في مقاطعته ملكٌ، وهي لم تتعود بعد على إزاحتها عن عرشها. إياك أن تسلبي من المسكينة بهجتها الصغيرة، وتظاهري أنك لم تلاحظي.»

لم يكن ذلك على تينا عسيرًا، فهي لا تحب ممارسة السلطة.

وهنا لا بد من استطرادٍ، لكني هذه المرة أريد أن أستطرد عن الاستطرادات. ليس من السهل دائمًا على كاتبٍ أن يسترسل من غير أن يتعثر بين خَطَرين أَهْوَنُهُما شَرٌّ. وما يزيد الأمر صعوبةً هو حين يضطر لوصف أوضاعٍ في مجالاتٍ مجهولةٍ تمامًا للقارئ. فالعُرى بين الأماكن والأحداث أوثقُ منْ أنْ يترِكَ تلك الأماكن من غير وصف. ويصبح تفادي الخطرين اللذين أشرتُ إليهما، أصعبَ مرتين على كل من يختار الهند الشرقية الهولندية، لتكون المسرح الذي تجري فيه أحداث قصته. فبينما يستطيع كاتبٌ يعالج الأوضاع الأوربية أن يحسب كثيرًا من الأمور مفروغًا منها، على من يختار الهند الشرقية لتكون مسرح أحداث قصته، أن يسأل

نفسه باستمرارٍ إن كان القارئ غير الهندي سيفهم بالفعل هذا الشيء أو ذاك. فإن تخيّل القارئ الأوربي أن السيدة سلوتيرِنگ تقيم مع أسرة هافلار، كما هو متوقَّع في أوربا، فلا بد أن يعتقد عدمَ وجودها بين الرفاق الذين يتناولون القهوة على الشُّرْفة الأمامية أمرًا غيرَ مفهوم. صحيحٌ أنني قلتُ من قبل إنها تعيش في منزل منفصل، لكن من أجل فهمٍ صحيحٍ لهذا الأمر، وما يليه أيضًا من أحداث، فلا بد من إعطاء القارئ فكرةً عن تصميم بيت هافلار وحوشه.

كثيرًا ما يُوجَّه اتهامٌ للفنان العظيم الذي كتب رواية «ويـفَـرْلي» بأنه يمتحن صبرَ قُرائه كثيرًا بتكريس صفحاتٍ عديدةٍ جدًّا لوصف الأماكن. وهذا اتهامٌ باطلٌ برأيي. فأنا أرى أنه لكي نجزم بصحة هذا الاتهام علينا أن نسأل أنفسنا بكل بساطة: هل الوصف ضروري لنقل الانطباع الذي يرغب المؤلف في نقله؟ فإن كان كذلك، فيجب ألا نلومه، إن توقع منا أن نتجشم عناءَ قراءة ما تجشم هو عناءَ كتابته. وإن لم يكن كذلك، فيجدر بنا أن نرمي بالكتاب من أيدينا. لأنه يندر أن يستحق مؤلفٌ عناءَ القراءة إن بلغت به الحماقة، أن يزودنا بوصفٍ طُبوغرافي مجاني بدلًا من الأفكار، حتى وإن انتهى أخيرًا هذا الوصف. لكن علينا ألا ننسى أن رأيَ القارئ عن ضرورة الاستطراد أو سواها خاطئٌ في أغلب الأحيان، لأنه قبل أن تحدث الطامّة لا يمكنه أن يعرف ما هو مطلوبٌ، أو غير مطلوب لتكَشُّف الظروف تدريجيًا. وإن عاد إلى الكتاب ثانيةً بعد حدوث الطامّة - أنا هنا لا أتحدث عن الكتب التي يقرؤها المرء مرةً واحدةً فقط - وظل يعتقد أن هذا الاستطراد أو ذاك كان بالإمكان حذفه، من غير مساسٍ بالانطباع الكليِّ الذي ولَّده الكتاب، ليس من المؤكد دائمًا أن الانطباع الذي تلقّاه سيظل هو نفسه، لو لم يَقُدْه إليه المؤلف بذكاءٍ من خلال تلك الاستطرادات ذاتها التي تبدو له الآن فائضةً عن الحاجة.

هل تظن أنك كنت ستتأثر بموت أيمي روبْسارت إلى هذه الدرجة، لو كنتَ غريبًا في صالات كِنِلويرث؟ وهل تعتقد أنه لا توجد صلةٌ - الصلةُ الناشئة من التناقض - بين الملابس الفاخرة التي يظهر بها التافه لِسْتَر أمامها والسوادِ الذي يكتنف نفسه؟ هل تشعر أن لِسْتَر - كلُّ مَن يعرف الرجلَ من مصادر أخرى غير الرواية وحدها يعرف هذا الأمر - كان أحسَّ بكثيرٍ مما صُوِّر في «كِنِلويرث»؟ لكن الروائي العظيم، الذي فضّل أن يُبْهِر من خلال التنسيق الفني للظلال لا من فجاجةَ الألوان، ارتأى أنه لا يليق به أن يغمس فرشاته في كل الوحل والدماء التي التصقت بذلك التافه الأثيرِ لدى [*الملكة*] إليزابِث. لم يرغب إلا في الإشارة إلى بقعةٍ واحدةٍ في بِرْكَة القذارة، لكنه كان يعرف فنَّ جَعْل مثل هذه البُقَع، تَبْرُز بوساطة تلك الألوان الخفيفة التي وضعها بجوارِها في كتاباته الخالدة. وكل من يظن أن باستطاعته أن يرمي في البحر كلَّ ما وُضِع بهذه الطريقة، بِجِوار النقطة الأساسية تغيب عن بالِه تمامًا حقيقةُ أنه، لتحقيق أي أثر لا بد للمرء أن يتحوّل إلى المدرسة التي كان لها باعٌ طويلٌ وناجحٌ في فرنسا بعد 1830 - مع أنه يجب أن أقول، إنصافًا لتلك البلاد: إن أكثر المؤلفين الذين أساؤوا إلى الذائقة السليمة في هذا المجال، كانوا أكثر رواجًا في بلدانٍ أخرى غير فرنسا ذاتها. استسهلت تلك المدرسة - آمل وأعتقد أنها انقرضت الآن - أن يدسّوا أيديهم في بِرَك الدم، ويقذفوا حفناتٍ منه على قماش اللوحة لكي تُرى البُقَع الكبيرة من بعيد! ومن المؤكَّد أن رسم تلك الخطوط القرمزية والسوداء الفجّة يستهلك من الجهد، أقل ما يستهلكه رسمُ تلك اللمسات المُرهَفة بقلم الرصاص في كأسٍ زَنْبَقةٍ. ولهذا السبب، كانت هذه المدرسة تختار الملوكَ في غالب الأحيان ليكونوا أبطال قصصها، ويفضَّل أن يكونوا ملوكًا من زمنٍ سابقٍ على نضوج الأمم. انظر كيف يُتَرجَمُ حزنُ ملكٍ على الورق إلى

تفجُّع للشعب ... وغضبه يوفر للكاتب فرصةً لقتل الآلاف في ميدان المعركة ... وأخطاؤه تُتَّخذُ ذريعةً لرسم المجاعة والطاعون ... كل هذا يوفر المجال للتصوير الفني الفج! إن لم تحرِّكك الفظاعة الصامتة للجثة الملقاة أمامك، إذن ففي قصتي مُتَّسَعٌ لضحيةٍ أخرى، لا تزال تصرخ وتتلوى من الألم! أنت لا تذرف الدموع على تلك الأم التي تبحث عبثًا عن طفلها؟ لا بأس، سأُريك أمًّا أخرى تشاهد طفلها وهو يُقَطَّع! مشاعرك لا يؤلمها استشهاد ذلك الرجل؟ سأُضاعفُ مشاعرك مئةَ ضعفٍ بتعذيب تسعةٍ وتسعينَ رجلًا آخر حتى الموت إلى جانبه! هل قَسَت مشاعرُك إلى درجة أنك لا ترتعد لمرأى جنديٍّ في القلعة المحاصَرة، وهو يلتهم ذراعه اليسرى من الجوع؟

أيها الأبيقوري، لديَّ أمرٌ أقترحه عليك: «على كلِّ رَجُلٍ أن يأكل الذراع اليسرى للرجل الذي على يمينه ... شكِّلوا دائرةً - يمينًا ويسارًا دُرْ، رَمَلًا سِرْ!» أَجَل، هكذا تتحول فظائع الفن إلى سفاسف ... وهو ما أردتُ أن أبرهن عليه عَرَضًا.

مع ذلك هذا ما يجب أن نحصل عليه إن استعجلنا في الحكم على كاتبٍ، لمحاولته أن يُعِدَّنا بالتدريج لحل العُقدة في روايته، من دون اللجوء إلى هذه الألوان الصارخة.

لكن الخطر على الطرف الآخر أكبر. فأنت تزدري مساعي الأدب الفج، الذي يحاول أن يقتحم مشاعرك بمثل هذه الأسلحة الفظَّة، لكن ... إن ذهب المؤلف إلى النقيض الآخر، إن أساء بالكثير من الاستطراد عن موضوعه الأساسي، بالاستخدام المتكلِّف للفرشاة، فسيكون غضبُك أعظم، ولا حرَج عليك! لأنه حينها يُضجِرك، وهذا أمرٌ لا يُغتَفَر.

لو خرجنا أنا وأنت في مِشوارٍ، وكنت أنت تشذُّ عن الطريق وتناديني

لأتبعك إلى الأجمة وليس لك هدفٌ سوى إطالةِ مشوارِنا، فإنني سأجدُ ذلك مُنَفِّرًا، وسأعزم على الخروج وحدي في المرة القادمة. لكن إن أريتَني نبتةً بين الأشجار المتشابكة لم أعرفها من قبلُ، أو أريتني شيئًا في النبتة لم ألحظه من قبل ... إن دلَلْتني، بين الحين والآخر، على زهرةٍ يسرني أن أقطفها، أو أضعها في عُروة سترتي، عندها سأغفر لك تلك الانحرافات عن الطريق. بل سأكون في غاية التقدير لك.

وحتى من دون الزهرة أو النبتة، ما إن تنتحي بي جانبًا لتدلني عبر الأشجار إلى الدرب الذي سنسلكه حالًا، لكنه ما زال على مسافةٍ منا في أعماق الغابة، ويتعرَّج عبر الحقول في الأسفل مثل خطٍّ لا يكاد يُرى، حينها ... أيضًا لن أُسيء فهم استطرادك؛ لأنه حين نبلغ وجهتنا أخيرًا، سأعرف أن طريقنا يمر متعرجًا بين الجبال، وسأعرف ما الذي جعل الشمس، التي كانت هناك قبل قليل، تستدير لتطلع من يسارنا، ولماذا تلك الرابية، التي رأينا قمتها أمامنا قُبيل لحظات، صارت الآن وراءنا ... عندها سيكون استطرادك قد سهَّل عليَّ فهم مِشواري، وفي الفهم متعة.

في قصتي، أيها القارئ، كثيرًا ما تركتُكَ على قارعة الطريق، حينما كانت تحدوني رغبةٌ مُلِحَّةٌ لأقتادك إلى الأشجار المتشابكة. خشيت أن يزعجك المسير لو أني فعلت، لأنني لم أكن أعرف إن كنت ستستمتع بالأزهار أو النباتات التي أردتُ أن أُريك إياها. لكن هذه المرة لأنني أعتقد أنه سيسرك في نهاية المطاف أن ترى الدرب الذي سنتبعه في الحال، أشعر الآن أنه عليَّ أن أخبرك شيئًا عن بيت هافلار.

ستكون مخطئًا إن ظننتَ أن البيت في جاوا مثل البيت الأوربي، أو تخيلتَ كتلةً حجريةً ذات غرفٍ كبيرةٍ وصغيرةٍ مُكَوَّمةٍ بعضها فوق بعض، وأمامها شارعٌ،

وجيرانٌ على اليمين والشمال، تتراصف مواقدهم وبيوتهم مقابل موقدك وبيتك، وخلفه جُنينَة فيها ثلاثُ شجيرات كِشْمِش. في كل حالةٍ تقريبًا، ليس للبيوت في الهند الشرقية إلا طابق واحد. قد يبدو هذا الأمر غريبًا للقارئ الأوربي، لأنه من سمات الحضارة - أو ما يبدو أنه كذلك - أن تظن كلَّ شيءٍ طبيعيٍّ غريبًا. البيوت في الهند الشرقية مختلفةٌ تمامًا عن بيوتنا، لكنها ليست هي الغريبة، بل بيوتنا نحن. فأول رجلٍ سمح لنفسه ترفَ ألا ينام في غرفةٍ واحدةٍ مع أبقاره لم يَبْنِ الغرفة الثانية في منزله فوق الأولى بل إلى جانبها، لأن بناء طابق واحد أكثر بساطةً وراحةً لساكنه. لقد نشأت مبانينا العالية من قلة المساحة، فرحنا نبحث في الجو عما افتقدناه في الأرض، ولهذا فإن كل خادمةٍ تغلق في الأماسي نافذةَ عِلِّيتها التي تنام فيها هي احتجاجٌ حيٌّ على زيادة السكان ... حتى لو كانت هي نفسها تفكر في شيءٍ مختلفٍ جدًّا، وهو ما أرغب تمامًا في تصديقه.

لذلك في البلدان التي لم تَعْصُر فيها الحضارةُ، وزيادةُ السكانِ البشريةَ حتى الآن من الأسفل نحو الأعلى، تكون البيوت بلا طوابق عليا، ولم يكن منزل هافلار واحدًا من الاستثناءات النادرة لهذه القاعدة. فعند الدخول ... لا، سأثبت أنني أتبرَّأ من كل مزاعم التصويرية. الأمر المُسَلَّم به هو أن لديك بناءً مستطيلًا، وعليك أن تقسمه إلى واحد وعشرين مقصورة، ثلاثٌ بالعرض، سبعٌ بالطول. سنرقِّم هذه المقصورات، ابتداءً من الركن العُلوي الأيسر، متجهين من اليسار إلى اليمين بحيث يكون رقم 4 تحت رقم 1، ورقم 5 تحت 2، وهكذا.

تشكل الأرقام 1، 2، 3 معًا الشُّرفة الأمامية المفتوحة من ثلاثة جوانب، ويقوم سقفها من الأمام على أعمدة. ومن هنا تعبر من خلال أبواب ذات دَرْفتين إلى الصالة الداخلية، التي تمثلها المقصورات 4، 5، 6. المقصورات 7، 9، 10، 12، 13، 15، 16، 18 عبارة عن غرف، ولمعظمها أبواب تنفتح على الغرف المجاورة. أما

الأرقام الثلاثة العليا 19، 20، 21 فتشكِّل الشُّرفة الخلفية المفتوحة، والأرقام التي حذفتُها - 8، 11، 14، 17 - تشكل ممرًا. أنا فعلًا فخورٌ بهذا الوصف!

1	2	3
4	5	6
7	8	9
10	11	12
13	14	15
16	17	18
19	20	21

لا أعرف بشكلٍ صحيح التعبيرَ المرادفَ في أوربا لكلمة «حَوْش» الشائعة في الهند الشرقية. فالحوش ليس جُنَيْنَة ولا حديقةً ولا حقلًا ولا غابةً، ولكن إما أنه شيء من كل هذه، أو أنه كل هذه مجتمعةً، أو لا شيء من أيٍّ منها. إنه كل الأرض التي تتبع المنزل لكن لا يغطيها المنزل، ولهذا فإن التعبير «الحديقة والحوش» يُعَدُّ ضَرْبًا من الحَشْو في الهند الشرقية. وهناك، لا تكاد تجد بيتًا من دون حَوْش يحيط به. بعض الأحواش تضم غاباتٍ وجُنيناتٍ ومُروجًا، وتقترب من كونها حديقةً عامةً. وهناك أحواشٌ أخرى عبارة عن حدائق للزهور. وفي بعض الأماكن الأخرى يكون الحوش بأكمله عبارة عن حقل عشبي كبير. وأخيرًا هناك بعض الأحواش في غاية البساطة أصلًا، فَحُوِّلت إلى ساحةٍ منبسطةٍ مرصوفةٍ بالحصى، ولعلَّها لا تسرُّ الناظرين، لكنها تُعَزِّز النظافةَ في المنازل، لأن العشب والأشجار تجتذب كل أنواع الحشرات.

كان حوش هافلار كبيرًا جدًا - في الحقيقة، بالرغم من غرابة الأمر، يمكن أن يُقال: إن أحد جوانبه يمتد إلى ما لا نهاية، إذ يُتاخِم واديًا يمتد حتى ضفاف نهر چيوجون الذي يُطوِّق رانْكَس بيتون في أحد التفافاته الكثيرة. كان من الصعب تحديد الحد الفاصل بين أرض هافلار والأرض المشاع، حيث إن الحدود بينهما كانت تتغير باستمرار، بسبب التفاوت الكبير بين الارتفاع والانخفاض في منسوب المياه في نهر چيوجون، الذي تراجعت ضفتاه الآن حتى كادت أن تتوارى عن الأنظار، ثم عاد من جديد ليملأ الوادي إلى نقطةٍ قريبةٍ جدًّا من منزل مساعد المقيم.

وكان هذا الوادي دائمًا مصدرَ إزعاجٍ للسيدة سلوتيرنـگ، وهو أمرٌ طبيعيٌ جدًا؛ فالنبات الذي ينمو بسرعةٍ كافيةٍ في كلِّ مكانٍ آخر في الهند الشرقية كان وفيرًا بكثرة، وذلك بسبب التراكم المستمر للرواسب الطينية التي يخلِّفها النهر.

في الحقيقة كان النباتُ وفيرًا إلى درجة أنه، حتى لو تقدم الماء أو تراجع بعنفٍ يكفي لاجتثاث هذه النباتات، إلا أن الأمر لا يحتاج إلا لفترةٍ قصيرةٍ لكي تكتسي الأرض من جديد بالنباتات القصيرة، التي تجعل المحافظة على نظافة الحوش أمرًا عسيرًا، حتى في جِوار المنزل. وفي هذا مُنَغِّصٌ لا يُستهان به حتى لقاطنةٍ ليست أمًّا لأسرة. فعدا عن الأنواع الأخرى من الحشرات، التي تطير عادةً حول المصباح في الأماسي بأسرابٍ تجعل القراءة والكتابة مستحيلةً (وهذه مشكلةٌ شائعةٌ في أماكن عديدة في الهند الشرقية)، كان العديد من الأفاعي، وغير ذلك من الهوام تتخفى بين الأعشاب، ولا تقتصر على الوادي، بل كثيرًا ما عُثِر عليها في الحديقة بجانب المنزل أو خلفه، أو على المرج في ساحة الحوش الأمامية.

تقع هذه «الساحة» أمامك حين تقف على الشُّرْفة الأمامية وظهرُك إلى المنزل. وعلى يسارك البناءُ الذي يضم المكاتب الإدارية والخزينة، «وغرفة الاجتماعات» الجيدة التهوية التي كان هافلار قد خاطب الزعماءَ فيها، وخلفها يمتد الوادي الذي يمكنك أن تسرح بناظريك فوقه حتى نهر چيوجون. ومقابلَ المكاتب تمامًا يقع منزل مساعد المقيم القديم الذي تقطنه الآن السيدة سلوتيرِنـگ بصورة مؤقتة. وبما أن الوصول إلى الحوش من الطريق العام يكون من طريقين يحاذيان جانبي المرج، فيجب على من يريد دخول الحوش باتجاه المطبخ أو الإسطبلات، التي تقع خلف المبنى الرئيس، أن يمر إما من أمام المكاتب، أو من أمام منزل السيدة سلوتيرِنـگ. وإلى جانب المبنى وخلفه، تقع الحديقة الكبيرة نسبيًا التي راقت لتينا بسبب كثرة الأزهار فيها، ولاسيما لأن ماكس الصغير سيتمكن من اللعب فيها في غالب الأوقات.

كان هافلار قد أرسل اعتذاره للسيدة سلوتيرِنـگ، لأنه لم يتمكن حتى الآن من زيارتها. وكان ينوي أن يفعل ذلك في اليوم التالي، لكن في هذه الأثناء ذهبت

تينا إلى السيدة وتعرفت إليها. لقد سمعنا من قبل أن السيدة سلوتيرِنـگ «بنت بلد»، وأنها لا تتحدث أي لغة أخرى سوى الملاوية. كانت قد لَمَّحت إلى رغبتها في الاستمرار في تدبير شؤون أسرتها، وهو ترتيبٌ قبلتْهُ تينا بكل سرور. ولم يكن قبولها نابعًا من نقصٍ في الضيافة، بل بالدرجة الأولى من خشيتها، وهي التي وصلت للتوّ إلى ليباكٍ، ألا تستطيع أن تجعل السيدة سلوتيرِنـگ مرتاحةً كما ينبغي لسيدةٍ في وضعها. وبصراحة، بما أنها لا تفهم الهولندية، فلن «تجرح مشاعرَها» قصصُ ماكس، على حدِّ تعبيرِ تينا. لكن تينا أدركت أن الأمر يتطلب أكثر من عدم جرح مشاعر أسرة سلوتيرِنـگ، وأن قلة المؤونة في مطبخها النابعة من نيتها في الاقتصاد، جعلتها ترحبُ بقرار السيد سلوتيرِنـگ من كل قلبها. وحتى لو كانت الظروف مختلفة، فمن المشكوك فيه أن تحصل متعةٌ متبادلةٌ من مصاحبة تينا لمخلوقةٍ لا تتكلم إلا لغةً واحدةً، لغةً ليس فيها شيءٌ مطبوعٌ يرتقي بالفكر. كانت تينا تود أن تصاحب السيدة سلوتيرِنـگ قدرَ المستطاع، وأن تتحدث إليها عن شؤون المطبخ، وعن سامْبَل سامْبَل،[80] وعن تخليل الكِتيمون (من دون ليبيخ، يا لَلعَجب!). لكن هذا الأمر غير مُواتٍ وسيبقى كذلك، ولذلك كان خيرًا أن عُزلة السيدة سلوتيرِنـگ الطوعية، سوَّت الأمور بطريقةٍ تركت الطرفين في منتهى الحرية. لكن الغريب أن تلك السيدة لم ترفض عرض أسرة هافلار أن تشاركهم هي وأطفالها في الأكل فحسب، بل أن ترفض إعدادَ طعامِها في مطبخ منزلهم. وهذا ما عدَّتْهُ تينا إفراطًا في الحذر، لأن في المطبخ مُتَّسعًا لكلتيهما.

[14]

بدأ هافلار قائلًا، «لستُ بحاجةٍ إلى إخباركم أن ممتلكاتنا في الساحل الغربي لسومطرة، تتاخِم عددًا من الدول المستقلة في شمالي الجزيرة، وأهمها آچِن. يُقال إن هناك بندًا سِرّيًا في معاهدة 1824 يُلزمنا أمام البريطانيين ألا نَعْبُرَ نهر سِنكِل. خرج الجنرال فاندام، ناپليوننا المزيف، ليبسط سيطرته إلى أبعد ما يمكن، ولكنه لاقى في ذلك الاتجاه عقبةً لا يمكن تذليلها. أنا مضطرٌ لتصديق أن البند موجودٌ، لأنه لولاه لكان غريبًا أن راجَه ترُمون وراجَه أنالابو لم يصبحا تابِعَيْن لهولندا منذ زمنٍ بعيدٍ، على الرغم من أهمية أراضيهما لتجارة الفلفل. أنتم تعلمون سهولة إيجاد ذريعةٍ لشنِّ حربٍ على هذه الدويلات وضمِّها. ستبقى سرقةُ بَلَدٍ دائمًا أسهلَ من سرقةِ طاحونة.[81] مع أنني أعتقد أن الجنرال فاندام مستعدٌ حتى لسرقة طاحونةٍ لو رغب بذلك، ولهذا السبب أظن أن لديه أسبابًا أقوى من العدالة والإنصاف ردعته عن تلك الأماكن في الشمال.

«على أية حال، صرف عينه الغازِيَة عن ناحية الشمال إلى ناحية الشرق. كانت أراضي البتَك التي ‘هودِنَت’ مؤخرًا قد شُكِّل منها قضاءُ ماندائلين وقضاءُ أنكولا. صحيحٌ أنهما لم تُطَهَّرا تمامًا من التأثير الأچيني - فمتى ترسَّخ التعصب، ليس من السهل اقتلاعُه، لكن على الأقل لم يعد الأچينيّون أنفسهم موجودين هناك. لكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة إلى الحاكم. فقد بسط سلطته على الساحل الشرقي، وصار المسؤولون الهولنديون والحامِيات الهولندية يُرسَلُون من ماندائلين إلى بِلا وپيرتيبي، مع أن هذين الموقعين قد أُخْلِيا لاحقًا، كما تعلم

يا فيربروخه.

«على أية حال، وصل مُفَوَّضٌ حكومي إلى سومطرة، فرأى أن هذا التوسع غير ذي جدوى وانتقده، ولاسيما أنه مخالفٌ لسياسة الاقتصاد المُفجِع في النفقات التي يُلِحُّ عليها الوطن الأم. لكن الجنرال فاندام حاجج أن هذا التوسع لن يكون عبئًا إضافيًا على الميزانية؛ لأن الحاميات الجديدة مؤلفةٌ من قواتٍ مُصادَقٍ على نفقاتها من قبل، وهكذا أخضع مساحةً كبيرةً جدًّا للحكم الهولندي من غير أن تكلِّف الوطن الأم فلسًا واحدًا. أما بخصوص التجريد الجزئي للأماكن الأخرى، ولاسيماماندائلين، فقد شعر بأنه يمكنه أن يعتمد اعتمادًا كافيًا على ولاء (يَن دي پـيرتوان) وتعلُّقه به، وهو الزعيم الأكبر في أراضي البَتَك، لكي لا يكون هناك خطرٌ من هذا.

«استسلم المفوّض على مَضَض، بل بناءً على تعهدات الجنرال المتكررة، أنه هو شخصيًا يضمن ولاء (يَن دي پـيرتوان.)

«كان المراقب الذي يدير مقاطعة ناتال قبلي صِهرَ مساعدِ المقيم في أراضي البَتَك الذي لم يكن على علاقةٍ طيبةٍ مع يَن دي پـيرتوان. وقد سمعتُ لاحقًا الكثيرَ من الشكاوى التي قُدِّمت ضد مساعد المقيم هذا، لكن عليكَ أن تأخذ هذه الاتهامات بشيءٍ من التشكيك لأن أول من روَّج لها هو يَن دي پـيرتوان وفي وقتٍ كان فيه يَن نفسه متَّهمًا بجرائم أخطر بكثيرٍ، وربما هذا اضطره، دفاعًا عن نفسه، للبحث عن عيوبٍ في المُدَّعي عليه ... وهذا ليس بشيءٍ غريب. على أية حال، انحاز مراقب ناتال إلى جانب حَمِيِّه ضد يَن دي پـيرتوان - ولعلَّ ما جعله أكثر تَحَمُّسًا هو أنه، أقصدُ المراقبَ، كان على علاقةٍ طيبةٍ مع أحد زعماء ناتال، يدعى سوتان سليم، وكان هذا يُضمِر الشرَّ لِيَن دي پـيرتوان. كان هناك خلاف بين أسرتي هذين الزعيمين. رُفِضت عروضُ المصاهرة، وكانت هناك

غيرة بسبب النفوذ، وتفاخرٌ من جانب يَن دي پـيرتوان الذي كان ذا نسبٍ أشرف، وهناك أسبابٌ أخرى عديدة ساعدت كلُّها على إبقاء جَذْوَة الخلاف مشتعلةً بين ناتال وماندائلين.

«فجأةً راجت إشاعةٌ أن مؤامرةً اكتُشِفت في ماندائلين كان يَن دي پـيرتوان متورطًا فيها، وترمي إلى رفع الراية المقدسة للثورة وقتل جميع الأوربيين. وقد وردت أولى الأنباء عنها من ناتال. وهذا طبيعي: فالناس في المناطق المجاورة دائمًا أدرى بهذه الأمور من أهل المكان ذاته، لأن كثيرًا ممن تورَّط زعيمهم في هذا الأمر، يخشون أن يقولوا ما يعلمونه في وطنهم. لكنهم يفقدون شيئًا من خوفهم حين يصبحون في أرضٍ لا نفوذَ له فيها.

«بالمناسبة، يا فيربرزخه، لذلك السبب لستُ غريبًا عن شؤون ليباك، ولهذا لدي معرفة معقولة بمجريات الأمور هنا حتى قبل أن يخطر ببالي أنه يمكن أن أُنْقَل إلى هنا. في سنة 1846 كنتُ في كْراوان، وقد تجولتُ كثيرًا في متصرفيات پـريانـگر، وهناك قابلت هاربين من ليباك منذ سنة 1840. وأعرف أيضًا بعضًا من مُلّاك الأراضي في منطقة باوْتِنْزورخ، وفي المناطق المحيطة ببتافيا، وبإمكاني أن أقول لك: إن هؤلاء الذوات كانوا دائمًا يفرحون بتردّي الأوضاع في هذه المقاطعة، لأنها تزيد من عدد القوى العاملة في أراضيهم.

«على أية حال، بهذه الطريقة قيل إن المؤامرة اكتُشِفت في ناتال، وهي المؤامرة - إن وُجِدت، وهذا شيءٌ لا أعلمه - التي كشفت خيانة يَن دي پـيرتوان. فقد زعم شهودٌ استدعاهم مراقبُ ناتال أنه جمع حوله هو وأخوه سوتان آدم العديدَ من زعماء البَتَك في غابةٍ مقدسةٍ، وأقسموا أنه لن يهدأ لهم بالٌ إلى أن ينتهي حكمُ 'كلاب النصارى' في ماندائلين. لا شك أن يَن قد تلقّى وحيًا ربّانيًا بشأن هذا الأمر. وكما تعلمون، مثل هذه الصفة لا تغيب أبدًا في أحوال كهذه.

«أنا الآن لا أستطيع أن أجزم أن هذا الغرض قد خطر قط في بال يَن دي پـيرتوان. لقد قرأتُ إفادات الشهود، لكن سترون في الحال لماذا لا يمكن الاعتماد على هذه الإفادات مئة بالمئة. هناك شيء واحد مؤكد: الرجل من المسلمين المتعصبين ومثل هذا الأمر يُصدَّق عنه. فقد اعتنق هو وبقية البَتَك الدينَ القويمَ قبل ذلك بفترة وجيزة على أيدي الـپـادريز،[82] ومعتنقو أي دين جديد عادةً ما يكونون متعصبين.

«وكان من نتيجة هذا الاكتشاف الحقيقي أو المزعوم، أن مساعد المقيم في ماندائلين اعتقل يَن دي پـيرتوان وأرسله إلى ناتال. وهناك حبسه المراقب في الحِصْن، ثم أُخِذَ سجينًا إلى پـادَن على أولِ سفينةٍ متوفرةٍ لكي يُنقَل مباشرةً إلى بتافيا. وبطبيعة الحال، زُوِّد الحاكم بكل الوثائق التي تضم تلك الإفادات المُجَرِّمة والتي تسوِّغ شدةَ الإجراءات المتخَذة.

«غادر صاحبُنا يَن دي پـيرتوان ماندائلين وهو سجين. وفي ناتال كان أيضًا سجينًا. وعلى متن السفينة الحربية التي نقلته كان، بطبيعة الحال، أيضًا سجينًا. لذلك توقَّعَ أن يكون أيضًا سجينًا في پـادَن - لا فرقَ في قضيته إن كان مذنبًا أو غير مذنب، ما دام قد اتُّهِم بالخيانة العظمى بصورةٍ قانونيةٍ مناسبةٍ من قبل سلطةٍ مختصةٍ. لذلك لا بد أنه قد ذُهِل ذهولًا عظيمًا حين ترجَّل وعَلِم أنه ليس حرًّا طليقًا فحسب، بل أن يتشرف الجنرالُ، الذي كانت عربتُه بانتظاره، باستقباله واستضافته في منزله! أنا واثقٌ أنه لا يوجد على الإطلاق رجلٌ متهمٌ بالخيانة العظمى كانت فرحتُه أعظم بمفاجأة كهذه. وبُعَيْد ذلك، أُوقِف مساعدُ المقيم في ماندائلين عن العمل، بسبب عددٍ من الجُنَح التي لا أرغب أن أُدْلي في هذا المقام بأي رأيٍ عنها. ولكن يَن دي پـيرتوان، بعد إقامته مدةً في منزل الجنرال في پـادَن، وبعد معاملته خيرَ معاملةٍ، عاد إلى ماندائلين من طريق ناتال، ليس باعتدادِ رجلٍ

بُرِّئت ساحتُه، بل بغطرسةِ رجلٍ متعالٍ إلى درجةٍ لا تحتاج معها ساحتُه إلى تبرئة. ففي نهاية الأمر، حتى القضية لم يُحقَّق فيها! ولو افترضنا أن التهمةَ الموجهةَ إليه كانت باطلةً، فهذا يجعل التحقيق أكثر ضرورةً، وذلك لمعاقبة شهداء الزور، بل ومعاقبة من أتوْا بهم. يبدو أن الجنرال كانت له أسبابٌ خاصةٌ حالت دون إجراء هذا التحقيق. فقد عُدَّت التهمة الموجهة إلى يَن دي پـيرتوان باطلةً ولاغيةً، وأنا واثقٌ أن مستندات القضية لم تُعْرَض على الحكومة في بتافيا.

«بُعَيْدَ عودة يَن دي پـيرتوان وصلتُ أنا إلى ناتال، لأتولى إدارة تلك المقاطعة. وقد أخبرني سَلَفي طبعًا بما جرى في ماندائلين، وأعطاني المعلومات الضرورية عن العلاقة السياسية بين تلك المنطقة ومقاطعتي. لم أستطع أن ألومه حين شكا لي بمرارةٍ عن معاملة حَمِيِّه معاملةً مجحفةً، كما يراها هو، وعن الحماية غير المفهومة التي كان يَن دي پـيرتوان يتمتع بها. لا أنا ولا هو كنا نعرف حينها أن إرسال يَن دي پـيرتوان إلى بَتافيا، كان بمثابةِ صفعةٍ في وجه الجنرال الذي كان عنده سببٌ وجيهٌ جدًّا، لحمايته بأي ثمن من تهمة الخيانة العظمى. وما جعل هذا الأمر أكثر أهميةً بالنسبة إلى الجنرال هو أن مفوّض الحكومة الذي أشرتُ إليه للتوِّ قدْ أصبح في هذه الأثناء الحاكمَ العامَّ، وأنه سيعزله على الأرجح، نظرًا لغضبه من ثقة الجنرال غير المسوَّغة التي وضعها في يَن دي پـيرتوان ومن عناد الأول فيما بعد ومعارضته للجلاء عن الساحل الشرقي.

«قال لي مراقب ناتال، 'مع ذلك لم تنتهِ القضية، أيًّا كانت الأسباب التي دفعت الجنرال لقبول كل التهم الموجهة إلى حَمِّي بثقةٍ عمياء، ورفضه لأخذ التهم الأخطر الموجهة إلى يَن دي پـيرتوان بعين الاعتبار! أظن أنهم أتلفوا إفادات الشهود في پـادَن، ولكنْ لدي هنا شيءٌ لا يمكنهم إتلافه!'

«وقد أراني حكمًا من محكمة رَپـات[83] في ناتال التي كان هو رئيسها، يقضي

بجلد شخصٍ، اسمه سي پـاماگـا، وكَيِّهِ وأظن بالأشغال الشاقة عشرين سنةً، لمحاولته اغتيال توَانْكو ناتال.

«قال المراقب، ’ما عليك إلا أن تقرأ تقرير المحاكمة، لترى بنفسك إن كان حَميٍّ سيُصدَّق في بتافيا حين يتهم يَن دي پـيرتوان بالخيانة العظمى هناك!‘

«قرأت التقرير. وبحسب إفادات الشهود ’واعترافات المتَّهَم،‘ تلقّى سي پـاماگـا هذا أموالًا لاغتيال التوانكو، وسوتان سليم، أبي التوانكو بالتبنّي، والمراقب الهولندي في ناتال. ولكي ينفذ خطته كان قد ذهب إلى منزل التوانْكو، ودخل في حديث عن سيواه[84] مع خدمٍ يجلسون على درج الصالة الداخلية، وذلك لكي يطيل مكوثه إلى أن يرى التوانْكو. وبالفعل لم يلبث أن جاء التوانكو يرافقه أقرباؤه وخدمُه. توجَّه پـاماگـا إلى التوانكو حاملًا السيواه، لكنه لسبب من الأسباب لم يتمكن من تنفيذ مخططه القاتل، حيث ارتعب التوانكو وقفز من النافذة وهرب پـاماگـا. اختبأ في الغابة، وبعد بضعة أيام أمسكت به شرطة ناتال.

«وحين سُئِل المتهمُ عما دفعه لهذا الهجوم، والتخطيط لاغتيال سوتان سليم ومراقب ناتال، قال إن ’سوتان آدم، نيابةً عن أخي هذا الأخير، يَن دي پـيرتوان الماندائليني، دفع له المال لتنفيذ هذا الأمر‘.

«سأل سَلَفي، ’هل هذا واضحٌ أم لا؟ صادق المقيم على الحكم الذي نُفِّذ منه بندا الجَلْد والكَي؛ والآن سي پـاماگـا في طريقه إلى پـادَن ليُرسَل من هناك إلى جاوا هو ومجموعة السجناء الموثقين بالأغلال. ستصل المستندات إلى بَتافيا بالتزامن مع وصوله، وهناك سيعرفون أي صنفٍ من البشر هذا الذي أُوقِف حَمِيّ عن العمل بسبب اتهاماته! لا يستطيع الجنرال أن يلغي ذلك الحكم، مهما أراد وتمنى‘.

«تَولّيتُ إدارة مقاطعة ناتال، وغادر المراقب الآخر. وبعد مدةٍ تلقيتُ إشعارًا أن الجنرال سيزور شمال سومطرة في سفينةٍ حربيةٍ، وأنه سيزور ناتال أيضًا. زار منزلي برفقة حاشيةٍ كبيرةٍ، وعلى الفور طلب أن يرى الإفادات الأصلية المتعلقة 'بذلك الرجل المسكين الذي عومِل معاملةً سيئةً مريعةً'.

«ثم قال، 'إنهم هم الذين يستحقون السوط والمِكواة'.

«لم أستطع فهم الأمر. في ذلك الوقت كنت أجهل أسباب الخلاف على يَن دي پيرتوان، لذلك لم أستطع أن أتصور كيف يحكم المراقب السابق عمدًا على رجلٍ بريءٍ حكمًا قاسيًا أو أن يحمي الجنرال مجرمًا من حكمٍ عادلٍ. أُمِرْتُ أن أعتقل سوتان سليم والتوانكو. لكن التوانكو الشاب كانَ محبوبًا جدًّا لدى الشعب، ولم تكن لدينا في الحصن إلا حاميةٌ صغيرةٌ، فاستأذنت الجنرال أن نتركه طليقًا، فأَذِن لي. لكن سوتان سليم، عَدوَّ (يَن دي پيرتوان) اللدود، لم يَحْظَ بعَفْوٍ كهذا. كان هناك توترٌ عظيمٌ بين السكان. ساورتهم شكوكٌ أن الجنرال جعل من نفسه أداةً وضيعةً للأحقاد في ماندائلين، وكانت تلك هي الظروف التي جعلتني أتصرف، بين الحين والآخر، بطريقة سماها 'جريئة' - ولا عجب، فهو لم يمنحني القوةَ الصغيرةَ التي يمكن الاستغناء عنها من الحصن ولا فصيلة جنود البحرية التي أحضرها معه من السفينة لحمايتي، حين كنت أذهب إلى الأماكن التي تجمعت فيها حشودٌ من الأهالي الساخطين. حينها لاحظتُ أن الجنرال فاندام راح يحرص على حماية نفسه، ولهذا السبب لا أصدِّق ما يُشاع عن شجاعته ما لم أشهدها بأم عيني، أو أشهد شيئًا آخر.

«وبسرعةٍ هائلةٍ، شكَّل ما يمكن أن أسميه محكمةً خاصةً مؤلفةً من اثنين من مساعديه العسكريين، وضباطٍ آخرين، والمدّعي العام، الذي كان قد أحضره معه من پادَن، ومني شخصيًا. كانت مهمة المحكمة أن تحقق في الطريقة التي

أجرى فيها سَلَفي محاكمة پـاماگـا. كان عليَّ أن أستدعي عددًا من الشهود الذين لا بد من شهاداتهم لهذا الغرض. أجرى الجنرال، وهو أيضًا رئيس المحكمة، التحقيق بأكمله، بينما دوَّن المدّعي العام شهادات الشهود. لكن، حيث إن هذا المسؤول لم يفهم إلا قليلًا من الملاوية - وقطعًا لا شيءَ من الملاوية المحكية في شمال سومطرة - كان من الضروري في أغلب الأحيان ترجمة إجابات الشهود له، وهذه مهمة تنكَّب لها الجنرال شخصيًا في أغلب الأوقات. أفرزت جلساتُ هذه المحكمة، فيما يبدو، مستنداتٍ تبرهن بشكلٍ لا لبسَ فيه أن سي پـاماگـا لم يَنْوِ قطُّ أن يقتل أيًا كان، وأنه في حياته كلها لم يرَ سوتان آدم ولا يَن دي پـيرتوان، وأنه لم يهجم على توانكو ناتال، وأن هذا الأخير لم يهرب من النافذة ... وهلُمّ جرا! لا بل إن الحكم ضد سي پـاماگـا العاثر الحظ هذا قد صدر بضغطٍ من رئيس المحكمة - مراقب ناتال السابق - وعضو المحكمة سوتان سليم، الذي اشترك في تلفيق تهمة جريمة سي پـاماگـا المزعومة لكي يمنح مساعد المقيم في ماندائلين الموقوف عن العمل سلاحًا يدافع به عن نفسه، وليُنَفِّسوا أيضًا عن حقدهم على يَن دي پـيرتوان.

«ذكَّرتني الطريقة التي حقق بها الجنرال مع الشهود بلعبة شدةٍ لعبها أحد أباطرة المغرب حين قال لشريكه، 'العب بالكوبة، وإلا جَزَزْتُ عنقَك!' وهكذا الترجمات، كما أملاها هو على المدّعي العام، لم تكن على ما يُرام.

«لا أعرف إن كان سوتان سليم وسَلَفي قد مارسا ضغطًا على محكمة ناتال رَيّـات لإدانة سي پـاماگـا. لكني أعلم علم اليقين أن الجنرال فاندام مارس ضغطًا لتبرئة الرجل! ومن غير أن أفهم مغزى الأمر برمَّته حينها، اعترضتُ على هذه 'المخالَفات،' بل تماديتُ إلى حد رفض التوقيع على بعض الإفادات ... وفي هذا 'أغْضبْتُ' الجنرال كثيرًا! الآن ستفهمون ما قصدتُه حين اختتمتُ جوابي

على الانتقادات الموجهة إلى حساباتي بألّا يُلْتَمس لي أي عذر.»

قال دوكلاري، «هذا ردٌّ قويٌّ من شابٍّ مثلك!»

«ظَنَنْتُ أن هذا شيءٌ طبيعي. لكنْ هناك شيء واحد مؤكَّد: لم يكن الجنرال فاندام معتادًا على شيءٍ من هذا القبيل! ولذلك عانيت كثيرًا من عواقب هذه القضية. لا، يا فيربروخه، أنا أرى ما ستقوله، لكني لم أندم قط. في الحقيقة، لو أنني استقبلتُ من الأمر ما استدبرت - أي أن القضية كلها ملفَّقة لرفع قضية على زميلي - ما كان يجب أن أقتصر فقط على الاحتجاج على الطريقةِ التي حقق بها الجنرال مع الشهود ورفضِ التوقيع على بعض الإفادات. لقد تصورتُ أن الجنرال كان مقتنعًا ببراءة سي پـاماگـا، إلى درجة أنه سمح لنفسه أن تَحْدُوَه رغبةٌ صادقةٌ لإنقاذ رجلٍ بريءٍ من سوء تطبيق العدالة، إلى المدى الممكن حينها بعد الجَلْدِ والكَي. وفي ضوء هذا الرأي اتخذتُ موقفًا ضد التحريف الواضح للأدلة، لكنني لم أكن ساخطًا كما يجب، لو أنني عرفت أن المسألة لا تتعلق إطلاقًا بإنقاذِ ضحيةٍ بريئةٍ، بل فقط بإتلاف أدلةٍ لم تَرُق للجنرال، على حساب شرفِ سَلَفي ومصلحته.»

سأله فيربروخه، «وكيف سارت الأمور مع سلفك؟»

«لحسن حظه، كان قد غادر إلى جاوا قبل أن يعود الجنرال إلى پـادَن، ويبدو أنه تمكن من تبرئة نفسه لدى الحكومة في بَتافيا. على أية حال، ظل في الخدمة. أما مقيم آيَر باني، الذي وقّع أمر تنفيذ الحكم، فقد ...»

«أُوقِفَ عن العمل؟»

«طبعًا! وكما ترون، لم أُخطئ كثيرًا حين قلتُ ساخرًا إن الحاكم كان يحكم بإيقافنا عن العمل.»

«وماذا حلَّ بكل المسؤولين الموقوفين عن العمل؟»

«أوه، كان هناك الكثير منهم! أُعيدوا جميعًا إلى مناصبهم، آجلًا أو عاجلًا، بل إن بعضهم شغل مناصبَ مهمةً جدًّا.»

«وسوتان سليم؟»

«أخذه الجنرال موقوفًا إلى پـادَن، ومن هناك نُفي إلى جاوا. في الحقيقة ما زال في چـانْيُور، في متصرفيات پـريانـگـر، وقد زرتُه حين كنتُ هناك سنة 1846. تينا، هل تذكرين لماذا ذهبتُ إلى چـانْيُور؟»

«لا، يا ماكس، لقد نسيتُ ذلك تمامًا.»

«حسنٌ، لا يُتَوَقَّع من المرء أن يتذكر كل شيء! لقد ذهبتُ إلى هناك لأتزوجَ، أيها السيدان!»

قال دوكلاري، «لكن قُل لي، بما أن الشيءَ بالشيء يُذْكَر، هل صحيحٌ أنك خُضْتَ مبارزاتٍ كثيرةً في پـادَن؟»

«نعم، كثيرة جدًّا. تعرضت للكثير من الاستفزاز. كما قلت، في موقعٍ مثل پـادَن يكون رضا الحاكم هو المقياس الذي يوزِّع به كثيرٌ من الناس مقاصدَهم الحسنة عليك. ولذلك كان معظمهم لا يُكِنّون لي الخير، بل في كثيرٍ من الأحيان كانوا يُقَلِّلون أدبهم معي. وأنا من جهتي كنتُ نزقًا وشديدَ الحساسية. فإن تجاهل أحدهم تحيتي، أو سَخِرَ من 'حماقةِ شابٍّ يريد أن يُقاتل الجنرال،' أو لَمَح إلى فقري أو جوعي، أو إلى 'سوء التغذية الذي يترافق مع الاستقلال الأخلاقي' ... كل هذه، كما ترون، كانت تثير حَنَقي. كان كثيرٌ من الرجال، ولاسيما الضباط، يعلمون أن الجنرال يحب سماع أخبار المبارزات، ولاسيما مع شخصٍ غارقٍ في العار مثلي. وربما كانوا يستفزونني عمدًا. وكنت في بعض الأحيان أيضًا أبارِز نيابةً عن شخصٍ مظلومٍ برأيي. على أية حال، في تلك الأيام وذلك المكان، كانت المبارزات هي الشيءُ السائد، وفي أكثر من مرةٍ كانت

لديّ مبارزتان في ذات الصباح. أوه، في المبارزات شيءٌ جذّابٌ جدًا، ولاسيما بالسيوف، أو على السيوف كما نقول بالهولندية، لا أعرف لماذا. لكن يجب أن تفهموا أنني لن أتورط في شيءٍ من هذا القبيل الآن، حتى لو كانت له مناسبةٌ كما في تلك الأيام ... تعال إلى هنا، يا ماكس - لا تُمسِك بتلك الفراشة، اتركها، تعال إلى هنا! اسمع، يجب ألا تمسك بالفراشات أبدًا. تلك المخلوقة الصغيرة كانت يَرَقةً وبدأت حياتها بالزحف على شجرةٍ لمدةٍ طويلةٍ، وهذه ليست حياةً سعيدةً على الإطلاق! والآن فقط نبت لها جناحان، وهي تريد أن تطير هنا وهناك هُنَيْهَةً في الجو وتُمَتِّع نفسها، وتبحث عن غذائها في الزهور، وهي لا تؤذي أحدًا ... انظر، أليس من الأجمل بكثيرٍ أن تراها ترفرف هنا وهناك؟»

وهكذا انتقل الحديث من المبارزات إلى الفراشات، ثم إلى العناية الواجبة على الرجل المنْصِف تجاه حيواناته، إلى الإساءة إلى الحيوانات، إلى قانون گرامون،[85] إلى الجمعية الوطنية في باريس التي أجازت ذلك القانون، إلى الجمهورية الفرنسية، وإلى ما لا يعلمه إلا الله!

وأخيرًا نهض هافلار، واعتذر من ضيفيه، حيث إن لديه شغلًا يقضيه. وحين زاره المراقب في مكتبه صباحَ اليوم التالي، لم يعرف ذلك الضابط أن مساعد المقيم الجديد كان، بعد الأحاديث على الشرفة الأمامية في اليوم السابق، قد ركب حصانه إلى پاران كوجان - مسرحِ «الانتهاكات الفاحشة» - ولم يعُدْ إلا قبل بضع ساعاتٍ.

أرجو من القارئ أن يصدق أن هافلار رجلٌ شديدُ التهذيبِ، ولا يُكثِر من الحديث كما صوَّرتُه في الفصول الأخيرة، ولاسيما على مائدته، وكأنه يحتكر الحديثَ ويتجاهل تمامًا واجباتِ المُضيف التي تقضي بأن يُسمَح للضيوف أو

يُمنحوا الفرصة «ليتألَّقوا.» من ركام المواد التي أمامي لم أختر إلا بضعةَ أمثلةٍ عشوائيةٍ من حديثه على المائدة. وفي الحقيقة كان من الأسهل عليَّ أن أُطيل الأحاديث كثيرًا، بدلًا من اختصارها كما فعلتُ مضطرًّا. لكنني واثقٌ أن ما قيل سيُسهم في تسويغ الوصف الذي قدَّمتُه سابقًا عن شخصية هافلار وصفاته، ولذلك لن يشعر القارئ بالضجر من متابعة المغامرات التي تنتظره وذويه في رانْكَس بيتون.

عاشت الأسرةُ الصغيرةُ حياةً هادئةً. كان هافلار خارج المنزل نهارًا في كثيرٍ من الأوقات، بل كان أحيانًا يقضي نصف الليلِ في مكتبه. وكانت علاقته مع آمر الحامية الصغيرة على خير ما يُرام، ولم يكن في تعامله غير المتكلَّف مع المراقب أيُّ أثرٍ للتفاوت في المرتبة الذي يجعل العلاقة بين الناس متوترةً ومزعجةً في كثير من الأحيان في الهند الشرقية. علاوةً على ذلك، كان حبُّ هافلار للمساعدة بحدود إمكاناته البشرية موضعَ ترحيبٍ كبيرٍ لدى المتصرف الذي كان لهذا السبب مفتونًا جدًّا «بأخيه الأكبر.» وأخيرًا، أسهمت الطبيعة اللطيفة للسيدة هافلار إسهامًا لا يُستهان به في نشأة علاقاتٍ سارّةٍ مع القاطنين الأوربيين القليلين ومع الزعماء المحليين. وكانت المراسلات الرسمية مع المقيم في سيران تحمل دليلًا على مودةٍ متبادلةٍ. وكانت أوامر المقيم تصدر بلباقةٍ وتنفَّذ بدِقّة.

ثم ما لبث منزل تينا أن صار مناسبًا. فبعد انتظارٍ طويلٍ، وصل الأثاثُ من بَتافيا، ومُلِّح الكِتيمون، وحين راح ماكس يروي القصص على المائدة لم يكن ذلك من نقصٍ في البيض اللازم للعِجّة. لكن نمط حياة الأسرة دلَّ بشكلٍ واضحٍ أنهما يلتزمان التزامًا دقيقًا بالاقتصاد الذي خططا له.

كانت السيدة سلوتيرنـگ نادرًا ما تغادر منزلها، ولم تتناول الشاي مع أسرة هافلار على شُرفتهم الأمامية إلا بضعَ مراتٍ. كانت قليلةَ الكلام، وكانت دومًا

تراقب كل من يقترب من منزلها أو منزل هافلار. لكنهما تعوَّدا على ما راحا يسميانه هَوَسَها الأُحادي، ثم ما لبثا أن نسياه.

بدا كل شيء وكأنه يوحي بروح الطمأنينة، فبالنسبة إلى ماكس وتينا لم يكن صعبًا عليهما كثيرًا أن يتأقلما على الحرمان، الذي لا مفر منه في مركزٍ في الداخل بعيدٍ عن الطريق الرئيس. لم يأكلا الخبز لأنه لا يُخْبَز هناك. كان بإمكانهما أن يطلباه من سيران، لكن تكلفة نقله بالعربة كانت عاليةً جدًا. كان ماكس يعلم كغيره أن هناك طرقًا ووسائلَ عديدةً لجلب الخبز إلى رانْكَس بيتون بلا تكلفة، ولكنه يمقت عَمَلَ السُّخْرة، وهو أُسّ البلاء في الهند الشرقية، مقتًا شديدًا. كان بالإمكان الحصول على أشياء كثيرة من هذا القبيل في ليباك، وذلك من خلال الاستخدام غير المناسب للسلطة، ولكنها لم تكن لِتُباع بسعرٍ معقولٍ. وفي ظروف كهذه استغنى هافلار وتينا عنها بطيب خاطر. لقد كابدا صعوباتٍ أسوأ من هذه في زمانهما! ألم تُمضِ تينا شهورًا على سفينةٍ عربيةٍ، ليس لها من سريرٍ سوى سطح المركب، ولا ملجأ لها من حرارة الشمس وزخات الرياح الجنوبية الغربية إلا طاولةٌ صغيرةٌ كان عليها أن تحشر نفسها بين أرجلها؟ ألم تَكْتَفِ حينها بمؤونةٍ صغيرةٍ من الأرز اليابس والماء القذر؟ ألم تكن دائمًا راضيةً، في تلك الظروف وغيرها كثير، ما دامت ستكون برفقة ماكس؟

لكن كان في ليباك ظرفٌ واحدٌ يُنَغِّص عيشتها. لم يستطع ماكس الصغير أن يلعب في الحديقة بسبب كثرة الأفاعي فيها. وحين علمت تينا بهذا وَشَكَت لهافلار، عرض على الخَدَم جائزةً عن كل أفعى يصطادونها، لكنه في الأيام القليلة الأولى دفع الكثير من المال، فاضطر إلى إلغاء عرضه، لأنه وجد أن المدفوعات حتى في الظروف العادية، من دون حاجته الحالية الملحة للاقتصاد في النفقات، ستكون أكبر من طاقته. لذلك تقرر أنه من الآن فصاعدًا لن يغادر

ماكس المنزل، وأنه لكي يحصل على الهواء النقي سيكتفي باللعب على الشُّرْفةِ الأمامية. وبالرغم من هذا الإجراء الاحترازي كانت تينا دائمةَ القلق، ولاسيما في المساء، لأنه معروفٌ أن الأفاعي تتسلل في غالب الأحيان إلى البيوت، وتختبئ في غرف النوم طلبًا للدفء.

ما لا يمكن إنكاره هو أن الأفاعي وغيرها من الهوام موجودة في كل مكان في الهند الشرقية. لكن في التجمعات السكانية الكبرى، حيث تتلاصق المساكن أكثر، فإن وجودها أندر بطبيعة الحال مما هي عليه في الأماكن الريفية مثل رانْكَس بيتون. فلو أن هافلار تمكَن من تنظيف حوشه من الأعشاب الضارة حتى حافة الوادي، فلا شك أنها ستظل تظهر بين وقت وآخر في الحديقة، لكنها لن تكون بهذه الأعداد الكبيرة التي تظهر بها الآن. طبيعة الأفاعي تجعلها تفضِّل الظلام والعزلة على ضوء الفضاءات المفتوحة، ولذلك لو أن حوش هافلار لقي عنايةً مناسبةً، لما تركت تلك الزواحف خُضرة الوادي الأغَنِّ إلا رغمًا عن أنفها، إن جاز التعبير، أي، إذا ضلّت طريقها. لكن حوش هافلار كان مُهمَلًا، ويجب أن أخبركم السبب، حيث إنه يعطي لمحةً أخرى عن الانتهاكات السائدة، في كل مكان في الممتلكات الهولندية في الهند الشرقية.

تقوم منازل المسؤولين الحكوميين في الهند الشرقية على أرضٍ مشاعٍ، إن كان بالإمكان الحديث عن مشاعٍ في بلدٍ تُصادِر فيه الحكومة كلَ شيء. يكفي أن نقول إن تلك الأرض، إن ذلك الحوش ليس ملكًا شخصيًا للمسؤول الذي يشغله. ولو كان هذا هو الحال، لَحَرِصَ على ألا يشتري أو يستأجر أرضًا لا يستطيع أن يعتني بها، لذلك ما يلبث حوش المنزل الذي يُخصَّص للمسؤول، إذا كان كبيرًا جدًّا بحيث يستحيل الاعتناء به بشكل لائق، أن يتحول إلى أرضٍ موحشةٍ، نظرًا لكثافة النباتات في المناطق المدارية. ومع ذلك، من النادر جدًّا،

أو المستحيل، أن ترى حوشًا مُهمَلًا. في الحقيقة، غالبًا ما يُذهِل المسافرَ جمالُ الحديقة المحيطة بمسكن المقيم. لا يوجد موظف مدني في الهند الشرقية لديه راتبٌ كبيرٌ يكفي لدفع مصاريف العمل المطلوب. لكن فخامة المظهر ضرورية لمسكن أصحاب السلطة، وذلك لكي لا يكون إهمالٌ كهذا مدعاةً لاحتقار الأهالي الذين تجذبهم المظاهر الخارجية. ولذلك، فإن السؤال هو: كيف يُدبَّر الأمر، إذن؟ في معظم الأماكن يستفيد المسؤولون من السجناء المقيَّدين، أي من مجرمين مُدانين من مكانٍ آخر. لكن هذه الطاقة البشرية لم تكن متوفرةً في بانتام، وذلك لأسبابٍ سياسيةٍ مشروعةٍ تقريبًا. لكن حتى في الأماكن التي يتوفر فيها هؤلاء المحكومون، من النادر أن تجد ما يكفي منهم للقيام بالعمل المطلوب للعناية اللائقة بحوش كبير، ولاسيما في ضوء الحاجة إلى القيام بأعمال أخرى. لذلك كان لا بد من إيجاد وسائل أخرى، ويبدو أن استدعاء العمال للقيام «بعمل السخرة» كان أوضح هذه الوسائل. كان المتصرف أو الديمَن الذي يتلقى استدعاء من هذا القبيل، يسارع إلى الاستجابة له، لأنه يعلم علم اليقين أنه سيصعب لاحقًا على المسؤول الذي يسيء استخدام سلطته بهذه الطريقة، أن يعاقب زعيمًا محليًا إن أقدم على فعلةٍ مماثلةٍ. وهكذا يصبحُ اعتداءُ أحدهم رخصةً لغيره.

مع ذلك يبدو لي، في بعض الحالات، أن أخطاءً من هذا النوع من جانب صاحب السلطة يجب ألا يُحكَم عليها بقسوةٍ مفرطةٍ، وعلى الأخص يجب ألا يُحكَم عليها بالمعايير الأوربية. لأن الأهالي أنفسهم - ربما بحكم العادة - سيستغربون استغرابًا شديدًا إذا التزم صاحب السلطة، دائمًا وأبدًا، التزامًا دقيقًا بالأنظمة، التي تحدد عدد الخاضعين لعمل السخرة في حوشه، لأنه قد تنشأ ظروفٌ لم تكن في الحسبان حين صيغت تلك الأنظمة. لكن متى ما تم تجاوز

المسموح به قانونًا، يصبح من الصعب تحديدُ نقطةٍ يصبح عندها هذا التجاوز استغلالًا، فيصبح الحذر واجبًا أكثر حين يعلم المرء أن الزعماء لا ينتظرون إلا مثلًا سيئًا ليتبعوه على نطاقٍ أكبر بكثير. تُروى قصةٌ عن ملك كان يعبر البلاد على رأس جيشه، وكان قد أخذ ملحًا مع زاده القليل، فلم يسمح حتى بِذَرَّةٍ واحدةٍ أن تبقى غيرَ مدفوعة الثمن لأن هذا، برأيه، سيكون بداية الظلم الذي سيدمر إمبراطوريته بأكملها في نهاية المطاف. لا بد أن هذه الخرافة - أو الحالة، إن لم تكن خرافة - ذات أصلٍ آسيوي، سواء أكان الملك المعني اسمه تيمورلنـگ أو نور الدين أو جنكيز خان. وكما أن رؤية السدود توحي بإمكانية الفيضانات، فلنا أن نفترض أن هناك مَيْلًا لمثل هذه الانتهاكات، في بلادٍ تُنقَل فيها مثل هذه العِبَر.

لم يكن باستطاعة الناس القليلين الذين كانوا بحكم القانون تحت تصرف هافلار، أن يمنعوا نمو الأعشاب الضارة والنباتات إلا من جزءٍ صغيرٍ جدًّا من حوشه، وذلك في المحيط المباشر للمنزل. أما البقية فقد أصبحت غابةً خلال بضعة أسابيع. كتب هافلار إلى المقيم بشأن وسيلةٍ لمعالجة الأمر، إما من خلال مخصصات مالية، أو باقتراحٍ إلى الحكومة لتخصيص سجناء مقيَّدين للعمل في مندوبية بانتام، أُسْوَةً بالأماكن الأخرى. لكنه تلقى ردًّا سلبيًا، مرفقًا بملاحظةٍ تقول: إن الأشخاص الذين يُحْكَم عليهم في محكمة الشرطة «بالعمل على الطرقات العامة»، يمكن أن يُسخَّروا للعمل في حوشه، إن شاء ذلك. كان هافلار يعلم ذلك، بلا شك - أو على الأقل كان يعي أن التصرف على هذا النحو بأصحاب الجُنَح المُدانين، هو شيءٌ طبيعيٌ جدًّا في نظر العالم كله. لكنه لم يشأ أن يستعمل هذا الحق المفترَض، لا في رانْكَس بيتون ولا في أمبُويْنا ولا في مينادو ولا في ناتال. فأن يكون الاعتناءُ بحديقته عقوبةً لجُنَحٍ صغيرةٍ أمرٌ

مخالفٌ لطبيعته، ولَطالما تساءل كيف تستمر الحكومة بالسماح بوجود أنظمةٍ، قد تُغري مسؤولًا بعقوبةِ مخالفاتٍ تافهةٍ معذورةٍ، لا بما يتناسب وعِظَمها، بل بما يتناسب وحالة حوشه ومساحته! لذلك حين كان هافلار يضطر للمعاقبة، كان يفضِّل عقوبة السجن، مهما كانت مكروهةً في ظروفٍ أخرى، مخافةَ أن يخطر ببال الجانح، حتى وإن لقي جزاءً عادلًا، أن العقوبة التي حُكِم عليه بها فيها مصلحةٌ ذاتيةٌ.

ولهذا السبب لم يُسمَح لماكس الصغير أن يلعب في الحديقة، ولهذا لم تستمتع تينا بالزهور كما توقعت يومَ وصلت إلى رانْكَس بيتون.

ومن نافلة القول: إن هذا المنغِّص، كغيره من المنغِّصات الأخرى الصغيرة، لم تؤثر في أسرةٍ تملك الكثير من المقوِّمات لبناء حياة أسرية سعيدة، ولم تكن هذه التفاهات بكل تأكيد هي ما جعلت هافلار يأتي أحيانًا عابسَ الوجه، بعد رحلةٍ قام بها، أو بعد سماعه شخصًا جاء يطلب التحدث إليه. نحن نعلم من خطابه إلى الزعماء أنه كان ينوي القيام بواجبه، وأنه ينوي محاربة الظلم؛ كما أنني واثق، من الأحاديث التي دوَّنتُها، أن القارئ قد عرفه رجلًا قادرًا على الغوص إلى أُسِّ أي أمر، وإظهار الحق الغائب عن أنظار الآخرين أو المخبوء في الظلام. لذلك يمكن الافتراض أن كثيرًا مما يجري في ليباك لا يغيب عن ناظره. وكذلك رأينا أن هذه المقاطعة استرعت اهتمامه قبل سنوات عديدة، ولذلك أثبت في أول يوم قابله فيه فيربروخه، في الـﭘـندوﭙـو حيث تبدأ قصتي، أنه لم يكن غريبًا على مجال عمله الجديد. فمن استقصاءاته الميدانية أثبت كثيرًا من الأشياء التي كان قد خمَّنها، كما أن ملفات مكتب مساعد المقيم قد بينت له، على وجه الخصوص، أن المنطقة التي أُنيطت به إدارتُها كانت بالفعل في حالةٍ يُرثى لها.

من رسائل وملاحظات سَلَفِه، السيد سلوتيرِنـگ، وجد أن ذلك المسؤول

أيضًا توصل إلى ذات الاستنتاجات. كانت المراسلات مع الزعماء تحتوي توبيخًا إثرَ توبيخ، وتهديدًا إثرَ تهديد، وأوضحت بشكل لا لَبْس فيه أن مساعد المقيم السابق قال أخيرًا: إنه سيخاطب الحكومة بشكل مباشر، إن لم يوضع حدٌّ لهذا الوضع.

حين أخبر فيربروخه هافلار بهذا، ردَّ هافلار أن سلفه أخطأ لو فعل هذا، لأن مساعد المقيم في ليباك لا يحق له، في أي ظرف كان، أن يتجاوز مقيمَ بانتام، وأنه لا يوجد أي مسوغ لسلوكه هذا، لأنه من غير المعقول أن مسؤولًا رفيعًا سيدعم الاستغلال والابتزاز؟

وكان مثل هذا الدعم في الحقيقة لا يُتصوَّر، بالمعنى الذي قصده هافلار - أي أن للمقيم منفعةً أو مكسبًا من الجُنَح المعنية. لكن مما لا شك فيه كان هناك سببٌ جعل هافلار يتردد كثيرًا في إحقاق الحق فيما يتعلق بالشكاوى التي تقدم بها سلفُه. لقد رأينا كيف أن ذلك السلف قد تحدث مرارًا وتكرارًا مع المقيم عن تلك الانتهاكات السائدة - حديثًا رأسًا لرأس، كما قال فيربروخه - وكيف كان ذلك بلا جدوى تُذكَر. لذلك من المثير للاهتمام التحري عن السبب الذي جعل مسؤولًا رفيعًا - حيث إنه، بصفته رئيسَ المندوبية بأكملها، ملزَمٌ مثل مساعدِ المقيم بتطبيق العدالة - ارتأى بشكلٍ دائمٍ تقريبًا أن لديه أسبابًا لوقف مجرى العدالة.

حين كان هافلار يقيم في منزل المقيم في سيران، تحدث إلى السيد سلايميرِنگ عن الانتهاكات في ليباك، فقيل له: «إن هذه هي الحال في كل مكانٍ تقريبًا.» وهذا ما لم يستطع هافلار إنكاره، بطبيعة الحال. ففي نهاية الأمر، من له أن يزعم أنه رأى بلادًا لا ظُلْمَ فيها؟ لكن هافلار حاجج أن هذا ليس سببًا للسماح باستمرار الانتهاكات حيثما وجدها المرءُ، ولاسيما حين يُدعى هذا المرءُ صراحةً

لمكافحتها، وأنه من كل شيء عرفه عن ليباك، ليست المسألة هي أن الانتهاكات فيها أقل أو أكثر، بل مسألة إفراط في الانتهاكات. فقال له المقيم، من بين أشياء أخرى، إن الأوضاع في مقاطعة چِـرِنْـگـين، التابعة أيضًا لبانتام، أسوأ.

والآن لو افترضنا جدلًا أن المقيم ليست له منفعة مباشرة من الابتزاز والاستغلال التعسفي للسكان، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الذي، إذن، يدفع كثيرًا من الناس، بخلاف القَسَم والواجب، للسماح باستمرار هذه الانتهاكات من دون إخطار الحكومة بها؟ وكل من يتأمل هذه المسألة لا بد أنه يجد من الغريب جدًّا جدًّا أن وجود هذه الانتهاكات معترَفٌ به بهدوء تام، وكأن إصلاحها يفوق طاقة أي إنسان أو صلاحياته. سأحاول أن أكشف أسبابَ هذا.

إن مجرد نقل الأخبار السيئة، عمومًا، مهمة غير سارّة، ويبدو أن شيئًا من الانطباع السلبي الذي تتركه هذه الأخبار، يلتصق بالرجل الذي يحتِّم عليه واجبُه المحزن أن ينقلها. فإذا كانت هذه الحقيقة وحدها سببًا كافيًا لينكر بعضُ الناس، رغم معرفتهم، وجودَ شيءٍ كريهٍ، فما بالُك إذا كان الأمر ينطوي على مخاطرة، ليس فقط لاستجرار الأذى الذي يبدو أنه نصيبُ حاملِ الأخبارِ السيئةِ، بل لأن يُنظَر إليه فعليًا على أنه هو سبب الوضع المزري الذي يحتِّم عليه الواجب أن يكشفه!

تودُّ الحكومة الهولندية في الهند الشرقية أن تكتب وتخبر أسيادها في الوطن الأم أن كل شيء على ما يُرام. هذا ما يود المقيمون نقله للحكومة. ومساعدو المقيمين الذين لا يتلقون إلا تقارير مُحابية من مراقبيهم، لا يفضلون أن يرسلوا أي أخبار غير سارة إلى المقيمين. كل هذا يولِّد تفاؤلًا زائفًا في المعالجات الرسمية والمكتوبة للأمور، في تناقضٍ ليس فقط مع الحقيقة، بل أيضًا مع الرأي الشخصي لأولئك المتفائلين أنفسهم حين يناقشون تلك الأمور شفويًا، بل الأغرب من

هذا، في تناقض مع الوقائع في تصريحاتهم المكتوبة في أغلب الأحيان. بإمكاني أن أستشهد بأمثلة عديدة من تقارير ترفع الأحوال الإيجابية في مندوبيةٍ ما إلى السماء ثم تكذّب نفسها في ذات الوقت، ولاسيما حين تتحدث الأرقام. ولولا خطورةُ النتائج النهائية لهذه المسألةَ، لأثارت هذه الأمثلة الضحك والسخرية، ولا يمكن للمرء إلا أن يتعجب من السذاجة التي تُتَداول بها الأكاذيب المفضوحة في أغلب الأحيان ... وتُقْبَل، مع أن الكاتب نفسه، بعد بضع جُمَلٍ، يقدِّم الأسلحة لمحاربة تلك الأكاذيب. سأقتصر على مثالٍ واحدٍ وحيدٍ - لكن يمكنني أن أضربه بمثله أضعافًا مضاعفة. من بين المستندات التي أمامي أجد التقرير السنوي لمندوبيةٍ ما. يتحدث المقيمُ بلغةٍ برّاقةٍ عن ازدهار التجارة هنا، ويزعم أن الازدهار والنشاط الأعظمين يُنتَظَر أن تشهدهما المنطقة برُمَّتها. ولكنه بعد قليلٍ يضطر للحديث عن ضعف الإمكانات المتوفرة لديه لإحباط المهربين، ثم يسارع فورًا لمنع ترك انطباعٍ سلبي لدى الحكومة، لو استنتجتْ أن هناك تهربًا كبيرًا من دفع جمارك الاستيراد في مندوبيته:

يقول، «لا، لا حاجة للخشية من هذا الأمر إطلاقًا. لا يُهرَّبُ إلا القليل أو لا شيء في مندوبيتي، لأنه ... لا خيرَ في هذه النواحي، ولن يغامر أحدهم برأسماله في التجارة هنا!»

لقد قرأتُ تقريرًا مماثلًا يستهل بهذه الكلمات، «خلال السنة الماضية ظل السلامُ في المنطقة سِلميًا.» مما لا شك فيه هو أن جملًا كهذه، تشهد على ثقةٍ واثقةٍ جدًا في تساهل الحكومة، مع أي شخصٍ يرحمها من الأخبار غير السارَة أو، كما يقول المثل، «لا يُحرجها» بتقارير تبعث على الكآبة.

وإذا لم يزدد عدد السكان، يُعزى الأمرُ إلى عدم صحة الإحصاءات في السنوات السابقة. وإن لم ترتفع عائدات الضرائب، عُدَّ ذلك ميزةً: حيث إن

الهدف هو تشجيع الزراعة من خلال خفض التخمين، حيث إن الزراعة لم تبدأ بالنمو إلا الآن، وستعطي نتائج خرافية في القريب العاجل - ويفضَّل بعد أن يغادر كاتب التقرير المنطقة. وإن حدثت أعمال شغبٍ لا يمكن التستُّر عليها، فهي فعلةُ بضعة أشخاص ناقمين لم يعُد يُخشى منهم، حيث يسود الرضا التامُّ كل الأرجاء الآن. وإن أدّت محنةٌ أو مجاعةٌ إلى انخفاض عدد السكان، فيُعزى ذلك إلى نقصٍ في المحاصيل، أو الجفاف، أو الأمطار الغزيرة، أو أي شيء من هذا النوع، ولكن ليس إلى سوء الإدارة على الإطلاق.

أمامي ملاحظة دوّنها سلف هافلار يعزو فيها «انخفاض عدد السكان في پَـران كوجان» إلى انتهاكاتٍ «فظيعةٍ.» لكنّ تلك الملاحظة كانت غير رسمية، واحتوت على نقاط كان كاتبها ينوي بحثها مع مقيم بانتام. لكن بلا طائلٍ كان بحثُ هافلار في السجلات، عما يدل على أنه نقل المسألة صراحةً وبهذا اللفظ في أي مذكرة رسمية.

باختصار، إن التقارير الرسمية من الموظفين إلى الحكومة، وبالنتيجة التقارير التي تستند إليها أيضًا، وترسلها الحكومة إلى الوطن الأم، غير صحيحة في معظمها، وفي أهمِّ جزءٍ منها.

أنا أعلم أن هذه تهمة خطرة، ولكني لا أحيد عنها، وأنا في موقعٍ يُخوّلني أن أدعم ذلك بالبراهين. وكل من تزعجه صراحتي في التعبير عن رأيي بلا تحفظٍ، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار كم من ملايين الجنيهات، وكم من أرواح البشر كان بإمكان إنجلترا أن توفرها، لو أن أحدًا نجح في لفت أنظار الأمة إلى حقيقة الأمور في الهند، وكم من الناس سيدينون بالفضل للرجل الذي كانت لديه الشجاعة، ليكون رسولَ أيوب قبل أن يسبق السيفُ العذَل، لإصلاح الضرر بطريقةٍ أقل دمويةً مما صار محتومًا في وقتٍ لاحقٍ.

لقد قلت: إن بإمكاني أن أبرهن على تهمتي. وإن دَعَت الضرورة، بإمكاني أن أبيِّن أنه في أغلب الأحيان كانت هناك مجاعةٌ في مناطق كان يُضرَب بها المثل على الازدهار، وأن الأهالي الذين قيل عنهم في كثير من الأحيان إنهم مسالمون وقانعون كانوا على وشك الانفجار والتمرد. ليس بِنِيَّتي أن أُخْرِج هذه الأدلة في هذا الكتاب، مع أنني واثق أنه لن يضعه أحدٌ من يده إلا وهو يعتقد أنها موجودة.

حاليًا سأكتفي بمثال آخر على التفاؤل المضحك الذي تكلمتُ عنه - وهو مثالٌ يمكن أن يدركه بسهولة أي شخصٍ سواءٌ أكان مطَّلعًا على شؤون الهند الشرقية الهولندية أم لا.

فكل شهرٍ يقدِّم كل مقيم بيانًا ماليًا بكمية الأرز المستورَد إلى مندوبيته أو المصدَّر منها. في هذا البيان، تُقسَم التجارةُ إلى قسمين: تجارة مع العالم الخارجي، وتجارة مع بقية جاوا. ولو لاحظنا كمية الأرز المصدَّر وفقًا للبيانات الأخيرة من المندوبيات في جاوا إلى المندوبيات في جاوا، لوجدنا أن كمية الأرز الذي يُستورد إلى المندوبيات في جاوا، من المندوبيات في جاوا أكثر بعدة آلاف من الـپيكولات، وفقًا لذات البيانات.

سأمتنع الآن عن القول ماذا يظنُّ المرء بذكاء حكومةٍ تقبل مثل هذه البيانات وتنشرها؟ فلا أريد إلا أن ألفت انتباه القارئ إلى الغرض من هذا الخداع.

كان لنسبة المكافأة التي تُدفَع للموظفين الأوربيين ومن أهل البلاد على المنتجات المعدة للبيع في أوربا أثرٌ ضارٌّ في زراعة الأرز إلى درجة أن بعض المناطق، أهلكتها مجاعةٌ لا يمكن إخفاؤها عن أنظار الوطن الأم. لقد قلتُ من قبل إنه قد صدرت تعليماتٌ مفادها: أن الأمور يجب ألا يُسمَح لها أن تصل إلى ذلك المدى من جديد. ومن النتائج الكثيرة لهذه التعليمات كانت البيانات

المالية للواردات والصادرات من الأرز التي ذكرتُها، وذلك لكي تظل الحكومةُ تراقب باستمرارٍ انخفاضَ حجم المعروض وارتفاعه من تلك المادة الغذائية. فالصادرات من مندوبية تعني الازدهار، والواردات إليها تعني العِوَز.

الآن، حين تُدقَّق هذه البيانات وتُقارَن، فسيبدو أن الأرز متوفرٌ بكثرة في كل مكان بحيث يفوق مجموعُ صادرات جميع المندوبيات من الأرز مجموعَ واردات جميع المندوبيات. أكرر، إن المسألة هنا لا تتعلق بالصادرات الأجنبية التي يُقدَّم له بيانٌ منفصل، ولذلك فإن الاستنتاج من كل هذا الطرح السخيف، هو أنه يوجد في جاوا أرز أكثر مما هو موجود فعلًا. هذا هو الازدهار، إن شئتم!

لقد قلتُ من قبل إن الرغبة في عدم إرسال غير الأخبار السارة إلى الحكومة، ستكون مضحكةً لولا أن نتائجها مأساوية. فأي تصحيح لكل هذا الظلم الجَمّ يُرتجى في وجه العزيمة والتصميم على تحريف وتشويه كل شيء في التقارير الموجهة إلى السلطات؟ ماذا يُتوقَّع، على سبيل المثال، من سكانٍ، مهذبين وخانعين بطبعهم، اشتكوا من الظلم سنواتٍ وسنواتٍ، حين يرون مقيمًا بعد آخر يذهب في إجازة أو يتقاعد، أو يُستَدعى إلى منصب آخر، من غير أن يُتَّخذَ أيُّ إجراء لردِّ المظالم التي يكابدون منها؟ ألا يجب أن يرتدَّ النابض المحني؟ ألا يجب أن تنقلب النِّقمة التي قُمِعت طويلًا - قُمِعت لكي تواظب الحكومة على إنكار وجودها - إلى الغضب والتهور والجنون؟ ألا يؤدي هذا الطريق إلى انتفاضة؟

ثم، أين سيكون المسؤولون الذين تَعاقَب أحدهم تِلْوَ الآخر سنواتٍ كثيرةً من غير أن يخطر لأحدهم أن هناك شيئًا أسمى من «رضا الحكومة؟» شيئًا أسمى من «رضا الحاكم العام؟» وأين سيكون حينها كَتَبَةُ التقارير الفارغة الذين يَذرُّون الرماد في عيون الإدارة بأكاذيبهم؟ هل من افتقر إلى الشجاعة سابقًا، ليضع كلمةً جريئةً على الورق سيهُبُّ إلى السلاح وينقذ الممتلكات

الهولندية من أجل هولندا؟ هل سيعيدون إلى هولندا الكنز الواجب لقمع تمردٍ ومنعِ ثورةٍ؟ هل سيعيدون إلى الحياة الآلاف الذين هلكوا بجريرتهم؟

وأولئك المسؤولون والمراقبون والمقيمون ليسوا الأطراف الأكثر ذنبًا! لقد غَشِي الحكومةَ طائفٌ من عمىً لا يُعرَف كُنهُه، فراحت تشجع على تقديم تقارير محابية، وتدعو إليها وتكافئها. وهذه هي الحال على الأخص حين يتعلق الأمر بظلم الأهالي على أيدي الزعماء من أهل البلاد.

يعزو كثيرون هذه الحمايةَ غيرَ الرسمية للزعماء إلى رأيٍ خسيسٍ مفاده: أن هؤلاء الزعماء، الذين عليهم أن يظهروا بمظهر الأبهة والفخامة، لكي يمارسوا على الأهالي ذلك النفوذ الذي تحتاجه الحكومة لكي تحافظ على سلطتها، بحاجةٍ إلى مكافأة مالية أكبر بكثير مما يتلقّون الآن، لو لم يُترَك لهم الحبلُ على الغارب لترميمه بالاستخدام المحرَّم لأملاك الناس وجهدهم. أيًّا كان الأمر، من المؤكد أن الحكومة لا تطبق هذه الشروط التي يُفترَض أن تحمي الجاويين من الابتزاز والسرقة، إلا حينما يكون هذا التطبيق لا مفرَّ منه. إن اعتبارات السياسة العليا التي تتجاوز الاجتهاد العادي، وهي في غالب الأحيان مجرد تلفيقات، يُتَذَرَّع بها عادةً للصفح عن هذا المتصرف أو ذاك الزعيم؛ وفي الحقيقة هناك قولٌ شائعٌ يرقى إلى مرتبة المثل مفاده: أن الحكومة في الهند الشرقية تفضِّلُ أن تفصل عشرة مقيمين من العمل على أن تفصل متصرفًا واحدًا. وحين يكون لهذه الأسباب السياسية المزعومة أي أساس، فهي ترتكز عادةً على معلوماتٍ زائفةٍ، حيث إن لكل مقيم مصلحةً شخصيةً في إعطاء انطباعٍ مُفَخَّم عن سلطة المتصرفين على الأهالي، وذلك لكي يحمي نفسه، تَحَسُّبًا لأي انتقادٍ في المستقبل عن تساهله المفرط مع أولئك الزعماء.

سأتجاوز مؤقتًا عن النفاق المُقرِف لتلك الأحكام المغلفة بطابع إنساني -

والأيمان! - التي تحمي الجاويين ... على الورق ... من الاستبداد، وأطلب من القارئ أن يتذكر كيف أن هافلار أقسم تلك الأيمان بطريقةٍ توحي بالازدراء. أما الآن، فلا أريد إلا أن أشير إلى الموقف الصعب لرجل، يحسبُ نفسه ملزمًا لأداء واجبه بشيءٍ مختلفٍ تمامًا عن صيغةٍ منطوقةٍ.

بل إن هذه الصعوبة كانت أعظم بالنسبة إلى هافلار، مما ستكون بالنسبة إلى كثيرين غيره، لأنه رقيقٌ بطبعه، وهذا يتناقض تمامًا مع ذكائه الخارق، الذي لا بد أن القارئ قد اكتشفه في هذه الأثناء. لذلك كان عليه أن يتصارع لا مع خشيته من الرجال، أو مع القلق بشأن مسيرته المهنية أو ترقيته، أو مع واجباته تجاه زوجته وطفله - بل كان عليه أن يقهر عدوًا في قلبه! لم يكن باستطاعته أن يرى الحزن من غير أن يكابد هو شخصيًا. سيستغرق الأمر كثيرًا لضرب أمثلةٍ على الطريقة التي يحمي بها خصمًا من نفسه، حتى لو أُوذي أو أُهين. لقد أخبر دوكلاري وفيربروخه أنه وجد شيئًا مُغريًا في المبارزة بالسيف في شبابه، وهذا صحيح ... لكنه لم يقل إنه، إذا جرح خصمه، كان يبكي عادةً، وأنه كان يعتني بعدوه السابق مثل ملاكٍ من ملائكة الرحمة حتى يتعافى. لعلّه يجدر بي أن أخبركم أن محكومًا مقيدًا قد أطلق عليه النار في ناتال، فاستدعاه إليه، وتحدث إليه بلطفٍ، وأطعمه وأعطاه حريةً أكبر من الآخرين، لأنه استنتج أن تهور السجين كان بسبب قسوة الحكم الذي صدر عليه في مكانٍ آخر. وعمومًا كانت طيبة قلبه، إما تُستَنكَر أو تُسَفَّه. يستنكرها أولئك الذين خلطوا بين قلبه وعقله، ويُسَفِّهها أولئك الذين لا يفهمون كيف أن رجلًا عاقلًا، يمكن أن يتجشَّم عناء تخليص ذبابةٍ علقت في شبكة عنكبوت. استنكرها من جديد كل واحد سمعه، ما عدا تينا، بعد هذا، يشتم تلك «الحشرات الغبية» و«الطبيعة الغبية» التي خلقت مثل هذه الحشرات.

لكن كانت هناك طريقة أخرى إلى إنزاله من المنصة التي شعر المحيطون به - سواءٌ أكانوا يحبونه أم لا - أنهم مُلزَمون بوضعه عليها. «نعم، إنه فَطِن، لكنه ... سطحي.» أو «إنه ذكي، لكنه ... لا يستخدم ذكاءه بشكل مناسب.» أو «إنه طيب القلب، ولكنه ... يتباهى بذلك رياءَ الناس!»

وهنا لن أدافع عن فطنته أو ذكائه، لكن ماذا عن قلبه؟ أيتها الذبابات المسكينة المكافحة التي أنقذها حين لم يكن هناك أحدٌ قريبًا منه، ألن تدفعي عن ذلك القلب تهمة «الرياء؟»

لكنكِ طرتِ بعيدًا ولم تكترثي لهافلار، ولم يكن بمقدورك أن تعرفي أنه سيأتي يومٌ يحتاج فيه إلى شهادتك!

هل كان رياءً من هافلار حين قفز في مصب النهر في ناتال لأنه خشي أن جَرْوَةً - اسمها سافو - لن تستطيع السباحةَ بشكل جيد لتنجو من أسماك القرش التي تحتشد هناك؟ يبدو لي أن الأصعب هو تصديق أن هذا هو التظاهر بطيبة القلب، بدلًا من أن يكون هو طيبة القلب عينها.

أناشدكم أنتم الكثيرين الذين عرفتهم هافلار، إن لم تتجمدوا من برد الشتاء ومُتُّم ... مثل الذبابات التي أنقذها، أو تيبَّستُم من شدة الحرارة هناك، تحت الخط [*الاستواء*]، أناشدكم، يا من عرفتموه جميعًا، أن تشهدوا على طيبة قلبه! وأناشدكم الآن، على وجه الخصوص، بكل ثقة، لأنكم الآن لم تعودوا بحاجةٍ للبحث عن مكان لتربطوا به الحبل لكي تُنزلوه من أي مكانة بارزة قد يكون شَغَلها.

وفي هذه الأثناء، سأفسح المجال هنا لبعض أشعارٍ كتبها بيده، لعلَّها تُغني عن شهادتكم، حتى وإن جعلتْ كتابي يبدو غير مترابط. في يوم من الأيام كان ماكس بعيدًا، بعيدًا جدًّا عن زوجته وابنه، وكان مضطرًا لتركهما في الهند

الشرقية، وكان هو في ألمانيا. وبنباهة الفكر التي أنسبُها إليه، لكني لا أُلح عليها إن كان هناك من يرغب في منازعتي فيها، أتقن لغة البلاد التي أقام فيها بضعةَ أشهُرٍ فقط. إليكم، إذن، الأبيات التي كتبها بالألمانية، الأبيات التي تُصَوِّر في الوقت نفسه تفانيه تجاه كل من هو عزيزٌ لديه:

«أي بُني، ها هي الساعة تدق التاسعة - فأنصِت!
رياح الليل تهمسُ، والهواء يزداد برودةً،
برودةً لعلّك لا تطيقُها: ها هو جبينُك يتوهَّج!
لقد كنتَ تسرح وتمرح على هواك النهارَ بطوله،
لا بد أنك تعبتَ، فهيّا بنا، ينتظركُ تيكارُك».[86]

«آوه، يا أمي، أمهليني لحظةً أخرى!
ها أنا أستلقي برفقٍ الآن ... وهناك
على فراشي أنام في الحال،
غيرَ مُدرِكٍ ما أحلم به! لكن هنا،
هنا بإمكاني أن أقول لكِ فورًا ما أحلم به،
وأسألكِ ما يعنيه ... استمعي، يا أمي،
ما هذا؟»

« ـــ لقد كان ذلك كلاڤيا[87] قد سقط.»

«وهل السقوطُ يوجِع الكلاڤيا؟»

«لا، لا أظن ذلك،
فلا الفاكهة ولا الحجارة، حسبما يقولون، لها مشاعر.»

«إذن الزهور - ألا تشعر بشيء؟»

«لا،
يُقال إنها بلا مشاعر أيضًا.»

«أمي،
حين كسرتُ الـپـوكول أمـپـات[88] يوم أمس،
لماذا قلت إذن: إن ذلك يؤذي الزهرة؟»

«يا بني، لقد كانت الـپـوكول أمـپـات جميلةً جدًا،
وقد جرَّدْتَها من أوراقها الطرية بخشونةٍ
وشعرتُ بالأسى لأجل تلك الزهرة الجميلة المسكينة.
وحتى لو لم تكن الزهرة نفسها تشعر بالأذى
فقد شعرتُ أنا بهِ نيابةً عن الزهرة، فقد كانت جميلةً جدًّا.»

«ولكن يا أمي، هل أنتِ جميلةٌ أيضًا؟»

«لا، يا بُني،
لا أظن ذلك.»

«لكن أنتِ لكِ مشاعر؟»

«نعم، كل الناس لهم ذلك ... ولكن ليسوا سواء.»

«وهل يمكن لشيء أن يؤذيك؟ هل تشعرين بالألم
حين أُسند رأسيَ الثقيلَ في حضنكِ؟»

«لا، هذا لا يسبب لي ألمًا بتاتًا!»

«أمي، هل أنا،
هل أنا لي مشاعر؟»

«بالتأكيد! تذكَّر
كيف تعثَّرتَ ذاتَ مرةٍ، وجرحتَ يدك الصغيرة
على حجرٍ، وبكيتَ بمرارةٍ شديدةٍ.
وقد بكيتَ أيضًا حين حكى لكَ سوديان كيف
أن حَمَلًا صغيرًا هناك بين التلال
سقط في وهدةٍ عميقةٍ، ومات.
ثم بكيتَ مدةً طويلةً. انظر، هذه هي المشاعر.»

«لكن، يا أمي، هل هذا الشعور هو الألم إذن؟»

«نعم، في غالب الأحيان ... ليس دائمًا، أحيانًا لا!
أنت تعلم، حين تتعلق أختُك الصغيرة بشعرك
وتُقَرِّب وجهَك، وهي تزعق، إلى وجهها،
فتضحكُ أنت بمرحٍ، هذا أيضًا شعور.»

«وأختي الصغيرة، إذن ... فهي تصرخ كثيرًا،
هل تصرخُ ألمًا؟ هل هي أيضًا لها مشاعر؟»

«ربما، يا عزيزي، لكن لا نستطيع أن نعرف ذلك،
لأنها صغيرةٌ لا تستطيع أن تخبرنا هذا.»

«لكن، أنصتي، يا أمي ... ما هذا؟»

«غزالٌ تأخر في الغابة، وها هو يسرع الآن
عائدًا إلى منزله، ليجد راحته المنشودة منذ زمن
مع غزلان أخرى يحبها.»

«أمي، هل للغزال أختٌ صغيرة أيضًا؟
وهل له أمٌّ مثل أُمّي؟»

«لا أعرف، يا بني.»

«ما أتعسَه إن لم يكن له ذلك!
لكن انظري، يا أمي، ... ما ذاك الذي يومِض في تلك الأجمة؟
انظري كيف يتقافز ويثب ... هل هو شرارة؟»

«إنها يَراعة.»

«هل لي أن أحاول الإمساك بها؟»

«نعم، لك ذلك، لكنها حشرةٌ صغيرةٌ ورقيقةٌ جدًّا
وإمساكُك بها لا بد أن يؤذيها. فما إن تلامس تلك المخلوقة

بخشونة أصابعك حتى تمرض وتموت، وتكفَّ عن التوهُّج!»

«أوه، معاذ الله أن أفعل. لا، سأتركها!
انظري، كيف تختفي الآن ... لا، إنها قادمةٌ إلينا ...
لكني لن أُمسك بها! وها هي الآن تواصل طيرانها،
سعيدةً لأنني لم أُمسك بها.
ها هي تتسامى، عاليًا، عاليًا ... ما هذه؟
هل كل هذه يرَعاتٌ صغيرةٌ أيضًا؟»

«تلك هي النجوم.»

«انظري، واحدة! ثم عشرٌ، ثم ألفٌ!
كم يبلغ عددها هناك؟»

«لا علمَ لدي،
لم يُحْصِ أحدٌ حتى الآن كل النجوم.»

«لكن قولي لي، ألا يستطيع حتى هو أن يحصيها؟»

«لا، يا حبيبي، ولا حتى هو.»

«هل تلك النجوم هناك بعيدة جدًّا؟»

«بعيدةٌ جدًّا!»

«لكن، هل لتلك النجوم هذا الشعور أيضًا؟
ولو لامستُها بيدي، هل ستمرض فورًا
وتموت، وتفقد ألَقها مثل اليراعة؟
انظري إليها، ما تزال تحلق!
قول لي، هل أنا أُؤذي النجوم أيضًا؟»

«أوه، لا، لا يمكنك أن تؤذي النجوم! وهي بعيدةٌ جدًّا أيضًا
ويدك أصغر من أن تطالها.»

«هل يستطيع هو أن يمدَّ يده ويُمسك بالنجوم؟»

«لا، يا عزيزي، ولا حتى هو. لا أحد يستطيع ذلك!»

«واحسرتاه! كم كنتُ أتمنى أن أعطيك نجمةً!
لكني أمهليني حتى أكبُرَ وأحبَك حبًّا يمكنني من ذلك!»

خرَّ الطفل نائمًا، وحلم بالمشاعر،
بنجومٍ أمسكها بيديه الصغيرتين ...
ومضى وقت طويل قبل أن تنام هي،
لكنها راحت تحلم به، جلَّ في عُلاه ...

نعم، لقد جازفتُ وأفسحتُ مجالًا لهذه الأسطر هنا، حتى وإن جعلتْ كتابي يبدو فوضويًا. فأنا لا أريد أن أفوِّت أيَّ فرصةٍ للتعريف بالرجل الذي يؤدي الدور الأساسي في قصتي لعلَّه يثير اهتمام القارئ لاحقًا حين تَدْلهِمُّ فوق رأسه داكناتُ الغيوم.

[15]

كان سَلَفُ هافلار بالفعل يريد أن يفعل ما هو صائبٌ، لكن يبدو أنه كان أيضًا يخشى إلى حدٍّ ما أن يثير سخط الحكومة (والرجلُ لديه أطفالٌ كثيرون ولا مالَ لديه). لذلك فضَّل أن يُحدِّث المقيم عمّا سماه هو شخصيًا انتهاكاتٍ شنيعةً بدلًا من أن يُسمّيها صراحةً في تقرير رسمي. كان يعلم أن أي مقيم لا يحب أن يتلقى بيانًا مكتوبًا، بيانًا يبقى في ملفاته، ويمكن أن يُسْتَدلَّ به لاحقًا على أنه تم لفت انتباهه في الوقت المناسب إلى هذه المخالفة أو تلك، بينما الخطاب الشفوي لا يحمل مثل هذه المخاطرة، بل يترك له خيار معالجة الشكوى أو تجاهلها. كانت هذه الخطابات الشفوية تؤدي إلى مقابلةٍ مع المتصرف الذي كان بطبيعة الحال يُنكر ويطالب بالبراهين، ثم يستدعي المقيمُ الأهالي الذين تجرؤوا على الشكوى، ثم يزحفون عند قدم الأديپاتّي، طالبين العفو. «لا، لم تؤخذ الجاموسة منهم مجانًا، بل ظنوا أن ثمنها هو ضعفُ ما دُفِع لهم.» «لا، لم يُستدعَوا من حقولهم للعمل في سَواه المتصرف بالسُّخْرة - فهم يعلمون علمَ اليقين أن الأديپاتّي سيكافئهم لاحقًا مكافأةً سخيةً.» «لقد ألقوا تُهمتَهم في لحظةٍ من السخط الذي لا أساس له ... لا بد أن مَسًّا أصابهم، ثم توسلوا لكي يعاقَبوا أُصولًا لهذا الازدراء المُنكَر!»

كان المقيم يعلم تمامًا ما تعنيه هذه التراجعات، لكنها مع ذلك تمنحه فرصةً رائعةً لإبقاء المتصرف في منصبه وحفظ ماء وجهه، كما تُعفيه من المهمة القبيحة «لإحراج» الحكومة بتقريرٍ سلبي. ومَن دَفَعه الطيشُ للاتهام يُضْرَب بالخيزرانة

عقابًا له، فينتصر المتصرف، فيعود المقيمُ إلى مركز المقاطعة مزهوًّا بقدرته على «إصلاح» الأمور على خير ما يُرام مرةً أخرى.

لكن ماذا عساه مساعدُ المقيم أن يصنع إن جاءه مُتظلِّمون آخرون غداةَ غدٍ؟ أو - وهو ما حدث مِرارًا وتكرارًا - إن عادت إليه ذاتُ الأطراف المتظلمة، وتراجعوا عن تراجعهم؟ هل سيهتم بالقضية من جديد، ويخاطب المقيمَ بشأنها من جديدٍ، ويرى ذاتَ المهزلةِ المأساويةِ تُمثَّل من جديد، لكي يكون جزاؤه في نهاية المطاف أن يوصَمَ بأنه رجلٌ مهووسٌ بالاتهامات الغبية والخبيثة التي يجب أن تُرفض دائمًا لأنها لا أساسَ لها؟ ما هو مصير العلاقات الودية الضرورية بين الزعيم المحلي الأساسي، والمسؤول الأوربي الأعلى حين يبدو هذا الأخيرُ ميّالًا دومًا للإصغاء إلى تُهَم ملفقةٍ ضد ذاك الزعيم؟ ثم، ما هو مصير المشتكين المساكين حين يعودون إلى قريتهم، ويصبحون تحت رحمة زعيم المنطقة أو القرية الذي كانوا قد اتهموه بأنه أداةٌ لاستبدادِ المتصرف؟

ماذا حلَّ بهم؟ من استطاع الهرب فقد هرب. ولهذا السبب تجد كثيرًا من أهل بانتام يهيمون في المناطق المجاورة! ولهذا السبب كان هناك الكثير من المتمردين من ليباك في مناطق اللامـپـون! ولهذا السبب سأل هافلار في خطابه إلى الزعماء، «لماذا هناك بيوتٌ كثيرةٌ خاليةٌ من سكانها في القرية؟ ولماذا يُفضِّل كثيرون ظِل الأدغال الغريبة على برودة الغابات في بانتان كيدول؟»

لكن ليس بإمكان الجميع أن يهربوا. فالرجل الذي شوهدت جثتُه طافيةً غداةَ طلبه مقابلةً ليليةً مع مساعد المقيم، وكان قد طلبها بسريةٍ وقَلَقٍ ومُكْرَهًا، ... هذا لم يعد بحاجةٍ إلى الهرب. ربما يجدر بنا أن نحسب موتَه المفاجئ إنقاذًا له من العيش أطولَ قليلًا، بل شيئًا إنسانيًا. لأنه بهذا أُعفي من سوء المعاملة التي كانت بانتظاره عند عودته إلى القرية، ومن الجَلْد بالخيزرانة، وهما جزاءُ كل من

تُسوِّل له نفسُه للحظةٍ أنه ليس بهيمةً أو قطعةً من خشبٍ أو حجرٍ لا حياةَ فيها. جزاءُ من اعتقد، في لوثةٍ من جنونٍ، أن هناك عدلًا في الأرض، وأن مساعد المقيم لديه الرغبة والقدرة على تطبيق تلك العدالة.

أليس الأفضلُ للرجل بالفعل أن يُمنَع من العودة في اليوم التالي إلى مساعد المقيم - كما أمره هذا أن يفعل - وأن تُخنَق شكواه في مياه چِيوجون الصفراء، التي ستحمله برفقٍ إلى مصب النهر الذي اعتاد، على حمل مثل هذه القرابين الأخوية من قُروشِ البرِّ إلى قُروش البحر؟

وكان هافلار يعلم كل هذا! هل بوسع القارئ أن يشعر بالعذاب الذي تحمّله قلبُه حين تذكَّر أنه نودي عليه لإحقاق العدل، وفي هذا كان مسؤولًا أمام سلطةٍ أعلى من حكومةٍ قد توصِّف العدلَ في قوانينها، لكنها لا تكترث دومًا إن كان ذلك العدل يُعمَل به؟ هل بوسع القارئ أن يشعر كيف كانت تتناهبه الشكوك، لا حول ما يجب عليه فعلُه، بل كيف عليه فعله؟

لقد ابتدأ برفق. لقد تكلم مع الأديپاتي كما يحتِّم الواجب على «الأخ الأكبر» أن يكلم أخاه؛ وإن ظنَّ أحدٌ أنني ربما أحاول أن أُمجِّد، بلا داعٍ، الطريقةَ التي تكلم بها بطل قصتي الذي يأسُرُني، فعليه أن يعلم أنه بعد حديثٍ كهذا أرسل المتصرف الـپاتّه خاصته إلى هافلار ليشكر له كلماته اللطيفة. وهذا ليس كل شيء. فبعد ذلك بوقتٍ طويلٍ - حين لم يعد هافلار مساعد المقيم في ليباك، أي حين لم يعد يُرتَجى أو يُخشى من شيءٌ - كان الـپاتّه يتحدث إلى المراقب فيربروخه، فتذكر ما قاله هافلار، فتأثر تأثُّرًا عميقًا فقال، «لم يتكلم سيدٌ قطُّ كما تكلم!»

أجل، لقد أراد أن ينقذ ويُصلِح لا أن يدمر! لقد شعر بالأسف لأجل المتصرف، فهو يعلم جَورَ قلة ذات اليد، ولا سيما إذا كانت تؤدي إلى الذل

والمهانة، فالتمس له الأعذار. كان المتصرف مُسِنًّا وعميدَ أسرةٍ عاش أفرادها في رَغَدٍ من العيش في المناطق المجاورة التي تنتج الكثير من القهوة ولهذا كانوا يتمتعون بعلاواتٍ كبيرةٍ. أفلا يغيظه أن يعيشَ هو عيشةً أكثر تواضعًا من أقربائه الأصغر سنًّا؟ كما أن الرجل، مدفوعًا بالتعصب والتقدم في العمر، بدا له أنه يمكن أن يشتري خلاص نفسه، بتمويل حملاتٍ للحجاج إلى مكة، وإعطاء الزكاة لمتسكعين يُدندنون أدعيةً مملةً. المسؤولون الذين سبقوا هافلار في ليباك لم يكونوا دائما قدوةً حسنةً. وأخيرًا، ما جعل عودة المتصرف إلى جادة الصواب مُتَعَذِّرةً هو حجم أسرته التي كانت تعيش بأكملها على حسابه.

وهكذا راح هافلار يبحث عن أسباب لتأجيل الإجراءات المتشددة، ويحاول مرةً بعد أخرى أن يرى ماذا يمكنه أن يُنجز بالرفق.

بل ذهب إلى ما هو أبعد من الرفق. بكرمٍ يذكِّر بالأخطاء التي أفقرته، ظل دومًا يُسلِّف المال للمتصرف على مسؤوليته الشخصية، لعلَّ الحاجةَ لا تكون حافزًا قويًّا على التجاوُز؛ وكالعادة، تجاهل مصحلته الشخصية إلى درجةٍ أنه كان مستعدًّا للعيش هو وأسرته على أدنى الضروريات لكي يُنجِد المتصرف بالقليل الذي يستطيع أن يوفره من دخله.

إن كانت لا تزال هناك حاجةٌ للبرهنة على الكياسة التي أدى بها هافلار واجبه الصعب، فإن هذا البرهان يمكن أن نجده في رسالةٍ شفويةٍ، حمَّلها المراقبَ ذاتَ مرةٍ حين كان هذا ذاهبًا إلى سيران لبضعةِ أيام، «إن سمعَ المقيمُ بالانتهاكات الجارية هنا، فقل له ألا يظنَّن أني غيرُ مكترثٍ بها. إنما أمتنع عن نقلها بشكل رسمي فورًا، لأنني أشعر بالأسف إزاء المتصرف، وأريد أن أنقذه من الصرامة العظيمة لعلَّه يهتدي، أولًا، بالإقناع إلى ما يُمليه عليه الواجب.»

كان هافلار يغيب أيامًا بلياليها، وحين يكون في البيت، فهو عادةً في الغرفة

التي مثلناها بالمقصورة رقم 7 في مخططنا. كان يجلس هناك يكتب، ويستقبل الناس الذين يطلبون رؤيته. لقد اختار تلك الغرفة لكي يكون قريبًا من حبيبته تينا التي كانت عادةً في الغرفة الملاصقة. كانا يهيمان ببعض إلى درجة أن ماكس، حتى وهو مشغولٌ بمهمةٍ تحتاج إلى تركيزٍ وجهدٍ، كان يشعر بحاجة دائمة لرؤيتها أو سماعها. ومن المضحك أن تراه في غالب الأحيان وهو يوجِّه لها كلمةً مفاجئةً خطرت بباله لها علاقةٌ بالموضوعات التي تشغله، وأن تتمكن هي، من غير أن تعرف ماذا يفعل، من متابعة مسار أفكاره. بل كان من عادته ألاّ يشرحها لها، كأنه أمرٌ بدهي أن تعرف مقصده. ومن عادته أيضًا أنه، إذا كان ناقمًا من عمله أو من خبرٍ كئيبٍ تلقاه للتو، كان يقفز ويقول لها شيئًا جارحًا، وكأنها هي سبب نقمته. لكنها كانت تحب سماع ذلك لأنه برهان آخر على خلط ماكس بينها وبين نفسه. لم تكن هناك أيُّ قضيةٍ ندمٍ على هذه القسوة البادية للعيان، ولا مسامحةٍ من الطرف الآخر. فهذه بالنسبة إليهما بمثابة من يستسمح من نفسه لأنه ضرب نفسه نَزَقًا.

في الحقيقة كانت تينا تعرف بالضبط متى يجب أن تكون إلى جانبه لتمنحه لحظة استرخاء، ومتى بالضبط يحتاج إلى مشورتها، ومتى بالضبط عليها أن تتركه وحده.

وفي تلك الغرفة بعينها كان هافلار يجلسُ ذاتَ صباحٍ حين جاءه المراقب يحمل رسالةً تلقاها للتو.

قال المراقب ولم يكد يتجاوز الباب، «هذه مسألةٌ صعبةٌ، يا سيد هافلار. صعبةٌ جدًّا!»

والآن حين أقول إن الرسالة لم تكن تحمل إلا طلبًا تقدم به هافلار لشرح تفاوتٍ في تكلفة أعمال الخشب والشُّغل، لن يلبث القارئ أن يظن أن المراقب

فيربروخه يحسب أي أمر صعبًا. ولذلك أُسارِعُ للقول إن كثيرين غيره سيجدون صعوبةً أيضًا للإجابة عن ذلك السؤال البسيط.

بُنِيَ سجنٌ في رانْكَس بيتون قبل سنين. ومن المعروف عمومًا أن المسؤولين في جاوا ماهرون في بناء مبانٍ بقيمة آلاف الخولدنات من غير أن ينفقوا عليها أكثر من مئات الخولدنات. وهذا يمنحهم سمعةً في الكفاءة والحماسة لخدمة البلاد. والفرق بين المال المنفَق وقيمة ما يحصلون عليه يعوَّض من خلال اللوازم المجانية أو العمل المجاني. وكانت هناك أنظمةٌ تمنع هذا لعدد من السنوات. لا يعنينا هنا إن كانت هذه الأنظمة تُتَّبَع. ولا إن كانت الحكومة ترغب في اتِّباعها بدقةٍ من شأنها أن تُحرج ميزانية دائرة الأشغال العامة. أعتقد أن هذه الأنظمة تنضوي في ذات الخانة التي تنضوي فيها أمورٌ كثيرةٌ أخرى تبدو بمثابةِ أعمالٍ خيرية على الورق.

لكن كانت هناك حاجةٌ إلى مبانٍ كثيرة أخرى في رانْكَس بيتون، وقد طلب الخبراء المسؤولون عن إعداد الخطط قائمةً بمعدلات الأجور المحلية وأسعار المواد. وكان هافلار قد أوصى المراقب فيربروخه أن يجري تحريات دقيقة، ونصحه بأن يعطي الأسعار الحقيقية، من دون الرجوع إلى ما جرى في الماضي. وحين نفذ فيربروخه تعليماته، يبدو أن الأسعار لم تُطابق قائمة الأسعار قبل بضع سنوات. ولذلك كتب المقيم الآن يسأل عن سبب هذا التفاوت، وهذا ما وجده فيربروخه صعبًا.

قال هافلار، الذي كان يعلم جيدًا أساسَ هذه المسألة البسيطة في ظاهرها، إنه سيعطي فيربروخه رأيه عن «الصعوبة» في الكتابة. ومن بين المستندات التي أمامي، لدي نسخةٌ من الرسالة التي يبدو أنها نشأت عن ذلك.

إن كان قارئي يشتكي من إضاعتي وقته، بمراسلات تخص أسعار أعمال

الخشب، التي لا تبدو أنها ذات علاقةٍ به، فإنني أرجوه أن ينظر إلى أن المسألة الحقيقية في صلب الموضوع هي مسألة مختلفةٌ تمامًا، ألا وهي حالة اقتصاد حكومة الهند الشرقية، وأن الرسالة التي أنسخها أدناه لا تلقي فقط شعاعًا من نورٍ على التفاؤل المصطنع الذي ذكرتُه من قبل، ولكنها أيضًا تشير إلى المصاعب التي يواجهها أي شخص يريد، مثل هافلار، أن يشق طريقه بلا قيودٍ.

رقم 114 **رانْكَس بيتون، 15 آذار 1856**

إلى مراقب ليباك،

حين أحلتُ إليك رسالةَ مدير الأشغال العامة رقم 271/ 354، المؤرَّخة بتاريخ 16 شباط الأخير، طلبتُ منك أن تجيب عن الأسئلة التي طُرِحت فيها، بعد التشاور مع المتصرف مع مراعاة ما كتبتُه في مذكّرتي رقم 97 في الخامس من الشهر الجاري.

احتوت تلك المذكرة على تبيانات عامة، فيما يمكن حسبانُه منصفًا وعادلًا في تحديد أسعار المواد، التي يجب على الأهالي تقديمها بأوامر من الحكومة.

في مذكرتك رقم 6 في الثامن من الشهر الجاري، استجبتَ لطلبي - أعتقد، على قَدْرِ معرفتك. واعتمادًا على خبرتك المحلية وخبرة المتصرف، قدّمتُ لائحة الأسعار إلى المقيم تمامًا كما قدَّمتَها أنت.

وتَبِع ذلك رسالةٌ من ذلك المسؤول الكبير، رقم 326 في الحادي عشر من الشهر الجاري، يستعلم فيها عن سبب التفاوت في الأسعار التي

قدمتُها أنا وبين تلك التي دُفِعت عامي 1853-1854 من أجل بناء سجنٍ.

وأنا بطبيعة الحال أحلتُ تلك الرسالة إليك، وأمرتُك شفويًا لتسويغ قائمة أسعارك. وكان من الواجب أن يكون هذا سهلًا عليك، حيث كان بإمكانك أن تشير إلى التعليمات التي أعطيتُك إياها في رسالتي في الخامس من الشهر الجاري، وهي التعليمات التي ناقشناها شفويًا مراتٍ عديدةً.

وحتى الآن، الأمور على ما يُرام.

لكنك جئت إلى مكتبي يوم أمس وبيدك رسالة المقيم، ورحت تتكلم عن صعوبة التعامل مع الأمر. وقد لاحظتُ فيك من جديد نوعًا من الممانعة لتسمية الأشياء بمسمياتها، وهذا موقفٌ لفَتُّ انتباهَك إليه عدةَ مرات، بحضور المقيم مؤخرًا، على سبيل المثال - موقفٌ أسميه، من باب الاختصار، نصفَ هِمَّة [*فُتورًا*]، وقد حذَّرتُك منه كثيرًا بطريقةٍ وديةٍ.

نصفُ الهِمَّة لا تؤدي إلى شيء. لا خيرَ في نصف الخير. وأنصاف الحقائق أكاذيب.

فمن أجل راتبٍ كاملٍ ومرتبةٍ كاملةٍ، وبعد يمينٍ واضحٍ وكاملٍ، يجب على المرء أن يؤدي واجبه كاملًا.

فإن كانت الشجاعةُ مطلوبةً أحيانًا لذلك، فعلى المرء أن يمتلك تلك الشجاعة.

أنا شخصيًا يجب ألا أتجرأ على أن يكون لدي نقصٌ في تلك الشجاعة، ذلك لأن البحث عن منعطفات أسهل - ناهيك بانعدام الرضا عن الذات الذي ينشأ من إهمال الواجب والفتور - والرغبة في تفادي الصراع في كل زمان ومكان، والميل إلى «إصلاح» الأمور، لا بد أن تؤدي جميعًا إلى قلقٍ أكبر، وفي الحقيقة إلى خطرٍ أكبر مما سيواجهنا على الطريق الضيق المستقيم.

فيما يتعلق بمسألةٍ مهمةٍ جدًّا تنظر فيها الحكومة حاليًا ويجب أن

تهمك رسميًا في الواقع، فقد تركتُك على الحياد، إن جاز التعبير، ولم أُشِر إليها إلا مُزاحًا بين الحين والآخر.

لقد وصلني مؤخرًا، على سبيل المثال، تقريرُك عن أسباب البلاء والمجاعة بين السكان، فكتبتُ عليه، «قد يكون هذا كله الحقيقة، لكنه ليس الحقيقةَ كاملةً، ولا الحقيقة الأساسية. الحقيقة الأساسية تكمن في مستوى أعمق.» وقد اعترفتَ أنت بذلك صراحةً، وأنا لم أستغلَّ حقي بأن أطالبك، في ظل الظروف القائمة، أن تسمي ذلك السبب الأساسي.

وهناك أسبابٌ عديدة لاصطباري عليك، ومن بينها هذا السبب: لقد شعرتُ أنه ليس من الإنصاف أن أطالبك فجأةً بشيءٍ لا يقوى عليه كثيرون في مكانك - أن أُرغِمك على أن تتخلى فجأةً عن عادات التكتُّم والخوف من الآخرين، وهذه العادات ليست عيبًا منك أنت بقدر ما هي عيبُ القيادة التي أُعطيتَها. وأخيرًا، لم أرغب في البداية إلا أن أضرب لك مثلًا على مدى البساطة والسهولة، التي يؤدي بهما المرءُ واجبَه بدلًا من نصفه.

لكن الآن، وبعد أن حظيتُ بشرف تمديد الإشراف على عملك أيامًا كثيرةً أخرى، وبعد أن منحتُك الفرصة مِرارًا للتعرف على المبادئ التي - ما لم أكن مخطئًا خطأً مريعًا - ستنتصر في نهاية المطاف، فإني أود أن أطلب منك أن تتبنى هذه المبادئ. إني أطلب منك أن تستجمع تلك القوة التي لا تفتقر إليها بل التي أُهمِلت، تلك القوة التي لا غنى للمرء عنها إن أراد أن يقول ما يجب أن يُقال بصراحةٍ وعلى قَدْر علمه؛ ولهذا فإني أطلب منك أن تتخلى تمامًا عن هذا الانقباض الجبان، عن قول الحقيقة الجلية عن أي قضية.

وبناءً عليه، أتوقع منك الآن تبيانًا بسيطًا وكاملًا عن سبب التفاوت، برأيك، بين الأسعار الآن وسنتي 1853-1854.

وكلي ثقةٌ أنك لن تظنَّ أن أي قول ورد في هذا الرسالة قد كُتِب بقصد

جرح مشاعرك. آمُل أنك تعرفني بما يكفي الآن لتفهم أنني دائمًا أقول لا أكثر ولا أقل مما أعني؛ كما أنني أؤكد لك من جديد أن ملاحظاتي في الواقع لا تعني شخصك بقدر ما تعني المدرسة التي تدربتَ فيها بصفتك موظفًا مدنيًا في الهند الشرقية.

لكن هذا الظرف المخفِّف سيفقد كل قوته لو أنك، وأنت تعمل معي وتخدم الحكومة تحت إشرافي، ثابرتَ على نهجك القديم السيء الذي أعارضه.

وستلاحظ أنني امتنعت عن مخاطبتك بلقب أوي إيدل خيسترنگه[89] لقد سئمتُ منه. وأرجوك أن تفعل ذات الشيء معي، ولْنَجْعَل «نبالتنا الحقَّة،» بل «صرامتنا» إن تطلب الأمر، تظهر في مكان آخر، وعلى الأخص، بشكل آخر غير هذه الألقاب المتعبة الهرائية.

مساعد المقيم في ليباك

ماكس هافلار

وقد جرَّم جوابُ فيربروخه بعضًا من أسلاف هافلار، وبرهن على أن الأخير لم يخطئ كثيرًا حين ضَمَّنَ «أمثلةً سيئةً في الماضي» من بين الظروف التي في مصلحة المتصرف.

وفي إدراجي لهذه الرسالة فقد سبقتُ قصتي لألفت الانتباه سلفًا إلى قلة العون التي يمكن لهافلار أن يتوقعها من المراقب، ما إن يصبح ضروريًا أن يسمي أشياءَ أخرى، أكثر أهميةً ومختلفةً تمامًا، بمسمياتها الصحيحة، ولاسيما أن هذا المسؤولَ، وهو رجلٌ صائبُ التفكير بما لا يقبل الشك، كان لا بد من مخاطبته على هذا النحو لحمله على قول الحقيقة التي تتعلق بمسألة أسعار الخشب والحجر والمِلاط والأجور. لذلك سيُفهَم أن هافلار لم يكن لزامًا عليه أن يحارب

قوة الأشخاص الذين هم مصلحة في الإجرام فحسب، بل أن يحارب أيضًا جُبْنَ الذين لم يحسبوا أن عليهم واجبًا أو لديهم قدرةً لاتخاذ موقف ضروري شجاع ضدها، حتى وإن كانوا ليسوا أقل إدانةً لها منه.

ولعلَّ القارئ أيضًا، بعد قراءة تلك الرسالة، يخفف من احتقاره لعبودية الجاوي الخانعة الذي يسحب بكل جُبْنٍ التهمةَ التي تقدم بها، مهما كانت مُسوَّغةً، حين يتواجه مع زعيمه. فلو تأملَ المرءُ أن هناك خوفًا شديدًا حتى من جانب المسؤول الأوربي الذي قد لا يُعَدُّ عرضةً للانتقام، فما بالُك إذن بالمواطن المسكين الذي يسكن في قريةٍ نائيةٍ من المركز الحكومي الرئيس فيصبح، إذا عاد إليها، تحت رحمة الظَلَمة الذين اتهمهم؟ هل نستغرب إذا سعى أولئك التعساء الفقراء، خشيةً من عواقب جراءتهم، إلى تفادي تلك العواقب، أو تخفيفها من خلال الخنوع المتذلِّل؟

ولم يكن المراقب فيربروخه الوحيد الذي يؤدي واجبه بتوتّرٍ أَلْيَقَ بإهمال الواجب. فحين اضطر الجَكسا، وهو المسؤول المحلي الذي يقوم بوظيفة المدعي العام في المحكمة الإقليمية، إلى زيارة هافلار، فضَّل أن يفعل ذلك ليلًا، من غير أن يراه أو يرافقه أحد. فالذي يُفترَض به أن يمنع السرقة وأن يُمسك بالسارق المتسلل ... جاء متسللًا على رؤوس أصابعه، كأنه هو اللص الذي يَخْشى أن يُقبَض عليه، إلى خلف المنزل بعد أن تأكد شخصيًا من عدم وجود زوارٍ قد يتهمونه لاحقًا بأداء واجبه.

فهل نستغرب إن كان هافلار مكتئبًا، أو إن اضطرت تينا أكثر من أي وقت مضى أن تدخل إلى غرفته وتشجعه، حين كانت تراه جالسًا مُسنِدًا رأسَه على يده؟

لكن مع ذلك لم يكن العائق الأكبر هو خوف مساعديه أو الجُبن المُساعد لأولئك الذين بدؤوا بالاستنجاد به. كان مستعدًا لإحقاق العدالة بمفرده إن

تطلّب الأمر، من غير عونٍ من الآخرين، بل ضد كل الآخرين، حتى لو كان ضد الأشخاص الذين كانوا بحاجة إلى تلك العدالة! لأنه كان يعلم مدى تأثيره في الناس وأنه - لو دُعي المساكين المظلومون لإعادة ما قالوه له همسًا مساءً أو ليلًا أمام محكمةٍ وبصوتٍ عالٍ - كان يعلم أن لديه القدرة على التأثير في مشاعرهم، وأن قوة كلماته أعظم من الخوف من انتقام زعيم المنطقة أو المتصرف. إذن، ليس الخوف من أن يتخلى أنصارُه عن قضيتهم هو الذي قيّده. لا ... لكن كان يشقُّ عليه أن يتهم الأديـپـاتّي العجوز: كان ذلك هو سبب صراعِه مع نفسه! لأنه من ناحيةٍ أخرى لا يحق له أن يستسلم لهذا التردد، حيث إن السكان عن بكرة أبيهم، حتى باستثناء مطالبتهم بالعدل، يستحقون الشفقة مثل المتصرف تمامًا.

لم يكن للخشية من المتاعب الشخصية دورٌ في تردده. كان يعلم عدم رغبة الحكومة في أن ترى متصرفًا يُتَّهَم، وكم تستسهل بعض السلطات إحالة مسؤولٍ أوربيٍّ إلى مستوى الشحاذين على أن تعاقب زعيمًا محليًّا. لكن كان لديه سببٌ للاعتقاد أنه في تلك اللحظة بالذات ستسود مبادئ مختلفة عن المبادئ العادية في الحكم على تلك القضية. صحيحٌ أنه كان سيقوم بواجبه حتى من دون هذا الاعتقاد - في الحقيقة لو ظن أن الخطر عليه وعلى أسرته أكبر من قبل لكان أكثر استعدادًا للقيام به. لقد قلنا إن المصاعب تجتذبه، وإن لديه توقًا للتضحية بالذات. لكنه لم يشعر بوجود ما يُغري على تضحيةٍ كهذه، وخشي أنه إذا اضطُرَّ في النهاية لخوض معركة جدية ضد الظلم، فإنه سيضيِّع متعة الفرسان التي تتجلى في بدء المعركة وهم الطرف الأضعف.

أجل، كان يخشى ذلك. كان يعتقد أن رئيس الحكومة هو حاكمٌ عامٌّ وسيكون حليفَه، وكان من صفاته الغريبة الأخرى أن هذه القناعة هي التي منعته من اتخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ؛ في الحقيقة هذه القناعةُ منعته أكثر من أي شيء آخر، لأنه كان

يمقت أن يهاجم الظلمَ في لحظةٍ يظن فيها أن قضية العدالة أقوى من العادة.
ألم أقل في محاولتي لوصف شخصيته إنه كان ساذجًا بالرغم من كل فِطنته؟
دعوني أحاول إيضاح كيف توصل هافلار إلى هذا الاعتقاد.

قلةٌ قليلةٌ جدًّا من القراء الأوربيين يمكنها أن تشكل تصورًا صحيحًا، عن الموقف الأخلاقي الذي يجب أن يقفه الحاكم العام، لكي لا يكون أدنى من مستوى مقامه السامي؛ لذلك يجب ألا يظنن أحدٌ أنني أطلق حكمًا قاسيًّا إذا قلتُ إن قلةً قليلةً جدًّا من الأشخاص - ربما لا أحد - قد ارتقت إلى مستوى هذه المهمة السامية. لن أعُدَّ الآن جميع صفات العقل والقلب المطلوبة لهذه المهمة، لكنني سأطلب من القارئ أن يلقي نظرةً على العُلُوِّ المُدَوِّخ الذي يوضَع فيه فجأةً رجلٌ كان بالأمس مواطنًا بسيطًا، أما اليوم فله ولايةٌ على ملايين الرعايا. رجلٌ كان حتى وقت قريب ضائعًا في بيئته، لا يسمو فوقها بمرتبةٍ ولا بسلطةٍ، فيجد نفسه فجأةً، وفي أغلب الأحيان على نحوٍ غير متوقَّع، مرفوعًا فوق حشودٍ أكبر بكثير من الدائرة، التي بالرغم من صِغَرها، كانت تحجبه عن الرؤية تمامًا فيما سلف من الأيام؛ وأعتقد أنني لا أبالغ إذا قلت إن العُلُوَّ مُدَوِّخٌ، لأنه بالفعل يذكِّر بِدُوار شخصٍ رأى هاويةً أمامه فجأةً، أو بالعمى الذي نُصاب به حين يؤتى بنا سريعًا، من ظلامٍ دامسٍ إلى نورٍ باهِر. ومهما بلغت أعصاب البصر أو العقل من قوة، فهي ليست في مأمنٍ من هذه الانتقالات.

إذن، إن كان التعيين في منصب الحاكم العام يحمل في نفسه بذور الفساد في غالب الأحيان، حتى بالنسبة إلى رجالٍ يمتلكون قدراتٍ عقليةً وأخلاقيةً متميزةً، فماذا يمكن أن نتوقع من أشخاصٍ يبدؤون مناصبهم وهم مُكَبَّلون بنقائصَ كثيرةٍ؟ ولو افترضنا للحظةٍ أن الملك يتلقى معلوماتٍ صحيحةً دائمًا

حين يضع اسمه السامي على الصكِّ الذي يعلن فيه قناعته بولاء نائبه المعيَّن وحماسته وقدرته، ولو افترضنا أن نائب الملك الجديد وفيٌّ ومتحمسٌ وقادرٌ ... يظل السؤال إن كانت الحماسة، وبالأخص القدرة، متوفرةً فيه إلى درجةٍ تكفي إلى ما فوق المتوسط للوفاء بمتطلبات وظيفته السامية.

لأن المسألة ليست إن كان الرجل الذي يغادر مجلس الملك الاستشاري في لاهاي، بعد تعيينه حاكمًا عامًّا، يمتلك حينها القدرة اللازمة لمنصبه الجديد ... فهذا مستحيل! فالإعراب عَن الثقة بقدرته لا يمكن إلا أن يرقى إلى رأي أنه سيعلم في لحظةٍ معينةٍ، في مجالِ نشاطٍ جديدٍ تمامًا، بالإلهام إن جاز التعبير، ما لا يمكن أن يتعلمه في لاهاي. بمعنى آخر: إنه عبقري، عبقري عليه أن يعرف فورًا، ويكون قادرًا على فعل ما لم يعلمه أو يفعله من قبل. هؤلاء العباقرة نادرون، حتى بين أهل الحُظوة عند الملوك.

وبما أنني أتحدث عن العباقرة، أرجو أن يُفهَم أنني أرغب في تجاوز ما يمكن أن يُقال عن العديد من الحكام العامّين. كما أنني أكره أن أُدخِل في كتابي صفحاتٍ، تُعرِّض غرضه الجِدّي للخطر، بتعريضه إلى شُبهةِ نشر الفضائح. لذلك لن أعطي تفاصيل تشير إلى أشخاصٍ معينين. لكن أعتقد أن بإمكاني أن أعطي التشخيص التالي لحالة الحكام العامّين عمومًا. المرحلة الأولى: الدُّوار، الانتشاء بالبخور، الغرور، الاعتداد المفرط بالذات، احتقار الآخرين، ولاسيما «موظفي الهند الشرقية القدامى.» المرحلة الثانية: الإرهاق، الخوف، الاكتئاب، الرغبة في النوم والراحة، الثقة المفرطة في مجلس الهند الشرقية، الحنين إلى منزل ريفي في هولندا.

وما بين هاتين المرحلتين - بل ربما ما يُسبِّب هذا الانتقال - هناك نوباتٌ من الزُّحار.

أنا واثقٌ أن كثيرين في الهند الشرقية سيكونون مرتاحين لي من أجل هذا التشخيص. فهو ذو نفعٍ عمليٍّ، لأنه من المفروغ منه أن المريض الذي تُرهقه بعوضةٌ في لحظة نشوته في الفترة الأولى، سيتمكن لاحقًا - بعد متاعب المعدة - من ابتلاع بعيرٍ بلا منغصات. أو، إذا شئنا الحديث بصراحة، الموظف الذي «يقبل الهدايا، لا بغرض إثراء نفسه» - على سبيل المثال، مَنْ يَقْبَل قِنْوًا من الموز لا يساوي بضعة فرنكات - سيُوصَم في فترة المرض الأولى بالخزي والعار، أما مَن صبر حتى الفترة الثانية والأخيرة، فسيتمكن، وبكل هدوءٍ وأمانٍ من العقوبة، من مصادرة البستان الذي ينمو فيه الموز، مع البساتين المجاورة ... والمنازل التي في الجوار ... وكل شيء في تلك المنازل ... وبضعة أشياء أخرى فوق ذلك، حسبما يشاء.

ومن أراد أن ينتفع بملاحظتي المَرَضية الفلسفية هذه، فعلى الرحب والسعة، على شرط أن يحتفظ بنصيحتي لنفسه، طبعًا، لمنع التنافس الزائد ...

اللعنة على الشيطان! لماذا يجب على السخط والأسى أن يتنكرا في غالب الأحيان بقناع التهكم؟ اللعنة على الشيطان! لماذا يجب على الدمعة أن ترافقها ابتسامةٌ لكي تُفهَم؟ أَمْ إن العيب في قلة مهارتي لأنني لا أستطيع أن أجد الكلمات المناسبة لسبر عمق الجرح الذي يأكل في الجسم السياسي لدولتنا مثل سرطانٍ، من غير أن أبحث عن أسلوبي في «فيگارو» أو «پَنْچ»؟

الأسلوب ... أجل! أمامي مستندات فيها أسلوب! أسلوبٌ يبيِّن أنه كان هناك رجلٌ صاحبُ خبرةٍ، رجلٌ يستحق أن تصافحه! وماذا كان نفع ذلك الأسلوب لهافلار المسكين؟ فهو لم يترجم دموعه إلى ابتسامات، ولم يتهكّم، ولم يَسْعَ إلى التأثير من خلال تنوع الألوان الصارخ، ولا من خلال فكاهةِ مُنادٍ يَنْبَحُ أمام خيمةٍ في مهرجان ... فبماذا نَفَعَه الأسلوب؟

لو كان باستطاعتي أن أكتب مثله، لَكتبتُ غيرَ ما كتب.

الأسلوب؟ هل سمعتم كيف تحدث إلى الزعماء؟ فبماذا نَفَعَه الأسلوب؟

لو كان باستطاعتي أن أتكلم مثله، لَتَكَلَّمتُ غيرَ ما تكلَّم.

ألا بُعْدًا للغة اللطيفة، ألا بُعُدًا للكياسة والصراحة والوضوح والبساطة والمشاعر! ألا بُعْدًا لكل ما له مذاقُ مقولة هورَس justum ac tenacem[90].

دع الأبواقَ تصدح، وقرعَ الصنّاجاتِ الحاد يُسمَع، وكذلك صفيرَ الصواريخ، وصريرَ الأوتار غير المُدَوْزَنة، وكلمةَ حقٍّ بين الحين والآخر، لعلَّها تتسلل كما تتسلل بضاعةٌ مُهرَّبةٌ تحت غطاءٍ من التطبيل والتزمير!

الأسلوب؟ لقد كان صاحبَ أسلوب! لقد كان ضميرُه أكبر من أن تُغْرقه عبارات المجاملة التي يتلذذ بها العالمُ الصغيرُ، الذي يتحرك فيه مثل «تَشَرَّفْتُ»، أو «الحَزْم النبيل»، أو «تقبلوا فائق الاحترام.» فحين كان يكتب، يخترقك، أنت يا مَن تقرؤه، شيءٌ يجعلك تشعر أن سحبًا حقيقيةً تعبر السماء خلال تلك العاصفة الرعدية، وليس مجرد قرعٍ بعُلَب الصفيح الذي تسمعه وراء كواليس المسرح. وحين تنقدح النار من أفكاره، فإنك تشعر بحرارة تلك النار، ما لم تكن صاحبَ قلمٍ انتهازيٍ بالفطرة، أو حاكمًا عامًا، أو كاتبَ تقاريرَ مقرفةً عن «السلام السلميِ.» فبماذا نَفَعه الأسلوب؟

إذن، إن شئتُ أن أُسْمَع – وفوق كل شيء، أن أُفهَم – فعليَّ أن أكتبَ غير ما كتب. لكن، إذا كان كذلك، فكيف؟

أيها القارئ، إني أبحث عن جوابٍ على «كيف» هذه، ولهذا السبب فإن كتابي عبارة عن خليط. إنه أشبه ببطاقة العينات التي يحملها التاجر ... فاختر ما تشاء! وسأعطيك فيما بعد إما صفراء أو زرقاء أو حمراء، وفقًا لاختيارك.

لقد لاحظ هافلار مرض الحاكم العام كثيرًا، وفي كثيرٍ من المرضى – وفي كثير

من الأحيان بين الحيوانات الأدنى أيضًا، لأن هناك أمراضًا مماثلةً مثل أمراض المقيم والمراقب والموظف المساعد، وهذه الأمراض، قياسًا إلى مرض الحاكم العام، كالحَصْبة بالنسبة إلى الجُدري. وأخيرًا عانى هو شخصيًا من ذاك المرض! لقد راقب هذا المرض كثيرًا إلى درجة أن الأعراض كانت مألوفةً جدًّا بالنسبة إليه. وقد وجد حينها أن الحاكم العام أقل دُوارًا من معظم الآخرين، وقد ظن أنه يمكن أن يستنتج من هذا أن مسار المرض المتقدم سيكون مختلفًا أيضًا.

لقد كان هذا هو السبب الذي جعله يخشى أنه سيكون الأقوى، حين يضطر في النهاية لمناصرة حقوق سكان ليباك.

[16]

تلقى هافلار رسالة من متصرف چانْيور يُعلمه فيها عن رغبته بزيارة عمه المتصرف، أديپاتّي ليباك. وهذا خبرٌ لا يسرُّ الخاطر إطلاقًا. كان هافلار يعلم أن الزعماء في متصرفيات پريانگر متعودون على الأُبَّهة العظيمة وأن تُمّونگن چانْيور لن يُقْدِم على هذه الرحلة من دون حاشية من مئات الأشخاص الذين لا بد من إيوائهم وإطعامهم، هم وخيولهم. لذلك سيكون من دواعي سروره العظيم أن يمنع هذه الزيارة، لكن، مهما حاول، لم يستطع أن يفكر في سبيلٍ إلى ذلك من غير أن يجرح مشاعر متصرف ليباك الذي كان فخورًا جدًّا وقابلًا للشعور بإهانةٍ كبيرةٍ لو وُضِع فقرُه النسبيُّ سببًا لعدم زيارته. لكن إن لم يكن بالإمكان تفادي الزيارة، فلا بد أن تؤدي إلى تفاقم العبء الذي يرزح تحته السكان سلفًا.

لذلك من المشكوك فيه أن خطاب هافلار للزعماء قد ترك أي أثرٍ دائم. وهذه هي حال الكثيرين بكل تأكيد، وهو، شخصيًّا، لم يتوقع ذلك في الحقيقة. لكن المؤكد أيضًا أن أهل القرى يتداولون بينهم أن التوان الحاكم في رانْكَس بيتون يرغب في إحقاق الحق، وهكذا، ورغم أن كلماته افتقرت إلى القوة لمنع الجريمة، إلا أنها شجعت ضحاياها على الشكوى، حتى ولو بشكل متردد وسرّي.

كانوا يتسللون عبر الوادي عند هبوط الظلام، وبينما كانت تينا تجلس في غرفتها كانت تجفل في كثيرٍ من الأحيان من أصوات الخشخشة المفاجئة، فكانت ترى من نافذتها المفتوحة هيئاتٍ داكنةً تتسلل أمامها بخطوات خائفة. لم تلبث أن اعتادت على الأمر، فلم تعد تجفل، لأنها كانت تعلم معنى أن تحوم تلك

الأشكالُ كالأشباح حول المنزل، طالبةً حمايةَ ماكس! كانت تومئ له، فينهض ليدعو المُهانين والمتضررين ليمثُلوا أمامه. كان معظمهم من ناحية پاران كوجان، التي كان زعيمها هو صِهْر المتصرف. بكل تأكيدٍ لم يتخلّف ذلك الزعيم في أخذ حصته من الغنيمة، لكن كان معروفًا للقاصي والداني أنه كان يمارس ابتزازَه، بشكل دائم تقريبًا، باسم المتصرف ونيابةً عنه. إنه لشيءٌ مؤثّرٌ أن ترى كيف اعتمد أولئك البؤساء المساكين على شهامة هافلار، واقتنعوا أنه لن يستدعيهم في اليوم التالي، ليرددوا علنًا ما قالوه سِرًّا في الليلة السابقة في غرفته. لأن هذا، بطبيعة الحال، معناه المعاملة السيئة لهم جميعًا، والموت لكثيرين! كان هافلار يسجل ما يقولونه له، ثم يأمرهم بالعودة إلى قراهم، وكان يعدهم بإحقاق الحق على شرط ألا يتمردوا، أو يهربوا من المقاطعة، كما كان ينوي كثيرون. وعمومًا كنت تجده في مسرح الجريمة بُعَيْد ذلك مباشرةً. في الحقيقة، يحضر في كثير من الأحيان ويحقق في القضية - في الليل عادةً - قبل أن يتمكن الشاكي نفسه من العودة. وهكذا زار هافلار في تلك المقاطعة المترامية الأطراف قرى تبعد مسيرةَ عشرين ساعةً من رانْكَس بيتون، حتى من غير أن يعلم المتصرف أو المراقب فيربروخه أنه غاب عن مقر المقاطعة. فبهذه الطريقة كان ينوي حماية المدّعين من خطر الانتقام وفي الوقت نفسه ليُعفي المتصرف من خزي تحقيق علني لا شك أنه، في ظل مساعد المقيم الحالي، لن ينتهي بسحب الشكوى. كان لا يزال يأمل أن يتحول الزعماء عن سبيل المخاطر الذي طالما سلكوه من قبل، وفي تلك الحال كان سيكتفي بالمطالبة بالتعويض على ضحايا السرقة.

لكن كلما تحدث إلى المتصرف وجد أن وعود الإصلاح بلا طائل، فيشعر بمرارة الاكتئاب لفشل مساعيه.

سنتركه الآن مؤقتًا لاكتئابه وعمله الشاق، لكي نخبر القارئ قصة سائجَه

الجاوي من قرية بادُر. لقد التقطتُ اسْمَي تلك القرية وذلك الجاوي من ملاحظات هافلار. إنها قصة ابتزاز وسرقة. وإن رغب أحدٌ أن يحسَبَها - أقصد جوهر مادتها - خياليةً، فبإمكاني أن أزوده بأسماء اثنين وثلاثين شخصًا من ناحية پاران كوجان وحدها الذين أُخِذ منهم رغمًا عنهم، في شهرٍ واحدٍ فقط، ستةٌ وثلاثون رأسًا من الجواميس باسم المتصرف. أو، إن شئنا دقةً أكثر، بإمكاني أن أُسمَي اثنين وثلاثين شخصًا من تلك الناحية وجدوا الشجاعة، في شهر واحد، ليشتكوا إلى هافلار الذي حقق في شكاويهم ووجدها مُسَوَّغَةً.

هناك خمس نواحٍ في مقاطعة ليباك ...

الآن، إذا شاء أَحدٌ أن يفترض أن عدد الجواميس المسروقة أقل ارتفاعًا في الأماكن، التي لم تنل شرف حكمها من قبل صهر الأديـپاتّي، فلن أجادله في هذه المسألة، مهما ظل مشكوكًا في قيام وقاحة الزعماء الآخرين، على أسسٍ لا تقل صلابةً عن القرابة المُفَخَّمة. على سبيل المثال، في غيابِ حَمِيٍّ مرهوبِ الجانب، استطاع زعيم ناحية چيلانْكَهان، على الساحل الجنوبي، أن يُعوِّل على صعوبة التقدم بالشكاوى التي تواجه السكان الفقراء الذي كانوا يضطرون للسفر من أربعين إلى ستين ميلًا، قبل أن يتمكنوا من التخفي عند الغسق في الوادي الملاصق لمنزل هافلار. ولو تذكَّرنا أيضًا الكثيرين الذين توجهوا إلى ذلك المنزل ولم يصلوه قط ... بل الكثيرين الذين لم يغادورا قريتهم قط، تردعهم الخشيةُ من تجاربهم الماضية، أو التأمُّل في مصير غيرهم من الشاكين - فأعتقد إذن أننا نخطئ لو تصورنا أن ضرب عدد الجواميس المسروقة في ناحيةٍ ما بالرقم خمسة سيكون ناتجه رقمًا مرتفعًا، بالنسبة إلى العدد الإجمالي للجواميس التي سُرقت كل شهر في النواحي الخمس مجتمعةً، لكي تسد حاجات متصرف محكمة ليباك.

لم تكن الجواميس وحدها هي التي تُسرَق، ولا كانت سرقة الجواميس هي

أكبر الشرور. في الهند الشرقية بالذات، حيث لا يزال عمل السُّخْرة موجودًا، يحتاج استدعاء الناس بشكل غير قانوني للعمل مجانًا إلى وقاحةٍ أقل مما تحتاجه سرقة ممتلكاتهم. إنَّ جَعْلَهم يصدِّقون أن الحكومة تشترط عملهم بالمجان أسهل من أخذ جواميسهم بلا مقابل. وحتى لو تجرأ الجاوي الجبان، وحاول أن يعرف إن كان عمل السُّخْرة المطلوب منه بالفعل موافقًا للأنظمة، فإنه لن يستطيع ذلك حيث إنه في هذه المجتمعات المعزولة المتحفِّظة، حيث لا تدري اليد اليمنى ما تفعل اليسرى، لا يستطيع أن يَحْسِبَ إن كان العدد المُسْتَدْعى من الناس هو ضِعْفًا العدد المسموح به، أو عشرة أضعاف، أو خمسون ضعفًا. فإذا كانت جريمة سرقة الجواميس، الأكثر خطرًا وقابليةً للانكشاف، تُرتكب بهذه الوقاحة، فماذا يمكننا أن نتوقع بخصوص انتهاكاتٍ تُمارَس بسهولةٍ أكبر، وهي أقل عرضةً للانكشاف؟

لقد قلتُ إنني سأروي قصة سائِجَه الجاوي. لكن قبل أن أبدأ، أنا مُضْطَرٌّ لاستطرادٍ لا يمكن تجنبه في وصف أحوالٍ غريبةٍ تمامًا عن القارئ. وهذا الاستطراد سيمنحني أيضًا فرصةً لأتطرق إلى الأسباب التي تجعل من الصعب جدًّا على الغرباء أن يكوِّنوا رأيًا صحيحًا عن قضايا الهند الشرقية.

لقد أطلقت تسمية «الجاويين» على أهل جاوا مِرارًا. وقد تبدو هذه التسمية طبيعية للقارئ الأوربي، لكنها ستبدو خاطئةً لكل من يعرف جاوا معرفةً مباشرةً. فالمندوبيات الغربية لبانتام وبَتافيا وپريانـگـر وكرَاوان وجزء من چريبون، التي تدعى كلها بلاد السُّوندا، لا تُعَدُّ جزءًا من جاوا بالضبط. وهنا نُسقِط من حسابنا، بطبيعة الحال، ذلك الجزء من السكان الذين يتألفون من الأجانب القادمين من وراء البحار، وننظر فقط إلى السكان الأصليين. لكنهم بلا شكٍّ مختلفون تمامًا عن أهل جاوا الوسطى أو الشرقية. فالزي والشخصية القبلية واللغة مختلفة تمامًا عن مثيلاتها كلما ابتعدنا شرقًا إلى درجة أن الفرق بين

السُّونداني أو الأوران گـونـگـي، ساكن الجبال، وبين الجاوي الحقيقي أكبر من الفرق بين الإنـگـليزي والهولندي. هذه الفروق تؤدي في أغلب الأحيان إلى خلافٍ في الحكم على قضايا الهند الشرقية. فبما أن جاوا مقسمة أصلًا إلى قسمين مُتبايِنَيْنِ، حتى من دون الالتفات إلى التقسيمات الفرعية بين هذين القسمين، فيمكن للقارئ أن يتصور مدى الفرق بين القبائل المتباعدة، التي يفصلها البحر بعضها عن بعض. فمن اقتصرت معرفته بالهند الشرقية الهولندية على جاوا، لا يمكن أن تكون فكرته عن الملاوي أو الأمبُويني أو البَتّك أو الألفُورسي أو التيموري أو الداياك أو البوگـي، أو المَكَسّر أكثر صحةً مما لو لم يُغادر أوربا. وكل من أُتيحت له فرص ملاحظة الفروق بين هذه الجماعات، لا بد أن يستظرف مرةً بعد مرةٍ أحاديثَ الأشخاص الذين اكتسبوا معرفتهم بقضايا الهند الشرقية في بَتافيا أو باوْتِنْزورخ، لا بل لا بد أن يكتئب إن قرأ خطاباتهم. وكثيرًا ما تعجبتُ من وقاحةِ حاكمٍ عامٍّ سابقٍ وهو يحاول إعطاء وزنٍ لكلامه في البرلمان بادّعاءٍ لا أساسَ له من الخبرة والمعرفة المحلية. أنا أُثمِّن المعرفة المكتسبة من الدراسة الجدية في المكتبة، وقد أذهلني أكثر من مرة أناسٌ بمعرفتهم الواسعة بقضايا الهند الشرقية، مع أنهم لم يطؤوا أرضها قطُّ. وما إن يُثبِت لنا حاكمٌ عامٌّ سابقٌ أنه اكتسب مثل هذه المعرفة بتلك الطريقة، فإن له علينا واجبَ الاحترامِ المستحق للجهد الدؤوب المثمر النابع من الضمير. بل إن له علينا احترامًا أكبر مما يستحقه الباحث الذي ليس عليه إلا أن يتجاوز عقباتٍ أقل، قابعًا على مسافةٍ بعيدةٍ، بلا احتكاكٍ مباشرٍ، في مأمنٍ من ارتكاب الأخطاء الناجمة عن ذلك الاحتكاك المعيب الذي، لا بد أن يكون النصيب المحتوم للحاكم العام السابق.

لقد قلتُ إنني أتعجبُ من الوقاحة التي يبديها بعض الأشخاص خلال مناقشة قضايا الهند الشرقية الهولندية. فلا بد أن يعلموا أن كلماتهم يسمعها

آخرون غير أولئك الذين يتخيلون أن بضع سنوات يقضونها في باوتِنْزورخ كافية لكي يعرفوا الهند الشرقية. ولا بد أن يعوا في نهاية المطاف أيضًا أن كلماتهم يقرؤها أشخاصٌ كانوا شهودًا على قلة كفاءتهم حين كانوا هناك ويندهشون، مثلي، من جسارة رجلٍ ظل إلى وقتٍ قريبٍ جدًّا، يحاول عبثًا أن يتستَّر على قلة كفاءته بالمرتبة السامية التي منحها إياه الملك، فتجرأ فجأةً على الحديث، كأنه يعلم شيئًا عن القضايا التي يتعامل معها.

وحقًا، نحن نسمع شكاوى عن تدخل غير ذوي الكفاءة مرةً بعد مرة. مرةً بعد أخرى، هذا الخط أو ذاك في السياسة الاستعمارية يكافَح بإنكار كفاءة مَن يمثل ذلك الخط، وقد يستحق الأمرُ إجراءَ تحقيقٍ شاملٍ فيما يتعلق بالصفات التي تجعل شخصًا مؤهلًا ... للحكم على الكفاءة. في كثير من الأحيان، تُقرَّر مسألةٌ مهمةٌ، لا استنادًا إلى المسألة نفسها، بل بالقيمة التي تُلصَق بآراء الرجل الذي يتحدث عنها. وبما أن هذا الرجل عادةً ما ينضوي تحت مسمى «خبير،» ويُفَضَّل أن يكون رجلًا «كان له منصبٌ مهمٌ في الهند الشرقية،» فمن الطبيعي أن تتلون نتيجة التصويت البرلماني عمومًا بالأخطاء، التي يبدو أنها جزءٌ لا يتجزأ من تلك «المناصب المهمة.» إن كانت هذه هي الحال سلفًا، حيث تأثير مثل هذا الخبير لا يمارسه إلا عضوٌ في مجلس النواب، فما أعظمه من انحيازٍ تجاه الحكم المُشَوَّه حين يكون ذلك التأثير مدعوماً بثقة الملك، الذي سمح لنفسه أن يقتنع بوضع خبير كهذا على رأس وزارته للمستعمرات؟

إنها ظاهرةٌ غريبة - لعلها ناجمةٌ من نوعٍ من الخُمول الذي يتجنب مشقة الحكم لنفسه - أن يمنح الناسُ ثقتهم بكل خِفَّةٍ لأناسٍ قادرين على خلقِ انطباعٍ أنهم يمتلكون معرفةً فائقةً، كلما كانت هذه المعرفة لا يمكن أن تُستَمَدَّ إلا من مصادر ليست في متناول الجميع. ولعل السبب هو أن احترام المرء لذاته أقل

عرضةً للأذى، إذا اضطر للاعتراف بمثل هذا التفوق، مما لو استخدم ذات المصادر بنفسه، وفي هذه الحال قد ينشأ نوع من المنافسة، ولا يجد ممثل الشعب صعوبةً في التخلي عن رأيه حالما خالفه شخصٌ يُعْتَدُّ برأيه أكثر، على شرط ألا يُنسَب ذلك الرأي إلى تفوق شخصي - وهو ما يصعُب الاعتراف به - بل فقط إلى الظروف الخاصة التي كان من حُسْن حظ الخصم أن يكون فيها.

وإذا أسقطنا من حسابنا أولئك الذين «كانت لهم مناصب مهمة في الهند الشرقية،» فمن المستغرَب حقًا أن الناس في كثير من الأحيان يُثمنُّون آراءَ أشخاصٍ ليس لديهم إطلاقًا أي شيء يُسَوِّغونها بها، سوى «ذكرى كذا وكذا من السنين أُنفِقت في تلك الأصقاع.» وهذا أكثر غرابةً، حيث إن الناس الذين يحترمون مثل هذه الحُجة هم على الأرجح آخر مَن يقبل كل شيء يُقال لهم، مثلًا، عن الاقتصاد الوطني الهولندي من قبل شخصٍ يستطيع أن يبرهن أنه أنفق أربعين أو خمسين سنة في هولندا. هناك أشخاصٌ قضوا أكثر من ثلاثين سنةً في الهند الشرقية الهولندية، ولم يحتكّوا مع عامة الناس، ولا مع الزعماء المحليين، وإنه لَشيءٌ مثيرٌ للشفقة حين تتأمل أن مجلس الهند الشرقية يتألف في كثيرٍ من الأحيان، أو إلى حدٍّ كبير، من أشخاصٍ كهؤلاء؛ بل إن وسائل وُجِدت لإقناع الملك، للمصادقة على تعيين رجالٍ ينتمون إلى هذه الطبقة من الخبراء في منصب الحاكم العام.

لقد قلتُ إن الكفاءة التي تُنسَب إلى أي حاكم عامٍّ جديدٍ، كانت تعني ضمنًا وبالضرورة أنه عبقري، وأنا لا أقصد بأي شكلٍ من الأشكال أن أنصح بتعيين العباقرة. لأنه، بالإضافة إلى عيب بقاء هذا المنصب شاغرًا على الدوام، هناك حجةٌ أخرى ضد اقتراحٍ كهذا. فالعبقري لا يمكن أن يعمل لمصلحة وزارة المستعمرات، وكذلك سيكون غيرَ قابلٍ للتوظيف ... كدأبِ العباقرة.

وحبَذا لو أن العيوب الأساسية التي عدَّدْتُها في تشخيصي السريري تلفت عناية أولئك الواجب عليهم أن يختاروا الحكام العامين المتعاقبين. سنحسب أنه أمرٌ مفروغٌ منه أن يكون جميع الأشخاص المرشحين لهذا المنصب نزيهين وأذكياء بما يكفي لتعلُّم ما عليهم أن يتعلموه. بعد ذلك أحسب أنه ضروري أن نتوقع منهم أن يتجنبوا، ليس فقط تلك الفذلكة المتعجرفة في البداية، بل أيضًا، وعلى الأخص، ذلك الخَدَر اللامبالي في السنوات الأخيرة من إدارتهم. لقد قلتُ من قبل إن هافلار كان يعتقد أن بإمكانه أن يعوِّل على مساعدة الحاكم العام في أداء واجبه الشاق، كما قلت أيضًا إن هذا الاعتقاد هو دليلٌ آخر على سذاجته. فالحاكم العام المعني كان ينتظر خليفته سلفًا، والراحةُ في هولندا صارت وشيكة!

سنرى ما هي العواقب التي جنتها تلك النزعة للنوم على مقاطعة ليباك، وعلى هافلار وعلى سايْجَه الجاوي الذي سأروي الآن قصته الرتيبة - وهي واحدة من بين قصص كثيرة جدًّا!

أجل، ستكون رتيبةً! رتيبةً مثل حكاية كدِّ النملة، التي عليها أن تجر مساهمتها إلى المخزن الشتوي من فوق كتلةٍ من التراب، تقف مثل جبلٍ في طريقها إلى المخزن. ومرةً بعد مرةٍ ترتد على عقبيها مع عبئها، ومرةً بعد أخرى تحاول من جديدٍ لعلَّها تصل إلى ذلك الجحر الصغير في الأعلى ... إلى تلك الصخرة التي تُتَوِّج الجبل. لكنْ بينها وبين القمة هاويةٌ لا بد من عبورها ... هُوَّةٌ لا تملؤها ألفُ نملةٍ. ولهذا الغرض، يتوجب على المخلوقة الضئيلة الجسم، التي لا تكاد تقوى على جر حِمْلِها على أرضٍ مستويةٍ - وهو حِمْلٌ أثقلُ من وزن جسمها بأضعافٍ كثيرة - أن ترفع ذلك الحِمْلَ فوق رأسها، وهي تحاول البقاء منتصبةَ القامة على بقعةٍ قلقةٍ. لا بد لها أن تحافظ على توازنها وهي تصعد منتصبةَ القامة، وحِملُها بين قائمتَيها الأماميتين. عليها أن تنقل حِملَها بالتدريج نحو

الأعلى وإلى جانب واحد لكي يستند إلى نقطةٍ ناتئةٍ من جدار الصخرة. تترنح وتتمايل وتنطلق وتتهاوى، وتحاول أن تتمسك بالشجرةِ شبهِ المقتَلَعة التي تتدلى قمَّتُها نحو الأعماق - ورقة عشب! - تفقد العِماد الذي تبحث عنه؛ تتأرجح الشجرة عائدة، فتهوي ورقة العشب من تحتها! تسقط النملة الكادحة في الهاوية مع حِمْلِها. تظل هامدةً لحظةٍ، ثانيةٍ كاملةٍ ... وهذه مدةٌ طويلةٌ في حياة النملة. هل صعقها ألم السقوط؟ أم تُراها استسلمت للحزن لأن كل ذاك المجهود ضاع سُدى؟ على أيةِ حال، لم تفقد الشجاعة. ومن جديدٍ تُمسك بحِملِها، ومن جديد تسحبه نحو الأعلى، لتسقط من جديدٍ فورًا، ومن جديدٍ مرةً أخرى إلى الهاوية في الأعماق.

رتيبةٌ هي قصتي. لكنني لن أتحدث عن النملة التي لا ندرك فرحَها ولا حزنَها، نظرًا لخشونة أحاسيسنا. سأتحدث عن الرجال والنساء، عن مخلوقات تعيش وتتحرك ولها كيانُها مثلنا تمامًا. لا شك أن من يتجنبون العواطف، ويرغبون في تفادي ألم الشفقة سيقولون: إن هؤلاء الرجال والنساء صُفْرٌ أو سُمْرٌ - وكثيرٌ يسمِّيهم سودًا؛ وبالنسبة إلى هؤلاء، فإن اختلاف اللون سببٌ كافٍ للإشاحة بنظرهم عن تعاستهم، أو، إن تنازلوا للنظر إليها، للنظر إليها بلا مشاعر.

لذلك فإن قصتي موجهةٌ فقط إلى أولئك المؤهلين للاعتقاد الصعب أن قلبًا ينبض تحت تلك البشرة السمراء، وأن من أُنْعِم عليه ببشرةٍ بيضاء، وبالتربية والسماحة ومعرفة العمل والله والفضيلة التي تترافق معها، لعلَّه يطبق صفاتِه «البيضاء» في غير المجال الذي عرفه حتى الآن، من كانوا أقل حظًّا في لونهم وتجربتهم الروحية.

بيد أن آمالي للتعاطف مع أهالي جاوا لا تذهب بي بعيدًا، إلى حدِّ توقُّع أن وصف سرقة آخر جاموسة من الكِنداني،[91] في رابعة النهار، الجاموسة التي

سُرِقت بلا وازعٍ من ضميرٍ بحماية السلطات الهولندية ... وصف صاحبها وبكاء أطفاله الذين لحقوا بها وهي تُساق ... وصف صاحبها وهو يجلس على عتبة منزل السارق، معقودَ اللسان، مذهولًا، غارقًا في الحزن ... وصفه وهو يُطرَدُ مهانًا مُحتَقَرًا، ويُهدَّدُ بالجَلْد بالخيزرانة ويُصفَّد في السجن ... لا، لا أتوقع ولا أطالبكم، إخوتي الهولنديين، أن تتأثروا بصورةٍ كهذه، كما لو أنني رسمتُ لكم مصير فلاحٍ هولندي سُلِبتْ منه بقرتُه. لا أطلب أن تُذرَف دمعةٌ مع الدموع المنحدرة على تلك الوجوه القاتمة، ولا سُخطًا نبيلًا حين أتحدث عن يأس الضحايا. ولا أطالبكم أن تنهضوا وتذهبوا إلى الملك، وكتابي في أيديكم وتقولوا، «انظر، أيها الملك، هذا ما يحدث في إمبراطوريتك، في إمبراطورية إنسولندي الرائعة!»

لا، لا، لا، لا أتوقع أيًّا من هذا! فكثيرٌ من تعاطفكم مُستهلَكٌ في معاناة الأقربين التي لا تُبقي لكم كثيرًا تدَّخرونه لمعاناة الأبعدين! ألا يظل جهازكم العصبي برمته متوترًا بسبب المهمة المقلقة لاختيار عضو جديد في البرلمان؟ أليست روحكم الممزقة موزعةً بين الميزات الشهيرة للنَّكِرة أ والنكرة ب؟ ألا تحتاجون دموعكم الثمينة لقضايا أكثر جديةً من ... ماذا عساي أن أقول أكثر من هذا؟ ألم تتباطأ الأمور يوم أمس في البورصة، ألا تهدد زيادة العرض بالركود في سوق القهوة؟

«أتمنى على الله ألا تكتبَ مثل هذه الأشياء الغبية إلى أبيك، يا شتيرن!» قلتُ له، وربما قلتها بمزاجٍ غاضبٍ قليلًا، لأنني لا أحتمل الكذب: وهذا عندي مبدأٌ ثابتٌ في الحياة. في ذات المساء كتبتُ للشيخ شتيرن أطلب منه أن يستعجل بطلباته، وأن يحذر من الإشاعات الزائفة، لأن أسعار القهوة مستقرة جدًّا.

سيدرك القارئ ما عانيته من جديدٍ من جراء الاستماع إلى هذه الفصول

الأخيرة. في غرفة ألعاب الأطفال، وجدتُ لعبةَ سوليتير، وهي ما سآخذها معي إلى بيت آل روزمايَر في المستقبل. ألم أكن مُحِقًّا حين قلتُ إن شالمان ذاك أفقدهم عقولهم جميعًا بِرُزْمته؟ أسألكم، هل وجدتُم في خربشات شتيرن هذه - التي لفِرتس ضلعٌ فيها، وهذه حقيقةٌ - شُبّانًا تربّوا في أسرةٍ محترمة؟ ما معنى تلك الهجمات الغبية على «مرضٍ» يتجلى في التوق إلى منزلٍ ريفي؟ هل هذه الضربة موجهةٌ لي؟ ألا يحق لي إذن أن أتقاعد إلى دريبيرخِن حين يصبح فرتس سمسارًا؟ ومن هذا الذي يتحدث عن متاعب المعدة بحضور النساء والفتيات؟ من مبادئي الثابتة دائمًا أن أحافظ على هدوئي - وهذا شيءٌ أحسبُه مفيدًا في التجارة - لكن عليَّ أن أعترف أنني وجدتُ في ذلك مشقةً كبيرةً في الفترة الأخيرة، وأنا أستمع إلى كل ذلك الهراء الذي يقرؤه شتيرن. فما الذي يريده بحق السماء؟ وإلام سينتهي كل هذا؟ متى سنحصل على شيء رصين ذي قيمة؟ ماذا يهمني إن كانت حديقة هافلار هذا أنيقة، أو إن كان الناس يدخلون بيته من الأمام أم من الخلف؟ في شركة بوسَلِنك وَواترمَن عليك أن تدخل من ممر ضيِّق ملاصقٍ لمخزن زيت، وهو دائمًا قذر إلى درجةٍ مرعبةٍ. ثم كل هذا الأنين والتشكّي على جواميس! ما حاجة أولئك الزنوج للجواميس؟ أنا لم أمتلك جاموسةً بحياتي، وأنا راضٍ تمامًا. بعض الناس يتذمرون دائمًا. ثم كل هذا الاحتجاج على عمل السخرة! واضحٌ أنه لم يسمع موعظة المبجّل المِهذار، وإلا لَعرفَ مدى فائدة مثل هذا العمل لنشر مملكة الرب. لكن شتيرن من أتباع المذهب اللوثري، طبعًا.

أوه، لو أنني خَمَنتُ كيف كان سيكتب الكتاب الذي سيكون مهمًا جدًّا لكل سماسرة القهوة - وغيرهم - لفعلتُه بنفسي. لكن آل روزماير، الذين يعملون في مجال السُّكَّر، يساندونه، وهذا ما يجعله وقحًا جدًّا. لقد قلتُ بصراحة - فأنا صريحٌ في هذه الأمور - إننا بغنى عن قصة سايْجَه هذا، ولكن فجأةً انقلبت لويز

روزماير ضدي. يبدو أن شتيرن أخبرها أن فيها شيئًا من الحب، والفتيات مُتيَّماتٌ بهذه الأشياء. ما كان يجب أن أسمح لها أن تناكفني، لولا أن أهلها أخبروني أنهم يودون التعرف إلى والد شتيرن. والفكرة، طبعًا، هي أن يستخدموا الأب لكي يصلوا إلى العم، لأن العم يعمل في مجال السكر. ولذلك إن قسوتُ على شتيرن من أجل المنطق السليم، فقد أبدو وكأنني أريد أن أُبعِدَهم عنه، وهذا قطعًا غير صحيح، لأنهم في قطاع السكر.

لا أستطيع أن أفهم على الإطلاق ما يرمي إليه شتيرن بهذا الهُراء. العالم مليء بالساخطين؛ وأنا أسألكم: هل يليق به أن يشتم الحكومة وهو يتمتع بكثير من المزايا في هولندا – في هذا الأسبوع فقط أعدَّتْ له زوجتي شايَ البابونج! هل بنِيَّتِه أن يُغذّي النقمة العامة؟ هل يريد أن يكون الحاكم العام؟ على أية حال، إنه مغرور بما يكفي ... أقصد لأنه يريد أن يكون كذلك. سألته أمس الأول إن كان يريد أن يكون الحاكم العام، وقلتُ له بصراحة إن لغته الهولندية ما تزال فيها عيوبٌ كثيرة! فقال لي، «أوه، هذا ليس عائقًا. إذ يبدو من النادر جدًّا أن يُرسلوا حاكمًا عامًّا يفهم لغة البلاد!» بالله عليكم، ماذا يمكن أن تفعلوا بمتعجرفٍ كهذا؟ ليس لديه أدنى احترام لخبرتي! فحين أخبرتُه أنني سمسارٌ منذ سبعةَ عشرَ عامًا، وفي البورصة منذ عشرين عامًا، استشهد بشركة بوسلنك وواترمن الذين يعملون في السمسرة منذ ثمانية عشر عامًا، قائلًا لي، «ولذلك لديهم سنة خبرة أكثر منك!» وفي هذا أفحمني لأنه عليَّ أن أعترف، بما أنني رجلٌ يعشق الصدق، أن بوسَلِنك وواترمن يعرفون القليلَ، لكنهم نصّابون.

حتى ماري أصابها الخَبال أيضًا. تصوروا أنها هذا الأسبوع – وكان دورها أن تقرأ جهرًا على الإفطار، وقد وصلنا إلى قصة لوط – توقفت فجأةً، ورفضت أن تتابع القراءة. حاولت زوجتي، التي تهتم بالدين كثيرًا مثلي تمامًا، أن تتملَّقَ

لها لتكون مطيعةً، لأنه لا يليق بفتاةٍ صغيرةٍ أن يكون لها إرادتُها الخاصة. لكن بلا طائل! وحينها اضطررتُ، أنا أبوها، للتدخل، فوبَّختُها توبيخًا مناسبًا لأن عنادَها أفسد درسَ التثقيف الصباحي، وهذا ما كان دومًا يُفسِد اليومَ برُمَّتِه. لكن بلا طائل، بل تمادت إلى حد قول إنها تُفَضِّل أن تُضرَب حتى الموت على أن تواصل القراءة. وقد عاقبتُها بحبسها في غرفتها ثلاثةَ أيام، لا طعام لها سوى القهوة والخبز، وآمل أن ينفعها ذلك. ولكي تؤدي العقوبةُ إلى تحسُّنٍ أخلاقي، أمرتُها أن تنسخ الأصحاحَ الذي رفضت أن تقرأه عشر مرات. والسبب الأساسي في لجوئي إلى هذه الشِّدَّة هو أنني لاحظتُ مؤخرًا - ولا أعرف إن كان لشتيرن ضِلْعٌ في المسألة أم لا - أن لديها أفكارًا تبدو لي أنها تمثل خطرًا على الأخلاق، التي نُقدِّرها أنا وزوجتي عاليًا. ومن بين أشياء أخرى، سمعتُها تغني أغنيةً فرنسيةً - لبيرانجيه، على ما أظن - ترثي لحال شحاذةٍ عجوزٍ مسكينةٍ كانت تغني في المسرح في شبابها. وأمس جاءت إلى الإفطار من دون مَشدَّات صدر - أقصد ماري - وهذه قلة أدب، أليس كذلك؟

أوه، وبما أن الشيء بالشيء يُذكَر، يجب أن أعترف أيضًا أن صلاة الجماعة لم تنفع فِرتس على الإطلاق. كنتُ إلى حدٍّ ما راضيًا عن جلوسه الهادئ في الكنيسة. لم يكن يتحرك قط، ولم يُشِح بناظره عن المنبر، ولكني سمعتُ لاحقًا أن بِتسي روزماير كانت تجلس على مقربةٍ تحته. لم أقل شيئًا، وعلى المرء ألا يقسوَ على الشباب، كما أن آل روزماير شركة ذات سمعة. وقد أعطوا ابنتهم الكبرى حصةً كبيرةً إلى حدٍّ ما حين تزوجت برُوخمان، وهو يعمل في مجال العقاقير، ولذلك أعتقد أن هذا الشيء يُبعِد فِرتس عن فِسْتَر ماركت، وهذا أمر يُسعدني أيما سعادة، لأن للأخلاق قيمةً كبرى عندي.

لكن هذا لا يمنع انزعاجي حين أرى فرتس يقسو قلبُه مثل قلب فرعون

الذي كان ذنبُه في الحقيقة أصغر من ذنب فرتس، لأنه لم يكن لديه أبٌ يوجهه دومًا إلى جادة الصواب، فالكتاب المقدس لا يذكر شيئًا عن فرعون الأب. يشكو المبجَّل المهذار من غروره - أقصد من غرور فرتس - في درس تثبيت المعمودية، ويبدو أن الصبي اكتسب - بسبب رُزمة شالمان تلك - كمًّا من العجرفة الوقحة التي تُصيب المهذار العجوز المسكين الحبيب بالذهول. وإنه لشيءٌ يُثلج الصدر أن ترى ذلك الرجل الموقَّر، الذي يتغدى معنا في أغلب الأحيان، وهو يحاول أن يستميل مشاعر فرتس الخيِّرة، بينما ذلك الوغد الصغير لديه دائمًا أسئلة جاهزة تدل على قلبه العاصي. كل هذا بسبب رزمة شالمان اللعينة! بدموع الانفعال التي تسيل على خديه، يحاول خادمُ الإنجيل المتحمس - أقصد المهذار - أن يقنعه لكي يهجر حكمة هذه الدنيا ليدخل في ألغاز حكمة الله. برفقٍ وحنانٍ يتوسَّل إليه ألا يرفض قوتَ الحياة الأبدية، فيقع في براثن الشيطان الذي يُخلَّد هو وملائكته في النار التي أُعِدَّت لهم. قال أمس - أقصد المهذار - «أوه، يا صديقي الشاب، افتح عينيك وأُذنيك، واسمع وانظر ما يعطيكه الربُّ لتراه وتسمعه من فمي! اقرأ شهادات القديسين الذين ماتوا من أجل الدين الحق! انظر إلى القديس إسطفانوس وهو يتهاوى تحت الحجارة التي تهرُسه! انظر كيف تبحث عينه عن الجنة، ولسانه ما يزال يترنم بالمزامير ...»

قال فرتس، «لو كنتُ مكانه لرميتُهم بالحجارة التي رموني بها!» أيها القارئ، ماذا أفعل بهذا الصبي؟»

وبعد لحظة، بدأ المهذار من جديد، فهو خادمٌ للربِّ، متحمسٌ لا يَكَلّ ولا يَمَلُّ. فقال، «أوه، يا صديقي الشاب، افتح ...» وهي ذات الافتتاحية كما من قبل. ثم تابع قائلًا، «لكن، هل ستظل لا تتزحزح لو خطر ببالك ما ستؤول إليه حين ستصبح ذات يومٍ من عِدادِ الماعز على الجانب الأيسر ...»

وهنا قَهْقَه الهالِكُ - أقصد فرتس - ضاحكًا، وكذلك بدأت ماري تضحك. بل إنني أظن أنني رأيت طيفَ ابتسامةٍ على وجه زوجتي. وهنا أدركت أنه آن الأوان لنجدة المهذار، فعاقبتُ فرتس بغرامةٍ من حصّالته يدفعها للجمعية التبشيرية.

أيها القارئ، أيها القارئ، كل هذا يحزُّ في نفسي! أسأُلُكَ ... كيف لإنسانٍ يكابد مثل هذه الآلام أن يستمتع بحكاياتٍ عن الجواميس والجاويين؟ ما هي قيمة الجاموس قياسًا إلى خلاص فرتس؟ كيف لي أن أهتم بشؤون أناسٍ بعيدين حين يكون عندي ما يدعوني للخشية من أن كُفْرَ فرتس سيُفسِد علي أمور دنياي، وأنه لن يصبح سمسارًا موثوقًا؟ لأن المهذار قال إن الله يُصرِّف كل شيء بطريقةٍ تجعل التفكير السليم يؤدي إلى الغنى. يقول، «انظر، أليس في هولندا ثراءٌ كثير؟ هذا لأننا عندنا إيمان. أليست الحروب والاغتيالات وموت الفجاءة هي السائدة في فرنسا؟ هذا لأنهم كاثوليك. أليس الجاويون فقراء؟ لأنهم وثنيون. كلما طال تعامل الهولنديين مع الجاويين، ازداد الثراء هنا وازداد الفقر هناك. هذه هي إرادة الله!»

تذهلني فطنة المهذار التجارية. لأنه صحيحٌ أنني أنا، المواظب على واجباتي الدينية، أرى تجارتي تنمو وتزدهر سنةً بعد سنة، بينما بوسلنك وواترمان، وهم من معشر الكفار، لن يكونوا أي شيء سوى نصابين تافهين إلى أن يموتوا. وآل روزماير، أيضًا، الذين يتاجرون بالسُّكَّر ولديهم خادمة كاثوليكية، اضطروا لقبول خمسة شِلْنات بالجنيه من يهودي أفلس. كلما تأملتُ الأمور، أدركتُ سُنَنَ الله المبهَمة. لقد بدا مؤخرًا أن ثلاثين مليون خُلْدن من الأرباح الصافية جاءت مرةً أخرى من بيع منتجات زودنا بها الوثنيون، وهذه لم تشمل حتى ما جنيتُه أنا منها، ولا الآخرون الكثر الذين يكسبون رزقهم في هذا النوع من التجارة. ألا

يبدو الأمر وكأن الله يقول، «إليكم ثلاثين مليون جزاءَ إيمانكم؟» أليست هذه يد الله الذي يجعل الأشرار يَكِدّون لحماية أهل العدل؟ أليست هذه آيةً لنا لنستمر على الطريق القويم؟ آيةً لإنتاج الكثير هناك والوقوف صامدين في ديننا القويم هنا؟ أليس لهذا السبب نُؤمَر لأن «نعمل ونصلي،» أي أن نصلي نحن ونجعل ذلك الحثالة الأسود الذي لا يعرف كلمة «أبانا» يقوم بعملنا؟

أوه، ما أصدق المهذار حين يقول إن نِيرَ الله يَسيرٌ! ما أخفَّ الحِمْلَ على مَن آمن! أنا لم أتجاوز الأربعين بكثير، وبإمكاني أن أتقاعد إن شئتُ، وأذهبَ إلى دريبيرخِن؛ لكن ما عليكم إلا أن تنظروا إلى ما آل إليه الآخرون الذين هجروا الربَّ! بالأمس رأيتُ شالمان وزوجته وولده الصغير. كانوا مثل أشباح. كان شاحبًا كالموت، وعيناه جاحظتين، وخدّاه غائرين. كان يمشي وظهرُه محنيٌّ، مع أنه أصغر مني عمرًا. وكانت هي رثّة الملابس أيضًا، ويبدو أنها بكت من جديد. على أية حال، لاحظتُ فورًا أنها من النوع الساخط - لا أحتاج إلا مرةً واحدةً لأرى شخصًا لكي أعرف قَدْرَه. وهذا أمرٌ يأتي بالخبرة. كانت ترتدي رداءً رفيعًا قصيرًا من حريرٍ أسود، بالرغم من برودة الطقس القارسة. لم أرَ أثرًا للقرينول. كان فستانها الرفيع يتهدَّل حول رُكبتيها، وكان مهترئًا عند حافته. أما هو فلم يكن يرتدي حتى وشاحَه هذه المرة، وبدا كأنه في الصيف. ومع ذلك كان يبدو كأنه ما زال لديه شيءٌ من الاعتزاز، إذ رأيته يعطي شيئًا لامرأةٍ فقيرةٍ كانت تجلس عند الهَويس (فرتس يسميه جسرًا. لكن إذا كان مصنوعًا من حجرٍ ولا يمكن رفعه أو خفضه، فأنا أسمّيه هويسًا)،[92] وكلُّ مُعْوِزٍ آثمٌ إن أعطى مما لديه لغيره. كما أنني لا أعطي الصدقات في الشوارع - هذا أَحد مبادئي - لأنه دائمًا يخطر لي حين أرى الفقراء هذا الخاطر: من قال إن عِوزَهم ليس خطأهم؟ وأنا مخطئٌ لو أنني شجَّعتُهم على انحرافهم. وأيام الأحد أعطي مرتين للتبرعات:

مرةً للفقراء، ومرةً للكنيسة. هذه هي طريقتي! لا أعرف إن كان شالمان قد رآني، لكنني تابعتُ مسيري مسرعًا، وأنا أتطلع إلى السماء، وأتأمل في عدل العليِّ القدير الذي ما كان له قطعًا أن يتركه يتسكع بلا معطف شتوي لو أنه أحسن التصرفَ، ولم يكن كسولًا ومتعجرفًا ومريضًا.

أما بخصوص كتابي ... فإنني في الحقيقة مدينٌ للقارئ باعتذارٍ بسبب انتهاك شتيرن لعقدنا بطريقةٍ لا تُغتَفر. يجب أن أعترف أن قلبي منقبضٌ من حفلة المساء القادمة وقصةِ عشق سايْجَه هذا. فالقارئ يعرف سلفًا رأيي السديد عن العشق ... ما عليه إلا أن ينظر فَتْواي بخصوص رحلة شتيرن إلى الغانج. أستطيع أن أفهم إن استحسنت الفتيات الصغيرات هذه الأشياء؛ لكن ما يصيبني بالغثيان هو كيف يمكن لرجالٍ راشدين أن يستمعوا إلى هذا الهراء من غير أن يُصابوا بالغثيان. أنا واثقٌ أنني إن لعبتُ لعبة السوليتير خلال الحفلة القادمة، فستكون تلك هي مُعَلَّقتي.

سأفعل ما بوسعي لأُصِمَّ أذنيَّ عن قصة سايْجَه، وآمل أن يتزوج الرجل قريبًا، هذا إن كان هو بطل قصة الحب. وجميلٌ من شتيرن إلى حدٍّ ما أنه حذَّرني سلفًا من أن الحكايةَ ستكون رتيبةً. وإن خاضَ في حديثٍ غيرها، سأبدأ بالإنصات من جديد. مع أن انتقاد الحكومة يُضجرني كقصص الحب تقريبًا. كل هذا يثبت أن شتيرن ما زال صغيرًا، ولم يكتسب خبرةً كبيرةً. فلكي تحكم على الأمور بشكل لائق، لا بد أن تراها من كثب. حين تزوجتُ، ذهبتُ بنفسي إلى لاهاي، مقر الحكومة، ورأيت الصور في صالة متحف ماوريتس هاوس مع زوجتي. في لاهاي اختلطتُ بكل طبقات المجتمع، حيث رأيتُ وزير المالية يمر بعربته من جانبنا، واشترينا قماش الفانيلا معًا - أقصد أنا وزوجتي - ولم أرَ أدنى علامةِ نقمةٍ على الحكومة. كانت المرأة في المحل تبدو عليها أمارات الرخاء

والرضا، ولذلك حين حاول بعض الناس سنة 1848 أن يقولوا لنا: إن الأمور في لاهاي ليست كما يجب، قلتُ رأيي عن تلك النقمة جهارًا في حفلتنا الأسبوعية. وقد صدقني الناسُ أيضًا، لأن الكل يعلم أنني أتحدث عن خبرة، وفي رحلة العودة - أقصد من لاهاي - عزف الحارسُ الأغنيةَ القديمةَ «استَمتِع بالحياة» على بوقه. ترى، لو كان للرجل ما يشكو منه، هل كان سيعزف تلك الأغنية؟ بهذه الطريقة، ألاحظ كل شيء، ولذلك أدركتُ فورًا ما يجب علي أن أقوله عن كل ذلك التذمُّر سنة 1848.

تعيش مقابلنا امرأةٌ يعمل ابنُ أخيها في الشرق، حيث يدير توكو، كما يُسمّون الدكان هناك. لو كانت الأمور سيئةً كما يزعم شتيرن، فلا بد لها أن تعرف ذلك، لكن يبدو أن المرأة راضيةٌ جدًّا عن الأمور، لأنني لا أسمعها تتذمر قط. بل على العكس، فهي تقول إن ابن أخيها يعيش في منزل ريفي، وإنه عضوٌ في مجلس الكنيسة، وإنه أرسل لها علبةَ سيجار مزينةً بريش الطاووس صنعها هو بنفسه من الخيزران. أعتقد أن كل هذا يدل جليًّا على أن تلك الشكاوى عن سوء الإدارة الحكومية هناك لا أساسَ لها من الصحة. وبإمكانكم أن تستنتجوا من هذا أن كل من يُحسِن التصرف، لديه فرصةٌ لكسب شيءٍ من المال في تلك البلاد، ولذلك لا بد أن شالمان كان كسولًا ومتعجرفًا ومريضًا هناك أيضًا، وإلا لَما عاد فقيرًا جدًّا، وراح يتسكَّع هنا بلا معطفٍ شتويٍّ. وابنُ أخي تلك المرأة مقابلنا ليس الوحيد الذي جنى ثروةً في الشرق. في پولندا أرى كثيرًا من الرجال الذين ذهبوا إلى الشرق، وهم بالفعل أنيقون جدًّا في ملابسهم. ولكن هذا أمرٌ مفهوم، فالناس يجب أن يهتموا بشؤونهم هناك تمامًا مثل هنا. والمالُ لا ينبتُ على الأشجار في جاوا: عليك أن تعمل! وكل من لا يريد أن يفعل ذلك، فهو فقيرٌ، وسيبقى فقيرًا، وهذا أمرٌ بدهي.

[17]

كان لدى والد سانْجَه جاموسٌ يحرث به حقله. وحين أخذه منه مدير منطقة پـاران كوجان، حزن حزنًا شديدًا، ولم ينطق ببنتِ شفةٍ لعدة أيام. كان أوانُ الحرث يقترب، وكان يخشى أنه إن لم يُجهِّز السواه في الوقت المناسب، فسيفوتُه أيضًا وقت البذار، وفي النهاية لن يكون هناك أرزٌّ يحصده أو يخزنه في مخزن الحبوب.

من أجل القراء الذين يعرفون جاوا لكنهم لا يعرفون بانتام، عليَّ أن أنوِّه هنا إلى أنه في هذه المندوبية بإمكان الأشخاص أن يتملكوا الأراضي، على غير العادة في أماكن أخرى.

على أية حال، كان والد سانْجَه حزينًا جدًّا. كان يخشى ألا يتوفر الأرز لدى زوجته وسانْجَه، الذي ما زال طفلًا، وإخوته وأخواته الصغار. كما كان يخشى أن يُبلِّغ عنه مساعدُ المقيم إن تأخر في دفع ضريبة الأرض، وهذه يُعاقب عليها القانون.

عندئذٍ أخذ والد سانْجَه خنجرًا، وهو عبارة عن پـوساكا[93] من والده. لم يكن الخنجر جميلًا جدًّا، لكن الغِمْدَ كان مطوَّقًا بأربطةٍ فضيةٍ، وكان رأس الغِمد المدبَّب ينتهي بصفيحة فضية صغيرة. باع هذا الخنجر لرجل صيني يعيش في العاصمة الإقليمية، فعاد إلى البيت ومعه أربعةٌ وعشرون خُلْدَنًا، وهي ما تعادل جنيهين إنـگـليزيين تقريبًا، اشترى بها جاموسًا آخر.

ثم ما لبث سانْجَه، الذي كان حينها في السابعة من عمره، أن تَصادَق مع

الجاموس الجديد. وأنا هنا لا أستخدم كلمة «صداقة» جُزافًا، لأنه بالفعل شيءٌ عجيبٌ أن ترى تعلق الجاموس الجاوي بالولد الصغير الذي يرعاه. وسأعطي مثالًا في الحال عن هذا التعلق. وهذا الحيوان الكبير القوي يعطف رأسه يمينًا أو شمالًا أو يطأطئه بخنوعٍ، استجابةً لضغطةٍ من إصبع الطفل الذي يعرفه ويفهمه ونشأ معه.

وهكذا نشأت صداقةٌ كهذه بين سانْجَه الصغير والقادم الجديد، ويبدو أن صوت سانْجَه الطفولي المشجع أعطى قوةً أكبرَ إلى كَتِفَي الجاموس القويتين، وهو يشق التربة الطينية الثقيلة، ويخلِّف وراءه أخاديدَ عميقةً حادةً. كان الجاموس يستدير بخنوعٍ حين يصل النهاية، وكان لا يفوِّت بوصةً واحدةً من الأرض في حرثه أُخدودًا جديدًا ملاصقًا دائمًا للأُخدود السابق، وكأن حقلَ الأرزِّ أرضُ حديقةٍ نبشها عملاق.

وإلى جانب هذا السَّواه، كانت تقع سَواهات والد أدِندا، والد الطفلة التي ستتزوج سانْجَه. وحين وصل إخوةُ أدِندا الصغار الحد الفاصل بين الحقول في ذات اللحظة التي كان فيها سانْجَه أيضًا مع محراثه، راحوا يتنادَون بمرحٍ، وكل طرفٍ يُماحِك الآخر، ويتبجَّح بقوة جاموسه وطاعته. لكنني أعتقد أن جاموس سانْجَه كان الأفضل، ربما لأنه كان يعرف كيف يخاطبه خيرًا من الآخرين، ولأن الجواميس تتأثر جدًّا بالكلام اللطيف.

كان سانْجَه في التاسعة من عمره، وأدِندا في السادسة، حين أخذ مديرُ منطقة پاران كوجان ذلك الجاموسَ من والد سانْجَه.

هذه المرة باع والدُ سانْجَه، الذي كان فقيرًا جدًّا، لرجلٍ صينيٍّ مِشْبَكي كَلامبو فضيين - كان قد ورثهما من والدَي زوجته - بمبلغ ثمانية عشر خُلْدنًا. وبهذا المبلغ اشترى جاموسًا جديدًا.

لكن سانْجَه كان حزينًا، لأنه عَلِم من إخوة أدِندا أن الجاموس الأخير قد سيقَ إلى مركز المقاطعة، وسأله والده إن كان قد رأى الجاموس حين كان هناك لبيع مِشْبَكي الكَلامبو. لكن والده اختار ألا يجيب على سؤاله. ولهذا خشي سانْجَه أن يكون جاموسُه قد ذُبِح، كغيره من الجواميس التي أخذها مدير المنطقة من الناس.

وقد بكى سانْجَه كثيرًا حين فكَّر بالجاموس المسكين الذي عاشره مدة سنتين. ثم أحجم عن الأكل مدةً طويلةً، لأن بلعومه ضاق كثيرًا فلم يعد يقوى على البلع.

عليكم أن تتذكروا أن سانْجَه كان مجرد طفل.

تعوَّد الجاموس الجديد على سانْجَه، فما لبث أن استحوذ على مشاعر الطفل ... وبصورة سريعة، في الحقيقة، لأن الانطباعات التي تنطبع على شَغَاف القلوب ما تلبث، للأسف، أن تندثر لتفسح المجال لانطباعاتٍ أخرى! على أية حال، رغم أن الجاموس الجديد لم يكن قويًا كالجاموس القديم ... ورغم أن النير القديم كان أكبر من كتفيه ... إلا أن المخلوق المسكين كان مطيعًا كسلفه الذي ذُبِح؛ ومع أن سانْجَه لم يعد يتبجَّح بقوة جاموسه حين يلتقي إخوةَ أدِندا عند أطراف الحقول، إلا أنه ظل يزعم أنه لا يوجد جاموسٌ آخر يتفوق على جاموسه في الطاعة. وإذا لم تكن الأخاديد مستقيمةً كما من قبل، أو إذا تحاشى المخلوق المسكين السير من فوق كتل الطين، تاركًا إيّاها بلا فلاحة، كان سانْجَه يُصلح الأمر عن طيب خاطر بِـپاچـولِه، وبأفضل ما يستطيع. علاوةً على ذلك، لم يكن لأي جاموسٍ آخر أُوسير أُوسيران مثل جاموس سانْجَه! لا بل إن الـپِنـگـولو،[94] بمكانته وجلالة قدره، قال: إن هناك أونتون[95] في نمط جدلات الشعر على غارِبه.

وبينما هما في الحقل ذاتَ يومٍ صاح سانْجَه على جاموسه يستحثه على المسير. لكن البهيمة توقفت تمامًا. لم يتمالك سانْجَه نفسه، الذي أزعجه هذا العصيان العظيم، على غير المعتاد، فراح يشتمه، «ط ...!» سيعرف كل من كان في الهند الشرقية ما أقصده، أما مَن لا يعرفون ذلك فلا يمكنهم الاستفادة إلا بإعفائي لهم من شرح تعبيرٍ سوقي.

لم يكن سانْجَه يقصد الإساءة. وهو لم يقل ذلك التعبير إلا لأنه سمع الآخرين يقولونه مرارًا وتكرارًا، حين يغضبون من جواميسهم. لكن ما كان يجب أن يقوله لأنه بلا فائدة، وجاموسه لم يتحرك. هزّ المخلوق المسكين رأسه كأنه يريد أن يتخلص من النير ... وكان بإمكانك أن ترى أنفاسه تتدفق من منخريه ... كان يشخر ويرتجف ويهتز ... وكان في عينه الزرقاء خوفٌ، وكانت شفتُه العليا مشدودةً إلى الوراء، مُسفِرةً عن لثّته ...

صاح إخوة أدِندا، «اركض، اركض! سانْجَه، اركض! هناك نَمِرٌ!»

نزع كل واحد النير عن جاموسه، وقفز على ظهره العريض، وراح يعدو فوق السواهات وعبر الـگـلاگَنات[96] والوحل والغياض والآجام والألّان ألّان،[97] بجانب الحقول والطرقات. ولكنهم حين وصلوا قرية بادُر لاهثين والعرق يتصبب منهم، لم يكن سانْجَه معهم.

لأنه حين خلّص جاموسه من النير وامتطاه كالآخرين، لكي يهرب مثلهم، انطلق الجاموس فجأةً، ففقد سانْجَه توازنه، وسقط على الأرض. وكان النمر قريبًا جدًّا ...

أما جاموس سانْجَه، فقد دفعته سرعته إلى تجاوز مكان سيده الصغير، الذي كان ينتظر حتفه، بعدة وثبات. لكنه لم يتجاوز سانْجَه إلا بفعل سرعته وليس إرادته. لأنه ما إن استطاع أن يكبح الزخم، الذي يدفع كل مادةٍ حتى بعد زوال

السبب الذي دفعها، حتى قفل راجعًا، وأناخ بجسده الأخرق القائم على قوائمه الخرقاء فوق الطفل مثل سقفٍ، ووجَّه قرنيه نحو النمر. وثب النمر ... فكانت وثبته الأخيرة. استقبله الجاموس بقرنيه، ولم يفقد إلا قليلًا من اللحم الذي تمزَّق من رقبته. ارتمى المعتدي على الأرض مفتوحَ البطن، ونجا سايْجَه. وكان بالفعل هناك أونتون في أُوسر أُوسَران ذلك الجاموس!

حين أُخِذ هذا الجاموس من والد سايْجَه وذُبِحَ ...

لقد قلتُ لك، أيها القارئ، إن قصتي مملة.

... حين ذُبِحَ هذا الجاموس، كان سايْجَه قد بلغ اثني عشر صيفًا، وكانت أَدِندا قد بدأت بحياكة ثياب السارون، وتعمل تطريزات باتيكِن هندسية الشكل على الكيـپـالا، وهو النطاق العريض على أحد طرفي السارون.[98] كانت لديها أفكار أرادت أن تعبر عنها في التطريز الذي خططته على القماش بكأسها الورقية الصغيرة، فرسمت الحزن، لأنها رأت سايْجَه حزينًا جدًّا.

كما كان والد سايْجَه حزينًا جدًّا أيضًا، لكن أمه كانت الأشد حزنًا. فهي التي عالجت الجرح الذي أصاب رقبة الجاموس الوفي الذي جاءها بطفلها سالمًا غانِمًا، بعد أن سمعت الأخبار من إخوة أدِندا وظنت أن ابنها اختطفه النمر. وكثيرًا ما تأملت ذلك الجرح وتساءلت إذا كان مخلب النمر قد غار بهذا العمق في عضلات الجاموس المتينة، فكم كان سَيَغور في جسد طفلها الغَضِّ؟ وكلما وضعت على الجرح أعشابًا شافيةً جديدةً، مسَّدت جسد الجاموس وتكلمت إليه بلطفٍ، لكي يعلم هذا المخلوق الطيب الوفي شدة تقدير هذه الأم له. وكانت ترجو من كل قلبها أن يفهمها الجاموس لأنه حينها سيفهم أيضًا لماذا بكت حين أُخِذ للذبح، وسيعلم أن والدة سايْجَه لم تكن هي من أمرت بذبحه.

وفي النهاية هرب والد سايْجَه من البلاد، لأنه كان يخشى من العقوبة لأنه لم

يسدد ضريبة أرضه، ولم يعد لديه أي پـوساكا يشتري به جاموسًا جديدًا لأن والديه كانا دومًا يعيشان في پـاران كوجان، ولذلك لم يكن لديهما إلا القليل يورِّثانه له. كما عاش والدا زوجته أيضًا في ذات المنطقة. ومع ذلك ظل، بعد خسارة جاموسه الأخير، مواظبًا على الفلاحة بضع سنين بجواميس مستأجرة. ولكن هذا الأمر المزعج كان يَشُقُّ عليه كثيرًا، ولاسيما أنه كان صاحب جواميس في يوم من الأيام. ماتت أم سانْجَه مفطورةَ القلب، فقرر حينها والده، في لحظة يأسٍ، أن يهرب من ليباك، ومن بانتام، ليبحث عن عمل في منطقة باوتِنزورخ. وقد جُلِد بالخيزرانة لمغادرته ليباك من دون تصريح، فأعادته الشرطة إلى بادُر. وهناك أُلقي به في السجن، ظنًّا منهم أنه مجنون (وهو ليس بالأمر المُستَبعَد)، وخوفًا من أن يُصاب بِسُعارٍ ويقترفَ، في نوبةِ جنونٍ، جُرمًا آخر، ولكنه لم يُسجَن طويلًا، لأنه مات بُعَيْدَ ذلك.

أما مصير إخوة سانْجَه وأخواته الصغار فلا أعرفه. ظل الكوخ الذي يعيشون فيه خاويًا من ساكنيه مدةً، ثم ما لبث أن تهدَّم، إذ كان مبنيًّا من الخيزران فقط ومسقوفًا بسعف النخيل. وقد غطى البقعةَ التي شهدت الكثيرَ من العذاب قليلٌ من الغبار والأوساخ. وفي ليباك بُقَعٌ كثيرة كهذه.

كان سانْجَه في الخامسة عشرة حين غادر والده إلى باوتِنزورخ. لم يرافقه لأنه كانت لديه خططٌ أكبر في باله. فقد قيل له إن في بَتافيا نُبلاء كثيرين يركبون في بنْدِيّات، وإنه لذلك سيجد بسهولةٍ وظيفةَ سائقِ بنديّة وعادةً ما يُختار لها شابٌّ غيرُ مكتمِل النمو كي لا يُخِلَّ بتوازن المركبة الخفيفة ذات العَجَلتين إذا أُضيف لها وزنٌ كبيرٌ في مؤخرتها. وقد تلقى تطميناتٍ كثيرةً بأن هذه الخدمة مربحةٌ جدًّا، على شرط أن يُحْسِنَ التصرف. في الحقيقة، بهذه الطريقة قد يوفر في ثلاث سنواتٍ مالًا يكفي لشراء جاموسين. بدا له المستقبل ورديًّا. وهكذا دخل بيت

أدِندا، واثقَ الخطوةِ - خطوةِ رجلٍ مقبلٍ على أمورٍ عظيمةٍ - وأخبرها بِنِيَّتِه.

قال لها، «ما عليكِ إلا أن تتخيلي أنه حين أعود، سنكون قد كبرنا لنتزوج، وسيكون عندنا جاموسان!»

«هذا رائع، يا سايْجَه! سيسعِدني أن أتزوجك حين تعود. سأغزِل وأحيك ثياب السارون والسلِنْدان، وأنسج قماس الباتِك، وسأواظب على العمل كل هذه المدة.»

«لا شك عندي بذلك، يا أدِندا، لكن ... ماذا لو تزوجتِ؟»

«سايْجَه، أنت تعلم علم اليقين أنني لن أتزوج أحدًا غيرك. لقد وعدني أبي لأبيك.»

«لكن ما هو رأيكِ أنتِ؟»

«سأتزوجكَ، اطمئن!»

«حين أعود، سأنادي من بعيد ...»

«من سيسمعك ونحن نطحن الأرز في القرية؟»

«هذا صحيح. لكن يا أَدِندا ... آه، خطرت في بالي فكرة أفضل: انتظريني قربَ غابة الجاتي، تحت شجرة الكِتَـپَـن، حيث أعطيتِني زهرة الميلاتي.»

«لكن، يا سايْجَه، كيف لي أن أعرف متى يجب أن أذهب وأنتظرك عند الكِتَـپَـن؟»

فكّر سايْجَه للحظةٍ، ثم قال:

«عُدّي الأقمار. سأغيب اثني عشر قمرًا مضروبةً بثلاثة ... من غير أن نُدخل هذا القمر في الحسبان. انظري، يا أَدِندا - احفري حِزًّا في مهباج الأرز خاصتك مع مطلع كل هلالٍ جديدٍ. وحين تَحُزّين اثني عشر حِزًّا مضروبةً بثلاثة، سأكون قد وصلتُ تحت الكِتَـپَـن في اليوم التالي. هل تَعِدين أن تكوني هناك؟»

«نعم، يا سانْجَه! سأكون تحت الكِتَـپَـن قربَ غابة الجاتي حين تعود!»

عندئذٍ اقتطع سانْجَه شريطًا من عمامته الزرقاء التي كانت مهترئةً جدًّا، ثم أعطى تلك القصاصة الكتّانية إلى أَدِندا، لتكون بمثابةِ عهدٍ بينهما، ثم غادرها وغادر بادُر.

ظل يمشي عدةَ أيام. مر مِن برانْكَس بيتون، ولم تكن حينها المركز الإداري للبياك، وَوارون گـونُّون، حيث كان يقطن مساعد المقيم، وفي اليوم التالي رأى پـاندِگـلان، تتمدد كأنها في حديقة. يومٌ آخر ووصل إلى سيران، ووقف مذهولًا ببهاء هذا المكان الفسيح الذي تكثر فيه البيوت المبنية من الحجر والمسقوفة بقرميدٍ أحمر. لم يرَ سانْجَه شيئًا كهذا من قبل. أقام هناك يومًا واحدًا لأنه كان مرهَقًا، لكنه واصل مسيره ليلًا حين برد الجو، فوصل في اليوم التالي إلى تَنـگـيرَن، قبل أن ينزل الظل إلى شفتيه، مع أنه كان يَتَلَفَّع بالتودون الكبير الذي خلَّفه له والده.

في تَنـگـيرَن استحمَّ في النهر قرب العَبّارة، ثم استراح في منزل أحد معارِف أبيه، فأراه هذا كيف ينسج من القش قبعاتٍ كتلك التي تأتي من مانيلّا. مكث يومًا ليتعلّم هذا، لأنه ظن أنه قد يكسب من هذه الصنعة شيئًا من المال إن لم ينجح في بَتافيا. وفي اليوم التالي، قبيل حلول الليل وانخفاض درجة الحرارة، شكر مضيفه، ثم واصل رحلته.

وما إن حلَّ الظلام الحالك الذي يعجز فيه المرء عن الرؤية حتى أخرج الورقة التي كان يلف بها الميلاتي التي كانت أدِندا قد أعطته إياها تحت شجرة الكِتَـپَـن، لأنه اكتأب حين خطر له أنه لن يراها ثانيةً لمدةٍ طويلةٍ. في اليوم الأول، بل وفي الثاني، لم يشعر بوطأة الوحدة لأن نفسه كانت مشغولةً بفكرة جمع المال الذي سيشتري به جاموسين - وهذه همةٌ عاليةٌ بالفعل، لأن أباه لم يملك قطُّ أكثر

منِ جاموس واحد؛ وكانت خواطره كلها تحوم حول رؤية أدِندا من جديدٍ فلم تُفْسِح المجال للحزن الشديد على فراقها. حين ودَّعها كانت تُحدوه آمالٌ سامية، وقد ارتبط ذاك الوداع في خاطره بالتئام شملهما معًا أخيرًا تحت الكِتَـپَن. لأن أمل التئام الشمل قد ملأ قلبه حتى إنه طاب خاطره وهو يمر بالشجرة وهو يغادر بادُر، كأنهما قد تجاوزا تلك الأقمار الستة والثلاثين التي تفصله عن تلك اللحظة. فقد بدا له الأمر، وكأن كل ما عليه أن يفعله هو أن يستدير، كأنما يقفل عائدًا من الرحلة، ليرى أدِندا تنتظره تحت الكِتَـپَن.

لكن كلما ابتعد عن بادُر، وكلما أحس بالطول الرهيب ليوم واحدٍ فقط، شعر بطول الستة والثلاثين قمرًا التي تنتظره. كان في نفسه شيءٌ جعله يتباطأ في خطواته. شعر بحزنٍ في ركبتيه، ومع أن الذي غشيه ليس يأسًا، بل هي الكآبة التي تبتعد كثيرًا عن اليأس، ففكّر في العودة، لكن ماذا ستقول أدِندا عن هذا الخَوَر؟

وهكذا واصل مسيره، وإن كان بخطىً أبطأ من يومه الأول. كان يُمسك الميلاتي بيديه، وكان كثيرًا ما يضمها إلى صدره. في تلك الأيام الثلاثة، كبر كثيرًا، ولم يعد يفهم كيف كان يحافظ على هدوئه في الماضي، حين كانت أدِندا تعيش قريبًا منه، وكان يراها كلما شاء ولأطول مدة يشاء! لأنه لن يهدأ، لو أنه توقع أنها ستقف أمامه في الحال! كما أنه لم يفهم لماذا بعد وداعهما لم يقفل عائدًا لينظر إليها مرةً أخرى فقط. كما تذكر أيضًا كيف تخاصم معها مؤخرًا بسبب الحبل الذي نسجته من أجل لَلَيان[99] إخوتها التي انقطعت بسبب عيبٍ في حياكتها لها، حسب زعمه، وهذا ما أفقدهم رهانًا مع الأطفال من چيپوروت. فخطر في باله، «كيف لي أن أُغاضبَ أدِندا من أجل ذلك؟ فحتى لو كان في نسجها للحبل عيبٌ، ولو خسرت بادُر المباراة مع چيپوروت بسبب ذلك، وليس بسبب

قطعة الزجاج التي ألقاها ببراعةٍ ذلك الشقي الصغير جامِن الذي كان يختبئ خلف الـپـاگـر،[100] فهل يحق لي، حتى حينها، أن أتصرف معها بتلك القسوة وأشتمها؟ ماذا لو مُتُّ في بَتافيا من غير أن أستسمحها لتصفح عن فظاظتي وقلة أدبي؟ ألن أُخلَّد في ذاكرة الناس صورتي الشريرة وأنا أُمطِر الفتيات بالشتائم؟ وحين يسمع أهل بادُر بموتي في أرض غريبة، ألن يقولوا، «ونِعْم ما صنعه سايْجَه بموته بعد أن سَلَق أذِندا بلسانه؟»

وهكذا اتخذت خواطره منحىً ابتعد كثيرًا عن مسارها السامي الأول، حتى وجدت تعبيرها، رغمًا عنه، في البداية في كلماتٍ متقطعةٍ بالكاد تُسمَع، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مناجاة، وأخيرًا في نشيدٍ حزينٍ أقدم لكم ترجمته هنا. وكان هدفي الأصلي أن تكون ترجمتي موزونةً ومُقفّاةً، ولكنني، مثل هافلار، أعتقد أنه من الأفضل أن نستغني عن مثل هذه القيود:

«لا أعرف أين سأموت.
لقد رأيتُ البحر العظيم على الساحل الجنوبي حين كنت هناك أستخرج الملح مع أبي؛
إن مُتُّ في البحر وألقوا جسدي في المياه العميقة، ستأتي أسماكُ القرش.
ستسبحُ حول جثتي وتسأل، 'مَن منّا سيلتهم هذا الجسد النازل في الماء؟'
ولن أسمع.

لا أعرف أين سأموت.
لقد رأيت بيت پـا أنسو المحترق، الذي أشعله هو نفسه، لأنه كان مجنونًا.
إن متُّ في بيتٍ يحترق، ستتساقط على جُثتي الجمرات الملتهبة،
وسيكون الناس خارج المنزل في هَرْجٍ ومَرْجٍ وهم يحاولون إخماد النار.
ولن أسمع.

لا أعرف أين سأموت.
لقد رأيتُ سي أوناه الصغير وهو يسقط من شجرة الكلاپّـا، حين كان يقطف ثمرة كلاپّـا لأمه.
إن سقطتُ من شجرة كلاپّـا سأرقد هامدًا عند أسفلها، بين الشجيرات، مثل سي أوناه.
لن تبكي أمي عليَّ لأنها قد ماتت. لكن الآخرين سيصيحون بصوتٍ عالٍ، 'ها هو سايْجَه هامِدٌ هنا!'
ولن أسمع.

لا أعرف أين سأموت.
لقد رأيتُ جثةَ پـا ليسو الذي مات من الشيخوخة، إذ كان شعرُه أبيض.
إن مُتُّ من الشيخوخة، بعد أن يشيب شعري، ستتحلق النادباتُ حول جسدي.
وسيندبن بصوتٍ عالٍ كالنادبات حول جثةَ پـا ليسو.
وسيبكي الأحفادُ أيضًا، بصوتٍ عالٍ جدًّا.
ولن أسمع.

لا أعرف أين سأموت.
لقد رأيت كثيرًا ممن ماتوا في بادُر. كانوا يُلَفُّون بِدِثارٍ أبيضَ، ثم يُدفَنون في جوف الأرض.
إن مُتُّ في بادُر، ودفنوني خارج القرية، شرقًا مقابل التلَّة، حيث ترتفع الأعشاب،
عندئذٍ ستمر أدِندا من ذاك الطريق، وسَتَمَسُّ الأعشابَ بطرف سارونها مسًّا رفيقًا ...
وسأسمع.»

وصل سائِجَه إلى بتافيا. طلب من سيدٍ نبيلٍ أن يستعمله سائسًا، فقبل النبيلُ فورًا لأنه لم يفهم لغة سائِجَه، وهي السُّندانية، ولأن أهل بَتافيا يحبون أن يكون لديهم خَدَمٌ لم يتعلموا الملاوية بعد، ولهذا لم يُفسِدهم الاحتكاك الطويل بالحضارة الأوربية كالآخرين. وما لبث سائِجَه أن تعلم الملاوية، لكنه كان يتصرف بطريقةٍ مثاليةٍ، لأنه لم يكُفَّ قط عن التفكير بالجاموسين اللذين أراد أن يشتريهما، أو بأدِندا. صار طويلًا وقويًا لأنه كان يأكل وجبتين في اليوم، وهو ما لم يكن ممكنًا في بادُر. وقد كان محبوبًا في الإسطبلات، وما كان لِيُرفَض لو أنه تقدم إلى خطبة ابنة الحُوذيِّ. كما كان سائِجَه محبوبًا جدًّا من سيده، أيضًا، إلى درجة أنه ما لبث أن رقّاه إلى منصب سُفْرَجي. ارتفع أجرُه، وكان يتلقى الهدايا بشكل دائم، لأن الناس كانوا راضين عن عمله. كانت سيدة المنزل قد قرأت رواية سو «اليهودي المتجوِّل،» أعجوبة الأيام التسعة تلك، ولم تستطع أن تكُفَّ عن التفكير بالأمير جَلْما حين رأت سائِجَه. وكذلك فهمت السيداتُ الشاباتُ على نحو أفضل من ذي قبل لماذا لاقى الرسّام الجاوي رادِن صالح رواجًا كبيرًا في باريس.

لكنهم ظنوا أن سائِجَه ناكرٌ للمعروف حين أخطرهم، بعد حوالي ثلاث سنوات من الخدمة، بنيته ترك العمل وطلب منهم شهادةَ حُسن سلوك. لكنهم لم يستطيعوا أن يحرموه من هذا، فانطلق سائِجَه إلى قريته التي وُلِد فيها وقلبُه طافحٌ بالفرح.

مرَّ بـپـيسِنـگ التي عاش فيها هافلار قبل مدةٍ طويلةٍ. لكن سائِجَه لم يكن يعلم هذا. وحتى لو عرف هذا، كان في نفسه أشياء أخرى تشغله. كان يعُدُّ النفائس التي يحملها إلى موطنه. ويحمل تصريحه وشهادة سيدِهِ في لُفافةٍ مصنوعةٍ من أعواد الخيزران. كما كان يحمل، في حقيبةٍ أسطوانيةِ الشكلِ يعلِّقها بشريطٍ جلديٍّ، شيئًا ثقيلًا كان ينخزه في كتفه باستمرار، لكنه كان يحب هذا الشعور

... ولا عجب! ففيها كان يحمل ثلاثين دولارًا إسبانيًا، وهو مبلغٌ يكفي لشراء ثلاثة جواميس. ماذا ستقول أدِندا؟ ولم يكن هذا كل شيء. إذ كان يُرى على ظهره غِمْدٌ مُطَعَّمٌ بالفضة لخنجرٍ كان يحمله في حزامه. وكان المِقبَض بلا شكٍّ من خشب الكامونِن[101] المزخرف زخرفةً فاخرةً، لأنه كان يلفُّه بمنتهى العناية بقطعةٍ من حرير. وكان في جعبته أيضًا مزيدٌ من النفائس. ففي عقدة مِئزره كان يخبئ نطاقًا نسائيًا ذا حلقاتٍ فضيةٍ واسعةٍ ذات إيكات پِندين أو مِشْبَكٍ ذهبي. لا شك أن النطاقَ قصيرٌ، لكنها نحيفةٌ جدًّا ... أدِندا!

كان كيس حريري صغير يتدلى بحبلٍ رفيعٍ حول رقبته وتحت سُترته ويحتوي على بعض الميلاتي المجفف.

هل تستغربون أنه لم يمكث في تَنـگـيرَن إلا بالقَدْر الضروري لزيارة صديق أبيه الذي يصنع قبعاتٍ رائعةً من القش؟ هل تستغربون أنه لم يكترث كثيرًا لسؤال الفتيات اللاتي صادفهن على الطريق وكنّ يسألنه، «إلى أين تذهب ومن أين أتيت؟» وهي التحية المألوفة في تلك الأنحاء؟ هل تستغربون أن سيران لم تعد بهيةً في نظره بعد أن عرف بَتافيا؟ وأنه لم يعد يندسُّ في الـپـاگـر، كما كان يفعل قبل ثلاث سنوات حين يمر المقيم من جانبه، بعد أن رأى السيد الأعظم بكثير الذي يعيش في باوِتنزورخ وَجَدَّ سوسوهونان السُّولوني؟[102] هل تستغربون أنه لم يكترث كثيرًا لقصص زملائه في السفر الذين رافقوه مسافةً من الطريق وكانت لديهم كل أخبار بانتان كيدول؟ أنه كان بالكاد يُصغي إليهم حين أخبروه أن محاولات زراعة القهوة قد أُوقِفت بعد أن باءت كل جهودهم بالفشل؟ أن مدير منطقة پـاران كوجان قد حُكِم عليه بالحبس مدة أربعة عشر يومًا في منزل حَمِيِّه بتهمة السلب وقطع الطريق؟ وأن رانْكَس بيتون أصبحت الآن هي مركز المقاطعة؟ وأنه قد جاء مساعدُ مقيمٍ جديدٌ، لأن سلفه قد مات

قبل بضعة أشهر؟ وأن هذا المسؤول الجديد قد تكلم في أول اجتماع سيباه؟ وأنه لم يُعاقَب أحدٌ حتى الآن لأنه اشتكى، وأن الناس يأملون أن كل ما سُرِق سيُعاد أو يُصلَح؟

لا ... فأمام ناظريه كانت هناك رؤى أجمل. لقد تفحَّص السحبَ بحثًا عن شجرة الكِتَـپَـن، لأنه ما زال بعيدًا جدًّا لا يراها في باذُر. كان يحضن الهواء المحيط به كأنه يرغب في عناق هيئة من سيجدها تنتظره تحت تلك الشجرة. تخيل وجه أدِندا ورأسها وكتفها ... فرأى الكونده الثقيلة، الشديدة السواد واللمعان، عالقةً في فَخِّها، وهي تتدلى على عنقها ... رأى عينيها الكبيرتين، تلتمعان بانعكاسٍ داكنٍ ... ورأى منخريها اللذين كانت تلويهما بغرورٍ في طفولتها حين كان يمازحها - كيف كان ذلك ممكنًا؟ - ورأى زاويةَ فمها التي كانت تخزن فيها ابتسامةً، رأى صدرها الذي لا بد أنه قد انتفخ الآن تحت الكَبايةَ ... ثم رأى كيف كان السارون الضيق، الذي حاكته بنفسها، يلتفُّ حول رِدفيها، ثم ينساب على منحنى فخذها نحو الركبة، ثم يتجاوزها إلى قدمها الصغيرة، وهو يتموَّج تموجًا فاتنًا ...

لا، لم يسمع إلا القليلَ مما قاله له الناس. لقد سمع نبراتٍ مختلفةً. سمع أَدِندا تقول، «مرحبًا بك، يا سائِجَه! كنت في بالي وأنا أنسج وأحيك، وأنا أطحن الأرز في المِهباج الذي يحمل ستة وثلاثين حِزًّا صنعتُها بيدي. ها أنا هنا، تحت شجرة الكِتَـپَـن، في أول يوم للهلال الجديد. مرحبًا بك، يا سائِجَه: سأكون زوجتك!»

تلك كانت الموسيقى التي كان لها وقعٌ لذيذٌ في أذنيه اللتين أصمَّهما عن كل الأخبار التي قصَّها عليه الناس في طريقه.

وأخيرًا رأى شجرة الكِتَـپَـن. أو بالأحرى رأى كتلةً داكنةً هائلةً حجبت كثيرًا من النجوم عن ناظريه. هذه لا يمكن إلا أن تكون غابة الجاتي القريبة من

الشجرة التي تواعد مع أدِندا على رؤيتها من جديد عندها مع شروقِ شمسِ غدٍ. راح يبحث في الظلام، متلمسًا بيديه جذوعَ أشجارٍ كثيرةٍ. لم يطل به المقام قبل أن يجد خشونةً مألوفةً على الجانب الجنوبي لإحدى الأشجار، فوضع إصبعه في الشق الذي حزَّه سي پـانته بالـپـاران[103] خاصته ليطرد أرواح الـپـونتيـاناك[104] التي تسببت في ألم ضرس أم پـانته، قبيل مولد أخيه الصغير. هذه هي شجرة الكِتَـپَـن التي كان سايْجَه يبحث عنها.

أجل، كانت هذه بالفعل البقعة التي رأى فيها أَدِندا لأول مرةٍ بنظرةٍ تختلف عن نظرة رفاقه في اللعب، لأنها هنا رفضت لأول مرة أن تشارك في لعبةٍ كانت تلعبها قبل مدةٍ قصيرةٍ مع جميع الأطفال - صبيانًا وفتياتٍ. وهنا كانت قد أعطته الميلاتي.

جلس عند أسفل الشجرة، وتطلَّع إلى النجوم. وحين خرَّت إحداها في السماء، رأى في ذلك تحيةً له بمناسبة عودته إلى بادُر، وتساءل إن كانت أدِندا نائمةً الآن؟ أو إن كانت قد أرَّخت الأقمار بشكلٍ صحيحٍ على مهباج الأرز؟ سيحزنه جدًّا لو أنها أخطأت العد، وكأن ستةً وثلاثين قمرًا لم تكن تكفي! وتساءل إن كانت قد حاكت ثياب السارون والسلِندان الجميلة؟ كما تساءل أيضًا، بشيء من الفضول، عمن يسكن الآن في منزل أبيه؟ فعادت إليه طفولته وأمه وكيف أنقذه ذلك الجاموس من النمر، ولم يتمالك نفسه عن التفكير بمصير أدندا لو أن الجاموس كان أقل وفاءً.

راعى النجوم وهي تغيب في الغرب، ومع كل نجمةٍ تلاشت وراء الأفق أدرك أن الشمس تقترب أكثر فأكثر من البزوغ في الشرق، وأنه يقترب من رؤية أدِندا من جديد.

لأنها لا بد أن تأتي مع أول شعاعٍ يبزغ، نعم، ستكون حاضرة مع باكورة

الفجر الرمادي ... أوه، لماذا لم تحضُر إلى الشجرةِ يومَ أمس؟

أحزنه أنها لم تتشوَّق إليها - إلى اللحظة المجيدة التي ظلت تلمع أمام ناظريه بألقٍ لا يوصَف طيلة ثلاث سنوات. وبما أنه كان جائرًا في حبِّه الأناني، فقد بدا لهذا المتذمِّر الآن أن من واجب أدِندا أن تكون بانتظاره، بل وقبل الموعد أيضًا، لأنه مضطرٌ لانتظارها هي.

تذمّر من غير سبب، لأن الشمس لم تشرق بعد، ولم تُلقِ عينُ النهار بعدُ نظرةً أولى على السهل. صحيحٌ أن الشُّهُب راحت تخبو فوق رأسه، خجلى من قرب زوال سلطانها ... صحيحٌ أن ألوانًا غريبةً راحت تتدفق فوق قمم الجبال التي بدت أكثر دُكْنَةً، حين راح المشهد الفاتح الذي خلفها يتكشف أكثر فأكثر ... صحيحٌ أن شيئًا متألِّقًا كان يخترق سحبَ الشرق - سهامٌ من ذهبٍ ونارٍ تنطلق هنا وهناك، متتبعةً أُفُقَ السماء. لكنها اضمحلَّت من جديدٍ، كأنها تلاشت خلف الستارة المُبهمة التي ظلت تحجب النهار عن عيني سانْجَه.

ومع ذلك بدا النهار يتكشَّف شيئًا فشيئًا، وصار بإمكانه أن يرى المشهد من حوله، وأن يتبين غابةَ الكلاپتا برؤوس أشجارها المتشابكة التي تختبئ فيها بادُر ... هناك ترقد أَدِندا!

لا، لم تعد نائمةً! كيف تستطيع أن تنام؟ ألم تعلم أن سانْجَه سيكون بانتظارها؟ من المؤكد أنها لم تنم قطُّ تلك الليلة! لا شك أن حارس القرية قد طرق الباب ليسأل لماذا ما زال الـپـليتاه[105] مضاءً في بيتها الصغير، ولا بد أنها أخبرته بضحكةٍ عذبةٍ أنها قد نذرت أن تُكمل حياكة السِلنْدان الذي بين يديها، ويجب أن يكون جاهزًا مع اليوم الأول من القمر الجديد ...

أو أنها أمضتِ الليل في الظلام، جالسةً على مهباج الأرز تعدُّ بأصابعَ مشتاقةٍ كي تتأكد أن هناك ستةً وثلاثين حِزًّا عميقًا محفورةً فيه، حِزًّا بجانب حِزٍّ. وأنها

كانت تَتَلَهّى بخوفٍ مصطنعٍ، وهي تتخيل أنها ربما أخطأتِ العَدَّ، أو ربما لا يزال هناك حِزٌّ ناقصٌ ... لكي تَنعم من جديدٍ، مرةً بعد أخرى، بل مراتٍ عديدةً، بيقينها الجليل الذي لا تشوبه شائبةٌ من شكٍّ، أن اثني عشر قمرًا مضروبةً بثلاثة قد مرَّت منذ آخرِ مرةٍ رأت فيها سانْجَه.

هي أيضًا ستُجهِد عينيها - لأن النهار قد أرسل في الكون ضياءه - في محاولةٍ عابثةٍ لترسل نظراتِها إلى الأفق، لعلَّهما تلتقيان بالشمس المتلكِّئة التي تباطأت ... تباطأت ...

جاء شعاعٌ أحمرُ مُزْرَقٌّ تشبَّث بالسحب، فأضاء أطرافَها وتألقت، لمع برقٌ، ومن جديدٍ انطلقت سهامٌ ناريةٌ في الجو، لكنها هذه المرة لم تتلاشَ، بل تشبَّثت بالمشهد الداكن الذي خلفها بإحكام، وراحت توزِّع الألق من حولها في دوائر أوسع فأوسع، وتلاقت متصالبةً، متأرجحةً، ملتفَّةً، متلوّية، فانصهرت في حُزَم ناريةٍ، والتمعت وانداحت أشعةً ذهبيةً على أرضٍ من اللؤلؤ، فكان فيها الأحمرَ والأزرق والأصفر والفضي والأرجواني واللازوردي ... يا إلهي! كان ذلك هو الفجر، كان ذلك هو مَقْدَم أدِندا!

لم يتعلم سانْجَه الدعاءَ قطُّ، ولو تعلمه لكان ذلك من العبث، لأنه لا تستطيع لغةٌ بشريةٌ على الإطلاق أن تعبر عن دعاءٍ أقدسَ ورضًا أكثرَ حماسةً مما في نفسه من نشوةٍ عجماءَ. أراح نفسه عند أسفل شجرة الكِتَـپَـن، وسرَّح ناظريه في الريف. ابتسمت له الطبيعة، وبدت كأنها ترحب به كما ترحب أمٌّ بطفلها العائد. وكما ترسم الأم فرحتها بالاستذكار المتعمد لحزن الماضي، بإخراج ما خبّأته تذكارًا خلال غياب طفلها، كذلك متَّع سانْجَه نفسه بالنظر من جديد إلى أماكنَ كثيرةٍ، شهدت أحداثًا معينةً في حياته. لكنْ أينما تجولت عيناه أو سَرَحت خواطره، عادت تحديقته وشوقه كل مرةٍ إلى الدرب الذي يقود من بادُر إلى

شجرة الكِتَـپَـن. كل ما أدركته حواسُّهُ حمل اسمَ أدِندا. رأى الوادي على يساره، حيث كانت الأرضُ شديدةَ الصُّفْرة، وحيث سقط عجلُ جاموسٍ صغيرٌ ذات يوم إلى قاعه، وهناك اجتمع أهل القرية لينقذوا المخلوق المسكينَ - لأنه ليس بالأمر السهل أن تخسر جاموسًا صغيرًا - فدلّى الناسُ بعضهم بعضًا بحبالٍ متينةٍ من الخيزران. وكان أبو أَدِندا أشجع الكل ... أوه، كم صفَّقت أَدِندا!

وهناك على الطرف الآخر، حيث كانت أجمة جوز الهند تلوح من فوق أكواخ القرية، هناك حيث كان سي أوناه قد سقط من شجرة ومات. كانت تبكي وتقول، «لقد مات صغيرًا» وكأنها كانت ستحزن عليه أقل لو كان أكبر! لكن ذلك كان صحيحًا، فقد كان صغيرًا، بل أصغر وأكثر هشاشةً حتى من أَدِندا ...

لم يأتِ أحدٌ على الدربِ الآتي من بادُر إلى الكِتَـپَـن. لكنها ستأتي قريبًا، وما زال الوقت مبكرًا جدًّا.

رأى سانْجَه باجِن[106] يتقافز هنا وهناك حول جذع شجرة كلاپـا، برشاقةٍ ومرحٍ. ظل هذا المخلوق الصغير - وهو لعنةٌ على صاحب الشجرة، لكنه ساحرٌ في مظهره وحركاته - يتسلق الشجرةَ صعودًا وهبوطًا. رآه سانْجَه وأرغم نفسه على النظر إليه، لأن ذلك أراح باله من الجَهد الذي أشغله منذ مطلع الشمس ... أراحه من ضنى الانتظار، ثم ما لبثت أن اكتست انطباعاته حُلَّةً من الكلام، فأنشد عما جاشت به نفسُه. كنت أتمنى لو قرأتُ لكم أنشودته بالملاوية، إيطاليةِ الشرق، لكن إليكم ترجمتَها:

«انظروا كيف يبحث الباجِن عن طعام يتغذى به في شجرة الكلاپّـا.
يصعد، يهبط، ينطلق كالسهم يمنةً ويسرةً،
يحوم حول الشجرة، يقفز، يسقط، ينهض، يسقط من جديد:

ليس له أجنحة لكنه سريع كالريح.

سَعْديكَ، يا صغيري الباجِن، وغَشِيَتْكَ النعماءُ!
لتجدَنّ الطعامَ الذي تبحث عنه ...
ولكني أجلس وحيدًا قرب غابة الجاتي،
منتظرًا غِذاءَ قلبي.

لقد شبع صغيري الباجِن منذ مدةٍ ...
فعاد إلى عشّه الرغيد ...
لكن روحي وقلبي
مفعمان بمرارة الأسى ... يا أَدِندا!»

ومع ذلك لم يكن هناك أحدٌ قادمًا على الدرب من بادُر إلى الكِتَـپَـن ... وقعت عينُ سائِجَه على فراشةٍ بدا كأنها تبتهج بدفء النهار المتصاعد:

«انظروا كيف تطير الفراشة هنا وهناك.
يلتمع جناحاها مثل زهرةٍ متعددة الألوان.
وقلبها الصغير يعشق وردة الكيناري:
إنها تبحث عن محبوبها العاطر!

سَعْدَيكِ، يا فراشتي، وغشيتكِ النعماءُ!
ستجدين ما تطلبين ...
ولكني أجلس وحيدًا قرب غابة الجاتي،
منتظرًا عِشْقَ قلبي.

مضت مدةٌ منذ أن لَثَمت الفراشةُ
وردة الكيناري التي تهيم بها عشقًا ...
لكن روحي وقلبي
مفعمان بمرارة الأسى ... يا أَدِندا!»

ومع ذلك لم يكن هناك أحدٌ قادمًا على الدرب من بادُر إلى الكِتَـپَـن ...
كانت الشمس قد ارتفعت ... وصار الجو ساخنًا.

«انظروا كيف تتلألأ الشمس هناك: سامقةً
سامقةً فوق رابية أشجار الوارِنجِن!
إنها تشعر بدفءٍ شديدٍ، وستغيب
لتنامَ في البحر كأنها بين ذراعي بَعْلِها.

سَعْدَيكِ، أيتها الشمس، وغشيتكِ النعماءُ!
ستجدين ما تطلبين ...
ولكني أجلس وحيدًا قرب غابة الجاتي،
منتظرًا قُرَّة عيني.

ستكون الشمس قد غابت منذ زمنٍ،
ونامت في البحر حين يسود الظلام ...
لكن روحي وقلبي سيظلان
مُفْعَمين بمرارة الأسى ... يا أَدِندا!»

ومع ذلك لم يكن هناك أحدٌ قادمًا على الدرب من بادُر إلى الكِتَـپَـن ...

«حين لا تعود هناك فراشاتٌ تطير هنا وهناك،
وحين لا تعود النجوم تتلألأ،
وحين لا تعود الميلاتي تتضوَّع عِطرًا،
وحين لا تعود هناك قلوبٌ حَزْنى
ولا وحوشٌ كواسرُ في الغابة ...
وحين تحيد الشمسُ عن دربها،
وينسى القمر ما الشرق وما الغرب ...
ولّما تأتِ أدِندا،
عندئذٍ سينزل إلى الأرض
ملاكٌ بأجنحةٍ باهرةٍ
باحثًا عما تبقّى.
حينها سيرقد جسدي تحت شجرة الكِتَـپَـن ...
روحي مفعمةٌ بالأسى يا أَدِندا!»

ومع ذلك لم يكن هناك أحدٌ قادمًا على الدرب من بادُر إلى الكِتَـپَـن ...

'عندئذٍ سيرى الملاكُ جسدي.
سيشير لإخوته نحوه ويقول:
'انظروا، ها قد مات رجلٌ ونُسي!
وفمه البارد المتيبِّس يلثم زهرةَ ميلاتي.
هيا، دعونا نرفعه ونأخذه إلى السماء،
هذا الذي انتظر أَدِندا حتى مات.
لا، لن يُترَك هنا،
هذا الذي كان قلبه يقوى على كل هذا العشق!'

عندئذٍ سينفتح من جديدٍ فمي الباردُ المتيبسُ

لينادي أَدِندا، عشقَ قلبي ...
من جديدٍ، من جديدٍ سألثِمُ الميلاتي
التي أعطتني إياها هي ... أَدِندا ... أَدِندا!»

ومع ذلك لم يكن هناك أحدٌ قادمًا على الدرب من بادُر إلى الكِتَـپَـن ...

أوه، لا بد أنها نامت عند الفجر، وقد أرهقها السهر طوال الليل، بل سهر الكثير من الليالي! لعلها لم تنم منذ أسابيع: أي نعم، هذا هو!

هل ينهض ويتوجه إلى بادُر؟ لا! ألن يبدو هذا وكأنه شكٌّ في مجيئها؟

ماذا لو نادى ذلك الرجل الذي يسوق جاموسه إلى الحقل؟ ولكن الرجل بعيدٌ جدًّا. كما أن سايْجَه لا يريد أن يتكلم عن أَدِندا، لا يريد أن يسأل عن أَدِندا ... هو يريد أن يراها، هي فقط، وهي قبل الجميع! إنها بالتأكيد، بالتأكيد، ستأتي قريبًا!

سينتظر، سينتظر ...

لكن ماذا لو كانت مريضةً أو ... قد ماتت؟

مثل غزالٍ جريحٍ، طار سايْجَه على الدرب الذي يؤدي من الكِتَـپَـن إلى القرية التي تعيش فيها أدِندا. لم ير شيئًا ولم يسمع شيئًا، مع أنه كان بإمكانه أن يسمع أناسًا يقفون على الطريق عند مدخل القرية وهم ينادون، «سايْجَه، سايْجَه!»

لكن هل كانت عَجَلته أو وَجْدُه هو ما منعه من العثور على منزل أدِندا؟ في اندفاعه المتهور كان قد وصل إلى نهاية الطريق، حيث تنتهي القرية، ثم عاد كالمجنون، ثم ضرب على جبينه لأنه كان قد مرَّ بمنزلها ولم يره! لكنه عاد إلى مدخل القرية من جديد، ومن جديدٍ - يا إلهي، هل هذا حلم؟ - لم يجد منزل أدِندا؟ طار مرةً أخرى، ثم توقف فجأةً، وأمسك رأسه بكلتا يديه كأنه يريد أن يعتصر منه الجنون الذي دهاه وصاح بصوتٍ عالٍ، «ثَمِل ... ثَمِل ... أنا ثَمِل!»

وخرجت نِسوةُ بادُر من بيوتهن، وأشفقن على سانْجَه المسكين وهو يقف هناك، لأنهن عرفنه وأدركن أنه يبحث عن منزل أدِندا، وكن يعلمن أنه لم يعد لأدِندا منزلٌ في قرية بادُر.

لأنه حين أخذ مدير ناحية پـاران كوجان جاموس أبي أدِندا ...

لقد أخبرتُك، أيها القارئ، أن حكايتي مملة.

... ماتت أم أدِندا من الحسرة، فماتت أختها الصغرى لأنها لم تعد لها أمٌّ تُرضعها. وأبو أدِندا، الذي كان يخشى العقوبة لأنه لم يسدد ضريبة أرضه ...

أنا أعلم، أنا أعلم، أن حكايتي مملة!

... هرب أبو أدِندا من البلاد. لقد أخذ أدِندا وإخوتها معه. لكنه كان قد سمع كيف عوقب والد سانْجَه بالخيزرانة في باوتِنزورخ، لأنه غادر بادُر من غير تصريح. ولذلك لم يذهب أبو أدِندا إلى باوتِنزورخ ولا إلى مناطق كراوان ولا إلى پـريانـگـر ولا بتافيا ... بل ذهب إلى چـيلانْكَهان، منطقة ليباك التي تحاذي البحر. وهناك اختبأ في الغابات وانتظر وصول پـا إنتو وپـا لونتاه وسي أونياه وپـا أنسيو وعبدُ العِصْمة وبضعةِ آخرين ممن سرق منهم مدير منطقة پـاران كوجان جواميسهم وكانوا جميعًا خائفين من العقوبة، لأنهم لم يسددوا ضريبة أراضيهم. وخلال الليل استولوا على زورق صيدٍ، وانطلقوا في البحر. وقد اتجهوا غربًا وجعلوا اليابسة على ميمنتهم حتى وصلوا إلى رأس جاوا. ومن هناك اتجهوا شمالًا، إلى أن رأوا تانَه إيتَم التي يسميها البحارة الأوربيون جزيرة الأمراء. ثم أبحروا بمحاذاة الساحل الشرقي لتلك الجزيرة، ثم اتجهوا نحو خليج قيصر، مسترشدين بأعلى قمةٍ في مناطق اللامـپـون. كان هذا، على أية حال، هو المسار الذي يتهامس به الناس في ليباك، كلما كان هناك حديثٌ عن سرقةٍ «رسميةٍ» للجواميس وضريبةِ أرضٍ غير مدفوعة.

لكن سانْجَه المشدوه لم يتبيَّن ما قيل له. بل لم يفهم تمامًا خبرَ موتِ أبيه. كان في أذنيه طنينٌ، كأن أحدًا قرع جرسًا حديديًا كبيرًا في رأسه. كان يشعر بأن الدم يُزْرَق زَرْقًا في عروقه عند صِدْغَيه، وكانت هناك خشيةٌ من أن تنفجر تحت الضغط. لم ينطق، بل راح يحدق حوله ببلاهةٍ، من غير أن يرى أيًّا من الأشياء التي حوله، وأخيرًا راح يضحك ضحكًا مُريعًا.

اقتادته عجوزٌ إلى كوخها، واعتنت بالبائس المسكين المجنون. لم يطل به المقام قبل أن يتوقف عن ضحكه المريع، لكنه ظل واجمًا لا ينطق. وفي الليل راح يغني بصوتٍ لا نغمةَ فيه، «لا أعرف أين سأموت،» فأيقظ أولئك الذين يشاطرونه الكوخ، كما جمع بعض سكان بادُر شيئًا من المال لشراء قُربانٍ يضحّونه لتماسيح چِـيوجون لشفاء سانْجَه الذي ظنوا أنه قد جُنَّ.

لكنه لم يكن مجنونًا.

ففي إحدى الليالي، كان القمر يتلألأ بنوره الساطع، فنهض سانْجَه من السرير الذي يرقد عليه، ثم تسلل برفقٍ، وخرج ليبحث عن المكان الذي كانت تعيش فيه أدِندا. لم يكن من السهل عليه أن يجده، لأن كثيرًا من المنازل قد تحولت إلى خراب. لكن يبدو أنه عرف المكان من عرض الزاوية التي شكلتها أشعة الضياء من بين الأشجار وهي تلاقي ناظريه، كما يستهدي البحارُ بالمنارات وذُرى الجبالِ السامقة.

نعم، لا بد أن يكون هنا ... هنا عاشت أدِندا!

تعثَّر ببقايا خيزران نصف مهترئة وفُتات السقف الهابط، شقَّ لنفسه طريقًا إلى المعبد المقدس الذي يبحث عنه. وبالفعل وجد أجزاءً من الجدار القائم الذي كان يلاصقه سريرُ أدندا، وكان مشجب الخيزران ما زال مغروزًا في الجدار، المشجب الذي تعلق عليه أدندا ثوبها حين تنام.

ولكن السرير تداعى كالمنزل أيضًا، وقد صار ترابًا تقريبًا. غَرَفَ حفنةً من ذلك التراب، ثم كَبَسَها على شفتيه المفتوحتين، ثم استنشق عميقًا، عميقًا ...

في اليوم التالي سأل العجوزَ التي كانت تعتني به عن مهباج الأرز الذي كان في الحوش أمام منزل أدِندا. سُرَّت المرأة حين سمعته يتكلم، وطافت في كل القرية تبحث عن المهباج. وحين أخبرت سايْجَه عن المالك الجديد، تبعها بصمتٍ، وحين أُخِذ إلى مهباج الأرز، عدَّ الحزوز فوجدها اثنين وثلاثين حزًّا ...

ثم أعطى العجوز من الدولارات الإسبانية ما يكفي لشراء جاموس، ثم غادر بادُر، في چيلانكَهان اشترى زورقَ صيدٍ، وبعد الإبحار فيه لبضعة أيام، وصل إلى مناطق اللامپون حيث كان المتمردون يقاومون الحكومة الهولندية.

التحق بمجموعةٍ من البانتاميين، لا بغرض القتال، بل للعثور على أدِندا. فهو رقيقٌ بطبعه، وميّالٌ للحزن أكثر من ميله للضغينة.

وفي يوم من الأيام، حين هُزِم المتمردون مرةً أخرى، تجوَّل في قريةٍ استولى عليه الجيش الهولندي للتو، فوجدها تحترق. عرف سايْجَه أن العُصبةَ التي أُبيدت تتألف إلى حدٍّ كبيرٍ من رجالٍ من بانتام. مثل شبحٍ راح يَجوس بين الأكواخ التي لم تأتِ عليها النيران تمامًا، وجد جثة أبي أدِندا، وفي صدرِه طعنةٌ من حَرْبَةِ طْلِيوان. وإلى جانبه رأى سايْجَه إخوةَ أدِندا الثلاثة صرعى، وكانوا فتيانًا بالكاد تجاوزوا الطفولة، وغيرَ بعيدٍ منهم كانت جثةُ أدِندا عاريةً، وقد انتُهِكت انتهاكًا فظيعًا ...

كان شريطٌ رفيعٌ من كتانٍ أزرقَ بارزًا من الجرح الفاغر في صدرها، الجرحِ الذي أنهى عِراكًا طويلًا فيما يبدو ...

عندئذٍ هَجم سايْجَه نحو الجنود الهولنديين الذين كانوا يسوقون ببنادقهم

المُصوَّبة آخرَ المتمردين الأحياء إلى نيران المنازل المضطرمة. بذراعين مفتوحتين راح يعدو نحو الحِراب العريضةِ النصلِ، وظل يتقدم إلى أن صدَّ الجنودَ في محاولةٍ أخيرةٍ منه، قبل أن تصطكَّ مقابضُ الحِراب بقَصِّه الصدري.

وكان هناك ابتهاجٌ كبيرٌ في بتافيا بالانتصار الأخير، الذي أضاف أكاليلَ جديدةً من الغار التي نالها من قبلُ جيشُ الهندِ الشرقيةِ الهولندي. وقد كتب الحاكم العام إلى الوطن الأم ليخبرهم أنهم استعادوا السِّلْم في مناطق اللامـپـون. وقد كافأ ملك هولندا، بناءً على مشورةٍ من وزرائه، هذه البطولات الكثيرة بأوسمةٍ كثيرةٍ.

ولا شك أن ترانيم الشكر في صلاة الأحد أو صلاة الجماعة صعدت إلى السماء من قلوب المؤمنين، حين علموا مرةً أخرى أن «سيِّدَ جُنْدِ السماء» قد حارب من جديد تحت الراية الهولندية ...

«ولكن الله رفض قرابينهم في ذلك اليوم
لما رأى كل هذه الويلات».[107]

لقد جعلتُ نهاية قصة سائجَه أقصر مما يجب لو أنني كنت ميالًا لتصوير الفظاعات. سيلاحظ القارئ أنني تلبَّثتُ كثيرًا عند مكوثِ بَطَلي شجرة الكِتَـپَـن كأنني لا أريد مواجهة النهاية المأساوية التي لم أتطرق لها إلا بشكل سطحي، ومُرغَمًا. ومع ذلك لم يكن هذا قصدي حين بدأت أكتب عن سائجَه. في البداية خشيت أنه ينبغي لي أن ألجأ إلى ألوانٍ أقوى إن أردتُ أن أؤثر في القارئ، وأنا أصف غرائب الأحوال هذه. لكن شيئًا فشيئًا أدركت أنها ستكون إهانةً لجمهوري، لو اعتقدتُ أنهم يرغبون بمزيدٍ من سفك الدماء في تصويري.

ومع ذلك كان بإمكاني أن أفعل هذا، لأنه بحوزتي وثائق ... لكن لا: فأنا

أفضِّل أن أعترف.

نعم، أن أعترف! أيها القارئ، ... لا أعرف إن كان سايْجَه قد أحب أدِندا، ولا إن كان قد ذهب إلى بتافيا، ولا إن قُتِل في مناطق اللامـپـون بحراب الهولنديين، لا أعرف إن كان أبوه قد مات بسبب جَلْدِه بالخيزرانة لمغادرته بادُر من غير تصريح، لا أعرف إن كانت أدِندا قد كانت تُحصي الأقمار بِحزوزٍ في مهباج الأرز.

لا أعلم كل هذا!

لكنني أعلم أكثر من هذا. أنا أعلم، وبإمكاني أن أبرهن على أن هناك الكثير من أمثال سايْجَه وأدِندا، وأن ما هو خَيَالٌ بشكل عام، فهو الحقيقة بشكل خاص. لقد قلت من قبلُ إن بإمكاني أن أعطي أسماء الأشخاص الذي طُردوا من بيوتهم بسبب القهر، مثل أَبَوَي سايْجَه وأدِندا. ليس هدفي في هذا العمل أن أُدلي ببياناتٍ كتلك التي تُطلب في محاكمة تُعقَد للحكم على الطريقة التي تُمارَس فيها السلطة الهولندية في الهند الشرقية - بياناتٍ لا تُقنع إلا من لديه صبرٌ على قراءتها بعنايةٍ واهتمام لا يُتوقَّع من جمهورٍ يقرأ من أجل المتعة؛ لذلك، بدلًا من الأسماء المجردة للأشخاص والأماكن، مع التواريخ - بدلًا من نسخةٍ من قائمة السرقات والابتزازات التي أمامي - بدلًا من هذه، حاولتُ أن أرسم ما قد يدور في قلوب المساكين الذين تُسلَب منهم وسيلةُ رزقهم، أو، إن شئنا الدقة أكثر. لقد اكتفيتُ بالإيحاء بما قد يدور في قلوبهم، مخافةَ أن أشطَّ عن الهدف إن رسمتُ بشكلٍ صارمٍ عواطفَ لم أشعر بها قطُّ شخصيًا.

أما فيما يخص الحَقيقة الضمنية؟ حبّذا لو استُدعيتُ لأقدم الدليلَ على ما كتبت! حبّذا لو قال الناس، «لقد لفّقتَ شخصيةَ سايْجَه هذا ... فهو لم يُنشد ذلك النشيد قطُّ ... ولم تعش في بادُر أي أدِندا!» لكن مرةً أخرى، ... حبّذا

لو قال هذا من لديهم السلطة والرغبة لإحقاق الحق متى أثبتُّ لهم أنني لست مفتريًا!

هل حكاية السامِريِّ الصالح كذبة ربما لأنه لم يستضِف بيتٌ سامريٌّ مسافرًا مسلوبًا قطُّ؟ هل حكاية المزارع كذبة لأنه - كما يعلم الجميع - لا يوجد مزارعٌ قطُّ يلقي بِذارَه على أرض صخرية؟ أو - لننزل إلى مستوى أقرب إلى مستوى كتابي - هل يمكن لأحد أن ينكر الحقيقة الضمنية في «كوخ العم توم» لأن إيـفـا الصغيرة لم توجد قَط؟ هل سيُقال لمؤلفة تلك الصرخة الخالدة - خالدةٍ لا بسبب الفن أو الموهبة، بل بسبب الغرض منها والانطباع الذي تتركه تلك الصرخة - هل سيُقال لها، «لقد كذبتِ، فالعبيد لا تُساء معاملتُهم لأن ... كتابَكِ ليس كله صحيحًا، فهو روايةٌ من نسج الخيال؟» ألم تضطر هي أيضًا أن تقدم قصةً، بدلًا من تعدادٍ للحقائق الجافّة، لعلها تغرس في قلوب قرائها الوعيَ بالحاجة إلى الإصلاح؟ هل كان كتابها سيُقرأ لو أنها أعطته شكلَ إفادةٍ قضائيةٍ؟ هل هو ذنبُها - أو ذنبي - إذا كان على الحقيقة في كثيرٍ من الأحيان أن تستعير قناع الكذبة لكي تجد مدخلًا؟

دعوني أسأل الآخرين الذين قد يزعمون أنني أسبغت على سانْجَه وعِشقِه سمةَ المثالية، «كيف لكم أن تعرفوا؟» لأن قلةً قليلةً جدًّا من الأوربيين في الحقيقة تتنازل وتلاحظ مشاعر تلك الآلات المنتجة للقهوة والسكر التي نسميها «الأهالي.» لكن، حتى لو افترضنا أن هذا الاعتراض له أساسٌ من الصحة، فمن يحتج به ضد أطروحة كتابي الأساسية، فهو يمنحني نصرًا عظيمًا؛ لأن هذه الاعتبارات، إذا ما تُرجِمت، تكون كما يلي، «الشر الذي تقاتله غير موجود، أو إنه ليس بهذا السوء، لأن المواطن الأصلي ليس مثل سانْجَه ... وسوء معاملة الجاوي ليست بذلك الشر العظيم كما كان يمكن أن يكون، لو أنك رسمتَ شخصيةَ

سانْجَه بشكلٍ أكثرَ دقةً. والسُّنداني لا يغني مثل هذه الأغاني، ولا يعشق كهذا العشق، ولا يشعر مثل ذلك، ولذلك ...»

لا، يا وزيرَ المستعمرات ... لا، أيها الحكام العامّون (المتقاعدون) ... ليس هذا ما ينبغي عليكم أن تبرهنوه! عليكم أن تثبتوا أن الناس لا تُساءُ معاملتُهم، بصرف النظر عما إذا كان بينهم أناسٌ عاطفيون مثل سانْجَه أم لا. أم هل تجرؤون على الزعم أن سرقة الجواميس من أناسٍ لا يعشقون ولا يغنون أغاني كئيبةً، وليسوا عاطفيين أمرٌ مشروعٌ بالقانون؟

إن هوجمتُ لأسباب أدبية، فعليَّ أن أدافع عن دقة تصويري لسانْجَه. لكن في سياقٍ سياسي، فإني أتنازل فورًا عن حقيقة أي قيود على تلك الدقة، لكي أَحُولَ دون تحولِ الجدل الأساسي نحو أساس خاطئ. لا يهمني إن قيل عني إنني فنانٌ غير كَفِيٍّ، على شرط أن يُعترَف بأن سوء معاملة الأهالي شنيعة! فهذه هي الكلمة التي استخدمها سَلَفُ هافلار في ملاحظته، كما عُرِضت للمراقب فيربروخه ليراها - وها هي الملاحظة أمامي.

لكن لدي أدلة أخرى! ولا بأس في هذا، لأن سَلَفُ هافلار ربما كان مخطئًا. للأسف، إن كان مخطئًا فقد دفع ثمنًا غاليًا لخطئه!

[18]

كان الوقتُ عصرًا. خرج هافلار من غرفته، ووجد محبوبته تينا على الشرفة الأمامية، تنتظره بالشاي. خرجت السيدة سلوتيرِنـگ من منزلها، وبدا كأنها قادمةٌ إلى آل هافلار، ولكنها فجأةً توجَّهت نحو البوابة، وراحت تهزُّ يدها هزًّا في وجهِ رجلٍ دخل لتوه لتطرده. ظلت جامدةً في مكانها إلى أن تأكدت أنه ذهب، ثم عادت إلى منزل هافلار، وهي تُحاذي الأرض المعشبة.

قال هافلار، «لن يهدأ لي بالٌ حتى أعرفَ معنى كل هذا.» وبعد أن رحَّب بها، سألها مازحًا، لكي لا تظن أنه يَضِنُّ عليها، بما تبقّى لديها من سلطةٍ في حوشٍ كان لها ذاتَ يوم:

«سيدة سلوتيرِنـگ، أود أن أعرف لماذا دائمًا تطردين كل من يدخل الحوش؟ افترضي أن ذلك الرجل الذي دخل للتوّ لديه دجاجٌ للبيع، أو شيء آخرٌ ننتفع به في المطبخ؟»

انتابَ الألمُ تعابيرَ وجهِ السيدةِ سلوتيرِنـگ، وهو ما لم يَغِب عن انتباه هافلار. قالت، «أوه، إننا محاطون بالكثير من الأشرار.»

«هذا هو حال الدنيا في كل مكان. لكن إن صعَّبنا الأمور، فهذا سيُبعِد الأخيارَ أيضًا. هيّا، يا سيدة سلوتيرِنـگ، أخبريني بصراحةٍ لماذا تفرضين هذه الحراسة المشددة على الحوش؟»

نظر إليها هافلار وحاول عبثًا أن يقرأ الجواب في عينيها الدامعتين. ضغط عليها أكثر ليحصل على تفسير ... فانفجرت الأرملةُ باكيةً، وقالت إن زوجها

قد سُمِّم في پاران كوجان، في منزل مدير المنطقة.

تابعت المرأةُ قائلةً، «لقد أراد أن يكون عادلًا، يا سيد هافلار. أراد أن يضع حدًّا لسوء المعاملة التي يعاني منها الناس. لقد نصح الزعماء وهدَّدهم، في الاجتماعات وكتابةً ... لا بدّ أنك وجدتَ رسائله في الملفات؟»

كان هذا صحيحًا. كان هافلار قد قرأ تلك الرسائل، وها هي نسخٌ منها أمامي.

تابعت الأرملةُ قائلةً، «لقد تحدث مع المقيم عن هذا الأمر مرارًا وتكرارًا، لكن من غير جدوى على الإطلاق. كان الجميع يعلم أن هذه الأشياء تُرتكب نيابةً عن المتصرف وبحمايته، وأن المقيم لم يرغب في اتهام المتصرف لدى الحكومة، لذلك لم تُفلح لقاءاته مع المقيم إلا في مزيدٍ من سوء المعاملة للذين اشتكَوْا. لذلك قال زوجي المسكين إن لم تتحسن الأمور بنهاية السنة، فسيذهب إلى الحاكم العام مباشرةً ويرفع الأمر إليه. كان هذا في تشرين الثاني. بُعيدَ ذلك مباشرةً ذهب في جولة تفتيش، وتناول الغداء في منزل ديمَن پاران كوجان، ثم جيء به إلى البيت في حالةٍ يُرثى لها. كان يشير إلى معدته ويصرخ، «نار، نار!» وبعد بضعِ ساعاتٍ مات. وقد كان دائمًا في تمام العافية!»

سألها هافلارِ، «هل استدعيتم الطبيب من سيران؟»

«نعم، ولكن زوجي مات بُعيد وصول الطبيب، لذلك لم تُتَح له إلا فرصةٌ قصيرةٌ جدًّا لعلاجه. لم أجرؤ على إخبار الطبيب بما ساورني من شكوكٍ، لأنني كنت أعلم أن وضعي لا يسمح لي بمغادرة المكان قبل مدة ما، وكنت أخشى أن من فعل فعلته قد ينتقم مني، ومن أطفالي إن فتحت فمي. لقد سمعتُ أنك، مثل زوجي، تعارض الانتهاكات المتفشية هنا، ولهذا السبب لا يهدأ لي بالٌ قطُّ. أردتُ أن أحتفظ بكل هذا عنكم لكي لا أخيفكما أنت والسيدة هافلار، ولذلك

اكتفيتُ بمراقبة الحوش، حرصًا على ألا يدخلَ المطبخَ غريبٌ.»

اتّضح الآن لتينا لماذا ظلت السيدة سلوتيرِنـگ مصرةً على أن يكون لها منزلٌ منعزلٌ، ولم ترغب حتى في استخدام المطبخ «الكبير جدًّا.»

عاد هافلار إلى غرفته وكتب رسالةً إلى الطبيب في سيران، يسأله فيها عن تفاصيل الأعراض التي لاحظها عند موت سلوتيرِنـگ. لكن الجواب الذي تلقاه في النهاية لم يكن متوافقًا مع شكوك الأرملة. فقد قال الطبيب: إن سلوتيرِنـگ مات من «خَرّاجٍ في الكبد.» لم أتمكن من التأكد فيما إذا كانت مثل هذه الشكوى يمكن أن تظهر فجأةً، وتسبب الوفاة خلال بضع ساعات. أعتقد أنه لا بد من أن يؤخذ على محمل الجد قولُ السيدة سلوتيرِنـگ: إن زوجها كان يتمتع بصحة جيدة حتى تلك اللحظة. لكن حتى لو لم نُعِر أي أهمية لهذا القول - حيث إن مفهوم الصحة الجيدة مسألة ذاتية جدًّا، ولاسيما في الأوساط غير الطبية - يبقى السؤال المهم عما إذا كان بإمكان رجل يموت اليوم من «خَرّاج في الكبد» أن يركب حصانًا بالأمس! بهدف تفتيش منطقة جبلية شاسعة يستغرق عبورها عشرين ساعةً في بعض جهاتها. قد يكون الطبيب الذي عالج سلوتيرِنـگ طبيبًا كَفِيًّا لكنه مع ذلك أخطأ في تشخيص أعراض المرض، ولاسيما أنه لم يكن مهيَّأً للارتياب بعملٍ مُدبَّر.

أيًّا كان الأمر، فلا أستطيع أن أثبت أن سَلَف هافلار قد سُمِّمَ، حيث إن هافلار لم تُتَح له فرصةٌ كافيةٌ لاستجلاء الأمر، لكنني أستطيع أن أبرهن بكل تأكيد أن المحيطين به يظنون أنه سُمِّم، وأنهم يربطون شكوكهم برغبته في مقاومة الظلم.

في هذه الأثناء أرسل هافلار في طلب المراقب فيربروخه.

دخل فيربروخه الغرفة، فسأله هافلار باقتضابٍ:

«مِمَّ مات سلوتيرِنـگ؟»

«لا أعلم.»

«هل سُمِّم؟»

«لا أعلم، ولكن ...»

«تكلَّمْ، يا فيربروخه!»

«لقد حاول، مثلك يا سيد هافلار، أن يقضي على الانتهاكات هنا و ... و ... و ...»

«حسن؟ أكْمِل!»

«أنا مقتنعٌ أنه ... كان سيُسمَّم لو بقي هنا مدةً أطول.»

«اكتُب هذا!»

كتب فيربروخه ما قاله: وها هي أمامي!

«شيءٌ آخر: هل صحيحٌ أم غيرُ صحيحٍ أن الناس يُضطَهَدون ويُستَغلّون في ليباك؟»

لم يُجب فيربروخه.

«أجِبني، يا فيربروخه!»

«أنا ... لا أجرؤ.»

«إذن، اكتب أنك لا تجرؤ!»

كتب فيربروخه ذلك: وها هي أمامي.

«جيد! هناك أمر آخر: أنت لا تجرؤ على الإجابة عن سؤالي الأخير، ولكنك مؤخرًا، حين كان هناك حديثٌ عن حالة تسميم، قلت لي إنك المعيل الوحيد لأخواتك في بَتافيا، أليس كذلك؟ أليس هذا هو السبب لخوفك الذي هو أُسُّ ما سميتُه دومًا خَوَرَك؟»

«نعم!»

«اكتب ذلك.»

كتب فيربروخه ذلك: وها هي إفادته أمامي.

قال هافلار، «لا بأس، أنا الآن أعلم ما يكفي.» وصار بإمكان فيربروخه أن يذهب.

خرج هافلار إلى الشُّرفة وصار يلعب مع ماكس الصغير وراح يقبّله بحنانٍ أكثر من العادة. وحين غادرت السيدة سلوتيرِنـگ، صَرَف الطفلَ واستدعى تينا إلى غرفته.

طوقت عنقه بذراعيها، ورفضت لأول مرة أن تطيعه، وهي تنشُج:

«لا، يا ماكس، لا، يا ماكس، لن أوافق ... لن أوافق! سنشرب ونأكل معًا!»

هل أخطأ ماكس حين زعم أنها لا يحق لها أن تتمخط تمامًا مثل نساء آرل؟

كتب وأرسل إلى المقيم الرسالةَ التي أنسخُها هنا. وبما أنني تأملتُ الظروف التي كُتبت فيها الرسالة، فإنني لا أعتقد أنه من الضروري التركيز على التفاني الحازم، نحو الواجب الذي يُشعُّ من ثناياها، ولا على رقة القلب التي دفعت هافلار لمحاولة حماية المتصرف من عقابٍ قاسٍ. لكن لن يكون من نافلة القول الإشارةُ إلى حذر هافلار الذي منعه من التفوُّه بكلمة واحدة، عن الاكتشاف الذي توصل إليه للتوّ فيما يخص موتَ سلوتيرِنـگ، وذلك لكي لا تشوبَ الطبيعةَ القطعيةَ لقضيته الحالية شائبةٌ من شكٍّ عن تهمةٍ، أيًّا كانت أهميتُها، لم يُجزَم بثبوتها حتى الآن. كان ينوي نبش جثة سلفه وتحليلها علميًا، حالما أُزيحَ المتصرف وجُرِّد أتباعُه من قدرتهم على ارتكاب الشرور. لكن، كما قلتُ، لم تُمنَح له الفرصة.

في نَسخي للوثائق الرسمية - وهو نَسْخٌ يتطابق حرفيًا مع الأصل - أعتقد

أنه يُسمَح لي أن أستبدل بالألقاب السخيفة الضمائرَ الشخصيةَ البسيطةَ. أتوقع من قرائي أن يمتلكوا من حسن الذوق ما يكفي لاستحسان هذا التعديل:

رقم 88. سري.

عاجل **رانْكَس بيتون، 24 شباط 1856**

إلى مقيم بانتام

منذ أن توليت مهامي قبل شهر، انشغلتُ بالدرجة الأولى في دراسة الطريقة التي يؤدي بها الزعماء المحليون واجباتهم، تجاه الأهالي فيما يخص قانون السُّخرة والپندوتان[108] وما شابههما من مسائل.

وسرعان ما اكتشفتُ أن المتصرف استدعى الناس بأمرٍ منه ولمصلحته الشخصية، بأعدادٍ تفوق العدد المسموح به قانونًا من الپانچِن والكِمت.[109]

ترددتُ بين الإبلاغ رسميًا عن القضية فورًا، وبين رغبتي في ثَني هذا المسؤول المحلي الرفيع المستوى عن سلوكياته باللطف الذي يتبعه الوعيد، إن اقتضى الأمر. لكنني في النهاية اخترت الطريق الثاني لسببين: لقد أردت أن أوقفَ هذه الانتهاكات المعنية، وفي الوقت ذاته لأتجنب الصرامة المفرطة في التعامل في البداية مع هذا الموظف الحكومي القديم، ولاسيما بالنظر إلى الأمثلة السيئة التي رآها بعينيه كثيرًا، كما فهمت. بالإضافة إلى ذلك، أخذتُ بعين الاعتبار أنه كان ينتظر زيارةً من اثنين من أقربائه، هما متصرفا باندون وچانْيور (وهذا الأخير، على ما أعتقد، في الطريق الآن مع حاشيةٍ كبيرةٍ)، ولهذا فهو لديه ما يُغريه أكثر من العادةِ لخرق القانون، لكي يقوم بالترتيبات اللازمة لهاتين الزيارتين – بل إن ما أرغمه على ذلك هو الضائقة المالية التي يمر بها.

كل هذا جعلني أنظر إلى الأمور التي حدثت من قبل بعين التساهل، لكن لن أتساهل معها في المستقبل.

لقد أصررتُ على الوقف الفوري لكل ممارسةٍ مخالفةٍ للقانون.

لقد أخطرتُكَم من قبلُ سِرًّا بهذه المحاولة المشروطة من قِبَلي، لإشعار المتصرف بواجبه من خلال التعامل معه بلطفٍ.

لكن اتضح أنه لا يقيم وزنًا لشيء، وبوقاحةٍ سافرةٍ، ولذلك أشعر أنه من واجبي الذي أقسمتُ عليه أن أبلغكم:

أنني أتّهِمُ متصرف ليباك، رادِن أديـپـاتّي كارتا ناتّا نـَگـارا، بإساءة استعمال سلطاته من خلال تسخير رعاياه للعمل لديه بصورة مخالفة للقانون، وأنني أشتبه بأنه يبتز الناس بمصادرة سِلَعٍ عينيةٍ، إما من غير تسديد ثمنها، أو من خلال دفع ثمنٍ غير كافٍ يُحَدَّدُ اعتباطًا؛

كما أنني أشتبه بأن صهره، ديمَن پـاران كوجان، متورطٌ في هذه الأفعال المذكورة آنفًا.

ولكي تكون كلتا التهمتين مُعَدَّةً بشكل لائق، أقترح أن تأمرني بما يأتي:

1. أن أرسل متصرف ليباك بالسرعة القصوى إلى سيران، مع الحرص على ألا يُعطى الفرصة، لا قبل مغادرته، ولا في أثناء الرحلة، ليؤثر، بالرشوة وغيرها، في الإفادات التي سيتوجب عليَّ الحصول عليها؛
2. أن أضع ديمَن پـاران كوجان قيد الاعتقال حتى إشعارٍ آخر؛
3. أن أتخذ إجراءات مشابهة ضد أصحاب الرتب الأدنى من أفراد عائلة المتصرف، الذين يُتوقَّع أن يؤثروا في موضوعية التحقيق المقترح؛
4. أن أُجري هذا التحقيق فورًا، وأن أقدم تقريرًا كاملًا بالنتائج.

كما أقترح أيضًا أن تنظروا في إلغاء زيارة متصرف چـانْيور.

وأخيرًا، أود أن أطمئنكم - وهذا تطمينٌ لا موجبَ له بما أنكم

تعرفون مقاطعة ليباك خيرًا من معرفتي بها - أنه من وجهة نظرٍ سياسيةٍ، ليس لدي أي اعتراض أن تُعالَج هذه القضية معالجةً عادلةً، لا بل إنني أخشى العواقب إن لم تُعالَج. فقد علمتُ أن الناس الذين أصابهم اليأسُ من متاعبهم، كما أخبرني أحد الشهود، ينتظرون الخلاص منذ زمنٍ بعيدٍ.

وما يقوي عزيمتي في قيامي بهذا الواجب الصعب، لكتابة هذه الرسالة هو رجائي أن يُسمَح لي، في الوقت المناسب، أن ألتمس للمتصرف العجوز، الذي أشعر بتعاطفٍ شديدٍ معه في محنته، مهما كانت جنايته على نفسه، عذرَ الظروف المخفِّفة.

مساعد المقيم في ليباك

ماكس هافلار

في اليوم التالي تلقى جوابًا من ... مقيم ليباك؟ أوه، لا - من السيد سلايميرنگ، بصفته الخاصة!

هذا الجواب إسهامٌ لا يُقدَّر بثمن إلى معرفة الطريقة التي يُدار بها عمل الحكومة في جزر الهندية الشرقية الهندية. لقد اشتكى السيد سلايميرنگ، لأن «هافلار لم يُطلِعه أولًا شفويًا على المسائل التي يشير إليها في الرسالة رقم 88.» طبعًا ... لأن في ذلك فرصةً أفضل «لإصلاح» الأمور، كما أن «هافلار شَوَّش عليه بينما هو منهمكٌ بانشغالاته المُلِحَّة!»

لا شك أن الرجل كان منهمكًا بإعداد تقرير سنوي عن السلام السلمي! ها هي رسالته أمامي، وبالكاد أصدق عينيَّ. لقد أعدت قراءة رسالة مساعد المقيم في ليباك ... وها أنا أضعه هو ومقيم بانتام، هافلار وسلايميرنگ، جنبًا إلى جنب ...

شالمان هذا شخصٌ وضيعٌ! لا بد أن تعرف، أيها القارئ، أن باستيانز عاد من جديد إلى عادته في التغيب عن الشركة بسبب مرض الروماتيزم. وأنا حريصٌ على ألا أبعثر أموال الشركة - لاست وشريكه - لأنني متشدد في مسألة المبادئ؛ وقبل بضعة أيام تذكرت أن شالمان كاتب جيد، وبما أنه رثُّ المظهر، فربما يمكن توظيفه بقليلٍ من المال. لذلك شعرت بأن من واجبي تجاه الشركة أن أجد بديلًا عن باستيانز بأرخص طريقة ممكنة. ولهذا ذهبتُ إلى لانگه لايدسه دوارس سترات. كانت زوجته في محل خردواتها هذه المرة، لكن يبدو أنها لم تعرفني، مع أنه لم يمضِ زمن طويل منذ أن أخبرتها أنني أنا السيد دروخستوپل، سمسار القهوة في لاورير خراخت. وهذا شيءٌ مهينٌ حين لا يعرفك الناس. لكن بما أن البرودة خفَّت قليلًا، فلم أكن أرتدي معطفي المرصَّع بالفرو، كما كنت في المرة السابقة، لذلك عَزَوْتُ الأمر إلى المعطف ولن آبَهَ لها كثيرًا ... أقصد، للإهانة. على أية حال، أخبرتها أنني أنا السيد دروخستوپل، سمسار القهوة في لاورير خراخت، وطلبت منها أن تذهب لترى إن كان صاحبنا شالمان في البيت (لم أكن راغبًا في التعامل مع زوجته، كما فعلت في المرة الماضية، لأنها دائمًا ساخطة). لكن تخيلوا: لقد رفضتْ جامعةُ الخُردة تلك! قالت إنها لا تستطيع صعود الدرج ونزوله طوال اليوم من أجل وجه الفقر ذاك، ولذلك يجدر بي أن أذهب أنا وأرى بنفسي، ثم أعطتني وصفًا من جديد للدرج والاستراحات، وهو ما لم أكن بحاجةٍ إليه، لأنني دائمًا أعرف كيف أصل إلى مكانٍ زرته مرةً واحدةً، لأنني دائمًا ألاحظ كل شيء بدقة. وقد جعلت هذا عادةً في معاملاتي التجارية. وهكذا صعدتُ الدرج، وطرقت البابَ الذي أعرفه، وانفتح لدى ملامستي له. دخلتُ فلم أجد أحدًا في الغرفة، فألقيتُ نظرةً هنا وهناك. لم يكن فيها ما يستحق النظر. كان بنطالُ طفلٍ قصيرٌ له شريطٌ مطرَّز على جانبيه معلقًا على كرسي ... لماذا

يلبس مثل هؤلاء الناس البنطالات المطرزة؟ في إحدى الزوايا كانت هناك حقيبة ملابس، ليست ثقيلةً جدًّا، فرفعتها من مقبضها وأنا شارد البال، وكانت هناك بعض الكتب على رف الموقد، ألقيت عليها نظرةً عابرةً. مجموعة غريبة! بعض المجلدات لبايْرُن وهورَس وباستِيا وبيرانجيه ... واحزروا ماذا أيضًا! الكتاب المقدس، كاملًا، مع الكتب المشكوك في نسبتها إليه وكل ذلك! كان ذلك شيئًا لم أتوقع أن أجده في بيت شالمان. ويبدو أنه قُرئ أيضًا، لأنني وجدتُ الكثير من الملاحظات المتعلقة بالكتاب المقدس مخطوطةً على قصاصاتٍ ورقيةٍ غريبةٍ - وكلها بذات الخط الذي كُتبت به أوراقُ تلك الرزمة اللعينة. يبدو أنه أولى عنايةً خاصةً بسِفْر أيوب، حيث انفتح الكتاب المقدس بسهولة عليه. أظن أنه بدأ يشعر بغضب الله، ولذلك فهو يحاول أن يتصالح معه من خلال قراءة الكتاب المقدس. وليس لدي اعتراضٌ على ذلك. لكن وبينما كنت أنتظر، وقعت عيني مصادفةً على صندوق خياطة نسائي كان على الطاولة. نظرت فيه بلا تفكير مني، كان يحتوي على زوج من جوارب طفل غير مكتمل، والكثيرِ من الأشعار السخيفة، ورسالةً أيضًا إلى زوجة شالمان، كما يتضح من العنوان. كانت الرسالة مفتوحةً، وبدا كأنها دُعِكت في نوبة غضب. من مبادئي الثابتة ألا أقرأ شيئًا غير موجَّهٍ إليَّ، لأنني لا أظن أن ذلك شيء لائق. لذلك لا أُقدِم على ذلك حين لا يكون في مصلحتي. لكن الآن هناك شيءٌ أخبرني أنه من واجبي أن ألقي نظرةً على تلك الرسالة، لعلَّها ترشدني فيما نويت عليه من الإحسان الذي قادني إلى زيارة شالمان. وتأملت كيف أن الله دائمًا قريبٌ من عباده، وها هو الآن، وعلى نحو غير متوقَّع، منحني فرصةً لمعرفة هذا الرجل أكثر، وهكذا وقاني من خطر الإحسان إلى شخص قليل الأخلاق. فأنا أراعي هذه الإشارات من الله، وهذا كثيرًا ما نفعني في عملي. وقد أدهشني كثيرًا أن أعلم أن زوجة شالمان هذا من

أسرة كريمة جدًّا - فالرسالة بتوقيعِ قريبٍ له سمعةٌ سامقةٌ في هولندا، وعليَّ أن أعترف أن جمال الرسالة برمتها قد سحرني بالفعل. إذ يبدو أن الكاتب مواظبٌ على عمله في خدمة الرب، حيث قال إن على زوجة شالمان أن تنفصل عن تعيس كهذا جعلها تعاني الفقر، ولا يستطيع أن يكسب قُوْتَه، وهو وغدٌ علاوةً على ذلك، لأنه عليه ديون ... وأن كاتب الرسالة كان قلقًا على مصيرها، مع أن ذلك ما جنته على نفسها حين هجرت الرب وتبعت شالمان ... وأن عليها أن تعود إلى الله، وأنه حينها قد تتعاضد الأسرة بأكملها لتجد لها عمل خياطةٍ وتطريز تقوم به. لكن عليها قبل كل شيء أن تهرب من شالمان هذا، لأنه عارٌ حقيقيٌ عليهم جميعًا.

باختصار، لا يمكن لكنيسةٍ أن تنير بصيرتك أكثر مما فعلت تلك الرسالة.

لقد علمتُ ما يكفي، وقد شعرت بالرضا لهذا الإنذار الذي جاءني بهذه الصورة العجيبة. لأنني لولا هذا الإنذار لَوَقعتُ مرةً أخرى ضحيةً لطيبة قلبي. لذلك قررتُ أن أمنح باستيانز فرصةً أخرى إلى أن أجد البديل المناسب، لأنني أمقت أن أرمي أي شخص في الشارع، وفي الوقت الحالي لا نستطيع أن نستغني عن رجل واحد، فلدينا الكثير من الشغل.

لا شك أن القارئ يريد أن يعرف كيف سارت أموري في الحفلة الأخيرة وما إن كنت قد وجدتُ مُعَلَّقتي. حسنٌ، لم أذهب قط إلى تلك الحفلة. حدثت أشياء رائعة، لقد زرتُ دريبيرخِن مع زوجتي وماري. كان والد زوجتي الشيخ لاست، ابن لاست الأول - الذي كان موجودًا حين كان آل ماير ما زالوا في الشركة، ولكنهم خرجوا منها منذ زمن طويل - قد قال مرارًا وتكرارًا إنه يريد أن يرى زوجتي وماري. ومن محاسن الصدف أن الطقس كان جميلًا جدًّا، وكان خوفي من قصة الحب التي ظل شتيرن يتوعدنا بها قد جعلني أتذكر تلك

الدعوة. تحدثت إلى محاسبنا، وهو رجلٌ ذو خبرةٍ، وبعد تداول الأمر مَلِيًّا اقترح عليَّ أن أتجاهل الأمر. وقررت فورًا أن أفعل ذلك، فأنا دائمًا سريع التصرف. وفي صباح اليوم التالي بالضبط، أدركتُ سداد رأي المحاسب، لأن الليل أوحى إليَّ أنه ليس هناك فعلٌ أفضل من تأجيل قراري إلى يوم الجمعة. باختصار، بعد أن وازنتُ كل الإيجابيات والسلبيات - كان هناك الكثير من الإيجابيات في خطتنا، والسلبيات أيضًا - ذهبنا بعد ظهر السبت وعدنا صباح الاثنين. ما كان ينبغي أن أخبركم بكل هذا بالتفصيل، لولا علاقته الوثيقة بكتابي. ففي المقام الأول، أنا متلهف لإطلاعكم لماذا لا أحتجُّ على البلاهات التي من المؤكَّد أن شتيرن قد تفوَّه بها مساء الأحد الماضي. (أيُّ حكايةٍ هذه التي تحكي عن شخصٍ يود أن يسمع شيئًا حين يموت؟ لقد ذكرتْها ماري. حصلت عليها من صغار آل ماير الذين يتاجرون بالسكر). ثانيًا، لقد اقتنعتُ قناعةً قاطعةً مرةً أخرى، أن كل تلك الحكايات عن الويلات والاضطرابات في الشرق ما هي إلا محضُ أكاذيب. وهذا يدلُّكم كيف أن السفر يتيح لكم الفرصة في الاطلاع على الأمور بشكل لائق.

لا بد أن تعلموا أن والد زوجتي كان قد قَبِل دعوةً ليلةَ سبتٍ، لزيارة رجلٍ نبيلٍ كان مقيمًا في الشرق، وهو الآن يعيش في منزل ريفي كبير قرب دريبيرخِن. إلى هناك ذهبنا. وفي الحقيقة لا يمكنني أن أتكلم بما يليق عن الاستقبال اللطيف الذي حظينا به. لقد أرسل السيد النبيل عربته لإحضارنا، وكان حوذِيُّه يرتدي صدرية حمراء. لا شك أن الطقس كان باردًا جدًّا إلى حدٍّ ما بحيث لا يسمح بالنظر في محيط المنزل، لكن لا بد أنه رائع في الصيف. لكن المنزل ذاته لا أشهى ولا أروع، ففيه وفرةٌ من كل ما يجعل الحياةَ ممتعة: غرفة بِلياردو، مكتبة، ومُستنبَت زجاجي مصنوع من الحديد والزجاج، ولببغاء الكَكَتوه مَجْثَمٌ فضيٌّ

ليجثم عليه. لم أر بحياتي شيئًا كهذا، وعلى الفور قلت: إن العاقبة دومًا لحسن السلوك. لقد كان الرجلُ شديدَ العناية بعمله، وهذا كان واضحًا، ونال ما لا يقل عن ثلاثة أوسمة. كان يملك هذه العزبة الريفية الرائعة، بالإضافة إلى منزل في أمستردام. وعلى العشاء كان كل شيءٍ مطبوخًا بالكَمْأة، وكان الخدم على المائدة يرتدون صدرياتٍ حمراء أيضًا، كالحوذي تمامًا.

وبما أنني مهتم بقضايا الهند الشرقية - بسبب القهوة - فقد وجهّتُ الحديث إلى هذا الموضوع، وسرعان ما أدركت ما يجب أن يكون عليه تفكيري. أخبرني هذا المقيم أن أموره كانت دومًا على ما يرام في الشرق، ولذلك لا توجد كلمة حق واحدة في كل تلك الحكايات عن السخط بين الأهالي. ذكرتُ له شالمان. وكان يعرفه، وكان رأيه فيه سلبيًا جدًا. وقد أكد لي أنهم أحسنوا صنعًا بطرد هذا الشخص، لأنه كان شخصًا ناقمًا جدًّا، وكان دومًا يبحث عن العيوب في كل شيء، مع أن سلوكه الشخصي فيه الكثير من المعايب. على سبيل المثال، كان دومًا يختطف الفتيات ويأخذهن إلى زوجته في البيت، ولم يسدد ديونه، وهذا بلا ريب ضارٌ جدًّا بالسمعة. وبما أنني قد علمت من الرسالة التي قرأتُها صحة كل هذه التهم، سرَّني جدًّا أن أرى كم كنت محقًا في حكمي على القضية، ورضيتُ جدًّا عن نفسي. مع أنه يجب أن أقول إنني معروفٌ بهذا في ركني في البورصة ... أقصد، بحكمي الصائب دومًا على الأمور.

كان المقيم وزوجته أناسًا ساحرين ومضيافين. أخبرانا الكثير عن نمط حياتهما في الشرق. لا بد أن العيش هناك مبهجٌ جدًّا. لقد قالا إن عِزبتهما في دريبيرخِن لا تساوي نصف مساحة حوشهما، كما سمياه، في داخل جاوا، وهو ما كان بحاجة إلى مئة شخص للاعتناء به. لكن هؤلاء الناس قدموا خدماتهم مجانًا، وحبًّا بهم - وهذا دليلٌ واضحٌ على مدى شعبيتهما لدى الناس. كما قالا

أيضًا إنهما حين غادرا، باعا أثاثهما بعشرة أضعاف قيمته، لأن الزعماء المحليين يودون شراء تذكارٍ من مقيمٍ أحسنَ معاملتهم. قلت هذا لشتيرن، فزعم أن هذا تمَّ بالقسر، وأن بإمكانه أن يبرهن على ذلك من خلال رزمة شالمان. لكنني قلت له إن صاحبه شالمان كان مفتريًا، وأنه كان يختطف الفتيات - مثل ذلك الألماني في شركة بوسِلنك وواترمان - وأنني لا أقيم لرأيه وزنًا، ولاسيما بعد أن سمعت شخصيًا من مقيمٍ كيف كانت تجري الأمور، ولذلك لا يمكنني أن أتعلم أي شيءٍ من السيد شالمان.

كان هناك أناس آخرون من الشرق في تلك الأمسية، ومن بينهم سيدٌ نبيلٌ غنيٌّ جدًّا يكسب أموالًا طائلةً من تجارة الشاي، الذي ينتجه له الجاويون بثمنٍ بخسٍ، وتشتريه منه الحكومة بسعرٍ عالٍ لكي تشجع صناعة أولئك الجاويين. كان هذا السيد غاضبًا جدًّا من كل أولئك الناقمين الذين لا يكفّون عن الحديث والكتابة ضد الحكومة. لم يكن باستطاعته إنصاف وزارة المستعمرات بالثناء عليها، لأنه كان مقتنعًا أنهم كانوا يخسرون الكثير من المال في الشاي الذي يشترونه منه، ولذلك فإنه كرمٌ حقيقي من جانبهم أن يواظبوا على دفع ثمنٍ غالٍ لسلعة ليس لها إلا قيمةٌ بسيطةٌ فعليًا، بل إنها لا تعجبه هو شخصيًا (هو دومًا يشرب الشاي الصيني وليس الجاوي). كما قال أيضًا إن الحاكم العام الذي قدَّم عقود الشاي، بالرغم من الحساب الذي دل على أن البلاد تخسر كثيرًا من جرّائها، كان شخصًا كَفِيًّا، صائبَ التفكير، وعلاوةً على ذلك، صديقًا وفيًا لمن عرفوه في سالف الأيام، لأن ذلك الحاكم العام لم يأبه للحديث عن خسائر الشاي، وحين أُثيرت مسألة إلغاء العقود، سنة 1846 على ما أظن، أسدى لهذا السيد شخصيًا خدمةً جليلةً حين أمر بمواصلة شراء الشاي منه. ولذلك هتف قائلًا، «إن قلبي ينزف دمًا حين أسمع الافتراءات عن هؤلاء الناس النبلاء! فلولاه لكنا الآن

أنا وزوجتي وأولادي مضطرين للمشي على أقدامنا.» ثم أمر بإحضار العربة، وكانت أنيقةً ونظيفةً جدًّا، وكان مظهر الأحصنة يدل على حسن التغذية، وهذا ما جعلني أتفهم بسهولة، كيف يمكن لرجلٍ أن يذوبَ تقديرًا لحاكم عام كذلك الحاكم. إنه شيء يستولي على شغاف القلب حين تتأمل هذه العواطف العذبة، ولاسيما حين تقارنها بتذمر شالمان وشكاويه اللعينة هو وأمثاله.

في اليوم التالي ردَّ لنا المقيمُ الزيارةَ، وكذلك فعل السيد الذي يصنع له الجاويون الشاي، وكلاهما سألنا في الوقت ذاته أي قطار ننوي أن نستقل في عودتنا إلى أمستردام. لم نفهم معنى هذا، لكن اتضحت الأمور فيما بعد، لأننا حين وصلنا المدينة صباح يوم الاثنين وجدنا خادمين في المحطة، أحدهما يرتدي صدرية حمراء، والآخر صدرية صفراء، وكلاهما أخبرنا في الوقت ذاته أنه تلقى برقيةً تأمره أن يجهز عربةً للقائنا في المحطة. كانت زوجتي في غاية الذهول، وخطر في بالي ماذا سيقولون في بوسَلِنك وواترمان لو رأوا هذا ... أقصد، لو رأوا عربتين تنتظراننا. لم يكن من السهل الاختيار، ولم يكن قلبي يطاوعني على إهانةِ أيٍّ من الطرفين، من خلال رفض مثل هذا الاهتمام الآسر. يا لها من ورطة! لكن، كالعادة، تمكنتُ من تخليص نفسي من هذا الوضع المحرج جدًّا. فوضعتُ زوجتي وماري في العربة الحمراء - أقصد، الصدرية الحمراء - وركبت أنا في الصفراء ... أقصد العربة.

يا إلهي كيف كانت تلك الأحصنة تشق طريقها! في ڤيسپر سترات، الوسِخ دائمًا، كان الوحل يتطاير يمينًا وشمالًا بارتفاع المنازل، وكان مُقدَّرًا لنا أن نمر بذلك المتشرد شالمان، وكان يسير مُحدَودِب الظهر والرأس، ورأيت كيف كان يحاول أن يمسح رشقات الطين من وجهه الشاحب بِكُمِّ سُترته المهترئة. من النادر أن أكون قد خرجت في نزهةٍ أكثر بهجةً من هذه، وهذا هو رأي زوجتي أيضًا.

[19]

في الرسالة الخاصة التي أرسلها السيد سلايميرنگ إلى هافلار قال إنه، رغم «انشغالاته الملحة،» سيأتي إلى رانْكَس بيتون في اليوم التالي لكي يناقش ما يجب عمله. كان هافلار يعلم جيدًا ما تعنيه هذه النقاشات - لقد عقد سَلَفُه الكثير من هذه اللقاءات الثنائية مع مقيم بانتام! لذلك كتب الرسالة التالية التي أرسلها للقاء المقيم لكي يضمن أن يقرأها الأخير قبل أن يصل إلى ليباك. وإنه لمن نافلة القول أن أعلِّق على هذه الوثيقة:

رقم 91. سري

عاجل **رانْكَس بيتون، 25 شباط 1856**

11 مساء

لقد تشرفتُ ظهرَ أمس بأن أرسلتُ إليكم مذكرتي المستعجلة رقم 88 ومفادها ما يأتي:

بعد تمحيص طويل، وبعد أن حاولتُ عبثًا في ثني الشخص المعني عن سلوكه الخاطئ بالرفق واللين، شعرت أن من واجبي الذي أقسمتُ عليه رسميًا أن أتهم متصرف ليباك بتهمة إساءة السلطة وأنني أشتبه بأنه يمارس الابتزاز.

في تلك الرسالة أبَحْتُ لنفسي أن أقترح عليكم، أن تستدعوا هذا المسؤول المحلي إلى سيران، وذلك لكي يجري التحقيق في عدالة تهمتي

وريبتي بعد رحيله من ليباك، وبعد تحييد الأثر المفسد لأسرته الكبيرة.

لقد تأملتُ طويلًا، بل عميقًا، قبل أن أقرر أن أسلُك هذا المَسْلَك.

لقد حرصتُ على أن أُخبركم أنني حاولتُ، بالنصح والتحذير، إنقاذَ المتصرف العجوز من سوء المنقَلب والخِزي، ونفسي من الأسى العميق لكوني المتسبب في ذلك - وإن كان دوري يقتصر على كوني السبب المباشر.

ولكنني من ناحية أخرى رأيت الأهالي المضطهدين اضطهادًا كبيرًا، والذين استُغِلّوا عددًا من السنين؛ وفكرت في الحاجة الملحة لجعله عبرةً لغيره - لأن لديَّ فضائحَ كثيرةً أخرى سأبلغكم عنها، ما لم يَضَع رد الفعل على هذه القضية حدًّا لها؛ وأكرر أنني قمتُ بها أحسبه واجبًا عليَّ بعد تأمُّلِ الأمر مَليًّا.

بين يديَّ حاليًا رسالتكم اللطيفة المبجلة السرية التي تعلموني فيها أنكم ستكونون هنا يوم غدٍ وفي الوقت نفسه تلمِّحون فيها أنه كان يجدر بي أن أعالج الأمر سرًّا في البداية.

إذن، غدًا سأحظى بشرف رؤياكم، ولهذا السبب أعطي لنفسي حرية إرسال هذه الرسالة في الوقت المناسب، لتصلكم وأنتم في الطريق لكي أُدْلي بالبيان التالي قبل أن نلتقي:

جميع تحرياتي عن تصرفات المتصرف أُجريت بسرية تامة، ولم يعلم بها أحدٌ إلا هو نفسه والـپـاتّه، وقد أنصفتُه بأنني أنذرتُه. حتى المراقب لا يعلم إلا جزءًا من نتيجة تحرياتي. وهذه السرية لها هدفان. أولًا، حين كان ما زال عندي أملٌ أن أثني المتصرف عن درب الضلالة، أردتُ، إن نجحت، ألا أفضحه. وقد شكرني الـپـاتّه نيابةً عنه صراحةً لحكمتي (في الثاني عشر من الشهر الجاري). لكن فيما بعد، حين بدأت أيأس من نجاح مساعيَّ - أو بالأحرى، حين طفح بي الكيل لدى سماعي عن حادثةٍ أخرى[115] - حين يصبح السكوت بعدها تواطؤًا - صار لا بد من

التزام السرية لمصلحتي الشخصية. فأنا أيضًا لدي واجبات تجاه نفسي - واجبات تجاهي أنا وأسرتي.

بعد كتابتي رسالةَ البارحة، ألن أكونَ غيرَ جديرٍ بخدمة الحكومة، لو كانت محتوياتها باطلةً ولا أساسَ لها، أو من بناتِ خيالي؟ وهل لي أن أبرهن أنني تصرفتُ «بما يليق بمساعدٍ مقيم جيدٍ» - أن أبرهن أنني جدير بالمنصب الممنوح لي - أن أبرهن أنني لا أجازف طائشًا بسبعةَ عشرَ عامًا من الخدمة الشاقة، بل، فوق كل ذلك، بمصالح زوجتي وطفلي ... هل سأتمكن من البرهنة على كل هذا إن لم تُحَط تحرّياتي بسريةٍ تامةٍ، ويُمنَع الرجلُ من التستر على نفسه، كما يقول المَثل؟

فعند أدنى إنذارٍ سيرسل المتصرفُ رسالةً عاجلةً إلى ابن أخيه الذي في طريقه إليه والذي له مصلحة في بقاء عمه في منصبه. سيطلب المال بأي ثمن، وسيبعثره بسخاء على مَن ظلمهم مؤخّرًا. وقد تكون النتيجة - أنا واثقٌ أنني لن أضطر لقول: ستكون قطعًا - رأيًا مفاده أنني أطلقتُ حكمًا طائشًا؛ باختصار، سيُقال عني، في أحسن الأقوال، إنني مسؤولٌ عديمُ النفع.

ولكي أحمي نفسي من شيءٍ من هذا الاحتمال، فقد كتبت هذه الرسالة. إني أُجِلّكم إجلالًا كبيرًا، لكنني أعرف الروح التي يمكن أن يسميها المرءُ «روح المسؤول في الهند الشرقية،» وهي غير موجودة عندي!

إن تلميحكم بأنكم كنتم تفضلون لو أنني تعاملت مع القضية بشكل سري، يجعلني أخشى أي لقاء سري. ما قلته في رسالة البارحة صحيح. لكن قد يبدو غير صحيح لو عولجت القضية، بطريقة قد تؤدي إلى كشف تهمتي وارتيابي، قبل ذهاب المتصرف من هنا.

لا أملك إلا أن أعترف لكم أن وصولكم المفاجئ بحد ذاته، بشأن المبعوث الخاص الذي أرسلته بالأمس إلى سيران، يجعلني أخشى أن

الطرف المذنب، الذي رفض حتى الآن أن يرضخ لنصائحي، أن يستيقظ الآن قبل الأوان ويفعل ما بوسعه، مهما كان قليلًا، لتبرئة نفسه.

لذلك أُبيح لنفسي حرية الالتزام الحرفي، حاليًا، بمذكِّرتي التي أرسلتُها بالأمس، لكن أستميحكم عذرًا لأشير إلى أن تلك المذكرة احتوت أيضًا هذا المقترح: أن يُزاح المتصرف قبل التحقيق، وأن يُجرَّد أتباعُه من صلاحياتهم مؤقتًا. وأنا لستُ ملزمًا بالرد على الإفادات التي أدليتُ بها، إلا إذا وافقتُم على مقترحي بشأن طريقة التحقيق، أي، أن يكون حياديًا، علنيًا، وفوق كل شيء، حُرًّا.

وهذا الحرية لا تتوفر إلا إذا أزيح المتصرف، وبرأيي المتواضع، لا خطرَ من إزاحته، لأنه يمكنكم أن تقولوا له: إنني أنا الذي أتهمه وأشك فيه، وإنني أنا، وليس هو، من سيكون في خطرٍ إن كان بريئًا. لأنني أرى أنني أستحق أن أُصرَف من الخدمة، إن تبيَّن أنني تصرفتُ بطيشٍ أو حتى بتسرُّع.

بتسرُّع! بعد سنواتٍ وسنواتٍ من إساءة استخدام السلطة!

بتسرُّع! وكأن الرجل النزيه يستطيع أن ينام ويعيش ويتنعَّم بالحياة، بينما يُسَرق ويُستَغل جيرانُه، ومن يُملي عليه الواجب حمايتهم!

أعترف أنني لا أقيم هنا منذ مدة طويلة، لكنني واثق أن السؤال الذي سيُسأل ذاتَ يوم سيكون عمّا فعلتُه، وعمّا إذا أحسنتُ فعلَه، وليس عمّا أنجزتُه في وقت قصير. وأنا أرى أن أي مدةٍ طويلةٌ جدًّا حين تتسم بالابتزاز والقهر، وكل ثانيةٍ تمرُّ عليَّ ثقيلةً يقضيها الآخرون بتعاسةٍ، بسبب إهمالي وتقصيري في واجبي، وبسبب «استعدادي للقبول بالحلول الوسطى.»

إني أندم على الأيام التي سمحتُ لها بالمرور، قبل أن أبلغكم رسميًا بمجريات الأمور، وأستميحكم عذرًا لهذا التقصير.

واسمحوا لي بأن أطلب فرصة لتدعيم رسالتي بالأمس، وأن أوقَّى

من احتمال فشل جهودي لتخليص مقاطعة ليباك من الديدان التي تنهش في رفاهها منذ الأزل.

لهذه الأسباب أتجرأ ثانيةً للطلب منكم، أن تتكرموا بالموافقة على ما اتخذتُه من إجراءات في هذه المسألة - وأود أن أشير إلى أنها لم تكن سوى تَحَرٍّ وإبلاغٍ وتوصيةٍ، وأن يُزاح متصرف ليباك من هناك من دون أي إنذار مسبَقٍ مباشر، أو غير مباشر، وأن تأمروا بإجراء تحقيق في الوقائع التي ذكرتُها في خطابي إليكم في رسالتي رقم 88 بتاريخ البارحة.

مساعد المقيم في ليباك

ماكس هافلار

هذا الالتماس إلى المقيم لئلّا يَمنح الحمايةَ للمذنبين، وصله وهو ما زال في طريقه إلى رانْكَس بيتون. وبعد ساعةٍ من وصوله إلى هناك، زار المتصرفَ، وسأله سؤالين: ما هي التهم التي يمكن أن يوجهها إلى مساعد المقيم، وما إذا كان هو، الأديـپـاتّي، بحاجة إلى مالٍ!

عن السؤال الأول أجاب بقوله: «ليس لدي أي تهمة، أُقسِم لك!» وعن السؤال الثاني أجاب بالإيجاب، وحينها ناوله المقيم بضع أوراق نقدية أخرجها من جيب صِدارِه، وكان قد أتى بها لهذا الغرض!

يجب أن تدركوا أن هافلار كان يجهل تمامًا هذا الأمر، وسنرى في الحال كيف عَلِم بتصرف المقيم المشين.

حين ترجَّل السيد سلايميرنگ عند منزل هافلار كان أكثر شحوبًا من العادة، وكانت كلماته متناثرةً أكثر من ذي قبل. ولم يكن بالأمر الهيّن على رجل بارع جدًّا في «إصلاح» الأمور وفي إعداد تقارير سنوية عن السلام أن يتلقى فجأةً رسائل ليس فيها أثر «للتفاؤل»، أو ذلك التشويه البارع للحقائق أو

خشية إزعاج الحكومة بنقل أخبار غير سارة. أُصيب مقيم بانتام بالرعب، وإن سمحتم لي باستخدام صورةٍ سوقيةٍ بسبب مناسبتها للمقام، فإني أود أن أشبِّهَه بأحد أولاد الشوارع الذي يتذمر من انتهاك الأعراف الراسخة، لأن شخصًا ضَرَبه من غير أن يمهِّد لذلك بالشتائم المعتادة.

شرع بسؤال المراقب لماذا لم يحاول أن يمنع هافلار من توجيه تهمته. وكانت هذه هي أول مرة يسمع فيها فيربروخه المسكين بالتهمة، وقد قال ذلك، ولكنه لم يصدقه، لأن السيد سلايميرنگ لم يستطع أن يتخيل أن شخصًا يمكن أن يشرع وحده في أداء واجبه على نحو غير مسبوق، وعلى مسؤوليته الشخصية، ومن دون «تشاورات» وتداولات مستفيضة. لكن بما أن فيربروخه واظب على نفي علمه بالرسائل - وهو لم يقل إلا الحق - اضطر المقيم أن يقبل أقواله، وبدأ بقراءة الرسائل له بصوتٍ عالٍ.

ما كابده فيربروخه في استماعه لها لا يوصف. كان رجلًا نزيهًا، وما كان ليكذب، لو أن هافلار توسَّل إليه أن يصادق على صحتها. لكن بصرف النظر عن هذا الأمر، في كثيرٍ من التقارير المكتوبة لم يستطع دومًا أن يتجنب قول الحقيقة، حتى حين تكون الحقيقة خطرةً. ماذا لو استفاد هافلار من تلك التقارير؟

بعد قراءة الرسائل قال المقيم: سَيَسُرُّهُ لو أن هافلار سحبها لكي تُعَدَّ وكأنها لم تُكتَب. لكن هذا الاقتراح رُفِض بإصرارٍ مهذَّبٍ.

بعد أن حاول المقيم بلا طائل أن يقنع مرؤوسه بتغيير رأيه، قال: إنه الآن لا مناص من إجراء تحقيق في صحة الشكاوى، وأنه لهذا السبب مضطرٌ للطلب من هافلار أن يستدعي الشهود، الذين يمكن أن يقدِّموا الأدلة على اتهاماته.

أيها المساكين، يا مَن تمزَّق لحمكم على الأشجار الشوكية في الوادي، لو

سمعتم هذا، لانْتابَ قلوبَكم القلق!

مسكينٌ يا فيربروخه، أنت الشاهد الأول والأساسي، الشاهد بحكم منصبك، الشاهد بموجب منصبك وقَسَمِك، الشاهد الذي أدلى بشهادته كتابةً. الشهادة المكتوبة التي ترقد على الطاولة تحت يد هافلار ...

أجاب هافلار:

«أيها المقيم، أنا مساعد المقيم في ليباك، ولقد اتخذتُ عهدًا على حماية الأهالي من الابتزاز والاستبداد، وأنا من يتهم المتصرف وصهره في پاران كوجان، وسأثبت صحة تهمتي حالما أُمنَح الفرصة التي اقترحتها في رسالتَيَّ، وإن تبيَّن أن تهمتي باطلة، فأنا المتَّهَم بالافتراء!»

لقد تنفس فيربروخه الصعداء من جديد!

ما أغرب كلمات هافلار على سمعِ المقيم!

دام الاجتماع طويلًا. بلباقة فائضة - فهو لبقٌ ومهذَّب بالفعل - حضَّ المقيمُ هافلار على أن يتخلى عن مبادئه الخاطئة. لكن هافلار قابَل لباقةَ المقيم بلباقةٍ مماثلةٍ، وبقي على رأيه. وفي النهاية اضطر المقيم للاستسلام، وقال مهدِّدًا - وهذا نصرٌ لهافلار: إنه سيضطر الآن لأن يُطلِع الحكومة على الرسائل المعنية!

أُغلِقت الجلسة. زار المقيمُ الأديـپـاتّي - وقد رأينا من قبلُ ماذا كان شغله هناك - ثم جلس ليتناول الغداء على خِوان أسرة هافلار البائسة. وبعد ذلك مباشرةً عاد إلى سيران بسرعة كبيرة، لأنه. كان. مشغولًا. جدًّا. جدًّا.

في اليوم التالي، تلقى هافلار رسالةً من مقيم بانتام، التي يمكن أن يُخمَّن مضمونها من جوابه الذي أضعه بين أيديكم هنا:

رقم 93 سِرّي رانكَس بيتون، 28 شباط 1856

أود أن أعلمكم أنني تلقيت مذكرتكم السرية العاجلة، المؤرخة في الثامن والعشرين من الشهر الجاري، والتي مفادها ما يأتي:

أن لديكم أسبابًا لعدم الأخذ بالمقترحات التي تقدمت بها في رسالتَيَّ رقم 88 و91 في الرابع والعشرين والخامس والعشرين من الشهر الجاري؛

وأنكم كنتم تفضلون أن تتلقوا مني خطابًا سريًّا مسبقًا عن القضية؛

وأنكم لا تستحسنون تصرفاتي كما وصفتُها في تينك الرسالتين؛

وأخيرًا بعض الأوامر.

والآن يُشرِّفني أن أطمئنكم من جديد - كما فعلتُ شفويًّا في لقائنا قبل أول أمس:

أنني أنحني تمامًا لسلطتكم، حيث القضية التي نحن بصددها هي قبول مقترحاتي أو رفضها؛

وأن الأوامر التي تلقيتها ستُنفَّذ بدقة، وإن دعت الحاجة، بمنتهى التفاني، كأنكم شاهدٌ على كل ما أقول وأفعل، أو بالأحرى على ما لا أقول ولا أفعل.

أنا أعلم أنكم تثقون بولائي في هذه المسألة.

لكني أبيح لنفسي أن أحتج بأشد العبارات الرزينة، على أدنى تلميح إلى عدم الاستحسان من طرفكم، لأي فعل أقدمتُ عليه، أو كلمة تَفَوَّهت بها، أو عبارة كتبتُها عن القضية التي نحن بصددها.

أنا مقتنع أنني قمت بواجبي ... من حيث النية وطريقة التنفيذ، واجبي كاملًا ... ولا شيء سوى واجبي، من دون أدنى زَيْغ.

لقد تفكَّرت طويلًا قبل أن أتصرف - أي، قبل أن أتحرى وأُعِد تقريري وأقترح - وإن أخطأت في أي شيء كان، فلم أُخطئ بسبب التسرع المفرط.

لو واجهتني ظروفٌ مشابهةٌ لَفعلتُ، ولَما فعلتُ ذات الشيء بالضبط، ذات الشيء بالضبط بحذافيره - وإنْ بسرعةٍ أكبر.

وحتى لو لم تستحسن سلطةٌ أعلى من سلطتكم أي شيء فعلتُه - ما عدا غرابة أسلوبي، الذي هو جزء من شخصيتي، وهو عيبٌ لا أُسأَل عنه كما لا يُسأَل المتلعثمُ عن لعثمته - حتى لو حدث هذا ... لكن لا، هذا غير وارد؛ ولكن حتى لو حدث هذا، فقد أديتُ واجبي!

وما يحزُّ في نفسي كثيرًا - مع أنني لستُ متفاجئًا - أن لكم رأيًا مختلفًا عن القضية، ولو كان الأمر يتعلق بي شخصيًا فحسب، لآثرتُ الاستقالةَ فورًا على أن يُساء فهمي. لكن القضية قضية مبدأ - وهو على المِحَكّ - وضميري يُملي عليَّ أن تَحسَم مسألة مَنْ منّا رأيه صائب: أنا أم أنتم.

لا يمكنني أن أخدم في ليباك غير الذي قدَّمتُ. وإن كانت الحكومة ترغب في خدمة مختلفة، فإن النزاهة تُملي عليَّ أن أتقدم باستقالتي وبكل احترام. وفي هذه الحال، في سن السادسة والثلاثين، سأضطر للبحث عن مهنة جديدة. في هذه الحال، وبعد سبعة عشر عامًا، سبعة عشر عامًا من الخدمة الشاقّة المُجهِدة، وبعد أن أفنيتُ قِواي في أداء ما ظننتُه واجبي، سأضطر إلى سؤال المجتمع إن كان سيُعطيني قوتًا لزوجتي وطفلي، قوتًا مقابل عقلي ... قوتًا، ربما، مقابل العمل على عربةٍ يدويةٍ ومِجرفة، إن توسَّم هذا المجتمع في ذراعي قوةً أعظمَ قيمةً من قوة روحي.

لكني لا أستطيع أن أصدق، وليس عندي استعدادٌ أن أصدق أن رأيكم هذا هو ذاته رأي صاحب الفخامة الحاكم العام، ولذلك قبل أن أُساق إلى منتهى المرارة التي وصفتُها في الفقرة الآنفة، فإني ملزَمٌ أن أطلب منكم، وبكل احترام، أن تشيروا على الحكومة بما يأتي:

أن تُوعِزوا إلى مقيم بانتام أن يصادق على الإجراءات التي اقترحها مساعد المقيم في بانتام المتعلقة بمذكرتَي الأخير رقم 88 و91 في الرابع والعشرين والخامس والعشرين من الشهر الجاري.

وإلا:

أن تستدعوا مساعد المقيم المذكور للرد على أسباب عدم المصادقة التي يجب على مقيم بانتام أن يصوغها.

وختامًا، اسمحوا لي أن أؤكد لكم، وبكل سرور أنه لو كان هناك أي شيء يمكن أن يجعلني أتراجع عن مبادئي في هذه القضية، مبادئي التي تأملتُها مليًا وبذهنٍ صافٍ ثم عَضَضْتُ عليها بالنواجذ ... لكانت بالفعل تلك الطريقة اللبقة الآسرة، التي اعترضتم بها على تلك المبادئ في لقائنا قبل يومين.

مساعد المقيم في ليباك

ماكس هافلار

ومن دون إطلاق حكم على صحة شك الأرملة سلوتيرِنگ حول ما يَتّم أطفالها، والاكتفاء فقط بما يمكن إثباتُه، أي، في ليباك هناك علاقة وثيقة بين التفاني في أداء الواجب، وبين السم - حتى وإن كانت هذه العلاقة، أيضًا، لا وجود لها إلا في عقول الناس ... وإنه لَمِن نافلة القول أن أذكر أن ماكس وتينا أمضيا أيامًا تعيسةً بعد زيارة المقيم. ومن المؤكد أنني لست مضطرًا لوصف القلق، الذي يعذب أُمًّا وهي تُطعم طفلها، وتظل تسأل نفسها دومًا إن كانت تغتال فلذة كبدها. وما مِن طفلٍ دعا له والداه، كما دعا والدا ماكس الصغير، الذي تأخرت ولادته سبع سنوات بعد زواج هافلار، وكأن الشقي كان يعلم أنه ليس من مصلحة ابنٍ أن يأتي إلى الدنيا لوالدين كوالديه!

اضطر هافلار للانتظار تسعةً وعشرين يومًا طويلةً، قبل أن يُبْلِغَه الحاكم العام ... ولكننا لم نصل إلى هذا الحد بعد.

كان السيد سلايميرنگ قد بذل جهده لإقناع هافلار أن يسحب رسائله،

أو أن يُفشي أسماء المساكين التعساء الذين وثقوا بشهامته، وحين ذهبت هذه الجهود سُدى زاره فيربروخه في بيته بُعيد ذلك. كان الرجل المبجل شاحب اللون مثل ورقة بيضاء، وكان يعاني من صعوبةٍ في الكلام.

قال، «لقد كنتُ مع المتصرف ... إنه شيء مُخْزٍ، مُخزٍ ... لكن لا تفضحني!»

«كيف؟ كيف لا أفضحك؟»

«هل تَعِدني ألا تستغل ما سأقوله لك؟»

قال هافلار، «عُدنا إلى الخَوَر من جديد! لكن ... لا بأس! أَعِدُك.»

ثم أخبره فيربروخه ما يعلمه القارئ سَلفًا - أي، أن المقيم سأل الأديپاتي إن كان بإمكانه أن يتهم مساعد المقيم، وأنه أيضًا، وبصورة غير متوقعة، عرض عليه المال وأعطاه إياه. وهذا ما سمعه فيربروخه من المقيم شخصيًا الذي سأله عن الأسباب التي دفعت المقيم لهذا الشيء. استشاط هافلار غضبًا، لكنه .. قد وَعَد.

في اليوم التالي عاد فيربروخه وقال: إن دوكلاري قد وبَّخه على تركه هافلار وهو يصارع خصومًا كهؤلاء وحيدًا، ولذلك جاء فيربروخه ليعفيه من وعده.

هتف هافلار قائلًا، «أحسنت! اكتب ذلك!»

دوَّن فيربروخه ذلك، وهاهي إفادته أمامي أيضًا.

لا بد أن القارئ قد أدرك منذ مدةٍ طويلةٍ، لماذا تخليتُ بسهولةٍ عن كل ادّعاءات الموثوقية المفصلة لسيرة سايْجَه؟

ومن اللافت جدًّا للانتباه كيف تجرَّأ فيربروخه الجبان، قبل أن تدفعه توبيخات دوكلاري إلى تغيير رأيه، إلى الاعتماد على وعد هافلار في قضيةٍ تُغري أيَّ إنسانٍ بقوةٍ إلى انتهاكه!

ثمة ... شيءٌ آخر. مضت سنوات على الأحداث التي أرويها. في ذلك

الوقت، عانى هافلار الأمرَّيْن، وقد رأى أسرته تُقاسي - والوثائق التي أمامي تشهد على ذلك - لكن يبدو أنه قد انتظر ... وإليكم هذه الملاحظة المكتوبة بخط يده:

> أرى من خلال الصحف أن السيد سلايميرنگ قد مُنِح وسام الأسد الهولندي بدرجة فارس، ويبدو أنه الآن أصبح مقيم جوكجاكرتا. ولذلك بإمكاني الآن أن أُثير قضية ليباك من جديد، من دون أي خطر على فيربروخه.

[20]

كان الوقت مساءً. كانت تينا جالسةً تقرأ في الصالة الداخلية، وكان هافلار يرسم رسمًا تطريزيًا. كان ماكس الصغير يحاول تجميع قطع أُحجية مُصورة، وفقد أعصابه، لأنه لم يستطع أن يجد «جسد تلك المرأة الحمراء.»

سأل هافلار زوجته، «هل تعتقدين أنه لا بأس بهذا الشكل، يا تينا؟ انظري، لقد جعلتُ شجرة النخيل أكبر قليلًا ... وهذا يشبه 'نمط الجمال' عند هوگارث تمامًا. أليس كذلك؟»

«نعم، يا ماكس! ولكن ثقوب التخريم متقاربة جدًّا.»

«أوه؟ وماذا عن بقية الأشرطة، إذن؟ ماكس! دعنا نُلقِ نظرة على سِروالك الداخلي! هل ما زلت تلبس ذلك الشريط؟ ما زلتُ أتذكر أين صنعتِ ذلك الشريط، يا تينا!»

«أنا لا أتذكر. أين كان ذلك؟»

«كان ذلك في لاهاي، حين كان ماكس مريضًا، وكنا خائفَيْن جدًّا لأن الطبيب قال إن شكل رأسه غريب، وإن علينا أن نحرص أشدَّ الحرص لكي نمنع حدوث أي احتقان في الدماغ ... كنتِ تطرزين ذلك الشريط في تلك الأثناء.»

نهضت تينا، وقبّلت ماكس الصغير.

صاح الصبي مبتهجًا، «لقد أكملتُ بطنها! لقد أكملتُ بطنها!» وبهذا اكتملت المرأة الحمراء.

سألت الأم، «مَن يسمع التونـتون؟»[111]

قال ابنها، «أنا.»

«وماذا يعني ذلك؟»

«حان وقت النوم! لكن ... لم أتناول عشائي بعد.»

«ستتناول عشاءك أولًا، بلا شك.»

ثم نهضت تينا، وأعطته وجبته البسيطة التي تناولتها، فيما يبدو من خزانةٍ مُحْكَمة الإغلاق في غرفتها، لأنه سُمِعت طقطقةُ عدة مفاتيح.

سألها هافلار، «ماذا تعطينه؟»

«أوه، لا تقلق! إنه كعكٌ معلَّبٌ اشتريتُه في بَتافيا. والسُّكَّر مُقْفَلٌ عليه دائمًا، أيضًا.»

عادت خواطر هافلار إلى حيث قوطِعت.

قال لها مُكمِلًا ما انقطع من حديثه، «هل تعلمين أننا لم ندفع فاتورة ذلك الطبيب حتى الآن؟ أوه، إن الأمور شاقةٌ جدًّا.»

«عزيزي ماكس، نحن نعيش هنا في غاية التقشف، وستتمكن قريبًا من دفعها جميعًا! كما أنه لن يطول الوقت قبل أن تصبح مقيمًا، وعندها سنُسوّي كل أمورنا في وقتٍ قصير.»

قال هافلار، «هذا ما يُقلقني. سيؤسفني أن أغادر ليباك ... انظري، سأشرح لك. ألا تعتقدين أننا أحببنا ماكس أكثر بعد أن مرض مرضًا شديدًا؟ يبدو لي أن هذا ما سأشعُر به، إزاء هذا المكان الفقير ليباك، بعد أن شُفِي من السرطان الذي عانى منه كل هذه السنين. فكرة الترقية تُفزعني - لا يمكن أن يُستَغنى عني هنا، يا تينا! لكن ... من جهة أخرى ... حين أفكِّر في ديوننا ...»

«كل شيء سيكون على ما يُرام، يا ماكس! حتى لو اضطررتَ أن تغادر هذا

المكان، ستتمكن من مساعدة ليباك لاحقًا حين تصبح الحاكم العام.»

ظهرت خطوطٌ عنيفةٌ في رسوم هافلار التطريزية! شابَ الغضبُ ذلك الرسمَ الزهري ... وأصبحت ثقوب التخريم حادة الزوايا، وتعض بعضها بعضًا ...

أدركت تينا أنها قالت شيئًا خاطئًا.

فقالت تلاطفه، «حبيبي ماكس ...»

«اللعنة! هل تريدين أولئك البؤساء المساكين أن يعانوا كل هذه المدة؟ هل تستطيعين أنت أن تعيشي على التراب؟»

«حبيبي ماكس!»

لكنه وثب واقفًا. لم يعد هناك رسم في تلك الليلة. راح يذرع الصالة الداخلية جيئةً وذهوبًا، وأخيرًا انفجر في لهجةٍ لو سمعها غريبٌ لَبَدت له خشنةً وقاسيةً، لكن تينا فسرتها تفسيرًا مختلفًا:

«اللعنة على هذا التراخي، هذا التراخي المُخزي! ها أنا أجلس منتظرًا إحقاقَ الحق منذ شهر، بينما الناس المساكين يعانون الأمرَّين! يبدو أن المتصرف واثقٌ أنه لا يجرؤ أحدٌ على المساس به! انظري ...»

ذهب إلى مكتبه، وعاد حاملًا بيده رسالةً ... رسالةٌ تقبع أمامي، أيها القارئ!

«انظري! في هذه الرسالة لديه الوقاحة ليقترح عليَّ نوع السخرة التي يريدها من الناس الذين استدعاهم بصورةٍ غير قانونية! أليس هذا منتهى الوقاحة؟ وهل تعرفين مَن هؤلاء الناس؟ إنهن أمهات أطفال صغار أو مرضعات أو حوامل تم سَوْقُهن إلى هنا من پاران كوجان لكي يعملن لمصلحته! لم يتبقَّ هناك رجالٌ، على أية حال! ليس لديهم ما يأكلون، وينامون في الطرقات، ويأكلون التراب. هل تستطيعين أنت أن تأكلي التراب؟ هل يجب أن يأكلوا

التراب إلى أن أصبح حاكمًا عامًّا؟ اللعنة!»

كانت تينا تعلم جيدًا من الذي أغضبَ ماكس حين كان يكلمها بهذه الطريقة، وهي التي يحبها حبًّا جَمّا.

تابع هافلار قائلًا، «وكل هذا يحدث تحت مسؤوليتي! في هذه اللحظة، لو كان أي من أولئك التعساء المساكين يهيم على وجهه في الخارج، ورأى وهج مصابيحنا، لقال، 'هناك يعيش الوغد الذي يُفتَرض أن يحمينا! ها هو يعيش بسلام مع زوجته وطفله، ويرسم رسومًا تطريزيةً ... بينما نجوع على الطرقات مع أطّفالنا، كأننا كلابٌ منبوذة!' أجل، إني أسمع ما يقولون، وأسمع صرخة الانتقام مني! تعال، يا ماكس!»

ثم قبّل ابنه بعنفٍ أخاف ماكس الصغير.

«يا بُني، إن أخبروك أنني كنتُ وغدًا تنقصه الشجاعة لإقامة العدل ... فماتت أمهاتٌ كثيراتٌ بسببي ... وإن أخبروك أن إهمال والدك لواجبه نَزَع البركة من رأسك، فقل لهم يا ماكس، أوه يا ماكس، كم عانيتُ!»

ثم انفجر باكيًا، فمسحت تينا دموعَه بِقُبَلِها. أخذت ماكس الصغير إلى سريره - وهو عبارة عن فراشٍ من قَش - وحين عادت وجدت هافلار يتحدث مع فيربروخه ودوكلاري اللذين وصلا للتو. كانوا يتحدثون عن القرار الحكومي المنتَظر.

قال دوكلاري، «إني أتفهم أن المقيم في ورطة، لا يستطيع أن يشير على الحكومة أن تمتثل لمقترحاتك، لأنها إن فعلت ستنفضح كثيرٌ من الأمور. لقد أمضيتُ وقتًا كثيرًا في بانتام، وأعرف عنها الكثير، بل إني أعرفها أكثر مما تعرفها، يا سيد هافلار! أنا في هذه الأنحاء منذ أن كنت ضابط صف، وفي ذلك المنصب تُتاح لك معرفة أشياء لا يندفع الأهالي لإخبار المسؤولين بها. لكن إن أُجريَ

تحقيقٌ عامٌّ، وانفضح كل هذا، سيستدعي الحاكمُ العامُّ المقيمَ للاستجواب، وسيسأله لماذا لم يكتشف في سنتين ما رأيتَه أنتَ فورًا! لذلك من الطبيعي أن يسعى سلايميرنگ لمنع إجراء التحقيق ...»

ردَّ هافلار، «أُدرِك ذلك. لكن صدمني بسعيه لجعل الأديـپاتّي يدَّعي عليَّ - وهذا يشير، فيما يبدو، إلى أنه سيسعى إلى تدبير أمر يصرف الأنظار، كأن يتهمني، على سبيل المثال، ... لا أعرف بماذا. لذلك تحوَّطتُ للأمر، فأرسلتُ نسخًا من رسائلي إلى الحكومة مباشرةً. في إحداها طلبتُ أن أُستَدعى للاستجواب إن ادُّعِي أنني ارتكبتُ خطأً ما. لذلك إن هاجمني المقيم الآن، فإن العُرف القضائي يقضي ألا يُتَّخذ أي قرار بحقي من دون الاستماع إلى أقوالي. حتى المجرم له هذه الحقوق، وبما أنني لم أرتكب خطأً ...»

هتف فيربروخه، «ها قد وصل البريد!»

نعم، إنه البريد! البريد الذي حمل الرسالة الآتية ... من الحاكم العام للهند الشرقية الهولندية إلى المساعد السابق لمقيم ليباك، ماكس هافلار:

مكتب الحاكم العام

رقم 54 **باوِتنزورخ، 23 آذار 1856**

إن الطريقة التي سلكتَها منذ اكتشافك أو افتراضك بوجود انتهاكات من قِبَل زعماء مقاطعة ليباك، والموقف الذي اتخذتَه في هذه المسألة تجاه رئيسك مقيم ليباك، كلاهما أثار استيائي الشديد.

إن تصرفاتك الآنفة الذِّكْر تدلُّ على افتقارك للتروّي الهادئ واللباقة والتعقُّل، وهذه صفاتٌ جوهريةٌ للمسؤول المخوّل (هكذا) إدارةَ الحكم

في الداخل، كما تدل على غيابٍ للتصور اللائق لخضوعك لرئيسك المباشر.

فبعد بضعةِ أيامٍ فقط من تسلمك منصبَك الجديدَ ارتأيتَ أن تجعل مدير إدارة الأهالي في ليباك هدفًا لتحرياتٍ تجريميةٍ، من دون استشارة المقيم سلفًا (هكذا).

في تلك التحريات، وحتى من غير أن تُدَعِّم تُهَمَك ضد الزعيم بالوقائع (هكذا)، ناهيك بالأدلة، سَوَّلت لك نفسُك أن توصي باتخاذ إجراءاتٍ تُخضِع مسؤولًا محليًا يحمل صفة متصرف ليباك - رجلًا بلغ الستين من عمره، ولكنه ما زال خادمًا متحمسًا للدولة، رجلًا تربطه أواصر قُربى بأُسَرٍ مجاورةٍ مهمةٍ من المتصرفين، رجلًا لم تذكره التقارير قطُّ إلا بكل خير - لمعاملةٍ من شأنها أن تحطمه معنويًا تحطيمًا تامًّا.

علاوةً على ذلك، حين أبدى المقيم تَمَنُّعًا للعمل فورًا بمقترحاتك، رفضتَ أن تنصاع إلى طلب رئيسك المعقول، أن تُفصِح كليًّا عن كل ما تعرفه عن تصرفات إدارة الأهالي في ليباك.

وهذا السلوك يستحق كل إدانة، و يشكّك في كفاءتك لشَغْلِ منصبٍ في الخدمة المدنية في الهند الشرقية.

ولذلك أنا مُرغَم على أن أُعفيك من منصب مساعد المقيم في ليباك.

لكن نظرًا للتقارير الإيجابية التي وردتنا عنك من قبل، لم أشأ أن أنظر إلى ما حدث سببًا في حرمانك، من إمكانية تعيينك في منصب آخر في السلك المدني. ولذلك أَعهد إليك مؤقتًا القيامَ بوظيفة مساعد المقيم في نْـگـاوي.

وسلوكُك المستقبلي في ذاك المنصب سيقرر كليًّا، إن كنتَ تصلُح للبقاء في الخدمة المدنية في الهند الشرقية.

وتحت هذا كان مكتوبًا اسمُ الرجل الذي قال الملك إنه يستطيع أن يعتمد

على «حماسته وقدرته ووفائه» حين وقَّع على تعيينه حاكمًا عامًّا للهند الشرقية الهولندية.

قال هافلار باستسلام، «إننا راحلون، يا عزيزتي تينا.» ثم ناول المذكرة إلى فيربروخه الذي قرأها مع دوكلاري.

دمعت عينا فيربروخه، لكنه لم يقل شيئًا. أما دوكلاري، وهو رجلٌ معروف بشدة تهذيبه، فقد قال كلامًا فظًّا:

«يا إلهي! لقد رأيت صعاليك ولصوصًا في الخدمة الحكومية ... وقد وُدِّعوا بكل مراسم التشريف، وأنت تأتيكِ رسالةٌ كهذه!»

قال هافلار، «هذا لا شيء. الحاكم العام رجلٌ نزيهٌ: لا بد أنه قد خُدِع ... مع أنه كان بإمكانه أن يحترز من هذا، لو أنه استمع إليَّ أولًا. لقد عَلِق في شِباكِ البيروقراطيةِ في باوتِنزورخ، ونحن نعرفها جيدًا. لكنني سأذهب إليه، وأبيِّن له حقيقة الأمر. أنا واثقٌ أنه حريصٌ على إحقاق الحق!»

«لكن ... إن ذهبتَ إلى نْـگـاوي ... ؟»

«تمامًا – أعلم ذلك! متصرف نْـگـاوي تربطه علاقة قُربى ببلاط جوكجا. أنا أعرف نْـگـاوي، لقد أمضيت سنتين في باگْـلِن، وهي ليست بعيدةً من هناك. في نْـگـاوي سأضطر لعمل ما كنت أعمله هنا بالضبط. وهذا لا يعني سوى السفر ذهابًا وإيابًا من غير طائل! أضف إلى ذلك أنني لا يمكن أن أعمل تحت المراقبة، وكأنني أنا الذي أساء التصرف! وأخيرًا، أدركتُ أنه لا ينبغي لي أن أكون مسؤولًا إن أردتُ أن أضع حدًّا لكل هذا الفساد. ما دمتُ مسؤولًا، فهناك أشخاصٌ كثيرون يَحُولون بيني وبين الحكومة، ومن مصلحتهم أن يُنكروا شقاء الأهالي. وهناك أسبابٌ أخرى تمنعني من الذهاب إلى نْـگـاوي! فالمنصب لم يكن شاغرًا ... بل فتحوه خصيصًا لي. انظُرا!»

ثم بيَّن لهما في صحيفة «يافَشيه كورانت،» التي أتت مع ذات البريد، أن ذات الأمر الحكومي الذي أوكل إليه إدارة نْـگـاوي أمَرَ بنقل مساعد المقيم في تلك المقاطعة إلى مقاطعة أخرى شاغرة.

«هل تعلمان لماذا يريدون نقلي إلى نْـگـاوي وليس إلى المقاطعة الشاغرة؟ سأقول لكما! نْـگـاوي جزء من مندوبية مَديون، ومُقيم مَديون تربطه علاقة مصاهرة مع المقيم الأخير في بانتام. لقد قلتُ إن هناك مجرياتٍ فاضحةً هنا ... وأن المتصرف وجد الكثير من القُدوات السيئة في الماضي ...»

قال فيربروخه ودوكلاري في وقت واحد، «آها!» لقد فهما الآن لماذا اختيرت نْـگـاوي لتكون المكان الذي يقضي فيه هافلار فترة الاختبار، ليروا إن كان سيُصلح مسلكَه.

تابع قائلًا، «وهناك أيضًا سببٌ آخر يمنعني من الذهاب إلى هناك. سيتقاعد الحاكم العام قريبًا ... وأنا أعرف خليفَته، وأعلم أنه لا يُرتجى منه شيءٌ. لذلك إن أردتُ أن أفعل شيئًا في الوقت المناسب لأهالي ليباك البؤساء، عليَّ أن أرى الحاكم الحالي قبل أن يغادر، وإن ذهبتُ الآن إلى نْـگـاوي، سيكون ذلك مستحيلًا. تينا ... أنْصِتا!»

«نعم، يا عزيزي ماكس؟»

«لديكِ الكثير من الشجاعة، أليس كذلك؟»

«ماكس، أنت تعلم أن لدي الكثيرَ من الشجاعة حين أكون معك!»

«حسنٌ جدًّا!»

نهض وذهب إلى غرفته، وكتب الالتماس الآتي، وهو برأيي أُنموذجٌ في الفصاحة:

رانْكَس بيتون، 29 آذار 1856

إلى الحاكم العام في الهند الشرقية الهولندية

تشرفتُ بتلقي مذكرة فخامتكم رقم 54 المؤرخة في الثالث والعشرين من الشهر الجاري.

وجوابًا على ذلك المستند، أشعر بأنه لِزامٌ عليَّ أن أطلب من فخامتكم أن تمنحوني تسريحًا مشرِّفًا من خدمة الدولة.

ماكس هافلار

لم يتطلب قبول استقالة هافلار وقتًا طويلًا في باوتِنزورخ، كما بدا ضروريًا لتقرير كيف يمكن التصدي لتهمته. لأن ذلك استغرق شهرًا، والتسريح المطلوب وصل ليباك في غضون أيام.

هتفت تينا قائلةً، «الحمدُ لله! وأخيرًا صار بإمكانك أن تَكُونَ على طبيعتك!»

لم يتلقَ هافلار أية تعليمات لتسليم إدارة مقاطعته إلى فيربروخه مؤقتًا، ولذلك افترض أنه سينتظر وصول خليفته. ولكن وصول ذلك المسؤول استغرق وقتًا طويلًا، لأنه سيأتي من منطقة مختلفة تمامًا في جاوا. وبعد الانتظار قرابة ثلاثة أسابيع، كتب مساعد المقيم السابق في ليباك، الذي ظل يمارس مهام منصبه طوال هذا الوقت، الرسالة التالية إلى المراقب فيربروخه:

رقم 153 رانْكَس بيتون، 15 نيسان 1856

إلى مراقب ليباك

كما تعلم، لقد سُرِّحتُ، بموجب القرار الحكومي رقم 4 في الرابع من الشهر الجاري، تسريحًا مشرفًا من خدمة الحكومة بناء على طلبي.

وعند استلامي لذلك القرار، ربما كان يجدر بي أن أتخلى عن واجبات منصبي فورًا، حيث لا يستوي أن يشغل المرءُ منصبًا حين لا يكون مسؤولًا.

لكني لم أتلق أية تعليمات لتسليم عُهدتي، وبسبب إحساسي بالمسؤولية ألّا أغادر منصبي من غير أن أُعفى بالشكل اللائق، ولأسباب أخرى أقل أهمية، فقد انتظرتُ وصول خليفتي، ظنًّا مني أن ذلك المسؤول لن يتأخر وصوله - على أية حال، في غضون هذا الشهر.

وقد علمتُ منك للتو أنه لا يُتوقَّع وصول خليفتي في القريب العاجل - أعتقد أنك سمعتَ هذا في سيران - وأن المقيم، نظرًا للوضع الغريب الذي أجد نفسي فيه، قد استغربَ أيضًا أنه لم يُطلَب مني حتى الآن نقل مسؤولياتي الإدارية إليك.

لا شيء يسرني أكثر من هذا الخبر. ولست بحاجة لأن أؤكد لك أنني، أنا الذي أعلنتُ أنني لا أستطيع أن أفعل غير الذي فعلتُ هنا ... أنا، الذي جُوزيتُ على خدمتي هذه بتوبيخٍ ونقلٍ يحطمني ويضر بسمعتي ... بأمرٍ لخيانة الفقراء الذين وثقوا بحسن نيتي - وكذلك بالاختيار بين الخِزي والحرمان! - أنني، بعد كل الذي جرى، ثابرتُ، بألم واهتمام وبدافعٍ من الواجب، على معاينة كلِّ قضيةٍ تنشأ، وأن أبسط الأمور كانت امتحانًا لي، وأنا الموزَّع بين ضميري، ومبادئ الحكومة التي أدين لها بالولاء، ما دمتُ لم أُعْفَ من منصبي.

وقد اتضحت صعوبة وضعي كلما اضطررتُ للرد على شكوى.

لأنني وعدتُ ألا أُسْلِم أيَّ أحدٍ لِحقْدِ زعمائه! لقد أقسمتُ أن حكومتنا مستقيمة، وما أضلَّني حين رهنتُ لذلك كلمتي!

لا يمكن لأهل ليباك أن يعرفوا أن وعدي وعهدي هذا قد نُكِثا، وأنني أقف وحيدًا، بلا حولٍ أو قوةٍ، في رغبتي بالعدل والإنسانية.

وظلت الشكاوى تَتْرى بلا انقطاع!

ومنذ أن تلقيتُ مذكرة الحاكم العام المؤرخة في الثالث والعشرين من آذار، والألم يعتصرني بشدةٍ، لأني أقبع هنا بوصفي ملجأً مُفترَضًا - بوصفي حاميًا عاجزًا.

وما يَحُزُّ في نفسي أنني كنت أستمع إلى شكاوى عن سوء المعاملة والاستغلال والفقر والجوع ... وأنا الآن سأواجه خطر الجوع والفقر، مع زوجتي وطفلي.

ومع ذلك، لا يحق لي أن أخون الحكومة. لستُ مُخَوَّلًا لأقول للناس، «اذهبوا واستمروا في شقائكم، لأن الإدارة تريدكم أن تُستَغَلّوا!» لا يحق لي أن أعترف بعجزي، ناهيك بالخزي وانعدام الضمير لدى مستشاري الحاكم العام.

هذا ما أجبتهم:

«لا يمكنني أن أساعدكم فورًا! لكني سأذهب إلى بَتافيا، وسأتحدث إلى صاحب العظمة هناك عن شقائكم. إنه رجل يحب العدل، وسيقف إلى جانبكم. أما الآن، فعليكم أن تعودوا إلى بيوتكم بهدوء ... ولا تتمردوا ... لا تغادروا المكان ... بل اصبروا وانتظروا: فأنا أظن ... أو أرجو ... أن تتحقق العدالة!»

وبهذه الطريقة، وأنا خَجِلٌ من نكثِ وعدي لهم بالمساعدة، ظننتُ أنني أستطيع أن أوفِّق بين آرائي الشخصية، وبين واجبي تجاه الحكومة، حيث إنها لا تزال تدفع راتبي لهذا الشهر. وكان بإمكاني أن أستمر على هذا النحو إلى أن يصل خليفتي، لو لم يحدث اليومَ حَدثٌ معينٌ أملى عليَّ أن أضع حدًّا لهذه العلاقة الملتَبَسة.

لقد اشتكى سبعة أشخاص. وقد أجبتهم الجوابَ الآنفَ ذِكرُه. لقد عادوا إلى بيوتهم، وفي الطريق التقوا بزعيم قريتهم، ويُعتقَد أنه منعهم من مغادرة الكامـپـون من جديدٍ، وقد سمعتُ أنه سلب منهمٍ ملابسهم، ليرغمهم على البقاء في بيوتهم. لكن أحدهم هرب، وجاء إليَّ من جديد، وقال إنه لا يستطيع أن يعود إلى قريته!

ولا أعرف ماذا أقول لهذا الرجل!

لا أستطيع أن أحميه ... ويجب ألا أعترف له بعجزي ... ولن أقاضي

زعيم القرية المعني، لأن ذلك سيبدو وكأنني افتعلتُ هذه القضية لخدمة مآربي. لم أعد أعرف ماذا أفعل ...

وإلى حين مصادقة مقيمٍ بانتام، فإني أعهد إليك إدارة مقاطعة ليباك بدءًا من صباحِ غدٍ.

مساعد المقيم في ليباك

ماكس هافلار

بعد ذلك، غادر هافلار رانْكَس بيتون مع زوجته وطفله. رفض أن يرافقه أحدٌ. تأثر دوكلاري وفيربروخه أيّما تأثرٍ بمشهد الوداع. وكذلك تأثر هافلار، ولاسيما حين وجد عند أول محطةٍ حشدًا كبيرًا من الناس قد تسلّلوا من رانْكَس بيتون للسلام عليه لآخرِ مرة.

في سيران ترجّلت الأسرة عند منزل سلايميرنگ، حيث استُقبِلوا بالضيافة المعتادة في الهند الشرقية.

في تلك الليلة كان لدى المقيم زوارٌ كثيرون. وقد أعربوا بأقصى ما استطاعوا من كلماتٍ أنهم جاؤوا للقاء هافلار، وقد كانت مصافحتهم لماكس بمنتهى الدلالة ...

لكن كان عليه أن يذهب إلى بَتافيا لِلقاء الحاكم العام ...

وعند وصوله هناك طلب مقابلةً مع الحاكم. لكن طلبه رُفِض لأن قَدَمَ فخامته مصابةٌ بِداحوسٍ.

انتظر هافلار إلى أن تحسَّن الداحوس. ثم طلب مقابلةً من جديد.

لكن صاحب الفخامة، «رفض أن يلتقي حتى بالمدير العام للمالية، بسبب ضغط العمل،» ولهذا ليس باستطاعته أن يرى هافلار أيضًا.

انتظر هافلار إلى أن أيقن أن صاحب الفخامة لا بد أن انتهى من كل أشغاله

المضنية. في هذه الأثناء شعر بشيءٍ يشبه الغيرة من الأشخاص الذين كانوا يساعدون فخامته في أشغاله. لأنه هو شخصيًا كان يحب العمل الجاد، وسرعان ما كانت هذه «الضغوط» تذوب بين يديه بلا استثناء. لكن هذا الأمر غير واردٍ الآن، بطبيعة الحال. كان شغل هافلار أقسى من الشغل. لقد كان ينتظر!

ظل ينتظر! وأخيرًا تقدم بطلبٍ آخر لمقابلة الحاكم. فتلقى جوابًا مفاده أن صاحب الفخامة لا يستطيع أنْ يستقبله، لأنه مشغولٌ جدًّا بالتحضيرات لمغادرته الوشيكة.

ألح هافلار في الطلب من صاحب الفخامة أن يتكرم عليه بلقاءٍ لنصفِ ساعةٍ، حالما أُتيحت له فسحةٌ صغيرةٌ من الزمن بين نوبتين من الانشغال.

وأخيرًا علم أن فخامته سيغادر في اليوم التالي!

نزل عليه هذا الخبرُ نزولَ الصاعقة. لقد استقتل في تَمَسُّكِه بقناعته أن نائب الملك رجلٌ نزيهٌ ... وأنه قد خُدِع. كانت ربع ساعةٍ تكفي ليبرهن هافلار على عدالة قضيته، لكن ما كان له إلا أن يُحرَم من ربع الساعة هذه.

وفي أوراق مِلَفِّه، أجد نسخةً من رسالةٍ يبدو أنه قد كتبها للحاكم العام المغادِر، قبل ليلةٍ من مغادرة ذلك المسؤول إلى وطنه الأم. وعلى هامشها أجد ملاحظةً خُطَّت بقلم الرصاص تقول «ليس بالضبط.» ومن هذه الملاحظة أستنتج أن هافلار لا بُدَّ قد غيَّر بعض الجُمَل أو العبارات في الرسالة كما أُرسِلت. وأنا ألفت الانتباه إلى هذا الأمر، لكي لا يُتَّخَذ عدمُ مطابقة هذا المستند حرفيًا للرسالة الفعلية، التي أُرْسِلت تَعِلَّةً للتشكيك بصدقية الأوراق الرسمية الأخرى التي استشهدتُ بها، والتي صادقتْ عليها جميعًا يدٌ أخرى بوصفها نسخًا حقيقيةً موثَّقة. لعل الذي وُجِّهت إليه الرسالة يرغب في نشر نصها كما ورده بالضبط. وعندئذٍ ستبيِّن المقارنة إلى أيِّ حدٍّ شطَّ هافلار عن مُسَوَّدة

رسالته. أما في جوهرها، فكانت الرسالة كما يلي:

بَتافيا، 23 أيّار 1856

إلى صاحب الفخامة!

إن طلبي الرسمي الذي تقدمتُ به في رسالتي المؤرخة في 28 شباط، بعقد لقاء بخصوص الأمور في ليباك لم يحظَ منكم برَدٍّ.

كما أن فخامتكم لم يَرُقْ لها أن تستجيب لمطالبي المتكررة اللاحقة للاستماع إليَّ.

وبهذا، يا صاحب الفخامة، قد صنَّفتم مسؤولًا لم تسمع عنه الحكومة إلا كل خير (هذه كلمات فخامتكم!) - مسؤولًا خدم الدولة في هذه البلاد سبعة عشر عامًا، مسؤولًا لم يرتكب خطأً واحدًا فحسب، بل جاهد، بتفانٍ لا سابقةَ له، أن يفعل ما هو صائب، وكان مستعدًا أن يغامر بكل شيء من أجل الشرف والواجب ... لقد وضعتم، يا صاحب الفخامة، هذا الرجل في مرتبةٍ أدنى من مرتبة المجرم، لأن المجرم على الأقل يُستَمع له.

أستطيع، يا صاحب الفخامة، أن أتفهم أنكم قد خُدِعتم بشأني. لكن لا أستطيع، يا صاحب الفخامة، أن أفهم لماذا لم تستغلوا الفرصة لكي لا تُخدَعوا.

غدًا، يا صاحب الفخامة، ستغادرون هذه البلاد، ولا أستطيع أن أدعكم تغادرونها من غير أن أقول لكم مرةً أخرى: إنني قمت بواجبي، واجبي كاملًا، ولا شيء سوى واجبي: بتعقُّلٍ، بانضباطٍ، بإنسانيةٍ، برفقٍ، وبشجاعةٍ.

إن الأسس التي أدنتموني بها في مذكرتكم المؤرخة في 23 آذار، يا صاحب الفخامة، زائفةٌ وكاذبةٌ من بدايتها إلى نهايتها.

وهذا شيءٌ يمكنني أن أبرهنه، وكان بإمكاني أن أفعل هذا بالفعل لو أنكم، يا صاحب الفخامة، تكرمتم بمنحي لقاءً من نصف ساعة. لو كان بإمكانكم، يا صاحب الفخامة، أن تخصصوا نصفَ ساعةٍ تُحِقُّون بها الحق!

لكن هذا لم يحدث! وبالنتيجة، قذفتم بأسرةٍ محترمةٍ إلى مَهاوي التَّسَوُّل.

لكن ليس هذا ما أشكو منه.

لقد أَجَزْتُم، يا صاحب الفخامة، نظامًا يُبيح سوء استخدام السلطة والسرقة والقتل، نظامًا يرزح تحت وطأته الجاويُّ الذليل، وهذا هو ما أشكو منه.

وهذه خطايا تستصرخ السماء!

يا صاحبَ السعادة، إن قطع الفضة التي ادَّخرتموها من الراتب، الذي اكتسبتموه بهذه الطريقة ملطخةٌ بالدماء!

مرةً أخرى أطلب أن تستمعوا إلي ولو إلى لحظةٍ واحدةٍ، سواءٌ في هذه الليلة أو في صباح الغد الباكر! ومرةً أخرى أيضًا، لا أطلب هذه لمصلحتي الشخصية، بل لأجل القضية التي أمثّلها، قضية العدالة والإنسانية، والتي هي في الآن ذاتِه قضية المصلحة الذاتية المستنيرة.

إن كان ضميركم، يا صاحب السعادة، يطاوعكم على المغادرة من غير أن تستمعوا إليَّ، فإن ضميري مرتاحٌ بقناعتي أنني فعلتُ ما بوسعي لمنع الأحداث المحزنة والدموية، التي ما تلبث أن تنشأ من الجهل الذي تختار الحكومة أن تبقى فيه، بخصوص ما يجري بين الأهالي.

ماكس هافلار

انتظر هافلار ذلك المساء. انتظر طوال الليل.

كان يأمل أن يحقق الغضبُ من لهجة رسالته ما عجز عن تحقيقه الإقناعُ والصبرُ. لكن أمله كان سُدى! غادر الحاكم العام من غير أن يستمع إلى هافلار. تقاعد صاحبُ فخامةٍ آخر للراحة في الوطن الأم!

هامَ هافلار هنا وهناك، فقيرًا ومهجورًا. راح يبحث عن ...

هذا يكفي، يا صاحبي شتيرن! أنا، مُلتاتولي، سأمسك بزمام القلم. ليس مطلوبًا منك أن تكتب قصة حياة هافلار. أنا الذي أوجدك ... وأنا من أتى بك من هامبورگ ... وأنا من علمك كيف تكتب بلغةٍ هولنديةٍ جيدةٍ نسبيًا في وقتٍ قصيرٍ جدًّا ... وأنا من سمح لك بأن تُقبِّل لُويز روزماير، أصحاب السكر ... هذا يكفي، يا شتيرن، بإمكانك أن تذهب!

أما عن شالمان هذا وزوجته ...

توقف، يا بِئس من أنجبه الرياءُ الكافرُ وحبُّ المالِ الدنيءُ! أنا من خلقك ... وقد تحولتَ إلى مسخٍ في ظلال قلمي ... إني أمقتُ صنيعَ يديَّ: اِشْرَقْ بالقهوة واختفِ!

أجل، أنا، مُلتاتولي «الذي تحمَّل كثيرًا،» أتولّى زمامَ القلم، ولستُ أعتذر على الشكل الذي اتخذه كتابي. فهذا الشكل بدا لي مناسبًا لتحقيق غايتي.

وهذه الغاية مزدوجة.

ففي المقام الأول، أردت أن أُجسِّد شيئًا يمكن أن يكون إرثًا عائليًا مقدسًا، پوساكا، يحتفظ به ماكس الصغير وأخته حين يكون أبواهما قد هلكا من الجوع.

أردت أن أعطي ذَيْنِك الطفلين شهادةَ نَبالةٍ كتبتُها بيدي.

وفي المقام الثاني، أريد أن أُقْرأ!

نعم، أريد أن أُقرأ! أريد أن يقرأني السياسيون الذين يجب عليهم مراقبة مؤشرات الزمن ... والمثقفون الذين «رغم كل شيء، يودّون أن يُلقوا نظرةً فقط» على الكتاب الذي يذمُّه الجميع ... والتجار المهتمون بمزادات القهوة ... وخادمات السيدات اللاتي سَيَسْتَعِرْنَني لقاء بضعة پِنسات ... والحكام العامون السابقون المتقاعدون ... والوزراء الحاليون ... وأزلام أصحاب الفخامة هؤلاء ... والوُعّاظ المُصلّون الذين سيقولون، كَدَأبِ أسلافنا، إنني أتطاول على الذات الإلهية بينما في الحقيقة أنا أثور على الصنم التافه الذي خلقوه على شاكلتهم هم ... والآلاف وعشرات الآلاف من شاكلة دروخستوپل الذين سيكونون - حتى وَهُم يواصلون تذمرهم بالطريقة المعهودة - الأعلى صوتًا في الانضمام إلى جوقة المُطَبِّلين «الجهال» كتاباتي ... وأعضاء مجلس النواب الذين ينبغي عليهم أن يعرفوا ما يجري في الإمبراطورية العظيمة التي تملكها مملكة هولندا وراء البحار!

أجل، سأُقرأ!

ولو نِلتُ مطلبي هذا، فإني إذَن لَسعيدُ! لم يكن قصدي أن أُزَوّق كتابتي ... بل كتبتُ بطريقةٍ لعلّي أُسمَع. وكما لا يكترث من ينادي «أوقِفوا ذلك اللص!» بأسلوب ندائه المرتَجَل للعامّة، كذلك أنام أنا مِلْءَ جفوني عمن ينتقد طريقتي التي ناديتُ بها «أوقِفوا ذلك اللص!»

«الكتاب فوضوي ... مفكّك الأوصال ... يسعى لتحقيق أثر ... الأسلوب رديء ... والكاتب تنقصه المهارة ... بلا موهبة ... بلا منهج...»

صحيح، صحيح ... كل هذا صحيح! لكن الجاوي تُساء معاملته!

ومضمون كتابي لا يُمكِن دحضُه!

علاوةً على ذلك، كلما علا ضجيجُ الإدانة لكتابي، تعاظم سروري لأنه بذلك ستتعاظم فُرَصُ أن أُسمَع. وهذا هو مُرادي!

لكن أنتم يا مَن أُزعِجُهم في غمرة «ضغوط العمل»، أو في «تقاعدكم» الهادئ - أيها الوزراء والحكام العامّون ... لو كنتُ مكانكم لَما راهنتُ كثيرًا على افتقار قلمي للمهارة. فبإمكانه، كما تعلمون، أن يتدرب، وبمجهود قليل يمكن أن يصبح مؤهلًا لحمل الشعب على تصديق الحقيقة! عندئذ ينبغي أن أطلب من ذلك الشعب أن يمنحني مقعدًا في مجلس الشعب، ولو فقط من أجل الاعتراض على شهادات النزاهة التي يقدمها خبراء الهند الشرقية بعضُهم لبعض - ربما لإيهام العالم أنهم هم أنفسهم يُقدِّرون تلك الخصلة ...

لغرض الاحتجاج على البطولات والحملات التي لا تنتهي، ضد المخلوقات المسكينة البائسة التي أول ما استجرَّها للتمرد هو سوء المعاملة ...

لغرض الاحتجاج على الجُبن المُخزي في المنشورات الدورية، التي تلطخ شرف الأمة باستجدائها صَدقاتِ العامة لضحايا القرصنة المزمنة!

أتفق معكم، فأولئك المتمردون هياكل عظمية جائعة، بينما القراصنة رجالٌ مُعافون في أبدانهم!

وإن حُرمتُ من ذلك المقعد في البرلمان ... إن واظب الناس على عدم تصديقي ...

عندئذٍ سأترجم كتابي إلى اللغات القليلة التي أعرفها، وإلى الكثيرة التي ما زال بإمكاني أن أتعلمها، لكي أطلب من أوربا ما عجزتُ عن العثور عليه في هولندا.

وفي كل العواصم ستُغَنَّى أغانٍ ذاتُ لازماتٍ كهذه: تقبع دولة للقراصنة في

البحر، بين سْخِلده وفريزيا الشرقية!

وإن لم ينجح هذا المسعى؟

عندئذٍ سأترجم كتابي إلى اللغات الملاوية والجاوية والسُّندانية والألفورسية والبوگـينية والبَتَكية ...

في قلوب المضطهدين المساكين الذين وعدتهم أنا، مُلتاتولي، بالعون سأقذف أغاني كليوان تشحذ فيهم رغبة الحرب.

الخلاص والعون، بالوسائل القانونية، إن أمكن ... وبوسائل القوة المشروعة، إن دعت الحاجة.

وهذا سيرتدُّ سلبًا على «مزادات القهوة في شركة التجارة الهولندية!»

فما أنا بشاعرٍ ينقذ ذُبابًا، ولا بحالمٍ مُتَهَوِّرٍ، مثل هافلار المسحوق الذي قام بواجبه بشجاعة أسدٍ، وها هو الآن يصبر على الجوع مثل مَرموطٍ في الشتاء.

وما هذا الكتاب إلا بدايةً ...

سأزداد أنا قوةً وأسلحتي حِدَّةً، حسبما تقتضي الضرورة ...

وأسأل الله ألا تكون هناك ضرورة!

لا! لن تكون هناك ضرورة! لأنني أُهدي كتابي إليك أنت، وِلْيَم الثالث، الملك والدوق الأعظم والأمير ... لا بل أكثر من الأمير والدوق الأعظم والملك ... أنت إمبراطور مملكة إنسولِندي الغَرّاء التي تلتف هناك حول خط الاستواء مثل حزام من الزُّمُرُّد ...

إني أتجرأ أن أسألك بكل ثقة، إن كانت إرادتك الإمبراطورية تقضي أن تتلطَّخ أسرةُ هافلار بِوَحْلِ أمثال سلايميرنگ ودروخستوپل؟ أو أن تُساء معاملة أكثر من ثلاثين مليون من رعاياك، ويُستَغلّوا باسمك؟

الهوامش

مؤ = ملاحظة المؤلف مُلتاتولي

مت = ملاحظة المترجم [الإنـگـليزي]

النص المعتَمد في هذه الترجمة [الإنـگـليزية] هو نص الطبعة التي صدرت عام 1875، والتي أُخِذ منها أيضًا التصدير الطويل. أما بقية ملاحظات مُلتاتولي فمأخوذةٌ من طبعة 1881، وهي آخر طبعة استطاع المؤلف أن ينقحها. وقد انتُقيت منتخباتٌ من هذه الملاحظات واختُصرت في المواضع المشار إليها بالأقواس المربعة.

مختصر تصدير مُلتاتولي لطبعة 1875

أنا من يقع عليه اللوم لتأخر ظهور هذه الطبعة، وليس ناشري النشط جدًّا. وقد لا تكون كلمة «لوم» هي المناسبة في هذا المقام؛ فاللوم يفترض الذنب، أنا أتساءل: إن كان هذا ينطبق على نُفوري الشديد. من الخوض من جديد في المأساة التي أثمرت هذا الكتاب، صفحةً بصفحة وكلمةً بكلمة وحرفًا بحرف. هذا الكتاب ... لا يرى فيه القارئ أكثر من ذلك. أما بالنسبة إليَّ فهذه الصفحات هي فصلٌ من سيرة حياتي ... وتصحيحها كان عذابًا لي، عذابًا طويلًا! ولطالما سقط القلم من يدي، ولطالما راحت عيناي تَسْبَحان. وأنا أقرأ ذلك الملخصَ الناقصَ المخففَ اللهجة ما جرى قبل عشرين عامًا في تلك البقعة المجهولة

سابقًا على الخريطة التي تُدعى ليباك. بل إني شعرت بتعاسةٍ أكبر حين تأمَّلتُ ما حدث منذ نشر هذا الكتاب «هافِلار» قبل خمسة عشر عامًا من الآن. ولطالما ألقيت بمُسَوَّدات الطباعة جانبًا، وحاولت أن أركز عَيْنَي عَقْلي على موضوعات أقل مأساويةً، من تلك التي استدعاها إلى الذهن كفاح هافلار العبثي. مضت أسابيع، وأحيانًا أشهر - يمكن لناشري أن يشهد على هذا - وأنا لا أجرؤ على النظر إلى هذه المسودات. لكنني بطريقةٍ أو بأخرى شققتُ طريقي في عملية التصحيح - التصحيح الذي استغرق من وقتي أكثر ما استغرقت كتابة الكتاب.

ففي شتاء 1859، حين كتبتُ كتابي «هافِلار» في بروكسل، تارةً في غرفةٍ صغيرةٍ بلا تدفئة، وتارةً على طاولةٍ قذرةٍ متهالكةٍ في حانةٍ بين مُعاقِري بيرةٍ ودودين، لكن لا تشغل بالَهم أمورُ الفن والأدب، ظننتُ أن بإمكاني أن أنجز شيئًا أو أحقق شيئًا. أمَدَّني الأملُ بالشجاعة، وهو من أكسبني الفصاحةَ بين الحين والحين. ما زلتُ أتذكر المزاج الذي أوحى إليَّ أن أكتب لأُخْبِرَها،[أ] «لقد انتهى كتابي، لقد انتهى كتابي! وقريبًا سينصلح كل شيء!» لقد كابدتُ - لا بل أضعتُ، واأسفاه! - أربع سنواتٍ طويلةً شاقةً وأنا أحاول، بلا دعاية أو ضجيج، والأهم من ذلك كله، بلا فضائح، أن أقوم بشيء لعلَّه يُحسِّن من الوضع الذي يرزح تحته الجاوِيّون. وقد أبى التعيس فان تْوِيست،[ب] الذي كان يمكن أن يكون حليفي الطبيعي لو وُجِدت فيه ذرةٌ من شرفٍ أو إحساسٍ بالمسؤولية، أن يحرك ساكنًا. لقد نُشرت الرسالة التي وجهتُها له عدة مرات، وهي تحتوي عمليًا على كل النقاط التي تشكل فحوى قضية هافلار. لم يُجب الرجل، ولا أبدى رغبةً في فعل ما يمكن لإصلاح الضرر الذي تسبب هو فيه. فأرغمَتْني أخيرًا لا مبالاتُه اللا أخلاقية على النشر - على اختيار مسلكٍ غير الذي سلكتُه حتى ذلك الحين. وأخيرًا أبانَ ليَ السخط كيف أنال ما بدا لي من قبلُ بعيدَ المنال: أن أُسْمَع لحظةً.

ما منعني إياه فان تْوِيست الكسول، أخذتُه بالقوة من الأمة: لقد قُرئت «ماكس هافِلار.» وأُنصِت ... إليَّ. للأسف، الاستماع شيءٌ، والقراءة شيءٌ آخر. قالوا لي إن الكتاب «رائع» وحبَّذا لو كان عندي حكايات جميلة أخرى مثله ...

لا شك أن الناس وجدوا في قراءته تسليةً، ولم يظنوا - أو تظاهروا أنهم لم يظنوا - أنني، وقد بلغتُ من العمر أوسطه، لم أتخلَّ عن مهنتي الواعدة بمستقبلٍ مشرقٍ من أجل التسلية. أنني لم أَرمِ إلى التسلية حين تَحَدَيْتُ احتمال تسميمي أنا وزوجتي الصادقة المخلصة وطفلنا العزيز. بلغتِ الوقاحة بالناس أن يقولوا لي إن «هافِلار» كتابٌ مُسَلٍّ. ومن بين هؤلاء المَدّاحين أناسٌ لو تعرضوا لأدنى خطر - لا أقول على حياتهم أو أبدانهم، بل على أصغر شيء في راحتهم - لَصَرخوا من الرعب. يبدو أن معظم قرائي يظنون أنني عرَّضت نفسي وأسرتي للفقر والإذلال والموت، لكي أوفر لهم مادةً ممتعةً يقرؤونها.

هذا الخطأ ... لكن لِنرفعِ الأقلامَ عن هذا الأمر. هناك شيءٌ واحد مؤكَّد: لم يخطر ببالي أن أمامي تقبع جوكرِسيدا[ج] قاسيةٌ إلى درجة ساذجة حين صحتُ مبتهجًا، «لقد انتهى كتابي، لقد انتهى كتابي!» إن قناعتي أنني قلت الحق، وأنني أنهيتُ ما انشغلت في كتابته، ونسياني لمدى تَعَوُّد جمهور القراء والمستمعين على النفاق والهراء والتناقض الدائم تقريبًا بين الأقوال والأفعال ... كل هذا أمدَّني سنة 1859 بما أحتاجه من أمل لكي يمكنني من التغلب على ألم كتابة «ماكس هافِلار.» أما اليوم، وبعد خمسة عشر عامًا، وبعد أن رأيتُ بأم عيني أن الأمة منحازةٌ لجانب فان تْويست وشركائه - أي، إلى جانب الاحتيال والسرقة والقتل - ومنحازةٌ ضدي، أي، ضد العدل والإنسانية والمصلحة الذاتية المستنيرة - الآن صار يشقُّ عليَّ أكثر من سنة 1859 أن أتعامل مع هذه الصفحات، وإن كادت المرارة المؤلمة، حتى في ذلك العهد، أن تتغلب عليَّ. ومهما وَدِدْتُ أن

أكتمها، إلا أنها كانت تنفلت مني هنا وهناك في ثنايا الكتاب. [...]

وعلاوةً على حزني بسبب فشل مساعِيَّ المتواصل أُضيف حزني على فَقْد من كانت لي سَنَدًا، بوقوفها البطولي في كفاحي ضد العالم، مَن لن تكون هنا حين تحين ساعةُ النصر أخيرًا.

ساعةُ النصر، أيها القارئ! أجل، لَأَنتصرنَّ، أنكرتَ ذلك عليَّ أم لم تُنكر! بالرغم من خِدع ومكائد أقزام الدولة الذين تَعْهَدُ إليهم هولندا أكثر اهتماماتها حيويةً. بالرغم من دستورنا الغبي الذي يُعلي من شأن الرداءة، بل ما هو أدهى وأمَر، يُعلي من شأن الموقف الذهني الذي يستبعد أي شيء، قد يوقف تآكل جسدنا السياسي المعروف للقاصي والداني. بالرغم من الكثيرين الذين لهم مصلحة في الظلم. بالرغم من الغَيرة الخسيسة من «موهبتي الكتابية» ... أليس هذا ما يسمونها؟ (أنا لستُ كاتبًا – صدقوني، أيها السادة المُخَربِشون، يا مَن تُصرّون على أن تروا فيَّ زميلًا ومنافسًا!) بالرغم من الافتراء الفظ الذي لا يتورع عن أي شيء فاحش أو تافه، ما دام يخدم قضية تكميم فمي وكسر نفوذي. وأخيرًا، بالرغم من تراخي الأمة المثيرِ للشفقة، الأمة التي تتسامح مع كل هذا ... لأنتصرنَّ!

وقد هبَّ الكُتّاب مؤخرًا لتقريعي بدعوى أنني لم أُنجِز شيئًا، أو لم أنجز ما يكفي، أو أنني لم أغيّر شيئًا، أو لم أغيّر ما يكفي، أو أنني لم أحقق شيئًا، أو لم أحقق ما يكفي. سيكون ما لدي أن أقوله في الحال عن مصدر هذه التقريعات. ففيما يخص النقطة ذاتها ... أعترف تمامًا أنه لا شيء تحسَّن في الهند الشرقية. لكن ... التغيير؟ ليس للأفراد الذين استفادوا من الضجة التي أحدثتها «ماكس هافِلار» ليرفعوا أنفسهم إلى السَّرج، أولًا بعد نشر الكتاب مباشرةً، ثم بفضل

نظامنا الدستوري المتأرجح البائس، شغلٌ سوى تغيير الأمور. لم يكن لديهم خيارٌ آخر، أليس كذلك؟ فاحترافهم للبهلوانية السياسية يتطلب ذلك. فحفنة السياسيين القليلة، غير المؤهلين تارةً، وغير النزيهين تارةً أخرى، الذين «سقطوا نحو الأعلى بسبب قلة الوزن» بعد 1860 أدركوا أنه لا بد من القيام بشيء ما، مع أنهم فضَّلوا ألا يفعلوا الشيء الصائب الذي لو فعلوه - أستطيع أن أرى مقصدهم في هذا - لارتقى إلى مستوى الانتحار. إنّ من شأن إنصاف الجاوي المُهان أن يرفع مكانته، وهذا يعني حكمًا بالموت على معظم سياسيينا. لكن كان لا بد من افتعال مسرحيةٍ من النشاط في اتجاهٍ جديدٍ، وحين «ارتعد» الشعب ساخطًا، كان لا بد أن تُرمى له مجموعة من العظام المتعاقبة، لا لإشباع نَهَمِهِم للإصلاح بل لإلهائهم، حتى لو بالثرثرة عن السياسة والاقتصاد المزعومين. وقد رمى رجال السلطة فُتاتًا لتجمعاتهم الحزبية ومُزوري الصحافة ولبقية مرتادي مقاهيهم، الواحد تلو الآخر - وهذه سياسة أطلقتُ عليها الاسم التعريفي داوتِنپـلاتَري.[+] ظلت حرية العمل، لعدد من السنين، حتى قبل «هافِلار،» الوجبة الأساسية على قائمة الطعام العالية الخطورة. ومن باب التغيير، طرح السادة على ضيوفهم الغافلين أسئلة مفتعلة عن العُملة في الهند الشرقية. ثم تلت ذلك مسألة تسجيل الأراضي، ومسألة الـپـريانـگـر، ومسألة علاوة محصول المَزارع، ومسألة المحاسَبة، ومسألة القانون الزراعي، ومسألة الملكية الخاصة للأراضي، وبضع مسائل أخرى من هذا القبيل. تعاقبت القوانين الواحد تلو الآخر، وقد نجح المسؤولون - لا فرق بين محافظ أو لِبرالي - كل مرةٍ في خداع الناس، وجعلوهم يعتقدون أن الحل الوحيد الممكن للصعوبة المعروفة للقاصي والداني يكمن في الواقع والحقيقة، وكليةً في آخر علاجٍ مُقتَرَح. صاحوا بكل أمانةٍ إن هذا العلاج سينجح!

وهكذا أُتْبِعت كل تجربة لا مصداقية لها بتجربةٍ جديدةٍ. وبعد كل وصفةِ دَجالٍ مستهلَكةٍ، وُصِفت وصفةُ دجالٍ جديدةٌ. ومع كل وزارةٍ جديدةٍ، ترياقٌ جديدٌ. ولكل ترياقٍ جديدٍ، وزراء جدد، وهؤلاء مصيرهم أن يُثقِلوا كاهلَ قائمة المعاش المرهقة أصلًا لسنواتٍ أكثر مما أرهقوا عرش المنصب لأشهر. بينما النواب في المجلس التشريعي يتبارون في الخطابة، والتجمعات الحزبية إما تضحك أو تبكي، بينما الشعب يُنصت! لقد جُرِّبت كل البدع، واختُبرت وتُجُنِّبَت وطُبِّقت. في الهند الشرقية، داخ الزعماء والمسؤولون الأوربيون، والأهالي قبل كل شيء، من كثرة التغيرات المتتالية ... ولا شيء تغيَّر بعد «هافِلار»؟ بسبب «هافِلار»؟ دَعْكَ من هذا! بعد ذاك الكتاب وبسببه، عانت الهند الشرقية من ذات المصير الذي لقيته ساعة پَـنـچ. قال أحدهم لهذا الفيلسوف إن أجزاءها متسخة، ولذلك لم تكن تعمل بشكل صحيح. فما كان منه إلا أن رماها في القناة ونظَّفها بمكنسة الإسطبل. ووفقًا لرواية أخرى من مسرح لاهاي للدُّمى داس سياسيُّنا عليها بكعب حذائه الخشبي. وبإمكاني أن أؤكد للقارئ أن تلك الساعة تغيرت كثيرًا بالفعل!

لكن هولندا اختارت ألا تُنصف هافلار في قضيته. ومن المؤكد أن هذا الإهمال - هذه الجريمة! - ستكون بداية خسارة هولندا لممتلكاتها في الهند الشرقية. كل من يشكك في هذه النبوءة اليوم، لأن العلم الهولندي ما زال يرفرف في بَتافيا، أي بعد خمسة عشر عامًا فقط من العمل الذي أقدمتُ عليه على مضض، يكشف عن ضيق رؤيته السياسية. هل تظنون أن الاضطرابات التي تنتظر إسولِندي، والتي قد بدأت بالفعل - ألا ترونها، أيها الهولنديون؟ - يمكن أن تحدث في ذات الفترة الزمنية مثل حادثة شائعة في حياة خاصة؟ في حياة الدول، تمثل خمسة عشر عامًا أقل من لحظة.

لكن الكارثة ستكتمل بصورةٍ سريعةٍ نسبيًا. فالحرب الطائشة مع آچـن كانت واحدة من آخر المسرحيات المفتعلة التي احتاجها أحد الوزراء لصرف الأنظار عن قلة كفاءته، وسيتبين أنها كارثية في نتيجتها وتأثيرها كما كانت طائشةً وإجراميةً في تخطيطها. إن سلطة هولندا المتزعزعة ليست محصَّنة من هذه النكسات التي نكابدها هناك. لكن حتى قبل ظهور النتائج البعيدة التي لا بد أن تنجم عن هذا الغباء ... أين توجد، في هذه الحال، مسؤولية الوزراء التي أفرطوا في التطبيل والتزمير لها؟ هل ينبغي على الأمة أن تستسلم لأن نكِرةً يُدعى فرانسِن فان ده پـوتَه ارتأى أن يورطها في وضع يكلِّفها ملايين كثيرةً من الأموال والكثير من الأنْفُس - ناهيك بالخسارة المخزية لمكانتها في أرخبيل الملايو؟ بالطبع، ينبغي عليها! فاسمُ ذلك الرجل أيضًا على قائمة المعاش! يبدو أن دافع الضرائب الهولندي لديه مالٌ كثيرٌ، لا يعرف ماذا يفعل به.

أما فيما يتعلق بالحرب مع آچـن، فسأضطر للعودة إليها بين الحين والآخر في الحواشي على «هافِلار.» لكن قبل أن أسترسل أكثر من هذا، أود أن أذكر في هذا السياق، أيضًا، أنني لاحظت مدى استهتار الناس الذين قرؤوا كتابي. ليس عندي أدنى دليل على أن أحدًا ربط الحرب الحالية، وتَنَبُّؤي بها في مكان آخر، بمحتويات الفصل 13. ونظرًا للانتشار الواسع لكتاب «هافِلار،» فمن الغريب حقًّا أنه حين ظهرت رسالتي للملك في أيلول 1872، وأُعلِنت الحربُ على آچـن في الربيع التالي، قلةٌ هي التي تذكرت أنني أشرتُ إلى علاقاتنا المتوترة مع تلك الولاية سنة 1860، وبرهنتُ أنني أعرف هذه الأمور أكثر من صحفيينا الفاشلين وأعضاء برلماننا. لو أن الناس تذكروا، لَآتى تحذيري السليمُ النيةِ في أيلول 1870 أُكُلًا أفضل. ما زال جوپِـتَر العتيد يصنع مِن الملوك والأمم من يرغب في تدميرهم وهم عُميٌ وصُمٌّ ومجانين ومحافظون ... ولِبراليون، لا

فرق. إن القضية الأساسية ما زالت وستبقى: أن نبحث عن الحقيقة، وأن ندرك أهميتها، وفوق كل شيء، أن نتصرف بمقتضى المعلومات التي يمكن الركون إلى صحتها. وكل ما سوى ذلك خاطئ، وستخسر هولندا الهند الشرقية، لأنني لم أُنْصَف في مساعيَّ لحماية الجاويين من سوء المعاملة.

ما زال هناك أناسٌ لا يستطيعون أن يستوعبوا العلاقة بين هذين الأمرين. لكن هل هذا ذنبي؟ إن التستُّر على الشكاوى التي تقدمتُ بها يساوي حماية الكذب والتشجيع عليه. هل من المتعذَّر حقًّا فَهْمُ أن هذه الممتلكات المترامية الأطراف لا يمكن، في نهاية المطاف، إدارتها حين تأبى السلطات الحاكمة أن تستمع إلا إلى التقارير الزائفة عن البلاد والأهالي؟ من المؤكد أنه لكي ينظِّم المسؤولون شيئًا أو يديرونه أو يحكمونه، لا بد لهم أن يعرفوا حقيقة الوضع للأمور المعنية. وما داموا يتجاهلون المعلومات الواردة في «هافِلار،» فلن يعرفوا.

هناك أمرٌ آخر. يبدو من ذلك الكتاب أن القوانين القائمة لا تُطبَّق. إذن، بِرَبِّكم، ما نفعُ التصرف، في لاهاي وأثناء الانتخابات، وكأن هناك فائدةً من سَنِّ قوانين جديدة؟ أنا أزعم أن القوانين القديمة، عمومًا، ليست بذلك السوء. لكن الناس يتجاهلون تطبيقها بمحض إرادتهم. وهنا لبُّ القضية. هنا وليس في الخُطَب التي لا تنتهي عن موضوعات ذات أهمية سياسية مفترضة أو ملفقة، وهي بلا شكٍ مهاترات توفر لمُخَرْبِشي الصحف مادةً لمقالاتهم الرئيسة، وتُبقي الوزراء في مناصبهم أسبوعًا آخر، وتستحوذ على مواهب المحاكاة العقيمة تمامًا لدى فلاسفة مجلس النواب، لكنها لا تُقَرِّبنا خطوةً واحدةً من هدفنا الحقيقي، ألا وهو حماية الجاويين من جشع زعمائهم، بالتواطؤ مع إدارة هولندية فاسدة.

أما فيما يتعلق بهذه الطبعة الجديدة [...] فقد استبدلتُ طبعًا بالأحرف

المُضرّة التي ارتأى السيد فان لِنِـپ أن يُفسِد بها عملي (على سبيل المثال، ﺑ ... ك ... ن بدلًا من پـاران كوجان) كلماتٍ حقيقيةً. لكني لم أغيِّر الأسماء المستعارة مثل سلايميرنگ، فيربروخه، دوكلاري، وسلوتيرِنـگ، لأن هذه الأسماء باتت مُلكًا مَشاعًا. كان سَلَفي الذي اغتيل اسمُه كارولوس. الاسم الحقيقي لكل من المراقب فيربروخه والكومندانت دوكلاري هو: فان هيمَرت وكولار. مقيم بانتام كان اسمه برِست فان كِمپِن، وناپُـليون التافه في پـادَن هو الجنرال ميخيلِس. قد تتساءلون: ما الذي دفعني لتغيير هذه الأسماء التي وضعتُها في عهدة السيد فان لِنِـپ؟ سأكتفي بالإشارة إلى نهاية الفصل 19 وأقول إنني أردتُ أن أحمي المراقب النزيه، وإن لم يكن بطلًا، من الأذى. لعلّه لم يساندني، ولكنه أيضًا لم يعارضني، بل إنه زودني ببياناتٍ صريحةٍ حين طلبتُها منه. وكان هذا شيئًا كثيرًا بحد ذاته، وكان يمكن أن يكلفه غاليًا. وعوْدًا على بَدء، كان اسم سلايميرنگ بمثابة تجسيد للنموذج الذي أردته. وأخيرًا، جاء تغيير اسمَي كارولوس وكولار إلى سلوتيرنـگ ودوكلاري تلقائيًا من التغييرات الأخرى. ومن المؤكد أنني لم أَرْمِ إلى التَكَتُّم - كما يتضح، إن وصل الأمر إلى هذا الحد، من فحوى كتابي - لكني لم أجد من اللائق أن أُعَرِّض بعض الأشخاص للنقد من قِبَل عامة القراء. لقد وضعتُ في الحسبان أن الناس على المستوى الرسمي - والمسألة تعنيهم هم - سيعرفون بابَ مَن يطرقون للاطلاع على الحقائق التي كشفتُها. وقد عرفوا، إذ إنه بعد أن وصلت «هافِلار» إلى الهند الشرقية، ذهب الجنرال پـاهوت على وجه السرعة إلى ليباك «للتحقيق في الشكاوى عن الانتهاكات هناك.» [...]

[أ]. زوجته تينا، الشخصية الروائية في «ماكس هافِلار.» مت.

[ب]. الحاكم العام للهند الشرقية الهولندية في زمن الأحداث التي تُروى في «ماكس هافِلار.» مت.

[ج]. مشتقة من الاسم Jocrisse، وهو نمط من شخصيات الكوميديا الفرنسية في القرن السادس عشر، وهو إما خادم غبي أخرق، أو زوجٌ تُسيِّره زوجته، ويقوم بأعمال المنزل. مت.

[د]. نسبةً إلى عملةٍ جديدةٍ للهند الشرقية أعدت لها الحكومة صورًا platen للعملة الجديدة duiten. وقد رأى مُلتاتولي صور العملة هذه بمثابة خِدعةٍ لصرف الأنظار عن القضية الأساسية. مت.

الحواشي

1. (مت): هذا الإهداء إلى زوجة مُلتاتولي الأولى التي وردت في «ماكس هافِلار» باسم تينا.
2. (مت): لعل هذه القطعة التي كتبها مُلتاتولي هي كل ما بقي من «المسرحية غير المنشورة» التي يُفتَرَض أنها أُخِذت منها. وقد صارت عبارة Barbertie moet hangen (باربَرتي يجب أن تُشْنَق) الآن مَضرب المثل في الهولندية لتصف كبشَ فداءٍ معينًا لا بد أن يعاني مهما كان الثمن. وكما في حالات أخرى، (فرانكشتاين، على سبيل المثال)، هذه العبارة غير صحيحة. فالذي يجب أن يُشنَق هو لوتاريو، وليس باربَرتي. «باربَرتي يجب أن تُشْنَق» توازي جملة «لا يُهُمُّ، سيُحرَق اليهودي!» - وهو الجواب الذي لا يحيد عنه بطريرك القدس ردًّا على كل مناشدات الاسترحام لِناتان الوَرِع في مسرحية لِسِنگ «ناتان الحكيم» وإلى هذا مَرَدُّ الإشارة إلى «حُكْمِه!»
3. (مؤ): قسَّم السيد فان لِنِپ الكتاب إلى فصول. لم أكن كاتبًا محترفًا بما يكفي، ولاسيما في سنة 1860، لأُضفي شيئًا من النظام على محاججتي، وما زلت أعتقد أن هذا التقسيم يمكن الاستغناء عنه من غير أن يُضِرَّ بالكتاب من وجهة نظرٍ أدبيةٍ.

تبادل الأدوار المفاجئ بين دروخستوپل وشتيرن فيه شيء من الطَّعم اللاذع الذي يمنع القارئ من النوم أو ... الاستيقاظ. لكن التجربة

علمتني أن ترقيم الفصول يُسهِّل البحث عن نصوصٍ معينةٍ، لذلك تركتُ الأمور على ما هي.

4. (مت): لاورير خراخت = حرفيًا «قناة نَبات الغار.»

5. (مت): هيرونيموس فان أَلْفَن (1746-1803) كتب ثلاثة مجلدات صغيرة من «قصائد قليلة للأطفال،» وهي شبيهة بتلك التي كتبتها بالإنـگـليزية آن وجين تيلَر تحت عنوان «قصائد أصلية للعقول الطفولية،» والتي كانت شديدة الرواج في عصرها.

6. (مت): باتَفير سترات = شارع باتَفير، نسبةً إلى البَتافي، سكان هولندا في زمن الرومان (والمفرد منها «بَتافوس» كما في اسم دروخستوپل).

7. (مت): الجمعية الملكية الهولندية لعلوم الحيوان (ناتورا آرتِس ماجِسترا) التي تأسست سنة 1838؛ وكذلك حدائق الحيوان التي أسستها في أمستردام.

8. (مت): قرية جميلة غير بعيدة من أُوترِخت، فيها بيوت ريفية وفِلَل كثيرة، وهي المكان المفضل للمتقاعدين الموسرين.

9. (مؤ): لعل الـپـولشي كوفيهاوس (المقهى الـپـولندي) كان وما زال مقهى مزدحمًا جدًّا في شارع كالفِر سترات في أمستردام، وهو الملتقى المفضل لنمط معين من رجال الأعمال الذين لهم علاقة ببورصة الأسهم والمنتجات الزراعية.

10. (مت): هذا واحد من الأسماء التي صاغها مُلتاتولي على نمط الأسماء الدِكِنزية التي تفقد نكهتها في الترجمة. يشير اسم بَتافوس إلى البَتافي، وهي القبيلة الهمجية التي استوطنت هولندا في بداية العهد المسيحي، كما يوحي بعدة أشياء: الفضائل القديمة، الفطرة السليمة التي يمتاز بها

الفلاحون الأشداء، ضيق أفق التفكير، النزعة المادية الفجة، البلاهة المطلقة، اللامبالاة تجاه مشكلات الحياة، إلخ. الاسم دروخستوپل يعني إما «صاحب اللحية الخفيفة الجافة» أو «المتحدث أو الكاتب المتحذلق.»

11. (مت): مطلع ملحمة الإلياذة لهوميروس، ومعناها «غنّي غضبًا، أيتها الربّة!»

12. (مت): هذه العبارة مقتبسة من الباب الثاني لكتاب «التاريخ» لهيرودوت.

13. (مت): ظلت جميع نساء الطبقتين العاملة والمتوسطة الدنيا في هولندا إلى وقت قريب جدًّا تُنادى بلقب «يوفراو»، أي، آنسة، سواء أكانت عزباء أو متزوجة. أما لقب «مِفراو» فقد كان حِكْرًا على المتزوجات من الطبقات الأعلى.

14. (مت): هذه إشارة إلى مسرحية «دون كيخوته في زفاف كاماچـو» لـپـيتر لانـگـندايك (1683–1756). في مستهل الفصل الثاني، يصف الشاعر المحترف الأستاذ يوخِم نفسه بقوله، «أنظم الشعر وأنا نائم، وأنظم الشعر وأنا آكل، بل حتى وأنا في المرحاض أفكر في روندیلاتي» [*الروندل قصيدة مؤلفة من ثلاثة مقاطع، في كل مقطع ثلاثة أبيات، وتعتمد على القافية المتناوبة (أ، ب، أ، ب، وهكذا)، ويشكِّل مطلعُها خَرْجةً تتكرر في نهاية المقطعين الأول والثالث*].

15. (مت): «الشركة التجارية الهولندية المحدودة» التي تأسست سنة 1825 في أمستردام إلى حد كبير بطلب من وِلْيَم الأول، ملك هولندا. كانت في البداية مؤسسة استيراد وتصدير، ولاسيما لمصالح الممتلكات الهولندية وراء البحار، مع تركيز خاص على منتجات الهند الشرقية، ولكنها اليوم

شركة مصرفية بالدرجة الأولى.

16. (مؤ): لا أختلف كثيرًا مع كل شيء وضعتُه على لسان دروخستوپل. فهو «عادةً لا علاقة له» بالأشعار من هذا النوع التي تتبع هنا. ولا أنا، على أية حال! ويكمن الفرق في الأسباب التي تدفع كلًّا منا إلى مَقْتِ هذه الأشعار. لا مندوحةَ أن فشل قلبٌ شابٌّ يتحرَّق شوقًا للشعر، ويسحره أدبٌ مغرورٌ لا حِرفةَ فيه ولا يستحق اسمه، في محاولاته الأولى للتعبير عن ذاته ويتوهَّم شيئًا يتبين له في نهاية المطاف أنه لا شيء سوى ضجيجٍ فارغٍ - سمَّيتُها «طنطنة لفظية» في خاتمة مسرحيتي «العروس في الأعلى» - بل هذه محاولة ضرورية لا مراء فيها. لا بدّ له من المرور بهذه المرحلة. فالسنديانة المقدَّر لها أن تنتج خشبًا سليمًا جافًّا لا بدّ لها أن تبتدئ حياتها وهي شتلةٌ خضراء. لكن أمثال دروخستوپل لم يكن عندهم من النُّسُغ ما يكفي في المقام الأول، ولم يكونوا بحاجة إلى التغيير ليصبحوا على طبيعتهم: جافٌّ وعديم النفع. فهم ليسوا أسمى، بل أدنى، من أن يقترفوا أخطاء الآخرين، كما أنهم مستعدون لإعلاء قيمة «الأشعار وما شابهها» بسرعةٍ لو وُضعت هذه المنتجات التافهة على قائمة البورصة.

لو كان من شأن آراء دروخستوپل المنهمرة كالسيل أن تقلل من أهمية الشعر الزائف في عقول الشباب، لأوصيتُ بها الآباء والمدرسين والنقاد بكل سرور. من ناحيتي، لو اضطررت للاختيار بينه وبين نَظّامٍ آخر، لَما اخترتُه! لكني أعترف أنني أجد حكمي عليه قاسيًا.

17. (مت): شيءٌ من كل شيء، لا شيء في الكل.

18. (مت): أمورٌ كثيرة، لكن الأمر ليس بالكثير.

19. (مت): Horror vacui («الطبيعة تمقت الفراغ») هو التفسير القديم

لامتلاء الأنابيب المفرغة من الهواء بالسائل الذي توضَع فيه (في الحقيقة، هذا عائدٌ للضغط الجوي).

20. (مت): حاول فِلـيـچـي أورسيني أن يقتل ناپـليون الثالث سنة 1858، بإلقاء ثلاث قنابل عليه، وهو ذاهب في عربته إلى المسرح.

21. (مت): هذا الاسم نَحَتَه مُلتاتولي للهند الشرقية الهولندية سابقًا من كلمتين: (إنسولا = جزيرة، وإندي = الهند).

22. (مت): حق المالك الأول.

23. (مت): Jus talionis = حق الثأر («العين بالعين ..».). في حاشية على طبعة 1875، يورد مُلتاتولي القصيدة التي يشير إليها هنا - وفيها تَعَطُّشٌ للدماء يُزعَم أنها من تأليف زعيم جاويٍّ متمردٍ، يتنبأ فيها بنهاية الحكم الهولندي في الهند الشرقية، وبالانتقام الذي ينتظر الهولنديين.

24. (مت): Gaafzuiger [*تُلفَظ خافْ زاوخر*] تعني حرفيًا مَصّاص الموهبة، أي مُسْتَغِل.

25. (مت): كان فان سـپـايك، وهو ملازم في البحرية الهولندية، بطلًا في الحرب القصيرة بين بلجيكا وهولندا التي انتهت باستقلال بلجيكا.

26. (مت): انظر الحاشية 13.

27. (مت): بُدئ العمل في كاتدرائية كولونيا سنة 1248 لكنه توقف سنة 1509، مع بداية الإصلاح الديني الذي يُعلّل به مُلتاتولي سبب توقف العمل فيها. ولا يُعرَف على وجه اليقين إن كان المهندس المعماري إرڤِـن فون شتاينباخ (توفي سنة 1318) له علاقة بها.

استُؤنِف العمل سنة 1842، واكتمل بناء الكاتدرائية أخيرًا سنة 1880.

28. (مؤ): رادِن أديـپـاتّي كارتا ناتا نيـگـارا. الكلمات الثلاث الأخيرة هي

الاسم، والاثنتان الأوليان هما لقبه. ومن البدهي أن ترجمة مثل هذا اللقب بدقة في غاية الصعوبة. إلا أن فالانتاين العتيد حاول أن يفعل هذا في أعماله عن الهند الشرقية، حيث يتحدث عن ألقاب الدوق والكونت. وهذا أمر يستغربه كل من يعرف الزعماء المحليين.

وبعد الألقاب المتنوعة لأولئك الحكام الذين يتمتعون باستقلال نسبي، يأتي لقب پَنـگـيران أعلاها مرتبةً. هذا اللقب يقابله لقب أمير، وهي ترجمة دقيقة إلى حدٍّ ما، لأنه قائم على صلة القربى مع واحدة من الأسْرَتَين الحاكمتين: سولو (سوراكارتا) وجوكجا (جوكجاكارتا)، مع أنني أعتقد أن هناك استثناءات، لكنها لا تعنينا في هذا المقام. بعد ذلك يأتي لقب أديـپـاتّي، أو، رادِن أديـپـاتّي، كاملًا. يشير لقب رادِن وحده إلى مرتبةٍ أدنى، لكنها تظل أعلى من مرتبة عامة الناس. أما مرتبة التُّمونـگـن فهي أدنى إلى حدٍّ ما من مرتبة الأديـپـاتّي. [...]

29. (مؤ): أنواع من حقول الأرز، تتمايز فيما بينها وفقًا لموقعها ونمط سقايتها، ولاسيما فيما يخص إمكانية ريِّها بالماء أو عدمها. يُسقى السواه صناعيًا، بينما الـگـاگـه والتيـپـار فيعتمد سَقْيُهما بشكل مباشر على ماء المطر.

30. (مؤ): أرز بقشره.

31. (مؤ): قرية. كما تُسمى في أماكن أخرى نِـگـري أو كامـپـون أيضًا.

32. (مؤ): الألُون ألُون فضاء شاسع مفتوح أمام مجموعة من المباني تشكل مسكن المتصرف. وعادةً ما توجد شجرتا وارنـگِـن بارزتان في هذه الساحة، ويدل عمر هاتين الشجرتين على وجودهما من قبل الألُون ألُون وأن مسكن المتصرف قد بُني قربهما، وربما لكي يكون قربهما. [...]

33. (مؤ): مسؤول من الأهالي تقارب وظيفته وظيفة المشرف.

34. (مت): مُلتاتولي هو من كتب أصلًا «زوجة بلوبيرد»، لكن المحرر فان لِنِــب غيَّرها إلى «أخت السيدة بلوبيرد» وظل الخطأ بلا تصحيح في كل الطبعات المنشورة لكتاب «ماكس هافِلار.»

35. (مت): انظر الحاشية 98.

36. (مت): نوع من العَمامات.

37. (مت): مكونات مُضْغَةِ التنبول.

38. (مت): غزال متوسط الحجم.

39. (مؤ): أَمْسِك حصان الكومندانت!

40. (مؤ): Ini apa tuan-tuan datang = ها قد وصل السادة! التودون قبعة مجدولة من القش يعتمرها الجاوِيّون، ولها شكل طبقٍ كبيرٍ مستديرٍ. وهي لا تحميهم فقط من الشمس، بل من المطر أيضًا الذي يخافون منه خوفًا مضحكًا. وقد شاع مؤخرًا بين السيدات الهولنديات نوع من القبعات التي يلبسنها للحدائق، وتشبه التودون تمامًا.

41. (مؤ): زهرة صغيرة بيضاء ذات عطر قوي شبيه بالياسمين. ولها في قصصهم الشعرية وأساطيرهم مكانة عظيمة، تشبه مكانة الوردة عندنا تمامًا.

42. (مؤ): عقصة شعر في مؤخرة الرأس لا تُربَط بشريط أو خيط منفصل، بل تتدلى من عقدةٍ في الشعر ذاته. وإذا كانت عُقدة الشِنْيون مؤلفةً حصرًا من الشَّعر المستعار، فإن القُندة ليست عقدة شِنْيون.

43. (مت): روايات روبِنسن كروزو. أنتجت رواية دانْيِل ديفو الشهيرة العشرات من الروايات التي تحاكيها في كل أنحاء أوربا، بما في ذلك

هولندا. أمضى الشاعر الإيطالي سِلـڤـيو پِـلّيكو (1787-1854) سنوات في السجون النمساوية بسبب مبادئه القومية. وقد كان كتابه «سجوني» الذي يصف فيه تجاربه أكثر الكتب مبيعًا على مستوى العالم، كما كان أيضًا كتابُ «پِيـچـيولا» لصاحبه سانتين (بونيفاس گـزاڤـييه، 1795-1865)، وهي حكاية أسيرٍ يقاوم موت روحه من خلال الاعتناء بزهرة.

44. (مؤ): الـپـايون الذهبية. وفقًا للعُرف الجاوي، يُشار إلى مرتبة الزعيم بلون المظلة التي تُحمَل وراءه. وهذا اللون تحدده الأنظمة الرسمية؛ والـپـايون المذهَّبة السادة مخصصة حصرًا لأسمى الزعماء مرتبةً.

45. (مت): محَفّة.

46. (مؤ): الهاربون في چـيكاندي وبولان. من يقوم بالعمل الأكبر في الإقطاعيات الخاصة في منطقتي بَتافيا وباوتِنزورخ هم الهاربون من ليباك. سمعتُ أحد ملّاك الأراضي يقول، «حين لا يُرهَق الناسُ في ليباك، تنقصنا الأيدي العاملة.»

47. (مت): الموز.

48. (مؤ): لم يكن أهل البلاد يميزون بين البيض، فهم جميعًا هولنديون، وإن اختلفت تسمياتهم: أوران هولّندا، وولاندا، بِلاندا. أما في التجمعات السكانية الكبرى، فهناك استثناء لهذه القاعدة، إذ تسمعهم يتحدثون عن أوران إنْـگـريس أو أوران پـرانـچـيس، أي الإنـگـليز والفرنسيين. ويُدعى الألماني أحيانًا أوران هولَّندا گـونـگـي، أي هولندي جَبلي، أو هولندي من الداخل.

49. (مؤ): الزعماء المحليون. يكون الـپـاتِه بمثابة سكرتير ورسول وخادم لدى المتصرف. أما الكْلِيوُون فهو الوسيط بين الإدارة وشيوخ القرى.

وهو عادةً يُشرف على الأشغال البلدية العامة، ونشر الحراس، وتنظيم أعمال السُّخرة، إلخ. أما الجَكسا فهو النائب العام، وهو المسؤول عن الشرطة.

50. (مؤ): الـگـون هو صَنّاجةٌ معدنية ثقيلة تُعَلَّق بحبلٍ. أما الـگَـميلان فَيُعزَف عليه كما يُعزَف على الهارمونيكا الزجاجية، أو آلة «الخشب والقَصَب» الشهيرة. في هذه النقطة من النص، كان بإمكاني أن أذكر آلة الأنـگـلون، وهي عبارة عن صفائح متشابكة تتمدد على حبالٍ مشدودةٍ. ومن الجدير ذِكْره أن كل واحدٍ من هذه الأسماء هو محاكاة صوتية لمعناه. يُصدِر الـگـون صوتًا عميقًا وقويًا، بينما صوت الأنـگـلون والـگَـميلان عذبٌ رقيقٌ، لكنه حزينٌ جدًّا.

51. (مت): اسم سفينة حربية فرنسية.

52. (مؤ): نوع من المَعاوِل.

53. (مت): فيضانات، طوفان.

54. (مؤ): الكْرِس هو السلاح الجاوي التقليدي، ولذلك فهو جزء مكمل للباس الكامل، كما كان السيف عندنا. وهو خنجرٌ مُسَطَّح له نصلٌ أفعواني الشكل ومِقبَضٌ صغيرٌ جدًّا. تصنع هذه الخناجر عادةً من قطعةٍ واحدةٍ من فولاذٍ رقيقٍ مطروقٍ - أي أنه، مُطَعَّم بأسلاك؟ - ويُقسّى بحوافر الجاموس. يُصان الخنجر من الغبار بفركه بنوعٍ من أنواع الليمون يُسمّى جيروك وبالزرنيخ، وهذا يُضفي على المعدن لونًا باهتًا غريبًا. وهناك خرافةٌ مفادها أن من يرغب في النظر إلى الكْرِس فعليه أن يستله كاملًا من غِمدِه، وإن لم يُخرِجه كاملًا فإنه مُعرَّضٌ لمصيبةٍ عظيمةٍ. وهناك العديد من الحكايات المتداولة عن الخناجر السحرية، إلخ.

(مت): طْليوان = سيف قصير عريض عند نهايته، ويمكن أن يُستخدَم أيضًا بمثابة سكين للتقطيع.

55. (مؤ): مانيسان = حلويات وفواكه مُسَكَّرة. وعادةُ تناولِ الحلويات مع الشاي في الهند الشرقية ذات منشأ صيني.

56. (مؤ): المعذرة.

57. (مت): سيدٌ شاب.

58. (مؤ): الجيات هي رسائل أو أشياء أخرى تنزل من السماء لتشهد للمتعصبين والدجّالين بالكفاءة.

59. (مت): گـارِم گـلاپ = ملح مصنوع بطريقة غير شرعية، حيث كان الملح حينها احتكارًا حكوميًا.

60. (مت): anspruch(s)los(e) = كلمة ألمانية تعني غير متكلفة، غير متصنعة، متواضعة، إلخ.

61. (مت): أبراهام بلانكارت هو خال ساره بورخرهارت والوصيُّ عليها، وهي بطلة رواية هولندية تحمل اسمها، من تأليف إليزابِت وولف وَأخاتا ديكن، وقد نُشرت سنة 1782. «ساره بورخرهارت» قصة على هيئة رسائل على نمط روايات سامْيُوِل رِچّـردسِن، وقد لاقت نجاحًا عظيمًا.

62. (مت): Omne tulit punctum qui miscuit utile dulci = أفلح مَن مزج النافع بالممتع (المقصود، في هذه الحال، ... «القهوة بشيء آخر!»)

63. (مت): في البيوت الهولندية يتكون محور البيت عادةً من غرفتين تُستخدَمان، على سبيل المثال، كصالة صباحية وصالة استقبال، أو صالة طعام وصالة استقبال، تفصلهما عادةً أبواب زجاجية متحركة.

وكان امتلاك «جناح» يُعَدُّ ذروة الأُبَّهة البُرجوازية. وفي هذه المناسبة، كان شتيرن يجلس مع ماري في إحدى صالَتي الجناح، بينما دروخستوپل يجلس في صالة تُفتَح على الجناح.

64. (مؤ): خيار صغير مُخلَّل.

65. (مؤ): Miss Mata Api = الآنسة عينُ النار.

66. (مؤ): كانت آرل تُعَدُّ مستعمرةً داخلية لأهل مرسيليا التي أسسها الفينيقيون. وإذا كان جمال نساء آرل الحقيقي المميز قد صِيْنَ خيرًا في آرل مما قد صِيْنَ في مرسيليا، فهذا عائدٌ إلى قلة الاختلاط مع الأجانب في آرل. في المدن الساحلية مثل آرل، تفقد الأعراق نقاءها بسرعة كبيرة. هل النساء في نيم - وهي أحد مراكز مرسيليا البعيدة - جميلات مثل النساء في آرل؟ هذا ما لا أعرفه.

67. (مؤ): زعيم محلي.

68. (مت): ناتال في سومطرة، طبعًا، لا في جنوب إفريقيا.

69. (مت): gemütlich (بالألمانية) = لطيف، اجتماعي، حسن الطباع، «متصالح مع العالم.»

70. (مؤ): في الأماكن التي كانت سابقًا نقاطًا قوية للإنـگـليز في سومطرة، ما زال الأهالي يُسمون المسؤولين كوماندورز (قادة؟). [...]

71. (مؤ): سلَّة يُشحَن فيها السكر إلى هولندا. ويمكن اليوم رؤية الخيزران المَجْدول لهذه السلال، التي تُطلى عادةً بالقار، في وسط أوربا حيث يُستخدم لصنع الأسْيِجة وما شابه ذلك.

72. (مؤ): أريكة من خيزران.

73. (مت): ستارة مانعة للبعوض.

74. (مؤ): مدام جوفران. في مخطوطتي اسمها مدام سكارون، وأعتقد أن السيد فان لِنـپ ارتكب خطأً بتغييره، لأن المدام جوفران الثرية لم تكن بحاجة إلى حكاية القصص لتعوض بها عن قلة الطعام على المائدة. كما أنني واثقٌ أن بعض الكتاب يربطون هذه الحادثة الشهيرة بالمدام سكارون.

(مت): انظر ألِـگـزاندر دوما، «ماري جيوڤـاني: يوميات رحلة سيدة باريسية» (1855)، الفصل الثالث، «حين لم يكن على طاولة الشاعر سكارون لحمٌ مشوي، كانت زوجتُه تحكي قصة.»

75. (مؤ): لا حاجة، لا ضرورة!

76. (مت): حرفيًا، «منزل المرء يُساوي الشيء الكثير.» وهذا يقابل المثل الإنـگـليزي، «لا شيء كالبيت.»

77. (مؤ): نُخبة المدن الكبرى في الهند الشرقية - «كل الناس المهمين.» يبدو أن هذا المصطلح نشأ من جلسات القيل والقال التي ينخرط فيها المُتَرَيِّثون بعد انتهاء الصلاة عند مخرج الكنيسة البروتستانية في المخيم الصيني أو قريبًا منه في بَتافيا.

78. (مت): تصوير مُلتاتولي للبرجوازية الصغيرة المحدودة التفكير.

79. (مت): ورد الأصل باللغة الفرنسية.

80. (مت): الأطباق الجانبية العديدة، الحلوة والحامضة، الكثيرة التوابل في كثيرٍ من الأحيان، التي ترافق الوجبة الأساسية في الهند الشرقية، أو «مائدة الأرز.»

81. (مت): هذه إشارة إلى قصة فِردِرِك الأكبر وطحّان سان سوسي الذي كانت طاحونته في أرض يريدها الملك لإنشاء حديقة. حاول وكيل

فردِرِك في البداية أن يشتري الطاحونة، وحين رفض الطحان أن يبيعها، هدَّد بمصادرتها. فسأله الطحان، «أليس لدينا محكمةٌ في برلين؟» وهنا استسلم الوكيل.

ترجم مُلتاتولي سنة 1838 قصيدة عن هذا الموضوع من تأليف أندريو تختتم بهذين البيتين:

«انظر: تُسْرَق منطقةٌ
ويُصفَح عن مطحنة.»

82. (مؤ): پـادْريس هو الاسم الشائع الذي أطلقناه على القبيلة الأچينية التي حوَّلت البَتَك إلى الإسلام قبل مدة قصيرة. لا شك أن الاسم يجب أن يكون الـپِـديريس، نسبة إلى پِـدير، وهي واحدة من أقل ولايات آچِـن أهميةً. [...]

83. (مؤ): كانت محكمة رَپّـات في ناتال تتألف من كبار الزعماء المحليين في المقاطعة، ويرئِسها المسؤول الهولندي الأعلى. لم تكن المحكمة تتعامل مع القضايا المدنية والجنائية فحسب، بل مع القضايا السياسية أيضًا. وكما يظهر من النص، لكي تُنفَّذ الأحكام الصادرة عن المحكمة، كل ما يتطلبه الأمر هو «أمر» من مقيم آيَر باني. لا أعرف مِم اشتُقَّت كلمة رَپّـات. يبدو أنها لا تُستخدَم إلا في سومطرة.

84. (مؤ): السلاح التقليدي للسكان في تلك النواحي، مثل الكْرِس في جاوا. السِّيواه خنجرٌ معقوفٌ إلى حدٍّ ما، وله مِقبضٌ صغيرٌ جدًّا، وحدُّه القاطع في داخل العَقْفَة. والهدف الأساسي من إعطائه هذا الشكل كان بلا شك لإخفاء المقبض باليد، بينما الظهر الكليل جدًّا للسلاح يستند على الرسغ ويغطيه الذراع. وهكذا لا يلاحظ الضحية أن لدى مهاجمه سلاحًا، إلا

بعد أن يصيبه بثلاث حركات سريعة غريبة من رسغه وذراعه. وبمعزل عن مناسبة السيواه للاغتيال، فهو يرمز للحرية والرجولة. وكل من يأخذ زعيمًا ملاويًا إلى السجن - كما كان واجبي المؤلم في الظروف التي وصفتُها في الفصل الرابع عشر - عليه أن يجرده من السيواه. [...]

85. (مت): قانون فرنسي لحماية الحيوانات من القسوة (1850)، وقد كان السياسي جي پي دي دو گرامون هو المسؤول عن سَنِّ هذا القانون.

86. (مؤ): فِراشٌ صغيرٌ من القش.

87. (مت): جوز الهند.

88. (مؤ): پوكول أمپات = «الساعة الرابعة،» وهو اسم زهرة تتفتح في هذا الوقت عصرًا، ثم تنغلق من جديد قُبَيل الصبح. [...]

89. (مت): واحد من هَرَم الألقاب التي لا تزال متداولةً في هولندا في مخاطبة المسؤولين، إلخ. وهذا اللقب، كسائر الألقاب حين تُتَرجَم إلى لغة أخرى، لا تمكن ترجمته ترجمةً دقيقةً، لذلك لا بد من اختيار ما يكافئه من ألقاب التبجيل في اللغة المترجَم إليها من قبيل، «يا صاحب السعادة أو المعالي، إلخ.»

90. (مت): عادلٌ وحازمٌ.

91. (مؤ): حوش مصنوع من الأوتاد الخشنة.

92. (مؤ): Sluis (= قِفْل)، أي جسر حجري، وهذه تسمية أمستردامية بحتة. [...]

93. (مؤ): إرث عائلي بكل ما يحمله، هنا كما في أماكن أخرى، من مشاعر التوقير والتبجيل.

94. (مؤ): كاهن في قرية.

95. (مؤ): سعادة، حظ حسن.

96. (مؤ): سُدود منخفضة ضيقة تختزن الماء في السَّواه.

97. (مؤ): قَصب، أعشاب مروج، أو أعشاب عملاقة. وهي غالبًا عاليةً جدًّا يستطيع الخيَّال أن يختبئ فيها وهو على ظهر حصانه. [...]

98. (مؤ): السارون هو اللباس المميز للجاويين، ويلبسه الرجال والنساء على حدٍّ سواء. يتألف من قطعة من الكاپـوك المنسوج، ويُخاط طرفاها معًا [*كالوَزْرة اليمانية تقريبًا*]. والسارون الحريري من الأشياء النادرة. يُدعى أحد الطرفين الكيـپـالا (أي، الرأس)، وينتهي بحزام عريض يُصبَغ عادةً برسوم مثلثة الشكل يتداخل بعضها في بعض. وهذا الصباغ يُسمى الباتِك، ويُعمَل يدويًّا. يُمدَّد القماش على إطار ثم يوضع الصباغ في علبة صغيرة من القصدير تشبه إبريق شاي مصغَّرًا أو مصباح علاء الدين. (مت: هذا غير صحيح. فالصباغ في الحقيقة عبارة عن شمع ذائب يُصَبُّ على أجزاء السارون التي لا يُراد أن يصيبها الصباغُ الذي يُغطَّس فيه القماش لاحقًا، أي الأجزاء المراد لها أن تبدو على شكل رسوم). إذا كان السارون بلا كيـپـالا، ولا يُجمَع طرفاه فيُدعى السلِندان. يُلبَس هذا اللباس حول الأرداف، ويلبسه الرجال أحيانًا قصيرًا، أو يُشَمِّرونه إما كثيرًا أو قليلًا. [...]

99. (مؤ): طائرة ورقية. في جاوا لا تقتصر هذه اللعبة على الأطفال فحسب. ليس لِلَّلَيان ذيلٌ، وهو اسم يُطلق على كل ما يدور، ويمكن للشخص الذي يُمسك بالخيط أن يتحكم به إلى حدٍّ ما. والغرض من اللعبة المشار إليها هو قَطْع خيط الخصم في الجو. وتؤدي الجهود المبذولة لتحقيق هذه الغاية إلى نوع من العراك المسلّي جدًّا والذي يُحفِّز الجمهور على الانحياز

لهذا الطرف أو ذاك بمنتهى الحماسة. وافتراض سايْجَه أن الصغير جامِن ربما قد غشَّ من الأوهام الكثيرة التي يتمسك بها عموم الناس في الهند الشرقية، نظرًا لمهارة الرماية المطلوبة لقطع الخيط بهذه الطريقة.

100. (مؤ): السياج. [...]

101. (مؤ): الكامونِن خشبٌ فاخرٌ أصفرُ مُجَزَّعٌ، لا يُستخرج إلا من جذر شجرة صغيرة بهذا الاسم، ولهذا لا يتوفر بأحجام كبيرة. وهذا ثمينٌ جدًّا.

102. (مؤ): سوسوهونان السُّولوني إمبراطور سوراكارتا. وفي مراسلاته الرسمية مع الحاكم العام يناديه بعددٍ من الألقاب ومن بينها «جَدّي.»

103. (مت): سكين للتقطيع.

104. (مؤ): روح تعيش في الأشجار وتحمل في نفسها ضغينةً على النساء، ولاسيما الحوامل منهن. [...]

105. (مؤ): مصباحٌ صغيرٌ.

106. (مت): سِنجابٌ جاوي.

107. (مت): هذان آخر سطرين من قصيدة دينية هولندية مُتَبجِّحة، والمؤلف يستخدمهما هنا للسخرية.

108. (مؤ): طعام وغيره مما يُجبى من الناس من غير تسديد ثمنه.

109. (مؤ): حُراسٌ وخَدَمٌ آخرون بلا أجر.

110. (مؤ): تسميم السيد كارولوس.

111. (مؤ): التونتون هو قرمة خشبية جوفاء هائلة متدلية تُقَرع عليها الساعات. وهذا اسم آخر يحاكي صوتُه معناه.